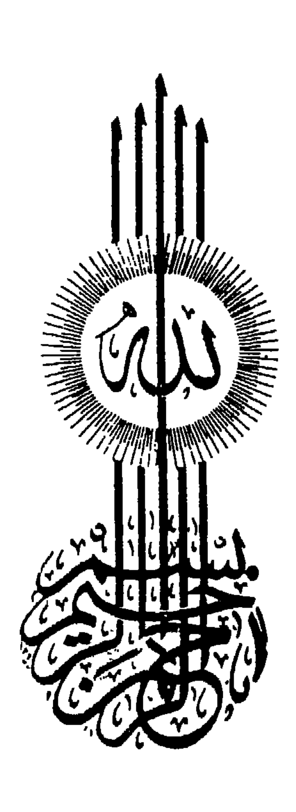


تأليف
السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الثالث

تعريب
محمد هادي اليوسفي الغروي


أصول العقائد
في الإسلام


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

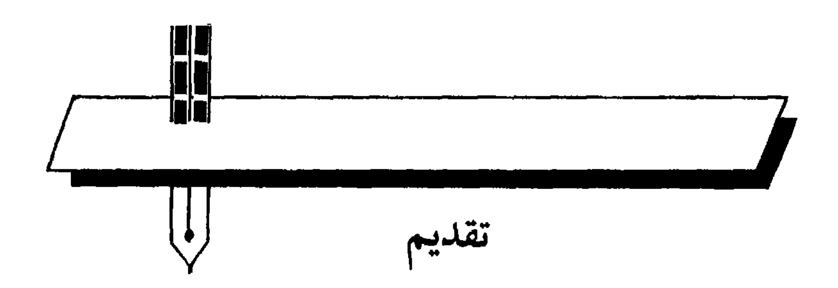
حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ ١٩٨٨م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

قارئي العزيز :

حينما نبحث نحن حول مسألة الإمامة والولاية ، لا ينبغي أن نتصور أن طرح هذا الموضوع على طاولة البحث ممّا يجرّ إلى ظهور الخلاف والجدال بين الشيعة والسنة ؛ فإنّا إذا صرفنا النظر عن الجانب السياسي للقضية وطرحناها للبحث في إطار مسألة علمية ، فإنها إنما تؤدّي إلى عمق أكثر في التعرّف على شيعة علي والأئمة من ولده (عليهم السلام) ، وهذا التعمّق في معرفة الشيعة إنما يساعد على زوال الشقاق وعودة اللحمة بين الأشقاء المسلمين .

إنّ البحث العلميّ إنما هو سمة لتحرر الفكر وسعة النظر . وإنّ أهل السنة ـ وهم على مذاهب مختلفة ـ يبحثون في مسائلهم المختلف فيها فيما بينهم من دون أن يجرح ذلك من أخوّتهم شيئاً ، ومن دون أن يتكدّر صفوهم . حقاً لو كان الاتّحاد لا يتيسّر مع الكشف عن واقع الحقائق ، فإنه لا يتحقق

بالكتمان على المسائل والحقائق التاريخية ، بل إنّ إعادة النظر في الحقائق التاريخية بعمق ودقة ممّا يوجب انفتاح الفكر . فلا إشكال في أن يحتفظ الفريقان اللذان يشكّلان بمجموعهما الأمة الإسلامية ـ بنظرياتهما المختلفة ومع ذلك يتبادلان حثّ الخطى نحو الوحدة الإسلامية الكبرى التي يعتزّ بها الإسلام وأهله ، ويذلّ بها الكفر والنفاق وأهله ، ويجد بها دين الله مكانه اللائق به في هذا العالم .

إنّنا اليوم ، وأمام محاولات بثّ التفرقة واختلاق الاختلافات ، بحاجة إلى يقظة تامة ، ومعرفة أكثر بحقائق الإسلام وواقعية الحكومة في القرآن الكريم ، في ظل بحوث حرّة وبطريقة علميّة، وإلّا فإن التعصّب والجمود الفكري أمام المنطق الحق ، لايؤدّيان إلّا إلى انسداد باب العلم وجمود التبادل الثقافي والعلمي ، وهذا ما لا يُحمد عقباه قطعاً .

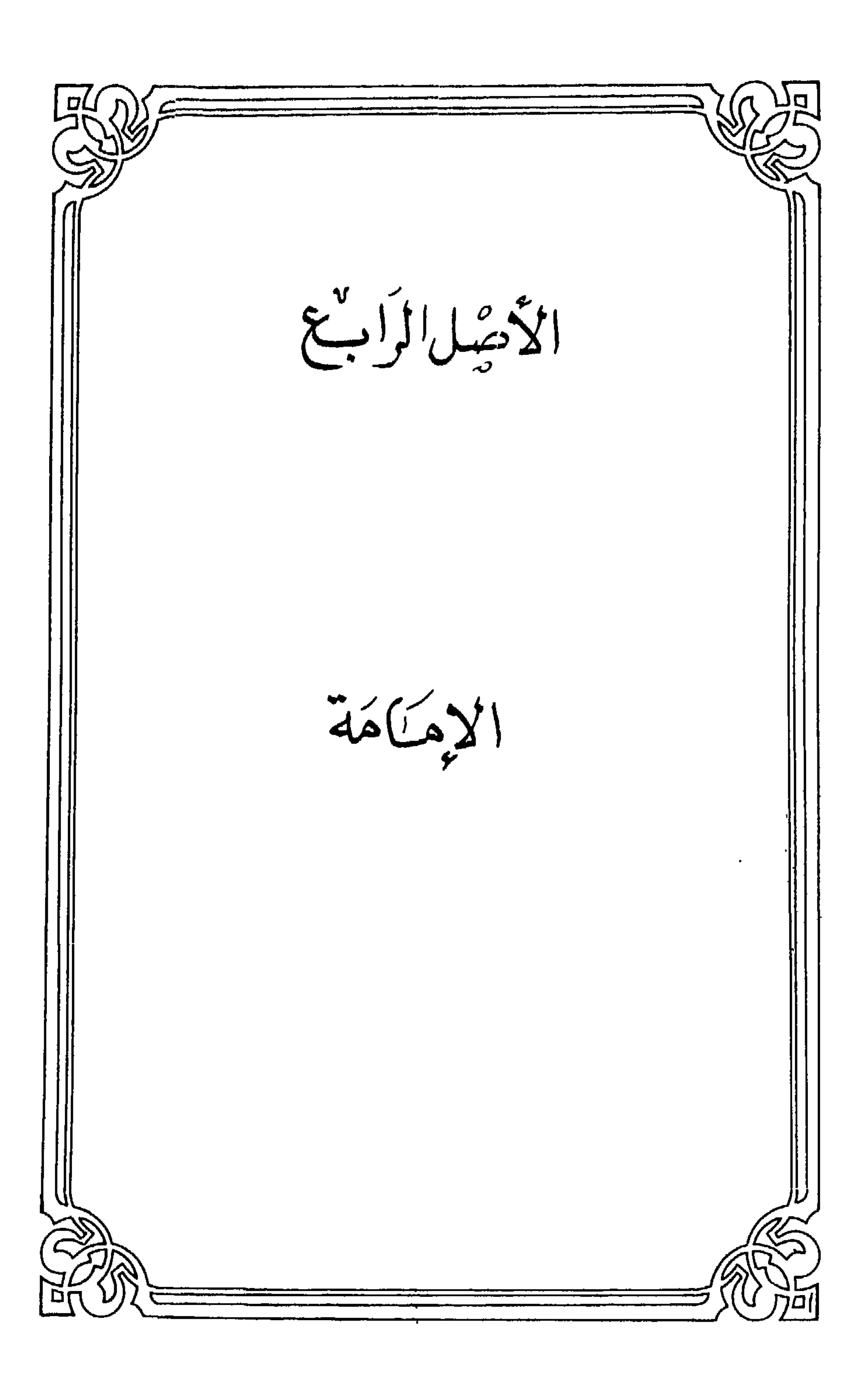
ومما يؤسف له حقاً هو أنّه على الرغم من اعتقاد عامة المسلمين بأن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) لم يعرّف أبا بكر ولا الخليفتين من بعده بعنوان الخلافة، ولم يأت في القرآن الكريم ولا السنّة شيء بخصوص خلافتهم ، ومع أنّ خلافة أبي بكر كانت من الحوادث التاريخية ، ويحقّ لكل مسلم أن يبدي رأيه بالنسبة إلى هذه المسألة حسب رؤيته الخاصة . . مع ذلك لا يسمح إخواننا أهل السنة لأيّ مسلم في البحث والكلام بشأن مدى صحة خلافته ، ويمنعون المسلمين عن الوقوف هذا الموقف مع موافقة الكتاب والسنة لذلك . ومن هنا لنا أن نقول : إن موقف إخواننا أهل السنة بالنسبة لمسألة الخلافة إنما هو موقف عاطفي ، ومن البديهي أنه لو استولت العاطفة على فكر البشر لانقلبت الموازين تماماً رأساً على عقب .

إن الوحدة الإسلامية لا تستلزم غضّ الطرف عن بيان الحقائق العلمية والدينية ؛ إنّما الذي يجب أن لا يكون إنّما هو إثارة العواطف والأحاسيس المتقابلة ، والقيام بأعمال تؤجّج نيران الحقد والعداوة والبغضاء ، بين الإخوة الأشقّاء .

أما البحث العلمي فإنه لا علاقة له بـالعواطف والأحـاسيس ، وإنما هـو يخاطب منطق العقول والألباب . إنّ الدفاع عن وجهـة النظر ، وحتى إيـراد الإشكال على سائر مذاهب الدين الواحد ، ودعوة أتباعها إلى التحقيق والفكر فيها ، كل ذلك مع رعاية أصل الأخوّة الإسلامية ، والاحتـرام المتبادل ، لا يتنافى مع الوحدة الإسلامية بأي وجه من الوجوه أبداً ؛ إلّا أنه لا ينبغي لذلك البحث العلميّ الدّيني العقائديّ أن يبعدنا عن فكرة الائتلاف بين أبناء الأمة الإسلامية قط .

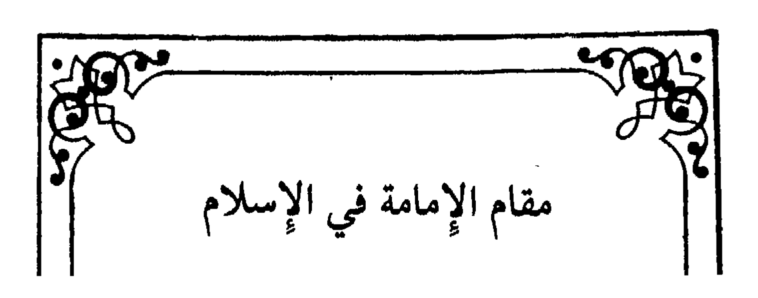
مجتبى الموسوي اللّاري





الأصل الرابع

الإمامة



مقام الإمامة في الإسلام

إن الإمام بالنسبة إلى الأمة رجل مقتدى يفيد من يقودهم مما أوتي من قوة في الفكر والرؤية ، فيتأسّون به في سلوكه وسيرته في الحياة ، ويطيعون أمره .

إن للإمامة مفهوماً واسعاً يشمل القيادة الفكرية والزعامة السياسية معاً ، وإن الإمام ـ بعد وفاة النبي وصيانة لمنجزاته واستمراراً لقيادته ـ كان مكلفاً بتعليم الناس الثقافة القرآنية والحقائق الدينية والتعاليم الاجتماعية ، وأن يقودهم من جميع الجهات والجوانب والأبعاد .

إن هذه الزعامة والقيادة في صورتها الصحيحة والواقعية ليست سوى تحقيق للأهداف وتنفيذٍ للرسالة الإسلامية ، تلك الرسالة التي أسسها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فحقق بها أمة ذات رسالة ودستور للحياة .

وقد تطلق الإمامة والقيادة على مفهوم ضيق محدود ، فيقصد بالقائد الإمام من يتعهد بإدارة دفة الأمور الاجتماعية والسياسية فحسب ، فيحصر سمة الإمامة على نفسه في هذه الحدود .

أما إذا امتزج الاستعداد الإنساني الذاتي بالرسالة الدينية ، فتمحورت

المرجعية الفكرية والزعامة السياسية في شخص واحد في قيادة المجتمع الإسلامي ، واستفاد من تمكين الله له في الأرض في سبيل تبليغ قوانين الشريعة والأطروحة السماويّة على جميع الأصعدة ، وقام بإجرائها وتنفيذها ، واستطاع أن يصون الشخصية الإسلامية والكرامة الإنسانية من السقوط والانحطاط. فهذا الإنسان الفذ هو الإمام الواقعي حقاً؛ بيده أزمة أمور الدين والدنيا جميعاً .

وبكلمة: فإن الإمام شخصية قيادية توحيدية إلهية ، وإن عمله بين الله وعباده بتنفيذ أوامر دين الله العبادية والأخلاقية والاجتماعية ، لهو نموذج كامل للإنسانية وعطاء شامل ، وهو الذي بإمكانه أن يقود حركة الناس نحو الكمال الإنساني، ولهذا يجب على العباد المؤمنين إطاعة أوامره، والاقتداء به في كل الأمور ، إذ هو النموذج الناطق لتربية الفرد والمجتمع الإنساني الكامل بصورة عامة ، والذي سيرته في حياته نموذج للتربية الفاضلة للفرد الإسلامي بصورة خاصة

إن أكثر علماء أهل السنة زعموا أن الإمامة والخلافة لا تختلفان في معناهما في شيء ، فهما لغتان مترادفتان لمعنى واحد هو عبارة عن المسؤولية الكبرى الاجتماعية والدينية التي تفوض إليه من قبل الأمة ، فهو ينال المقام ولا يهتمّ باختيارهم وانتخابهم له لذلك ، بمعنى أن الخليفة يتكفل بحل المشاكل الدينية ، وبالقدرة العسكرية يحرس حدود البلاد والأمن العام . وعلى هذا فالإمام زعيم عادي وحاكم اجتماعي يعمل على تطبيق العدالة الاجتماعية وحفظ أمن البلاد فقط ، وإنما يُختار لذلك . .

وشروط الزعامة هنا إنما هي الدراية واللياقة الشخصية للحكومة ، لكي يقوم الحاكم بمجازاة الخاطئين والفاسدين بتنفيذ الحدود الإلهية بحقهم ، وليضرب على أيدي المعتدين على حقوق الآخرين ، ويكف بأس المتنفذين الطغاة العتاة الذين لا يتقيدون بقيد ، ومن جانب آخر يقوم بحراسة حدود البلاد الإسلامية أمام كل اعتداء وذلك بإعداد التجهيزات العسكرية والجيش

القوي ، وإذا لم يتيسر بسط دعوة التوحيد عن طريق التبليغ والإرشاد ، وذلك بصدّ عناصر الكفر والجهالة عن كفرهم بقيامه بمواجهتهم ، وبمكافحة كافة أنواع الشرك والفساد بالكفاح المسلّح والجهاد .

وبهذه الرؤية فلو لم يكن لهذا القائد الحاكم استعداد علمي بالأحكام الإلهية ، بل كان هو أيضاً أحياناً يتعدى حدود التقوى ويتلوث بلوث الآثام ، فلا إشكال في ذلـك ! . .

وفي الحقيقة ـ يقولون ـ كـلّ من كان بإمكانه أن يتعهـد الأمـور التي كان يقوم بها النبي كان له أن يمتلك عنوان الخلافة بعده، وعلى هذا فلو تسلّط على المجتمع الإسلامي جبـار ظالم عن طـريق القدرة والقـوة العسكريـة ، وسحق حقوق الخلق وإراقة دمائهم ، أو تعهد بخلافة النبي رجل سياسي متقلب يحكم الناس بهذه الخصـائص الأخلاقيـة والروحيـة ، فيشطب بـذلك على مسيـرة العدالـة والحق ، فلا إشكـال في ذلـك ! بـل تجب طـاعتـه وتحـرم مخالفته ! .

وبهذه الرؤية نرى أحد كبار علماء أهل السنـة يقول في بـاب ذكر مـا يوجب خلع الإمام وسقوط فرض طاعته ما ملخصه : « قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: « لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه وبغصب الأموال وضـرب الأبشـار وتنـاول النفـوس المحتـرمـة وتضييـع الحقـوق وتعـطيـل الحدود »[1] .

في هذا الجو السائد على جهاز الخلافة ، حيث لا يحس الخليفة بأية مسؤوليـة أمـام المجتمـع الإسـلامي حسب رؤيتـه الـدينيـة ، كيف يمكن للمصلحين أن يراقبوا أعمال القادة الفـاسدين ويتخـذوا المواقف الـلازمة ، ويعـدلوا التحريفية الـطارئة ؟ أفهـل يترك الجهـاز الحاكم سلوكـه المنحرف بالوعظ والإرشاد ؟ ! .

---

(١)التمهيد للقاضي الباقلاني : ١٨٦ ط القاهرة ١٣٦٦هـ .

بل نقول : إنّ الله تعالى لو كان يريد أن يتعهد مصير الأمة المسلمة قادة طغاة عتاة غير متّقين ، إذن فلماذا بعث الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليهم بوحيه أحكامه ﴿ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ ﴾ ؟ ! . وهل الأحرار المضحون بأنفسهم ثائرين على الحكام الظالمين قد خالفوا في ذلك إرادة الله رب العالمين ؟ ! كتب أحد الأخوة المحققين ـ من السنة ـ الدكتور عبد العزيز الدوري يقول ما فحواه :

« حين استقرار حكومة الخلافة لم تكف هذه النظرية السياسية لأهل السنة مستندة على القرآن والحديث فحسب ، بل على تقبل هذا الأصل : وهو تفسير القرآن وتوجيه الحديث على وفق الحوادث المستجدة الطارئة . ولهذا فلقد كان لكل جيل تقريباً أثر في نظرية الخلافة ، لأنها كانت تتشكّل بأشكال مختلفة حسب اختلاف الحوادث وتنسجم معها . والنموذج الواضح لهذا الأمر هو « القاضي أبو الحسن الماوردي » قاضي القضاة ، الذي كان أمر الخليفة مطمح نظره في كتابته للمسائل التي عرضها في كتابه « الأحكام السلطانية » وذلك في أوطأ أدوار الخلافة ، فكان يسعى جاهداً ليعمل عقله في تطبيق آراء الفقهاء السابقين على الوضع الحاضر والحوادث التي كانت تجري في عهده ، وكان كل جهده الابتعاد عن كل اجتهاد حرّ جديد ، وهو يقول : « يجوز إمامة غير اللائق مع وجود القائد اللائق ، ولو اختير للأمر من لا يليق فلا يجوز عزله لوجود الأفضل اللائق » .

وهو إنما يقبل بهذا الأصل ويتبعه ليوجّه عليه حكومة كثير من الخلفاء غير اللائقين ، ولعله كان يريد أن يخطّىء بهذا نظرية الشيعة في الخلافة والإمامة . وهكذا نرى أن هذا البحث الكلامي العقائدي الذي عرضه هنا في كتابه إنما هو لتوجيه الوقائع السياسية الجارية يومئذ ، وأنه لم يكن له أي هدف في الحقيقة سوى أن يوجه ما وقع باسم « الإجماع »[1] .

(١) النظم الإسلامية ـ ١ : ٧٢ ـ ٨٤ .

أجل ؛ هذه المباني الفكرية لأولئك الذين يرون أنفسهم أتباع سنة الرسول وحفظة الدين والشريعة، ويرون سائر المفكرين المسلمين والمصلحين الاجتماعيين أتباع أئمة العدل وحجج الله وهداة الخلق، يرونهم رافضين لسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

لو كان يحق لأولئك الأمراء البعداء عن روح الإسلام المتعدين حدود الله أن يفعلوا ما يشاؤون ، في حين لا يحق لأبناء الأمة الإسلامية أن يدخلوا مع النظام الحاكم في كفاح مسلح لإعادة الخلافة إلى مستقر الحق، بل لا يجوز لهم أن يخالفوا أوامرهم ، فعلى الإسلام السلام ! .

أفهل هذا من الوفاء لشريعة المصطفى في الوجدان الديني الإسلامي ؟ أليست نتيجة هذا الأسلوب من الفكر الاعتراف بالحق المطلق لجميع الجبارين في طول التاريخ ؟ ! .

أما عند الشيعة الإمامية فإن الإمامة ولاية إلهية ينصب لها الله من يشاء من عباده ، كما يهب النبوة لأولئك العظماء من بني الإنسان بفارق : أن النبي هو باني هذه الرسالة الدينية ، وإنما يؤدي الإمام دور الحراسة لهذا الدين الإلهي ، وعلى الناس أن يستلهموا منه القيم المعنوية والروحية لجميع جوانب حياتهم المعنوية والمادية .

إننا نشعر بضرورة وجود شخصية لائقة عالمة بالعلم الإلهي ، معصومة عن المعاصي والآثام ، يقوم صاحبها بعد رسول الله برعاية استمرار سيرة مؤسس هذه الشريعة ؛ ويراقب حوادث الحياة واعياً للمخاطر الناشئة من عناصر الانحراف الاجتماعي ، يستطيع أن يعرّف الناس بمعارف الإسلام على كل الأصعدة ، كي تبقى القوانين الإلهية مستمرة في إطارها السليم ويبقى مشعل الحق والعدل مشعاً نيراً دائماً .

إن الإمامة والخلافة كل لا يتجزأ كما لا تنفصل إمامة الرسول عن نبوته ، فإن الإسلام بمعنويته والإسلام بسياسته شطران يشكلان مجموعة

واحدة باسم الإسلام ،وإن كان قد تفكك أحدهما عن الآخر في مسيرة تاريخ الإسلام فانفصل الجانب السياسي منه عن الجانب الروحي والمعنوي .

إن لم يكن من يترأس الأمة الإسلامية رجلاً لائقاً عادلاً متقياً منزّهاً عن الرذائل الأخلاقية ، كي تكون سيرته وسلوكه أسوة للناس ، بل كان هو متعدياً حدود القانون ، متجاوزاً أصول العدل ، لم يكن المجتمع ليتقبل أصول العدل ، ولا يتربى الفرد فيه على الفضل والتقوى ، ولا يمكن للحكومة الإسلامية أن تعمل في سبيل هدفها السامي ، وهو أن توجه الناس إلى المبدأ الأعلى ، وأن توفر البيئة المساعدة لتربية القيم المعنوية الفاضلة وتطبيق أحكام الوحي الإلهي . وإن السيرة العملية والأخلاقية للحاكم ، والدور الذي تؤديه الحكومة من حيث التأثير في المجتمع لهي من القوة وعمق النفوذ بحيث يراها أمير المؤمنين (عليه السلام) أقوى من أثر الأب في تربية أسرته ، فيقول : « الناس بملوكهم أشبه منهم بآبائهم »[1] .

فبما أن هناك علاقة خاصة بين أهداف الحكومة ومواصفات القائد الحاكم ، فإن الوصول إلى هذه الأهداف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود زعيم قد تبلورت فيه جميع المميزات الخاصة والتامة للإنسان الكامل .

أضف إلى ذلك: أن الأمة في حركتها إلى الكمال تحتاج إلى زعيم ما، وهي حاجة فطرية طبيعية ؛فكما أن الإسلام قد وفّر للبشر كل ما يحتاجونه من حاجات فردية واجتماعية مادية ومعنوية في أحكامه الكاملة ، كذلك عليه أن يكون قد استجاب لهذه الحاجة الطبيعية أي الزعامة بصورة منسجمة مع الفطرة الإنسانية .

إن الخالق الذي ـ من أجل كمال كل مخلوق ـ وفّر له الوسائل الضرورية وغيرها ، كي يعبر من حدود النقص والضعف إلى منازل الكمال، كيف يمكن أن يستثني من ذلك الإنسان الذي وفر له كل حاجاته الطبيعية فلا يوفر

---

(١)البحار : ج ١٧ ص ١٢٩ .

له العامل المهم لرقيه المعنوي والروحي ؟ !

أفهل بالإمكان أن نقول بأن الله الذي لم يترك أي شيء من مستلزمات التكامل المادي والجسدي للبشر دون أن يهبه إياه ، قد حرمه من أن يوفر له العامل المهم الذي له الدور الأساسي في رقيه الروحي ،وأنه بخل أن يجود عليه بهذه النعمة ؟ ! .

إن أمة الإسلام بعد وفاة رسول الله لم تكن بذلك المستوى من الرقي الفكري والثقافي الإسلامي الذي تتمكن معه من الاستمرار في تطورها التكاملي ، إلا في ظلال وصاية الرسول. وإن البرنامج الذي طرحه الإسلام لرشد الإنسان ونموه وتعاليه ، ما لم يندمج ببرنامج الإمامة الإلهية فإنه سيبقى برنامجاً ناقصاً بل جامداً لا روح فيه ، وسوف لا يتمكن من أن يؤدي دوراً قيماً في تحرير الإنسان وتنمية طاقاته .

بل إن النصوص الإسلامية تصرح بأنه إذا أخذ أصل الإمامة من بين أصول الدين الإسلامي فإنه يعني فقدان الروح الأصلي لجميع أحكام الإسلام التكاملية ، وذلك بدوره يعني عدم تحقق المجتمع التوحيدي التكاملي في الإسلام ، وأنه سيصبح إسلاماً بلا روح ! .

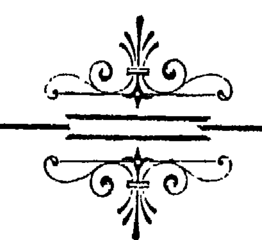
إن رسول الإسلام يقول :

« من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية »[1] .

وذلك أن الناس في الجاهلية كانوا مشركين بلا توحيد ولا نبوة ، إن هذا التعبير القوي علامة على مدى الاهتمام الذي كان للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بمسألة الإمامة ، حتى أنه يرى أن الإنسان إن لم يجعل حياته الروحية تحت غطاء ولي كامل ، فإنه بمثابة من قضى حياته في دور الجاهلية ومات فيها .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٩٦ .



حـول الإمامة والولايـة

الرسول ومستقبل الإسلام

إن النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان خبيراً بأن الأمة بعد وفـاته سوف تفقد محور وحدتها وتسقط في خضمّ أمواج الاختلاف والتشتت .

إن المجتمع الإسلامي الجديد يومذاك كان متشكلاً من المهاجرين بما فيهم بنو هاشم وأمية وقبائل عدي وتميم ، والأنصـار من الأوس والخزرج ، وبوفاة شخصية رسول الله ثارت نيران الفتن في الرؤوس ، وكان كثير منهم لا يفكرون فيما يصلح للإسلام بل في سبيـل الحصول على زعـامة المسلمين وتبديل القيادة الإلهية بحكومة مـركزيـة قويـة مقتدرة ، وإن الأمـاني والآمال والاتجاهات المختلفة لم تدع بينهم رباطاً دينياً أصيلاً وقوياً ، وقد نوّه بذلك رسول الله لأصحابه فقال :

« افترقت أمة موسى على إحدى وسبعين فـرقة ، وافتـرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي هذه على ثـلاث وسبعين فرقـة ، واحدة ناجية ، وسائر الفرق في النار »[1] .

إن أقـوى الصدمـات التي أصابت اتّحـاد المسلمين بعد وفـاة رسـول الإسلام وبذرت فيهم بذور التفرقـة ، لهي اختلاف أنـظارهم حول الحـاكم

(١) باب الفتن من سنن ابن ماجة القزويني .

الإسلامي ، الذي جرّ إلى إثارة نيران الحروب والصراع والفتن فيهم ، وشق عصاهم ، وفرّق صفوفهم .

حقاً لو كان النبيّ لم يفكر في علاج هذا الدّاء الموحش الذي كان يتنبّأ به ، ولم يدبّر لوقاية الأمة من آثار الفراغ الكبير الذي يصيبهم بفقدهم القائد الأول ، والمخاطر التي بإمكانها أن تصيب المجتمع الإسلامي بعده ، فيترك الساحة بدون أي تدبير لمصيرها ، ألم يكن هو قد خلق لها تلك المشاكل الكبرى الناتجة من إهمال مسؤولية الحكومة وإدارة الأمور ؟! بينما كانت مخاطر المستقبل مما يتنبّأ بها حتى من دون أية علاقة بالوحي والغيب ؟ .

كيف لنا أن نصدّق بأن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) الذي لم يترك أية نقطة من رسالته لم يبيّنها لهم ، لم يكن ملتفتاً إلى مسيرة الإسلام في المستقبل وضرورة حراسة موضع الحق فيه ، بل ضرورة حفظ كيان الدين ، وموجودية الأمة ، فيدع مسؤولية صيانة الرسالة إلى أحوال المستقبل وما تدبّره لها يد التقدير ؟! .

الذين يقولون إن النبيّ لم يصوّر لأمته أيّة صورة عن شكل الحكم بعده ، وإنه التزم السكوت في ذلك ، وإنه ترك أمّته بعده بلا تكليف في ذلك ، هؤلاء كيف يجرؤون على نسبة هذه المسامحة والسكوت في غير موضعه إلى ساحة من كان يمثّل العقل الأوّل في البشر ؟! ولا سيما بعد التوّجه إلى أن وفاته لم تقع فجأة ، بل كان هو (صلى الله عليه وآله) يخبر عن ذلك بقوله : « يوشك أن أدعى فأجيب » بل أعلن للناس ذلك في حجة الوداع ، وأنه سوف لا يراهم في موسم الحج القابل .

إن الإسلام ، ذلك الغرس الناشىء الذي كان أمامه إلى أن يثمر درب طويل ، والذي تعهّد حامل لوائه باجتثاث أصول الجاهلية وتطهير ما ترسّب منها في زوايا أفكار الناس وعقولهم وأرواحهم ، كان هذا الإسلام مهدّداً من جانبين : من الداخل من ناحية المنافقين الذين كانوا متغلغلين في كل مركز وناحية تحت لواء الإسلام وفي صفوف المسلمين ، وقد تكررت منهم

المؤامرات لقتل النبيّ ، حتى أنه في السنة التاسعة للهجرة حينما كان عازماً على المسير إلى حرب تبوك خاف إغشاشهم في المدينة ، فعيّن علياً (عليه السلام) خليفة له فيها تفادياً لأية حادثة غير مرضية . . وكذلك كان الإسلام مهدّداً من الخارج أي من قبل الامبراطوريّتين يومذاك : الرومان وإيران ، وكان يخاف أن تهجم إحدى هاتين القوتين على مركز الإسلام .

من البديهي أنه مع هذه الأوضاع الشاذّة والحسّاسة للغاية، كان على النبيّ أن يجعل مسؤولية صيانة الرسالة والأمة على شخص أو أشخاص يستطيعون ذلك، فيقومون بتثبيت هذه الدعوة ويدفعون عنها كل خطر .

إن الخليفة الأول أحسّ بالمسؤولية عن مستقبل الحكومة الإسلامية والفراغ الناتج من غيابه ، فلم يدع الأمة بحالها ، بل أوصى ـ وهو مريض ـ إلى الناس يقول :

« هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين : سلام عليكم ؛ فإني أحمد إليكم الله ، أما بعد ، فإني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإنّي ما ألوتكم نصحاً والسلام »[1] .

وعلى هذا فإنه كان يرى تعيين الخليفة بعده من حقه حيث ألزمهم بطاعته .

وكذلك أدرك الخليفة الثاني ضرورة سرعة اتخاذ القرار بعد ضربته فأمر بتشكيل الشورى من ستة أشخاص ؛ وهذا يعني أنه لم يكن يرى للمسلمين في تعيين الخليفة حقاً ولذلك حدّد الشورى في ستة أشخاص .

وأما أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فإنه رضي بالأمر الواقع خوف فتنة الناس وعودتهم جاهلية .

ومع هذا فكيف غضّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) الطرف عن هكذا مسألة حساسّة للغاية ، والخطر العميق المحدق بالرسالة ، والناس

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ١٣٦ ط نجف .

قريبو عهد بالجاهلية ، ولم يتقدم إلى المسلمين بأطروحة لسلامة الأمة من تلك الأخطار المرتقبة بعد وفاته ؟! حقاً ليس بإمكاننا أن نجد أي توجيه أو تفسير نتقبله لاتّخاذه هذا الموقف السلبيّ ، ولعدم اهتمام رسول الإسلام بهذا الأمر ، ولا نستطيع أن نتصوّر أنه لم يكن يعتني بأمر الدعوة بعده ولم يكن يهتم بما يجري عليها بعد وفاته ! .

بل إن رسول الله كان ـ وهو في فراش الموت وآلام الأسقام تؤلمه بشدّة ـ يفكر في الرسالة والأمة قلقاً على مستقبلهما ، بل كان هذا هو كل ما يشغل باله آنذاك . وفي تلك اللحظات الحسّاسة التي كان كل الحاضرين ـ ومنهم عمر بن الخطاب ـ يغطّون في حالة من البُهت والاضطراب العميق ، قال : « إيتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا به بعدي أبداً »[1] .

إن محاولة النبيّ (صلى الله عليه وآله) هذه، والتي اتفق الفريقان على نقلها، وصحتها، لهي خير شاهد على أن رسول الله في اللحظات الأخيرة من حياته كان يُحس بالمسؤولية عن مستقبل الإسلام، وأنه كان يفكّر في الأخطار بعد وفاته ، وأنه لحفظ أمته من الانحراف ووقاية لها من الانحطاط حاول أن يريها الدّرب للمستقبل ، إذ كان هو أكثر البشر فهماً . وأعمقهم إدراكاً .

وهنا ينبغي الالتفات إلى مسألة الوصاية والخلافة في الأديان والشرائع السابقة ، فالرسل جميعاً وكثير من الأنبياء كانوا يختارون لأنفسهم أوصياء من بعدهم . وحيث يقضي القرآن الكريم بعدم تغيير سنة الله في خلقه ، كان على رسول الإسلام ـ وهو من المرسلين ـ أن يعمل بهذه السنّة الإلهية ، فيعرّف الأمة بوصيّه وخليفته من بعده ، وكذلك كان . فإنّه بأمر ربّه وبمقتضى رسالته واستمراراً لها اختار خليفته ووصيّه وعيّن تكليف أمته من بعده ، وإن هذه العقيدة بالوصاية لهي من صلب كتاب الله وصميم أحكام الإسلام ، ولا سيما بالنظر إلى ما يتّسم به من الكمال والتمام .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٤٦ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢٤٢ وصحيح البخاري ج ١ ص ٢٢ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٣٦ .

البيان الرسمي للرسول بزعامة علي (ع)

إن مصلحة الإسلام والأمة كانت تقتضي أن يلي رعاية نهضة الإسلام بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وخلوّ الساحة من القائد الكبير ، قائد آخر في قمة التقوى والعلم ، استمراراً للنهضة الإسلامية وصيانة للرسالة من الانحراف ورجوع القهقرى إلى سنن الجاهلية وأخلاقها ، ولتحكيم مباني النظام الاجتماعي والسياسي على أساس الإسلام أكثر فأكثر .

وذلك أنّ ترك أمر القيادة إلى أمة جديدة العهد بالتحرر من قيود الجاهلية ، بل لم تكن جميع جذور تلك الدور ورواسبه قد أمّحت من صفحات أرواحها وقلوبها ، ما كان ليؤدي إلى الحفاظ على الأهداف الكبرى لصاحب الرسالة ، ولم يكن ليصون الرسالة من خطر العوامل السلبية عليها .

وعلى هذا ، فإن السبيل الوحيد للحصول على تلك الأهداف هو أن يلي أزمّة الأمور شخصية عالمة بمعارف الرسالة ، حاملة للعلوم الدينية ، ذات إيمان نورانيّ ، بعيدة عن الخطأ بل وحتى النسيان ، تماماً كما كان صاحب الرسالة ، فإن المجتمع الإسلامي ذلك اليوم كان بحاجة ماسة إلى هكذا قائد ، يتابع عملية التربية الإنسانية بكل دقة وإمعان ، ويتمكن من حلّ كل مشكل يعرض للشريعة على عهد زعامته عليها وعلى الأمة .

وإنّ الشواهد التاريخية ترينا أن رسول الله قد حلّ هذه المشكلة في

عودته من حجة الوداع ، في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام ، بتعيين وصيّه وخليفته من بعده بأمر ربّ العالمين ، وبيّن للناس بذلك سبيل استمرار نهضته ، وطريق الحق والخير والسعادة للأمة المسلمة .

ففي السنة العاشرة من هجرته ، وهي آخر سنة من عمره الشريف ، صمّم الرسول الكريم على أن يشارك بنفسه في ذلك الاجتماع الكبير للحج في مكة المكرمة . وقد سبب إعلان هذا الخبر في أن يشارك أكبر عدد ممكن من المسلمين من مختلف النقاط القريبة والبعيدة ، بل يحاولوا المشاركة معه من المدينة ، لينالوا بذلك فخر السفر مع الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ويتعلموا مناسكهم مباشرة منه ، ويؤدوا هذه الفريضة الإسلامية الكبرى بمحضره الشريف .

وانطلقت هذه القافلة الكبرى من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين مع نبيّهم رسول الله من المدينة المنورّة إلى مكة المكرمة ، وشهدت مكة في تلك الأيام أكبر مظهر للشعائر الإسلامية كان يشارك فيها ألوف المسلمين كأمواج البحار حول قائدهم الكبير ، وكان رسول الله مستبشراً بما كان يراه من نتائج جهوده المضنية في هذا اليوم العظيم .

وبعد أن أنهوا فريضة الحج ذلك العام ، والتي سميت « حجة الوداع » ودّع الرسول بيت الله الحرام عائداً إلى المدينة المنورة ، ومعه ذلك الجمع العظيم من الحجّاج الذين اختلف المؤرخون في تقديرهم من تسعين ألفاً إلى مئة وعشرين ألفاً ، وانطلقت القافلة الكبرى مخلّفة وراءها عدّة وديان حتى انتهت إلى صحراء جرداء قاحلة ، فيها غدير كان يسمى « غدير خم » . وإذا بأمين الوحي ينزل على رسول الله ويأمره بالتوقف في هذا المكان ، وكذلك أمر الرسول القافلة وأصحابها ، وانتظر كي يصل المتأخرون منهم .

وكان هذا التوقف المفاجىء ، في تلك الأرض الملتهبة وشمس الظهيرة المحرقة ، مما تعجب منه المسافرون المتعبون ، والذين كان قد أخذ منهم الحرّ كل مأخذ . . ولم يمر كبير وقت حتى انتشر الخبر بتلاوة رسول الله

عن مليك الوحي ذلك الأمر الصريح الإلهي بتعيين الوصي والخليفة وإبلاغ ذلك إلى المسلمين :

﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[1] .

إن الدقة في مضمون الآية تبلغ بنا إلى أن : إبلاغ هذا الأمر الإلهي من الأهمية والعظمة على مستوى لو كان الرسول يخاف الناس في تبليغه إياهم كان كأنه قد امتنع عن أداء رسالته بالمرّة ، في حين أنه لو بلّغ هذا الأمر الإلهي إلى الأمة فكأنما يكمل بذلك رسالته .

في هذه الآية أبلغ الله لرسوله أهميّة هذا الأمر ، وضمن له حفظه وحراسته أمام مخاطر إبلاغه ذلك .

وبعد سبعين يوماً من هذا اليوم توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلم يكن متبقّياً من عمره الشريف بعد هذا اليوم سوى سبعين يوماً تقريباً ، وعلى هذا فإنه كان قد بلّغ إلى الناس في طول ثلاثة وعشرين عاماً من رسالته ما تلقاه من مبدأ الوحي لهدايتهم وسعادتهم ، إذن فهنا الآية تشير إلى موضوع خاص يكون بإبلاغه إكمال الرسالة وتمام النعمة ورضى الربّ .

وكان من المحتمل أن يتعرض الرسول بأدائه لهذا الأمر لأذى المؤذين فيصيبوه بشرّهم ، ولذلك يطمئنه الله : إن الله يحرسك من الناس ، وإنه سيصونه من تعرّض البشر له بشرّهم .

وهنا نعلم أنه لا بد من أن يكون موضوع هذا الأمر حسّاساً للغاية ، بحيث يكون أداؤه متمماً للرسالة ، والامتناع عن أدائه مما يورد نقصاً فيها .

والجوّ السائد على أفكار العرب يومئذٍ كان يقضي بعدم إعطاء المناصب والمقامات العالية للشباب الذين لم يمض من أعمارهم الكثير ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

بل إنما يرون ذلك للشيوخ وكبار الأعمار ، وهذا أيضاً مما كان يقلّل من توفّر الأرضية المساعدة لإبلاغ ذلك الأمر الإلهي .

ومن ناحية أخرى فإن الذكريات المرّة كانت تؤذي رسول الإسلام بشدة ، فإنه لم يكد ينسى ذلك الموقف السلبيّ من عدد من أصحابه في تعيين أسامة بن زيد وعتّابهم وترددهم لتولّي ما أمروا به ، إذ أنه حينما نصّب الأول لقيادة جيش ، ونصّب الثاني أميراً لمكة ارتفعت أصوات جماعة من أصحابه بالاعتراض على الأمر ! .

كل ذلك كان بالطبع مما يسبّب أن يصبح إعلانه ـ لوصاية وصيّه وخليفته علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ ذلك الشاب الذي لم يكن قد بلغ من العمر إلا ثلاثاً وثلاثين سنة ـ أمراً خطيراً ، ويورثه ارتباكاً واضطراباً .

ومن ناحية أخرى كان كثيز من أقرباء وأصدقاء هؤلاء الذين انضمّوا اليوم إلى صفوف المسلمين وصحابة النبيّ (صلى الله عليه وآله) قد فقدوا أرواحهم بسيف علي (عليه السلام) ، وهذا الأمر أيضاً كان مما يزيد الموضوع حساسية أكثر ، فإن تذكارهم لتلك الحوادث المؤلمة كان ممّا يحرق قلوب بعضهم ألماً ، ويزيد في أوار نار الحقد فيهم أكثر فأكثر .

إنّ المحدثين من الشيعة ، وجمع من محدّثي السنة[1] صرّحوا بأن الآية المذكورة نزلت في يوم « غدير خم » وبها أمر الرسول في هذا اليوم بأمر ربّه وبوحيه وبحكمته أن يعلن للناس أهمّ موضوع أساسي في الإسلام ، وذلك بأن يعرّف علياً (عليه السلام) خليفة له من بعده .

أجل ، إن تلك الشخصية التي لم تشرك بالله طرفة عين ، ولم تتلوث

---

(١) منهم الواحدي في أسباب النزول ص ١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٣ : ٢٩٨ والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة : ١٢٠ والآلوسي في تفسيره ٦ :١٧٢ والقاضي الشوكاني في فتح القدير ٣ :٥٧ والفخر الرازي في تفسيره ٣ :٦٣٦ وبدر الدين الحنفي في عمدة القارىء :٥٨٤ والشيخ محمد عبده في تفسير المنار في ذيل تفسيره للآية .

بلوث الآثام مطلقاً ، بل قضى كل عمره في إعلاء راية الإسلام ونشر كلمته وتعاليمه ، وكان المرآة الصافية التي تعكس نفس رسول الله بكل صدق وأمانة ، كان جديراً أن يكون حافظاً لأحكام الإسلام ودساتيره وقوانينه ، وأن يتعهد قيادة الإنسانية إلى الكمال والفلاح ، وحقاً إنّ الإمامة والخلافة والقيادة إنما كانت تناسبه فحسب .

وأخيراً أقام الملأ المجتمع هناك فريضة الظهر مع النبيّ ، وتقدم رسول الله لامتثال الأمر الأكبر الإلهي ،وبين ذلك الملأ المتراكم من الناس الذي كان قد ملأ الصحراء وهو ينتظر ذلك الحدث التاريخي العظيم ، تقدم إلى منبر كان قد أعدّ له من جهاز الإبل ، بحيث يراه ذلك الملأ ويسمع حديثه .

فخطبهم بأنفاسه الملكوتية في ذلك الفضاء الرحب ، وهم بين سامع لصوته ومن فهم من غيره . وبعد الحمد والثناء على الله القدير الحكيم البصير ، الذي لا زوال لحكمه وعلمه ، قال :

« أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب وإنّي مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد إنك قد بلّغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً ، فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وأنّ ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث بعد الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ؟ قالوا : بلى نشهد بذلك .

ثم أضاف يقول : وإني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين : كيف تخلفوني فيهما ؟ الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجل ، سبب طرفه بيد الله تعالى ، وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدّلوا . وعترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبّأني اللطيف الخبير : أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليّ الحوض » .

ثم دعا علياً (عليه السلام) فأخذ بيده ورفعه ليعرّفه للناس ، ثم قال : أيها الناس من أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فأضاف الرسول يقول : من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيثما دار[1] .

وبعد انتهائه من هذه الكلمات طلب منهم : ألا فليبلّغ الشاهد الغائب ! .

أجل ، إن الذي نُصّب في هذا اليوم بأمر الله بمنصب الإمامة وتعهد بهداية الأمة كان علياً (عليه السلام) ، وهكذا اختير لإمامة المسلمين أنسب رجل لذلك في عالم الإسلام من كان كنزاً للعلوم ومنبعاً للفضائل . وبإعلان الرسول لأمر الإمامة والخلافة فقد أتمّ الحجة على أمته إلى يوم القيامة .

ولم تتفرق جموع الناس حتى نزل أمين الوحي على الرسول بهذه الآية الكريمة :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[2] .

---

(١) أثبت حديث الغدير كثير من محدّثي أهل السنة بطرق مختلفة في كتبهم : كالترمذي في صحيحه ٢ : ٢٩٧ والحاكم في المستدرك ٢ : ١٠٩ والفخر الرازي في مفاتيح الغيب ١٢ : ٥٠ والواحدي في أسباب النزول : ١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٢ : ٢٩٨ واليعقوبي في تاريخه ٢ : ٩٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد٧ : ٣٧٧ والثعلبي في تفسيره : ١٢٠ وابن حجر في صواعقه في الفصل الخامس من الباب الأول وراجع الغدير ١ : ١٤ ـ٧٢ فقد روي هذا الحديث عن ١١٠ أشخاص من صحابة رسول الله منهم أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن عبادة ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وزيد بن أرقم ، وآخرين غيرهم .

(٢) سورة المائدة : ٣ ، وروى نزولها في يوم الغدير الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨ : ٢٩٠ والحمويني في فرائد السمطين في الباب ١٢ . والسيوطي في الإتقان ٢ : ٣١ والدر المنثور ٢ : ٢٥٦ ومن المؤرخين اليعقوبي وابن كثير ٢ : ١٤ .

وترك الرسول مكانه وهزيج التكبير يجلجل في الجوّ ، وأبـدى الناس الفرح والسرور لولاية علي (عليه السلام) ، وتقدموا إليه جماعات جماعات يباركون له إمامته ويخاطبونه بإمرة المؤمنين بأمر رسـول الله (صلى الله عليه وآله) .

ونظم الشاعر الشهير « حسـان بن ثابت » بـإذن الرسـول لذلـك اليوم قصيدة غرّاء وقرأها[1] .

ونستطيع الوصول إلى عمق الحقيقة من مضمون الآية الكريمة إذ تذكر أن دين الله قد بلغ في هذا اليوم إلى مرحلة الكمال وتمّت النعمة الإلهية على العباد ، إذن يجب أن يكون قد حدث اليوم حدث عـظيم ، إذ يرى القـرآن الكريم أنه يتمتع بأهمية كبرى ، فإن الإسلام الذي رضي به الله هو الإسلام الذي كمل اليوم ، وهذا يعني أن الـدين الحق بلغ كمالـه اليوم بنصب علي (عليه السلام) إمـاماً لـه ، وأن النعمة الإلهيـة قد تمّت على النـاس بتعيين وصيّ الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) .

إن الحديث المتواتر والكتب التاريخية المعتبرة عند الفريقين تؤكّد أن الآية الكريمة المذكورة نزلت على رسول الله في غدير خم ، أي في اليوم الذي عهد الرسول مسؤولية الإمامة والقيـادة بعده إلى علي (عليـه السلام) واتفق المفسرون على أن سورة المائدة ـ ومنها هذه الآية ـ هي آخر سورة نازلة على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أي أن نزولها كان في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة ، فلم ينزل بعد هذا أمر جديد من الله تعالى .

وما ظنّه البعض بأن إشارة الآية إلى زمان بعثـة رسول الله ، بمعنى أن الله أكمل دينه وأتمّ نعمته في ذلك اليوم ، فإنما هو استنباط لا أساس له من

---

(١) ينـاديهم يـوم الغـديـر نـبيّـهم ... بخمٍّ وأكـرم بـالـنبيّ منـاديـا
يقـول فمن مـولاكمُ ووليكـم ؟ ... فقالوا ـ ولم يبـدوا هناك التعـاميا
إلـهـك مـولانـا وأنت ولـيـنـا ... ومـالـك منـا في البـريّـة عـاصيـا
هنـاك دعـا : قم يـا عليّ فـإنني ... رضيتـك من بعدي إمـاماً وهـاديا

الصحة والواقع ، وذلك مما لا يتفق مع الواقع التاريخي والفهم الصحيح للآية الكريمة بأي وجه من الوجوه أبداً ، فإن يوم البعثة إنما هو بدء نعمة الله لا إتمامها، وبينهما تفاوت كثير ! فإن الآية تقول: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾**، أي في هذا اليوم الذي تحقق فيه هذا الأمر المهم رضيت لكم الإسلام . فالحديث والتاريخ لا يؤيدان هذه الفرضية ! .

وقد كان لحادثة الغدير الحساسة ، وما أدّاه الرسول في ذلك اليوم من الأمر الإلهي ، أمواج وردود فعل عظيمة في تاريخ الإسلام ، بحيث لم يكن بإمكان أي مؤرخ يهدف إلى ضبط الحوادث وحفظ حقائق التاريخ أن يغض النظر عن بيان هذه الحادثة، أو أن يكتم ما يتعلق بها من أمر ، اللهم إلا المصابين بالجمود الفكري والتعصّب .

وقد كان لهذا اليوم بين المسلمين في القرون الأولى القريبة من عصر الرسول شهرة عظيمة ؛ ولنا في التاريخ شواهد كثيرة لإثبات ذلك :

فقد ذكر المسعودي ليلة الثامن عشر من ذي الحجة بليلة عيد الغدير[1] .

وذكر ابن خلكان يوم الثامن عشر من ذي الحجة بعنوان : يوم عيد الغدير[2] .

وأبو ريحان البيروني المعروف من علماء القرن الخامس ، عدّ يوم الغدير من أعياد المسلمين[3] .

وقال ابن طلحة الشافعي في كتابه (مطالب السؤول عن مناقب آل

---

(١) التنبيه والإشراف : ٣٢ ووجدت في ٢٢١ أن الغدير هو في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وولد علي وشيعته يعظمون هذا اليوم .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٦٠ .

(٣) الآثار الباقية ـ عن الترجمة الفارسية : ٣٣٤ .

الرسول) : يوم غدير خم يوم عيد ، وهو اليوم الذي نصب فيه رسول الله علياً (عليه السلام) إماماً للمسلمين[1] .

* * *

والآن علينا أن نرى ما هو المقصود من كلمة « المولى » في كلام رسول الله إذ قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه . فهل المقصود هو الأولى بالتصرّف من نفس المولّى عليه ، ومعناها : الولاية المطلقة لذلك المولى على المولّى عليه . أم أن مفادها هو الولاية بمعنى الصديق والمحبّ والناصر ؟

بإمكاننا أن ندرك صحة المعنى الأول بالمراجعة إلى نفس القرآن الكريم ، حيث يقول بالنسبة إلى الرسول :

﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾[2] .

وعدا عن هذه الآية فقد وردت لفظة المولى في موارد أخرى من القرآن الكريم بمعنى الأولى بالتصّرف[3] ومن كان أولى بالتصرف من نفس المولّى عليه كان أولى بالتصرف في ماله بطريق أولى ، ومن كانت له هذه الولاية فهي الولاية المطلقة التي لا استثناء فيها عن وجوب طاعته .

كان هذا ما فوّضه الله إلى رسوله ، فهو الذي وهب له هذه السلطة على نفوس الناس وأموالهم ، وجعله يتمتع بأولوية التصرف في جميع شؤون الناس .

ولنا دلائل وشواهد عديدة ومختلفة على أن معنى المولى في حديث الغدير هو معنى الأولى كما في الآية الآنفة الذكر ، فكما كانت لرسول الله

---

(١) عن الغدير ١ :٢٦٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٥ وسورة الحج : الآية ١٣ .

الأولـوية المـطلقـة حسب البيـان القـرآني ، كـذلـك أصبـح أميـر المؤمنين (عليه السلام) يتمتع بهكذا مقام خاص من الأولوية ، مع فارق أن النبوة قد أغلق بابها بخاتمية رسالة الـرسول ، فلعلي (عليـه السلام) سـائر منـاصب الرسول ما عدا هذا المقام مقام النبوّة والرسالة .

وأولى القرائن التي تبين أن معنى الحديث بمعنى الأولى بـالتصرّف : هي ما قاله الرسول قبل إعـلان ولاية علي (عليـه السلام) إذ قـال : ألست أولى بكم من أنفسكم ؟! فهو إذ بيّن ولايته على أمة الإسلام وأخذ اعترافهم بأولويته بهم من أنفسهم ، أضاف يقـول : فمن كنت مولاه فعلي مولاه، ممّا يدل بالطبع على أن إطلاق « المولى » على عليّ (عليه السلام) بنفس هذا المعنى « أولى بالنفس » ، ذلك هو المنصب الذي نصبه فيه النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، وإن كان الرسـول قد أراد غيـر هذا المعنى فـلا معنى إذن أن يأخذ الاعتراف منهم بأولوية نفسه عليهم من أنفسهم .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) خاطب النـاس في بدايـة كلامـه بقـوله : ألا تشهـدون أن لا إله إلاّ الله وحـده لا شريك له؟ ألا تشهـدون أن محمداً رسول الله ؟ وأن الجنة والنار حق ؟

فهل المقصود من هذا السؤال إلا أن يضيف إلى تلك الأصول أصـلاً آخر مثلهن ؟ وهل له هدف آخر سوى أن يفهم الناس : أن الاعتراف بولاية علي (عليه السلام) وخلافته هو في عداد الأصول الثلاثة السابقة ! .

إن كان قصد الرسول (صلى الله عليـه وآله) من كلمـة « المولى » : المحب والناصر ، فإن ولاية علي (عليه السلام) بهذا المعنى كولاية سائـر المؤمنين من السنن الإسلامية ، بل هي منذ طلوع فجر الإسلام من ألف باء الأخوة الإسلامية ، ولم يكن باللزوم أن يعلن هذا الموضوع في هذا الاجتماع الكبير ، وذلك مع تقديم تلك المقدمات وضمن مقـال طويـل نسبيّاً ، ثم لا يبيّن ذلك إلا بعد أن يأخذ الإقرار من الناس بالأصول الثلاثة .

أضف إلى ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قبل أن يذكر اسم علي (عليه السلام) في ذلك الحشد العظيم ، تكلم عن قرب أجله ، وأخبر عن قرب وداعه لهذه الحياة ، وبهذا الخبر كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يحاول أن يملأ الفراغ الناتج من فقدان القائد في المجتمع الإسلامي بعده بالتعريف بعلي (عليه السلام) ، وإلاّ فليس لولاية علي (عليه السلام) بمعنى مودّته أن تؤدي هذا الدور في المجتمع الإسلامي . وما هي الضرورة إلى أن يخطب الرسول (صلى الله عليه وآله) تلك الخطبة في ذلك الجوّ الحارّ في الجمع المحتشد من قافلة قوامها مئة ألف أو يزيدون ، ثم يعلن لهم مودّة علي (عليه السلام) ؟ أليس القرآن الكريم قد جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض[1] وإخوة[2] .

إذن : فالكلام عن مودة علي (عليه السلام) فقط في ذلك الوضع ـ وبالنظر إلى تلك الحادثة المهمة ، والأهمية التي أولاها الرسول (صلى الله عليه وآله) وقدّم لها تلك المقدمات ـ ليس أمراً معقولاً .

ومن ناحية أخرى ، فقد جاء أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد انتهاء خطبته إلى علي (عليه السلام) يهنئونه ويباركون له الولاية والإمرة على المؤمنين، واستمرت التبريكات حتى حين إقامته صلاة المغرب،وكان منهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير ، وكان عمر من أول من دخل عليه وخاطبه يقول : بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[3] .

فأي منصب آخر حصل عليه علي (عليه السلام) سوى مقام الزعامة والقيادة يستحق التبريك ؟! أفهل كان لزوم مودّته ـ كأي مسلم آخر ـ خافياً على المسلمين حتى ذلك اليوم ؟! .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٤٣٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١١١ وكنز العمال ٦ : ٤٠٠ .

وكـان شاعـر النبي المعروف « حسـان بن ثابت » حـاضراً في القـافلة الكبـرى ، ولم يفهم من كلمة « المـولى » سوى الإمـامة والقيـادة فقـال في شعره :

هنـاك دعا : قم يـا عليّ فـإنني رضيتك من بعدي إمـاماً وهـاديا

وكـذلك الشعـراء ، والأدباء في القـرون التاليـة لم يفهمـوا من كـلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) سوى الإمامة والقيادة ، هذا وهم مهرة اللغة العربية .

إذن فنحن نقول : إن الإنسان إذا توّجه إلى كل مقال الرسول (صلى الله عليه وآله) هنا بذهنية منفتحة متحرّرة بعيدة عن التعصّب والأفكار المألوفة السابقة ، ودقّق النظر في القرائن والشواهد في كلامه ومقامه ، فهم من كلمة « المولى » التي استعملها الرسول لعلي (عليه السلام) معنى واحداً فقط ، وهو أنه أولى بالتصرّف ، وذلك يعني « الولاية المطلقة » .

ولقـد اختار الـرسول (صلى الله عليـه وآله) في إحـدى غزواتـه علياً (عليـه السلام) للقيـادة ، فشكاه إليـه أربعة من أصحـابـه ، فـالتفت إليهم رسول الله وهو مغضب وقال : ما لكم وعلي ؟ علي منّي وأنا من عليّ ، وهو وليّ كل مؤمن بعدي[1] .

* * *

وقد يتساءل البعض : لمـاذا لم يحتج علي (عليـه السلام) بحـديث الغدير ونصبه بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) في مقام الخلافة بعده ، في يوم السقيفة ؟ ولم يقل للمهاجرين والأنصار : إني منصـوب لذلـك من قبل

---

(١) مسنـد الإمـام أحمـد بن حنبـل ٤ : ٢٨١ والصـواعق المحـرقـة لابن حجـر : ٢٦ وتفسيـر الـطبري ٣ : ٤٢٨ وسـرّ العالمين للغـزالي : ٩ وتفسيـر الفخـر الـرازي ٣ : ٦٣٦ وفـرائـد السمطين للحمويني الشـافعي البـاب ١٣ . والبـداية والنهـاية لابن كثيـر الشافعي ٥ : ٢٠٩ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ٢٥ .

الرسول ، ولا يحق لأحد أن يعارضني في مسند الخلافة فيدّعيها لنفسه ! أفهل كان الألوف من شهود ذلك اليوم الموعود قد نسوه ؟ أو تناسوه ؟! .

ونقول في الجواب : لم يكن كذلك ، فإن الإمام (عليه السلام) كان يحتج بحديث الغدير لإثبات حقه بل تكليفه بالخلافة وللاعتراض على قرار السقيفة ، كلما رأى مناسبة لذلك ، وكتب المؤرخون يقولون : حينما كانت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) تخرج مع علي (عليه السلام) ليلاً إلى بيوت الأنصار تسألهم النصرة ، كانوا يقولون لها : يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أنّ زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به ! فيقول علي (عليه السلام) : أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه[1] .

وفي يوم الشورى ، حينما تظاهر عبد الرحمن بن عوف بميله لاختيار عثمان لمقام الخلافة ، قال (عليه السلام) : لأحتجنّ بما لا يستطيع عربيّكم ولا عجميّكم تغيير ذلك ، ثم قال : فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلّغ الشاهد الغائب ، غيري ؟ قالوا : لا[2] .

وإن شهادة ثلاثين رجلاً من الصحابة بحديث الغدير في رحبة المسجد الجامع بالكوفة ، من القضايا التاريخية المسلّم بها . فقد نقل المؤرخون : أن علياً (عليه السلام) خطب يوماً في رحبة المسجد الجامع بالكوفة في كثير من الناس فقال : أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول يوم غدير خم ما قال . إلاّ قام فشهد بما سمع ، ولا يقم إلاّ من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه . فقام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً

---

(١) الإمامة والسياسة : ١٢ ط مصر الحلبي . وابن أبي الحديد ٢ : ٥ .

(٢) مناقب الخواندي : ٢١٧ .

فشهـدوا : أنه أخـذه بيده فقـال للناس : أتعلمـون أني أولى بـالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : نعم ، قال : من كنت مولاه فهذا مولاه[١] .

إنّ اجتماع الناس في رحبة المسجد ، الجامع وشهادة ثلاثين رجلاً من الأصحاب بحديث الغدير على عهد علي (عليه السلام) بعد السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة ، وقد تحققت حادثة الغدير في حجة الـوداع في السنة العاشرة للهجرة ، أي كان بين هذا اليوم ويوم الغدير خمسة وعشرون عاماً . فمع الالتفات إلى أن كثيراً من شيوخ الصحابة كانوا قد ماتوا في هذه المدة : ربع قرن من الزمان ؛ وقد استشهد كثير منهم في الحروب التي جـرت على عهد الخلفاء السابقين ، وكثير منهم لـم يكونوا حضوراً في الكوفة بل تفـرقوا في سائر البلدان . . تتضـح لنا أهميـة هذه الشهـادة التاريخيـة على حادثـة الغدير . وقد أخرج هذه الشهادة الإمـام أحمد بن حنبـل في مسنده فقـال : فقاموا إلّا ثلاثة لم يقوموا ، فأصابتهم دعوته[٢] منهم أنس بن مالك ، فقال له علي (عليـه السلام) : مـالك لا تقـوم مع أصحـاب رسول الله فتشهـد بما سمعت يومئذٍ منه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين كبرت سني ونسيت ! فقال علي : إن كنت كاذباً فضربك الله ببيضاء لا تواريها العمامـة . فما قـام حتى ابيضّ وجهه برصاً ! فكان بعد ذلك يقول : أصابتني دعوة العبد الصالح[٣] .

وسمع هذا الحديث من زيد بن أرقم ، أبو الطفيـل ـ الذي جعله عمـر على أمـر الشورى ـ فتعجّب من هـذه الأمة إذ صـرفت هـذا الأمـر عن علي (عليه السلام) مع ما ترويه عن نبيّها في حقّه يوم الغديـر ، وكأنـه شك في صحة ما ترويه في ذلك الأمر فقال لزيد حين سمع روايته منه : أسمعتـه من رسول الله ؟ كالمستغرب المتعجّب الحائر المرتاب ، فأجابه زيد بأنه لم يكن في الدوحات ـ في غدير خم ـ أحـد على كثرة من كـان يومئـذٍ من الخلائق

---

(١) المراجعات : ١٩٤ ط دار الصادق بيروت .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ١١٩ .
(٣) المعارف لابن قتيبة : ١٩٤ في ذكر أهل العاهات .

هناك ، إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه . فعلم أبو الطفيل حينئذٍ أن الأمر كما قال[1] .

وحسبك من هذا الحديث ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي الطفيل قال : جمع علي الناس في الرحبة ثم قال لهم : أشهد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع لمّا قام . فقام ثلاثون من الناس فشهدوا حين أخذه بيده فقال للناس: أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فهذا مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه . قال أبو الطفيل : فخرجت وكأن في نفسي شيئاً ! ، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له : إني سمعت علياً يقول كذا وكذا ؟ قال زيد : فما تنكر ؟ قد سمعت رسول الله يقول ذلك له[2] .

إن احتجاج علي (عليه السلام) بحديث الغدير غير محصور في هذه الموارد المذكورة ، بل كان (عليه السلام) يكرر الاستدلال به على إمامته في حرب الجمل وصفين وفي الكوفة ، وفي مسجد النبيّ في حضور مئتين من كبار المهاجرين والأنصار[3] .

وعدا عن هذا ، فإن هناك عوامل مختلفة أدّت إلى أن لا يبدي علي (عليه السلام) بعد حوادث السقيفة ردّ فعل حادّ وشديد ، بل يسلك في ذلك سبيل الصبر الذي قال عنه : صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهباً[4] .

وهنا خير لنا لتبيّن الأمر أن نلقي نظرة على إجابة العلّامة الفقيه شرف الدين على رسالة الشيخ سليم البشري المصري يقول :

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ٣٢٥ . والخصائص للنسائي : ٢٣ ط الحيدرية . والمستدرك ٣ : ١٠٩ ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . وكنز العمال ١ : ٤٨ . والغدير ١ : ٣٠ وفيه تفصيل لمصادر الحديث .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٣٧٠ .

(٣) فرائد السمطين للحمويني الشافعي : الباب ٥٨ .

(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة الشقشقية .

« الناس كافة يعلمون : أن الإمام وسائر أوليائه من بني هاشم وغيرهم لم يشهدوا البيعة ولا دخلوا السقيفة يومئذٍ ، وكانوا في معزل عنها وعن كل ما كان فيها ، منصرفين بكلّهم إلى خطبهم الفادح بوفاة رسول الله ، وقيامهم بالواجب من تجهيزه (صلّى الله عليه وآله) ، لا يعنون بغير ذلك ، وما واروه في ضراحه الأقدس حتى أكمل أهل السقيفة أمرهم ، فأبرموا البيعة ، وأحكموا العقد ، وأجمعوا ـ أخذاً بالحزم ـ على منع كل قول أو فعل يوهن بيعتهم ، أو يخدش عقدهم ، أو يدخل التشويش والاضطراب على عامّتهم ، فأين كان الإمام عن السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعته ، ليحتج عليهم ؟ وأنّى يتسنّى الاحتجاج له أو لغيره بعد عقد البيعة وقد أخذ أولو الأمر والنهي بالحزم ، وأعلن أولو الحول والطول تلك الشدة ، وهل يتسنّى في عصرنا الحاضر لأحدٍ أن يقابل أهل السلطة بما يرفع سلطتهم ويلغي دولتهم ، وهل يتركونه وشأنه لو أراد ذلك ؟ هيهات ! هيهات ! فقس الماضي على الحاضر فالناس ناس والزمان زمان ! .

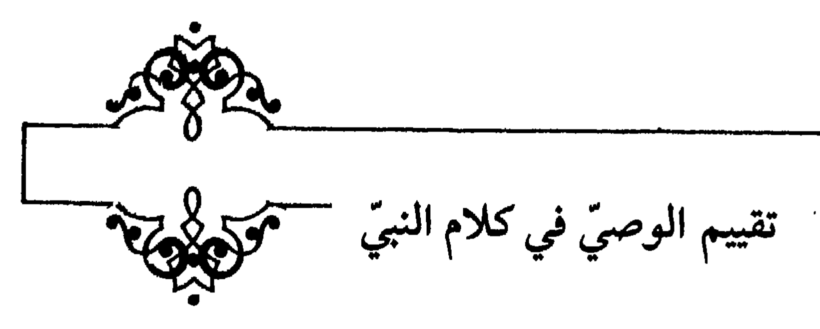
على أنّ علياً (عليه السلام) لم ير للاحتجاج عليهم يومئذٍ أثراً إلا الفتنة التي كان يؤثر ضياع حقه على حصولها في تلك الظروف ، إذ كان يخشى منها على بيضة الإسلام وكلمة التوحيد ، كما أوضحناه سابقاً حيث قلنا : إنه مُني في تلك الأيام بما لم يُمنَ به أحد ، إذ مَثُل على جناحيه خطبان فادحان : الخلافة ـ بنصوصها ووصاياها إلى جانب ـ تستصرخه وتستفزّه بشكوى تدمي الفؤاد ، وحنين يفتّت الأكباد ؛ والفتن الطاغية ـ إلى جانب آخر ـ تنذره بانتقاض شبه الجزيرة ، وانقلاب العرب واجتياح الإسلام ، وتهدده بالمنافقين من أهل المدينة وقد مردوا على النفاق ، وبمن حولهم من الأعراب وهم منافقون بنصّ الكتاب ، بل هم﴿ **أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ وقد قويت شوكتهم بفقده (صلى الله عليه وآله) ، وأصبح المسلمون بعده كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية بين ذئاب عادية ووحوش ضارية : مسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأفاك ، وسجاح بنت الحرث الدّجالة ، وأصحابهم

الهمج الرّعاع قائمون في محق الإسلام وسحق المسلمين على ساق ، والرومان والأكاسرة والقياصرة وغيرهم كانوا للمسلمين بالمرصاد . إلى كثير من هذه العناصر الجيّاشة بكل حنق من محمد وآله وأصحابه ، وبكل حقد وحسيكة لكلمة الإسلام ، تريد أن تنقض أساسها وتستأصل شأفتها ، وإنها لنشيطة في ذلك مسرعة متعجلة ، ترى الأمر قد استتبّ لها ، والفرصة بذهاب النبي إلى الرفيق الأعلى قد حانت ، فأرادت أن تسخّر الفرصة ، وتنتهز تلك الفوضى قبل أن يعود الإسلام إلى قوة وانتظام . . فوقف علي (عليه السلام) بين هذين الخطرين ، فكان من الطبيعي له أن يقدم حقّه قرباناً للإسلام . لكنه أراد الاحتفاظ بحقّه في الخلافة والاحتجاج على من عدل عنه بها ، على وجه لا تُشَق بها للمسلمين عصا ولا تقع بينهم فتنة ينتهزها عدوّهم ، فقعد في بيته حتى أخرجوه كرهاً ، من دون قتال ، ولو أسرع إليهم ما تمّت الحجة له ، ولا سطع لشيعته برهان ، لكنه جمع فيما فعل بين حفظ الدين والاحتفاظ بحقه من خلافة المسلمين . وحين رأى أن حفظ الإسلام وَرَدَّ عادية أعدائه موقوفان ـ في تلك الأيام ـ على الموادعة والمسالمة ، شق بنفسه طريق الموادعة ، وآثر مسالمة القائمين في الأمر احتفاظاً بالأمة ، واحتياطاً على الملة ، وضناً بالدين وإيثاراً للآجلة على العاجلة ، وقياماً بالواجب شرعاً وعقلاً من تقديم الأهم ـ في مقام التعارض ـ على المهم ؛ فالظروف يومئذٍ لا تسع مقاومة بسيفٍ، ولا مقارعة بحجّة . ومع ذلك فإنه وبنيه ، والعلماء من مواليه ، كانوا يستعملون الحكمة في ذكر الوصية ونشر النصوص الجليّة ، كما لا يخفى على المتتبعين »[1] .

* * *

---

(١) المراجعة ١٠٢ من المراجعات لشرف الدين : ٣٠١ ـ ٣٠٣ ط الصادق بيروت .



تقييم الوصيّ في كلام النبيّ

إن إعلان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لزعامة وخلافة علي (عليه السلام) بين الناس لم يكن في الغدير فقط، بل إنه اختاره لخلافته في السنة الثالثة من البعثة إذ أمر بإعلان الدعوة ، حيث لم يكن قد أعلن دعوته بعد البعثة إلى ثلاث سنين ، بل كان يدعو للإسلام سرّاً وخفيةً ، وفي السنة الثالثة للبعثة أمر أن ينذر عشيرته الأقربين بالإسلام[1] .

وإذ ذاك أمر علياً (عليه السلام) أن يدعو أربعين رجلاً من كبار بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف ، فاشترك في هذه الضيافة أربعون رجلاً من أقرباء الرسول (صلى الله عليه وآله) عتاةً طغاماً ! .

وفي اليوم الأول فُضّ المجلس بالكلام الفارغ لأبي لهب ، الناشىء من نخوته وغضبه . وكذلك في اليوم الثاني . وفي اليوم الثالث حيث تكررت الضيافة بأمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ، وبعد تناولهم للطعام ، حان موعد غذاء الروح ، فقام الرسول بين أقربائه وافتتح حديثه بحمد الله والثناء عليه ثم قال :

« يا بن عبد المطلب ؛ إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه

---

(١) ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الشعراء : الآية ٢١٤ .

بأفضل ممّا جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصييّ وخليفتي فيكم؟قال علي (عليه السلام): فأحجم القوم عنها جميعاً. وقلت ـ وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأحمشهم ساقاً (كناية عن صغر سنّه) ـ : أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه . فأخذ برقبتي ثم قال : إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع »[1] .

إن هذه الحادثة من أوضح وأحرج فصول التاريخ ، لم يتردد في وقوعها وصحّتها أيّ واحد من المؤرخين ، وحتى أولئك المشككون لم يتمكنوا من أن يتنكّروا لهذه الحادثة التاريخية .

إن الرسول الذي يقول عنه القرآن الكريم : ﴿ **ما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى** ﴾[2] عيّن وبيّن أمر الزعامة وقيادة الأمة بعده لعلي (عليه السلام) منذ الأيام الأولى من حمله للرسالة .

إن حادثة هذا الحديث شاهد صدق على أن أمر الخلافة إنما يرتبط بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله) ، وأن ليس للناس أن يحلّوا هذا المشكلة الخطيرة ذات المسؤولية الكبرى كيفما تشاء أهواؤهم . إن هذه المسألة على حدٍّ من الأهمية بحيث تُعلن النبوّة والإمامة في يومٍ واحد وجلسة واحدة . بل إن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان يؤكّد في مختلف المناسبات على أن مسألة قيادة الأمة إنما هي لله تعالى ، وأن ليس له هو دور في اختيار هذا الأمر .

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ ط دار المعارف وتفسيره ٢ : ٢١٦ والكمال لابن الأثير ٢ : ٢٢ . ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ١١١ و ٥٩ تاريخ أبي الفداء ١ : ١١٩ . وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ٨٩ والخصائص للنسائي : ٨٦ . وسيرة الحلبي ١ : ٢٠٤ وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٥٥ وجمع الجوامع للسيوطي ٦ : ٤٠٨ وشرح الشفاء للخفاجي ٣ :٣٧ .

(٢) سورة النجم : الآيتان :٣ و ٤ .

شرط الأخنس بن شريق ـ أحد رؤساء القبائل ـ بيعته وتبعيته للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بأن يجعل زعامة أمته بعده للأخنس ، فأجابه الرسول يقول : إن هذا الأمر لله ، يختار الله له من يراه أهلاً لذلك[1] فيئس الأخنس وأرسل إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنه لا يقبل أن يتحمل ما يتحمل من أمر الإسلام ثم يكون أمر الإمامة والقيادة لغيره ! .

وعلى هذا فهل لنا أن نقدّم مختار النّاس على من اختاره الله ورسوله ؟ وهل يمكن أن نجعل من اختاره الله تحت رعاية غيره يطيع أوامره ويتّبعه ؟! بينما القرآن يقول : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾[2] .

* * *

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يبيّن للأمة المسلمة سمة القيادة والإمامة لعلي (عليه السلام) في حديث المنزلة ؛ وكانت حادثة صدور هذا الحديث : أن بلغ الرسول (صلى الله عليه وآله) أن عساكر الروم تتجهّز للهجوم على مدينة الرسول ، ولهم الأمل الكبير أن تجلب هذه الحرب لهم نصراً مؤكّداً سريعاً ، وأخذ الرسول (صلى الله عليه وآله) يفكّر في المقاومة ، واستطاع أن يجهّز كثيراً من المسلمين بالأمر بالنفير العام لمقابلة العدو .

ومن جانب آخر بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أن منافقي المدينة قد أعدّوا عدّتهم في سبيل تنفيذ مؤامرة خطرة بغية تغيير الوضع العام فيها مستغلين فرصة غيبة الرسول عنها . فنصب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) لحراسة المدينة ، وأمره أن يبقى بها لحل مشاكل الناس والفصل في مسائلهم . فلما التفت المنافقون

---

(١) الطبري ٢ : ١٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

إلى أن سرّهم قد فشا وأن مؤامرتهم قد فشلت أخذوا يشيعون إشاعات باطلة عن علي (عليه السلام) ، لعلهم بذلك يضعفون من موقعيته ومقامه ، فأكّدوا على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) أصبح لا يحب علياً (عليه السلام) ؛ ولذلك لم يأذن له أن يشارك في هذه الوقعة الكبرى إلى جانبه ! .

إن إشاعة هذه الأقاويل الباطلة آذت علياً (عليه السلام) كثيراً وأدخلت عليه الهمّ والغمّ ، فأسرع إلى الرسول خارج المدينة فأخبره بالخبر ، وهنا بيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تلك الموقعية والمقام الخاص لعلي (عليه السلام) بجملة تاريخية قال فيها : « يا علي ! أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنه لا نبيّ بعدي ؟ »[1] وأضاف كثير من محققي ومحدّثي أهل السنة في كتبهم أنه أضاف يقول : « إنه لا ينبغي أن أذهب عنها إلا وأنت خليفتي فيها »[2] .

وسعد بن أبي وقاص الذي هو من أشد مخالفي علي (عليه السلام) يستند إلى هذا الحديث للإشارة إلى الموقعية الحساسّة والقيّمة للإمام (عليه السلام) :

روى عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : قال معاوية لسعد بن أبي وقاص : ما يمنعك أن تسبّ ابن أبي طالب (أو أبا تراب) قال : لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن يكون لي واحدة

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ٥٨ وصحيح مسلم ٢ : ٣٢٣ وسنن ابن ماجة ١ : ٢٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١٩٠ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٣١ والصواعق المحرقة : ٣٠ وكنز العمال ٦ : ١٥٢ وينابيع المودة : ٢٤٠ والخصائص للنسائي : ٧ وطبقات ابن سعد ٣ : ٣٤ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣ : ٦٣ والخصائص للنسائي : ٦٣ وفرائد السمطين ١ : ٣٢٨ وتلخيص المستدرك للذهبي ٣ : ١٣٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٣١ والمناقب للخوارزمي : ٧٢ وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١١٦ وتاريخ ابن عساكر ١ : ٢٠٣ وانساب الأشراف للبلاذري ٢ : ١٠٦ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٢٨ والإصابة لابن حجر العسقلاني ٢ : ٥٠٩ .

منهن أحبّ إليّ من حمر النّعم ، لا أسبّه ما ذكرت حين نزل الوحي عليه ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : ربّ هؤلاء أهل بيتي وأهلي . ولا أسبّه ما ذكرت حين خلّفه في غزوة غزاها ، قال علي : خلّفتني مع الصبيان والنساء ؟ قال : أو لا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبوّة بعدي . ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول الله : لأعطيّن الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، فتطاولنا ، فقال : أين علي ؟ فقالوا : هو أرمد ، قال : ادعوه ، فدعوه ، فبصق في عينيه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه . فوالله ما ذكرت معاوية بحرف حتى خرجت من المدينة[1] .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعلن في هذا الحديث أن الموقعية الخاصة لعلي (عليه السلام) بالنسبة إليه كموقعية هارون بالنسبة إلى موسى (عليه السلام) من حيث الشؤون والمناصب الاجتماعية ، وإنما استثنى مورداً واحداً هو أن هارون كان قد بلغ رتبة النبوّة ، بينما علي (عليه السلام) لا يبلغ مقام النبوّة ، وذلك لأن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) هو خاتم الأنبياء . وحينما نلاحظ القرآن الكريم نرى أن الله تعالى قد استجاب لموسى أدعيته ، فجعل أخاه هارون وزيراً وناصراً ومعيناً وخليفة له بين قومه ، بل بلغ الله به مقام الرسالة أيضاً[2] .

وعلى هذا ، فبمقتضى حديث المنزلة اختصّت كل هذه المناصب بعلي (عليه السلام) باستثناء النبوّة . وهنا من يقول : إن خلافة علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) هي خلافته عنه في الأيام

---

(١) الخصائص للنسائي : ٨١ ، ٨٢ ط الحيدرية . والمستدرك ٣ : ١٠٨ . كنز العمال ٦ : ٤٠٥ والغدير ٣ : ٢٠٠ وفيه ذكر مصادر الحديث وطرقه وأسانيده ومن المصادر : صحيح مسلم ٧ : ١٢٠ وفي كنز العمال أيضاً بألفاظ قريبة ١٣ : ١٣٦ . وسنن ابن ماجة ١ : ٥٨ وينابيع المودة للقندوزي الحنفي الباب ٦ : ٥١ . وتاريخ ابن عساكر ١ : ٣٣٤ وتاريخ ابن كثير ٧ : : ٣٤١ .

(٢) سورة طه : الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

التي كان (صلى الله عليه وآله) يخرج فيها من المدينة ، وعلى هذا فلا يمكن القول بخلافته بعده ! .

نقول : هذه حقيقة واضحة : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان كلما ترك المدينة عاصمة الإسلام يومئذٍ كان يختار رجلاً من أصحابه لخلافته ، فلو كان نظر الرسول (صلى الله عليه وآله) في تشبيهه علياً (عليه السلام) بهارون هو الخلافة في تلك الأيام على المدينة فلماذا لم يأت بهذا التشبيه لسائر خلفائه العاديّين ؟ ولم يقدّر خدماتهم بهذه الجملة وما يُشبهها ؟! .

إن التاريخ لا يذكر أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قد أجرى هكذا عبارة على لسانه الشريف إلّا لعليّ (عليه السلام) . إنّه إن كان غرض الرسول خلافته الموقتة لتلك الأيام المعدودة فإن استثناء النبوّة من شؤون الخلافة يكون لغواً بلا ثمرة ، فإنه يكون معنى كلامه هكذا : يا علي كن خليفتي حتى أرجع ، ولكن لا تكون بعدي نبياً ! بل لا يصحّ الاستثناء إلّا إذا دامت المقامات الهارونية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) حتى بعد حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) . أضف إلى ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يذكر هذه الجملة عند نصب علي (عليه السلام) خليفة في المدينة فقط ، بل قد كرّرها بشأن علي (عليه السلام) في موارد أخرى أيضاً شهد التاريخ بها : منها :

إن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما عقد بين كل اثنين من المسلمين عقد الأخوّة في الأيام الأولى للهجرة ، أسرع علي (عليه السلام) إليه وهو يحمل حزناً وألماً وقال : آخيت بين المسلمين ولم تؤاخِ بيني وبين أحد من أصحابك ؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : « والذي بعثني بالحق إنّما أخرتك لنفسي ، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي »[1] .

---

(١) كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد ٥ : ٣١ .

وذات يوم كان علي (عليه السلام) وأبو بكر وأبو عبيدة بمحضر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجعل الرسول يده على منكب علي (عليه السلام) وقال : « أنت أول من آمن بي ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسى »[1] .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يشتم علياً (عليه السلام) فقال له : إنك منافق فإني سمعت رسول الله يقول : إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبيّ بعدي[2] .

والذي يستفاد من هذا الحديث أنه يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يقصد من المنزلة الخلافة المؤقتة وذلك لمكان أداة الحصر « إنّما » فقد كان هناك رجال آخرون نابوا عن النبيّ في المدينة ، وتحدّث عمر بهذا الحديث يبيّن أنه كان قد استفاد من الحديث معنى مساواة علي (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع الجهات المعنوية ،ولذلك يحكم على من شتمه بالنفاق الذي هو أشد من الكفر الصريح ، فإن المؤمن مهما كان عظيم الرتبة في الإيمان لا يوجب سبّه كفراً ولا نفاقاً ، وقد كان كثير من الصحابة يسبّ بعضهم بعضاً ، ولم يتلق أحد من الفقهاء وأصحاب الكلام مشادّتهم في كلامهم فيما بينهم موجباً لكفرهم أو نفاقهم . ولكنّ الإهانة إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) موجبة للكفر ، وعلى هذا فقد استفاد عمر بن الخطاب من كلام النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن علياً (عليه السلام) برتبة النبيّ فيما سوى النبوّة فقط .

* * *

إن رسول الله كان يدعو علياً (عليه السلام) أخاه في مواقع مختلفة :

فقد جاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحق قال : « وآخى رسول

---

(١) كنز العمال ٦ : ٣٩٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧ : ٤٥٣ . وتاريخ ابن عساكر ١ : ٣٦٠ ، ٣٦١ .

الله(صلى الله عليه [وآله] وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : « تآخوا في الله أخوين أخوين » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : « هذا أخي » فكان رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم سيّد المرسلين وإمام المتقين ورسول ربّ العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعليّ بن أبي طالب : أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين . وجعفر بن أبي. طالب ذو الجناحين الطيّار في الجنة ـ وكان غائباً بأرض الحبشة ـ ومعاذ بن جبل أخوين . وكان أبو بكر بن أبي قحافة وخارجة بن زهير الخزرجي أخوين . وعمر بن الخطّاب وعُتبان بن مالك الخزرجي أخوين . وعثمان بن عفّان وأوس بن ثابت من بني النجّار أخوين . وأبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين »[١] .

وروى ابن سعد في (الطبقات) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام) يوماً في أمر بين علي وأخيه جعفر وزيد بن حارثة : « أمّا أنت يا علي فإنك أخي ومعي »[٢] .

وروى ابن عبد البر في «الاستيعاب » أنه (صلى الله عليه وآله وسلم)قال له : « يا علي أنت أخي وصاحبي في الجنة »[٣] .

فلننظر الآن : ما هو المتوخى من هذه الأخوّة ؟ .

إن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بعد هجرته إلى المدينة المنورة أسس هذه الأخوة الخاصة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ١٥٠ ـ ١٥١ ط الحلبي . والسيرة الحلبية ٢ : ٩٧ .

(٢)طبقات ابن سعد ٨ : ١١٤ .

(٣)الاستيعاب٢ : ٤٦٠والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٢ :٢٦٨وفضائل الخمسة١ :١١٤ .

إلغاءً وإبطالاً لكل المزايا والخصائص القبلية والعشائرية والقومية المخالفة لروح العدالة الإسلامية المستنة بالعدالة الإلهية .

كان (صلى الله عليه وآله وسلم)يريد أن ينقل الإخاء الشامل بين أبناء الأمة المسلمة من مجرد فكرة إلى الصورة العينية المحسوسة والملموسة، فكان أن بدأ الأخوان المسلمان أخوّتهما الخاصة تلك، لتتفتح هذه الأخوة الإسلامية الجديدة على أساس مستوى الإيمان باللهوالتقرب إليه ، عوضا عن القرابة. والرحم المقطوعة . وهكذا جعلت الأخوة المعنوية والروحية إلى جانب القرابة النسَبية ، بل إن صلة هذه الأخوة بين اثنين من قبيلتين ومدينتين أدت إلى صلة الأخ المهاجر بقرابة الأخ الأنصاري ، وهذه العلاقات الروحية أعقبت علاقة ودية وعاطفية شاملة بينهم .

إلا أن الإخاء بين النبي الأكرم وعلي (عليهما السلام) فقد أسسه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الهجرة بعشرة أعوام أي في بدء بعثته بالنبوة ، وذلك في تلك الجلسة الخاصة التي عقدها في منزله وقد جمع عشيرته الأقربين واستعان بهم لدعوة الإيمان .

فلا ريب في أن الهدف في عقد هذه الأخوة لم يكن من نوع تلك الأخوة التي كان ينظر النبي فيها إلى التقريب بين جماعتي المهاجري والأنصاري من المدينتين مكة والمدينة ، إذ لا معنى لهذا التقريب بين محمد وعلي (عليهما السلام) ، بل لم يكن بينهما أي فصل في يوم من الأيام ليوصل بعقد الأخوة بينهما ، فإنهما كان ابني عم قريبين وذوي علائق ودية قوية فيما بينهما .

إذن نقول : إن الباعث على هذه الأخوة لم يكن سوى ذلك التجانس الروحي والفكري والباطني بينهما ؛ إذ كان علي (عليه السلام) وحده أشبه الناس خصالاً وعلماً ومعرفة وإخلاصاً ومعنوية وبصيرة بباني الإسلام العظيم ! ولهذا فإن لأخوة النبي لعلي (عليهما السلام) أهميتها ومعناها

الخاص . وكما قرأنا في الحديث فإن عقد هذه الأخوة لم يكن لهذه الحياة فحسب بل هي باقية دائمة مستمرة ثابتة حتى في عرصات القيامة والحياة الآخرة ، كما رواه الحاكم في (المستدرك) بطريقين صحيحين أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقول لعلي (عليه السلام) : « أنت أخي في الدنيا والآخرة »[1] .

وإن حديث السفينة من الأحاديث الشهيرة والمتواترة المنقولة في كتب مشاهير أهل السنة عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو يثبت لياقة وأهلية أهل بيت الرسول لزعامة الإسلام وقيادة المسلمين .

رووا عن أبي ذر الغفاري : أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال :

« مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى »[2] .

في هذا الحديث يرسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) موقعية عترته والدور الأساسي لأهل بيته في إرشاد الخلق وتوجيههم للأمة الإسلامية ، ويشير إلى المغبة الخطرة لابتعادهم عن هذه الشخصيات الإلهية والمنقذة ، بأن من ابتعد عنهم التهمه الضلال والظلام .

إن النظر في تشبيههم بسفينة نوح يتجه إلى أن من استلهمهم في وظائفه الدينية ومسؤولياته الرسالية والتزم العمل بأوامرهم ، فقد ضمن لنفسه العتق من العذاب المهول ليوم القيامة ، ومن تمرد عليهم وعصاهم وابتعد عن محورهم فهو بمثابة من التجأ يوم طوفان نوح حينما أحسّ بالخطر إلى سفح الجبل ليعصمه من الماء ، بفارق أن ذاك قد غرق وهلك في الماء ، وهذا يغرق في عذاب جهنم الأليم ، هلاكاً أبدياً خالداً ! .

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣ : ١٤ ، وصحيح الترمذي ٥ .

(٢) كنز العمال ١ : ٢٥ والصواعق المحرقة لابن حجر : ٧٥ . ومستدرك الحاكم ٣ : ٣٤٢ وينابيع المودة : ٢٥٧ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ١٠ وإسعاف الراغبين : ١١ ونور الأبصار : ١١٤ .

أضف الى ذلك أننا بالاستناد إلى هـذا الحديث يمكننا أن نستفيد ، حدود ومستوى حصانة وطهارة وعصمة أهل هذا البيت، فإن من كان بمعرض الذنوب والأخطاء والزلات والانحراف عن الخط الذي بدأه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلن يتمكن من أن ينجي الآخرين من السقوط في ورطة الضلالة والشقاء والتعاسة الأبدية ، أو أن يوجد تحولاً جذرياً وأساسياً فكـرياً وروحيـاً واجتماعيـاً في المسلمين ، يستطيـع المسلم في ظله أن يصل إلى سعادته الأبدية .

وهنا نقول : لو كانت الشيعة في اتّباعها لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذت سبيلاً غير سبيل وصايا الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لانتقدوهم وخطّأوا خطهم وحركتهم ، وإلا فلا .

أيها القارىء العزيز : إن الخليفة الأول حينما استخلف الخليفة الثاني ونصبه لخلافتـه ماذا قـال ؟ أفهل قـال أكثر من جملة واحـدة أثبت بها مقـام الخلافة وزعامة المسلمين التي كانت للخليفة الأول، للثاني؟ فلماذا كل هذه العبارات المختلفة والكـلام الصريـح للرسول (صلى الله عليـه وآله وسلم) بشأن علي (عليه السلام) لا تثبت إمامته وقيادته؟ بينما نرى أن كلام الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنطق وأصرح وأوضح من كلمة الخليفة الأول للثاني ، أفهل كل هذه الروايات للتعبيرات المختلفة للرسـول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تثبت مقام الزعامة الدينية لعلي (عليه السلام) على الأقل ؟ ليقض العقلاء المنصفون .

* * *

العلاقة بين القرآن وعترة الرسول

إن (حديث الثقلين) من أكثر الأحاديث التي نقلها علماء الإسلام عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وأثبتوها في المصادر الأولى لحديث أهل السنة ، ومن أكثرها اعتباراً وأقواها إسناداً ، بحيث بالإمكان القول : بأنه من أعلاها درجة في التواتر والاعتبار ، وهو هكذا :

« إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً »[1] .

ونقل بعض علماء أهل السنة : أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أضاف في آخر الحديث يقول :

« إن علياً مع القرآن ، والقرآن مع علي ، لن يفترقا »[2] .

---

(١) صحيح مسلم ٧ : ١٢٢ وصحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١٠٩ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ١٤و١٧ . والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ٢٤ . وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١٣٠ وينابيع المودة للحنفي البلخي الباب ٤ : ١٧و١٨ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٢ وتفسير الفخر الرازي ٣ : ١٨ وتفسير النيسابوري ١ : ٣٤٩ .

(٢) ينابيع المودة : ٣٢ و٤٠ . والصواعق المحرقة لابن حجر الباب ٩ : ٥٧. وكشف الغمة ١ :٤٢ .

وقد نسب علماء الإسلام رواية هذا الحديث إلى زهاء ثلاثين رجلاً من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[1] .

وكما كتب المحدثون والمؤرخون من الشيعة والسنة : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في مختلف الأوقات وحتى في اللحظات الحساسة الأخيرة من عمره الشريف يجذب انتباه الناس إلى تلك العلاقة العميقة بين هذين المرجعين ذوي الأهمية القصوى في الإسلام أي القرآن الكريم وعترته (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكان بهذه الجملة الثرية بالمعاني قد لخص برنامج العمل المستقبل المسلمين . لذلك، وحسب اختلاف الموارد نرى في شكل الحديث اختلافاً من حيث الإجمال والتفصيل ، ولكنها من حيث المحتوى كلها تبيّن لنا مفهوماً واحداً ، أي ترينا تلك العلاقة العميقة والأكيدة ، والوطيدة والتليدة ، بين القرآن الكريم وأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) وتؤكّد الالتحام الكامل بينهما .

كتب ابن حجر من علماء السنة يقول :

مر في الشبهة الحادية عشرة عدة طرق لهذا الحديث ، جاء في بعضها أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قاله في حجة الوداع في عرفة ، وفي طرق أخرى في غدير خم ، وفي بعضها : أنه قاله في المدينة في مرضه إذ كانت حجرته مملوءة من صحابته ، وفي طريق آخر أنه قاله في رجوعه من الطائف .

ثم أضاف يقول : ولا منافاة بينها ، فلا مانع من أن يكون قد كرر هذه الحقيقة في جميع هذه الموارد وموارد أخرى ؛ وذلك لما للقرآن الكريم وعترته الطاهرة من أهمية[2] .

---

(١) سيرة الحلبي ٣ : ٣٠٨ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر الأول الباب ١١ : ٨٩ .

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في رواية أخرى : « علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار »[1] .

ونحن نعلم أن آيات القرآن الكريم هي مجموعة الأوامر والقوانين الإسلامية، والعمل بتعاليمه يتضمن سعادة ونجاة بني الإنسان؛ إلا أن الذي يجب أن يتعهد بتفسيره وتأويله هو من يكون عارفاً بلسان الوحي محرزا للصلاحية العلمية والعملية من جميع الجهات . لذلك يعتقد الشيعة أنه يجب أن يصدر التعريف بذوي الصلاحية لتفسير الكتاب السماوي من قبل رسول الإسلام، وأن يؤكد رسول الإسلام عليهم ويعيّنهم لهداية الناس وإرشادهم ، وهؤلاء هم الذين يفهمون لسان الوحي ويتمكنون من تفسير الآيات الإلهية بأحسن وجه ممكن . إذن فتثنية العترة إلى جانب القرآن الكريم إنما هي بلحاظ حاجة هذا الكتاب السماوي للتفسير وتشريح أهدافه وأحكامه .

إن مضمون هذا الحديث يؤدّي بنا إلى أن التفكيك بين القرآن والعترة، والعمل بقول من لم يتعرف على حقائق القرآن الكريم لا يثمر إلا الضلال والضياع . حقاً ما معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» ومن الذي له أن يرد متشابهات القرآن إلى محكماته ؟

إن ما فعله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في جعله كلاً من القرآن والعترة بعضهما إلى جانب البعض الآخر وديعتين خطيرتين ، يعني أن مسيرهما إلى هدف واحد، فأحدهما كلام الله والدستور السماوي ، والآخر منفذه ومفسره وحاميه ، ولذلك كان الانحراف والابتعاد عن العترة مؤدياً إلى الهلاك .

إن انحراف المسلمين ـ ومنه انحطاطهم ـ بدأ من الفصل بين هذين

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ : ٦٨ وفرائد السمطين للحمويني الشافعي الباب ٧ : ٣٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤ : ٢١ وتفسير الفخر الرازي ١ : ١١١ وجاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي .

الثقلين والتفكيك في التمسك بهما ، ومنذ أن استولت أطروحة « كفانا كتاب الله » على الفكر والرؤية الدينية للناس ، ومنذ أن قامت مدارس الأشعريين والمعتزلة وكأنهم أعرف بكتاب الله من رسوله وأكثر إدراكاً لمعناه ! .

إن فهم القرآن وبيان معارفه إنما يتيسر ببيان أصحاب العلم اللدنّي الإفاضي ، والذين نبعت معارفهم من تعليم إلهي خاص ، وهو ما لا نجده إلا في الأئمة المعصومين (عليهم السلام) .

وقد نقل ابن حجر العالم السني الشهير في كتابه (الصواعق المحرقة) كلاماً عن الرسول يقول :

« لا تتقدموها فتهلكوا ، ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم »[1] .

وقال علي (عليه السلام) :

« هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حِكَم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية . فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل »[2] .

إن مضمون الحديث يؤدي إلى أن آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معصومون من المعاصي والآثام والزلات والخطايا ، فإن من يكون مع القرآن الكريم ، ويكون الناس مكلفين بالتمسك بهما إلى يوم القيامة ومواجهة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في عرصاتها، وأن يكونوا في التزامهم بخط الإسلام ملتزمين بهما لا يتركونهما ، لا بد أن يكون قرين

---

(١) الصواعق المحرقة المحرقة لابن حجر باب وصية النبي بهم :١٥٣ .

(٢) نهج البلاغة ٣٥٧، ٣٥٨ـ الصالح .

القرآن معصوماً من الانحراف والزلات والخطايا ،كما أن القرآن محفوظ عن الخطأ والتحريف ؛ فإن الله لا يأمر الناس بطاعة المتلوث بالآثام ، ولا يحكي رسوله عن علاقة بينهما غير قابلة للانفكاك ، بل إنما يلازم القرآن من كان مبرأً من الرجس والآثام ، فالذين فرض الله على المسلمين اتباع كلامهم وأمرهم لا ينبغي أن يتطرّق إلى ساحتهم نقص في طاعتهم لربهم ، أو عيب من ذنب .

ولم يكتف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسائر كلماته فيهم ، حتى صرح بعدد خلفائه بعده فقال :

« إن خلفائي على عدد نقباء بني إسرائيل اثنا عشر ، كلهم من قريش ـ وفي رواية ـ كلهم من بني هاشم »[1] ولا ينطبق هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر على غير الأئمة الطاهرين من أهل بيته وعترته ، فالخلفاء الراشدون لم يكونوا اثني عشر ، وليس بالإمكان أن نطبق الخبر على خلفاء بني أمية وبني العباس فإنهم ـ بالإضافة إلى عدم انطباق عددهم على العدد في الحديث ـ قد ارتكبوا من الفظائع في حكومتهم ما سبب للدين الخراب والدمار ، بدل أن يكونوا مصلحين وسبباً في سعادة الأمة الإسلامية ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء خلفاء للرسول .

لكن الذين لم يجدوا بداً من الاعتراف بصدور الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أراد لهم شيطانهم أن يعرضوا عن الأئمة الاثني عشر ، اضطروا إلى تأويل الحديث تأويلاً ينسجم مع مضمونه ونصه ، إذ إن الخلفاء بعد النبي من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين يبلغ عددهم إلى أكثر من ثلاثين رجلاً ، فالمدّعون للخلافة من القرشيين يتجاوز عددهم من حيث التاريخ العدد ا لمذكور في الحديث ، وعلى هذا فإن نحن

---

(١) صحيح مسلم ٦ : ٢ صحيح البخاري كتاب الأحكام الباب ١٠٥ . مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٩٧ و ٢ : ٨٦ .

أعرضنا عن التفسير المنطبق على أئمة الشيعة فلا يبقى لنا من هذا الحديث معنى واضح .

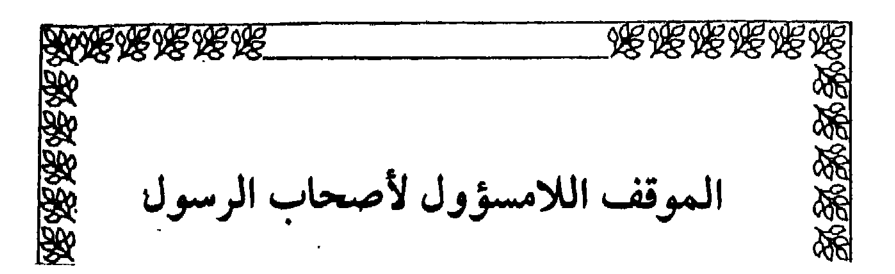
وكتب من علماء السنّة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي بنظرة بعيدة عن التعصب الأعمى، يقول : « قال بعض المحققين : إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) اثنا (اثني) عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان أعلم أن مراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من حديثه هذا : الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته ؛ إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ؛ لقلتهم عن اثنا (اثني) عشر . ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأموية لزيادتهم على اثنا (اثني) عشر ولظلمهم الفاحش ، إلاّ عمر بن عبد العزيز ، ولكونهم غير بني هاشم ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : كلهم من بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر وإخفاء صوته (صلى الله عليه وآله) في هذا القول يرجح هذه الرواية ، لأنهم لا يحسّنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلّة رعايتهم الآية : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ﴾**[1] وحديث الكساء ؛ فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثنا (الاثني) عشر من أهل بيته وعترته (صلى الله عليه وآله) لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلّهم ، وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً ، وأكرمهم عند الله ، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدّهم (صلى الله عليه وآله) وبالوراثة واللدنّيّة . كذا عرّفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق . ويؤيّد هذا المعنى ـ أن مراد النبي (صلى الله عليه وآله) : الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته . ويشهد به ويرجحه حديث الثقلين ، والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيره . وأما قوله (صلى الله عليه وآله) كلهم تجتمع عليه الأمة ـ في رواية جابر بن سمرة ـ فمراده (صلى

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

الله عليه [وآله] وسلم) : أن الأمـة تجتمع على الإقـرار بالأئمـة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي »[1] .

(١) ينابيع المودة : ٤٤٦ ط بصيرتي .



الموقف اللامسؤول لأصحاب الرسول

وهنا سؤال يطرح نفسه هو أنه : مع أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد أعلن وصاية وخلافة علي (عليه السلام) وأكد على زعامته بعده ، سواء في يوم الغدير أو كل موطن وموقف وقف فيه الرسول قبله وبعده ، فماذا حدث بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أعرض أصحابه وأنصاره عن هذا الأمر الإلهي ؟ وعن طاعة علي (عليه السلام) تلك الشخصية القيمة ؟ واختاروا غيره لعنوان ولاية الأمة الإسلامية وتركوا زمام أمورهم بيده وأطاعوا أمره ؟ ! .

أفهل كان في كلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إبهام عام ؟ أم لم تكن كل تلك الأنواع المختلفة من التعبيرات تكفي لإثبات فضله وموقعيته الدينية وتعريفه لهم لمقام الإمامة والقيادة ؟ ! .

وبالإمكان أن نجد جواب هذا السؤال بالمراجعة إلى تاريخ الإسلام وملاحظة حوادث عصر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). فنحن نرى أنه كان يوجد بين الأصحاب عناصر كانت إذا لم تتفق أوامره (صلى الله عليه وآله وسلم) مع ميولهم ومشتهياتهم كانوا يضغطون عليه لصرفه عن أمره ، ولكي يمنعوه عن تنفيذ برامجه بأي طريق ممكن ، وإذا ما يئسوا من الوصول إلى مقاصدهم ، كانوا يسمحون لأنفسهم أن يعترضوا عليه . والقرآن الكريم

يذكّر هؤلاء أن لا يخالفوا أوامر رسول الإسلام حيث يقول : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[١] .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما كان يجهز الجيش لحرب الروم في أواخر أيام حياته المباركة ، واختار أسامة بن زيد بن حارثة الشيباني لقيادة الجيش ، ثقل نصب هذا الشاب لمقام القيادة على جماعة منهم مع وجود شخصيات من ذوي سابقة في السن والإسلام ، وبلغ الأمر بهم إلى أن وقعت بينهم مشاجرة لفظية في ذلك ، والمتشددون في مخالفتهم للأمر طلبوا من رسول الله عزله عن ذلك ، لكنه لم يلتفت إلى طلبهم هذا . ومع كل التأكيد الذي كان يؤكده لخروج الجيش ، وأمره أبا بكر وعمر بالالتحاق بالمجاهدين ، مع ذلك خالف هؤلاء هذا الأمر الصريح للرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) وامتنعوا عن الذهاب إلى جبهة القتال بل تخلفوا عن العسكر ورجعوا إلى المدينة بحجة أنهم لا يستطيعون فراق الرسول وهو بهذا الحال[٢] .

وإن الكلام الموهن لبعض الصحابة آذى رسول الله بشدة ، فخرج من بيته إلى الناس معصب الرأس مدثراً بقطيفته محموماً ألماً ، وكان ذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول قبل وفاته بيومين ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق بها »[٣] .

---

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٣٨ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٢ والكامل ٢ : ٦٢١ .

(٣) راجع ما شئت من الكتب المشتملة على أخبار هذه السرية :

الطبقات لابن سعد وتاريخ الطبري وابن الأثير والسيرة الحلبية والسيرة الدحلانية وراجع المراجعة (٩٠) من المراجعات للإمام شرف الدين ٢٨٤ ط دار الصادق .

كان سعي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أواخر لحظات حياته في أن يخلي المدينة من رؤوس الأنصار والمهاجرين ، ولهذا جهز جيش أسامة وأصدر النفير للجهاد وأمرهم أن يتحركوا إلى جهة حدود بلاد الشام. إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد بإصرار من رؤوس صحابته أن ينضووا تحت راية قيادة أسامة فيخرجوا من مركز إمارة الإسلام ويلتحقوا بصفوف المجاهدين ، وإنما استأثر لنفسه في هذه الموقعية الحساسة علياً (عليه السلام) . إن هذا الإقدام من نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) في الدقائق الأخيرة من حياته لعجيب حقاً ، ومليء بالمعاني ، ولكنهم لم يفعلوا ما أراد منهم ، بل تخلّفوا عن أمره وعن جيش أسامة ! .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يجعل في جميع حياته أحداً قائداً على علي (عليه السلام) ، بل كان هو في جميع الموارد حامل الراية واللواء أو أمير العسكر، بينما كان هنا أبو بكر وعمر من جنود جيش أسامة ، كما كانا في غزوة ذات السلاسل من جنود عمرو بن العاص ! أما علي بن أبي طالب (عليه السلام) فإنه منذ بعثة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى وفاته لم يكن تابعاً لأحد إلا شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذه نقطة لها معناها .

* * *

إن التاريخ لن ينسى أبداً أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما كان في فراش المرض ،وهو يحس أن أواصر حياته الشريفة في انقطاع، طرح لتنفيذ برنامجه الأطروحة الأخيرة : وصمّم على أن يعمل بهذا الطرح فوراً ولذلك قال: « إيتوني باللوح والدواة أو: بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده»[1] . وكما كان قد وضح وظيفة الأمة في أمر الإمامة في خطاباته وكلماته المكررة سابقاً كان لآخر مرة يريد أن يدع في أيدي

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٢٤٢ ومسند أحمد بن حنبل ١ : ٣٤٦ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ وتاريخ الطبري ٣ : ١٩٣ ط دار المعارف واللفظ للطبري .

المسلمين بعده سنداً مكتوباً ونصاً صريحاً محكماً في أمر وصفه القرآن بأنه من كمال الدين ، ولكي يسدّ بذلك الطريق على أي انحراف عن أوامره بذلك الصدد في المستقبل . ولكن الذين كانوا قد امتنعوا عن الذهاب لجبهة القتال خلافاً لأمره ، كانوا يراقبون الأمر لينفذوا مخطّطاتهم في أول فرصة ممكنة ؛ ولذلك لم يتركوا المسلمين يأتون للرسول (صلى الله عليه وآله) بالدواة والكتف[1] .

وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ! قال ابن جبير : ثم نظرت إلى دموعه تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ؛ وقال : قال رسول الله : ائتوني باللوح والدواة ـ أو الكتف والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده . قال ابن عباس : فقالوا : إن رسول الله يهجر[2] .

وفي المناظرة التي جرت بين ابن عباس والخليفة الثاني في مسألة الخلافة قال الخليفة : إن رسول الله أراد أن يذكر علياً لكني لم أتركه يذكره[3] وذلك أنه عندما طلب الرسول الدواة والكتف قال : إن الرجل يهجر .

لقد أثبت هذه الجملة كثير من المحدثين والمؤرخين من أهل السنة ، بيد أن بعضهم حاول أن يصحح حديث الخليفة أو يقلل من غلوائه وثقله فكتب الجملة هكذا : إنه قد غلبه الوجع ، بيننا كتاب الله ، كفانا كتاب الله[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٢٤٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ٣٤٦ وصحيح البخاري ١ : ٢٢ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ١ : ٢٢ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ والطبري ٣ : ١٩٣ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٢٨ . وتاريخ الذهبي ١ : ٣١١ . وتاريخ الخميس ١ : ١٨٢ . والبدء والتاريخ ٥ : ٩٥ وتيسير الوصول ٤ : ١٩٤ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٩٧ .

(٤) صحيح البخاري ٤ : ٥ . وصحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ كتاب الوصية . وقريب منه لفظ ابن سعد في الطبقات ٢ : ٢٤٤ . ومسند الإمام أحمد بن حنبل الحديث : ٢٩٩٢ .

كأن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) لم يكن مطّلعاً على موقعيّة كتاب الله ، وأصحابه كانوا أكثر منه علماً بذلك . إن كان الرسول (صلى الله عليه وآله) لتثبيت مقام إمام الأمة بعده أراد أن يكتب له سنداً مكتوباً أفهل لنا أن نتهمه باختلال الفكر ؟! إن كان لنا أن ننسب تصميم الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى نقص في الإدراك ناشيء من شدّة وطأة المرض والألم فلماذا لا نتّهم الخليفة الأول أبا بكر في كتابته العهد لعمر في أواخر لحظات حياته باختلال الفكر ، وهو مريض في فراش الموت أيضاً . ولماذا لم يكرر عمر ما قاله بشأن رسول الله بشأن أبي بكر ؟ في حين أنه كان حاضراً عند أبي بكر ويعلم أن الخليفة الأول يريد أن يكتب له عهداً لتعيينه للزعامة ، ويريد أن يوقع على سند خلافة عمر من بعده ؟ .

وإن كان عمر يرى أن كتاب الله كاف لحل المشاكل ، فلماذا أسرع هو وأبو بكر بعد وفاة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى سقيفة بني ساعدة ليحلوا مشكلة خلافته بأفكارهم هناك ؟ ولماذا لم يتمسكوا في هذا الموضوع المهم بكتاب الله بل لم يذكروه ، في حين أن القرآن الكريم كان قد عين التكليف فيه[1] .

بل روى الطبري بسنده عن قيس قال : رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه وبيده جريدة وهو يقول : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله . إنه يقول : إني لم آلكم نصحاً . قال : ومعه مولى لأبي بكر يقال له : شديد ، ومعه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر[2] .

* * *

بل إن الأنظار الشخصية المخالفة لأوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) استمرت بعده مما أدى إلى تغيير بعض الأحكام الإلهية في عهد

---

(١) آية التبليغ بشأن الغدير ، وغيرها .

(٢) الطبري ٣ : ٤٢٩ ط دار المعارف .

الخليفة الثاني وبأمره ، مما أثبته الكثير من الكتب المعتبرة لأهل السنة[1] .

وكان يقـول: ثلاث كنّ على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهن وأعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحيّ على خير العمل[2] .

وهو الذي أمر أن يقولوا في أذان الفجر : الصلاة خير من النوم[3] .

وفي صحيح الترمذي : سأل رجل من أهل الشام عبدالله بن عمر عن المتعة ، فقال عبد الله : حلال ، فقال الشامي : أليس قـد نهى عنها أبـوك عمر ؟ فقال عبد الله : إن كان نهى عنهـا عمر وأحلهـا رسول الله فهل تترك السنة لقول عمر ؟[4] .

وكان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والخليفة أبي بكر وثلاث سنين من خلافة عمر نفسه ،إذا طلّق الرجل زوجته ثلاث مـرات في مجلس واحد دون رجوع ، كان يعد طلاقاً واحداً ، ولكن عمر قال : إنه يعدها ثلاث تطليقات [5] .

ولا تقول الشيعة إلاّ بأنه طلاق واحد، وقد صرّح الأستاذ العلامة الشيخ محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر في مصر في وقته : برجحان فقـه الشيعة في هـذه المسألـة وكثير من المـوارد الأخـرى[6] . ولا يحق لأحـد أن يغيـر الأحكام الإلهية الأولية حتى الرسول ، والقرآن الكريم يقول : **﴿ ولـو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم**

---

(١) راجـع سيرة ابن هشـام ٤ : ٢٧٣ ومسند الإمـام أحمد بن حنبـل ٣ : ٣٠٤ و ٣٨٠ وصحيح مسلم ٤ : ٣٧ و ٣٨ و ٤٦ وتاريخ الطبري ٢ : ٤٠١ .

(٢) الغدير ٦ : ٢٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ٤٠٨ وصحيـح مسلم ٤ : ١٨٣ والبدايـة والنهايـة ٣ : ٢٣ والسيرة الحلبية ٢ : ١٠٥ .

(٤) الفصول المهمة : ٦٤ .

(٥) صحيح مسلم ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٦) مجلة رسالة الإسلام ، العدد الأول من السنة ١١ ط مصر .

من أحد عنه حاجزين ﴾[1] ولكنّا نرى أن بعض الصحابة كانوا يجتهدون في بعض الأحكام المنصوصة ، وبذلك كانوا يغيرون ويبدّلون منها حسب تفكيرهم ، اجتهاداً في مقابل النص ! .

كل هذا يبين لنا أن قسماً من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يتخذون مواقف شخصيته في مقابل الرسول؛ ولا يتقيدون بأوامره ونواهيه ، فإذا كان بعض أوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينسجم مع أذواقهم الشخصية كانوا يحاولون أن يتخلصوا منه أو يغيروه .

إذن فإنّ غمض العين عن نصوص الرسول (صلى الله علّيه وآله) في يوم الغدير والموارد الأخرى ، لا ينبغي أن يتلقى وكأنه شيء عجيب وغريب لا سابقة له ، بالقياس إلى اتجاهات بعض الصحابة في حياة النبي العظيم .

هذا ، ومن ناحية أخرى : نرى في كل مجتمع أن هناك أكثرية ساكتة من الناس لا يأبون متابعة كل من تقدم وأخذ بزمام المبادرة في الأمور السياسية والاجتماعية ، وهذا واقع لا يقبل الجدل .

وبنفس الحال كانت هناك شخصيات مستقلة مرموقة محترمة عند الأمة ، لم يغيروا موقفهم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)فلم يؤيدوا ما وقع من الاختيار في السقيفة ، واعتزلوا أكثرية الناس في أطروحة الشورى معترضين عليها ، ومع أن الجو الموجود يومئذ ضغط على أصواتهم فخمدت ، إلا أنهم بقوا أوفياء لإمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام) نذكر منهم تلك الشخصيات البارزة مثل : سلمان الفارسي المحمدي ، وأبي ذر الغفاري ، وأبي أيوب الأنصاري ، وخزيمة بن الثابت ، والمقداد بن الأسود الكندي ، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم ، وأبي بن كعب الأنصاري ، وخالد بن سعيد ، وبلال الحبشي ، وقيس بن سعد بن عبادة

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ٤٤ ـ ٤٧ .

الخـزرجي ، وبريـدة الأسلمي ، وابي الهيثم ابن التيهان ، وأبـان ، وكثيـر غيرهم ممن أثبت التاريخ ذكره ، وقد ضبط بعض المحققين من هؤلاء مئتين وخمسين رجـلاً من صحابـة رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) بـالتفصيل[١] وذكـر اليعقوبي منهم : أبـا ذر الغفـاري ، وسلمـان الفـارسي والمقداد بن الأسود ، وخالد بن سعيد ، والزبيـر ، والعباس ، والفضـل بن العباس ، والبـراء بن عازب ، وأبي بن كعب[٢] .

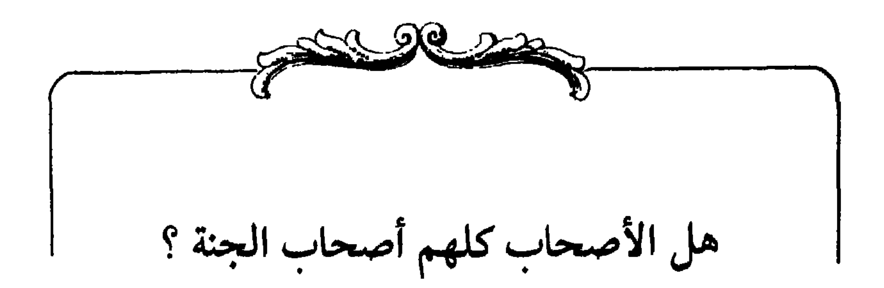
وفي موضوع الخلافة خالف قيس بن سعد بن عبادة أباه وأقسم أن لا يكلّمه أبداً. هؤلاء جماعـة من الشيعة في صـدر الإسلام ، الـذين وقفوا إلى جانب إمامة علي (عليه السلام) وقوفاً إلى جانب نصـوص الكتاب والسنـة ، وقد بقوا ثابتين على عقيدتهم هـذه ـ اللهم إلا الزبير بن العوام . وعلى عهـد الخلفـاء الثلاثـة كـان يـزداد عـدد من هم من الشخصيـات البـارزة ورجـال الفضيلة ، وقـد بقيت أسماؤهم تـذكر في كتب التـاريخ والتـراجم مقـرونـة بالطهارة والفضيلة والتقوى ، نذكر منهم : محمد بن أبي بكر ، وصعصعة بن صوحـان العبدي ، وزيد بن صوحان العبدي ، وهشام بن عتبة ، وعبد الله بن بديل الخزاعي ، وميثم التمار ، وعدي بن حاتم الطائي ، وحجر بن عـدي الكنـدي ، والأصبغ بن نبـاتة ، والحـارث بن الأعور الهمـداني ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، ومالك الأشتر النخعي ، وعبـد الله بن هاشم المـرقال ، وكميل بن زياد ، ورشيد الهجري ، وأويس القرني اليمني ، وغيرهم كثير .

* * *

---

(١) راجع الفصول المهمة للإمام السيد شرف الدين : ١٧٧ ـ ١٩٢ .

(٢) اليعقوبي ٢ : ١٠٣ .



هل الأصحاب كلهم أصحاب الجنة ؟

ليس بالإمكان أن نتخذ ثناء القرآن الكريم على العمل السابق لبعض أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دليلاً على براءتهم وطهارتهم ونزاهتهم وقداستهم من جميع أنواع الفساد والانحراف في جميع أعمارهم ، فنحسب أن أعمالهم كيفما كانت وفي أي زمان من أعمارهم كانت موصوفة بالعدالة ، وأنهم جميعاً كانوا على حق مطلق ! فإن رضا الله والسعادة الأبدية للإنسان المسلم إنما هو فيما إذا استمر إيمانه وعمله الصالح في طول عمره ، أما إذا انتفت منهم هاتان الخاصيتان ، فانحرفوا إلى الفساد عقيدة وعملاً ، فإن ماضيهم المشرق الوضّاء ليس له أي دور في سعادتهم في مستقبلهم .

إن الرسول الأكرم (صلى الله عليهم واله وسلم) معلم الإنسانية والتقوى ، وأسوة الفضائل والأخلاق ، والمعصوم عن المعاصي والآثام ، يخاطبه القرآن الكريم بقوله : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[1] مع وضوح أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بماله من صفة العصمة لا ينفصل عن الله لحظة عين أبداً، وإنما خاطبه القرآن الكريم بهذا الخطاب أو قل عاتبه بهذا العتاب، إيعازاً إلى أن لا يتطرق إلى أصحابه الغرور فيشوب الرياء في قصدهم القربة إلى الله تعالى ، بل تأكيداً

(١) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

على أن يعبىء المسلم الصحابي كل قواه وطاقاته واستعداداته الجياشة في طريق رضا الربّ سبحانه حتى آخر لحظة من حياته ، مستقيماً على الطريقة الحقة القويمة ، وهكذا يصف القرآن الكريم شيخ الأنبياء إبراهيم وولده (عليهما السلام) فيقول :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض . . . فلما جنّ عليه الليل . . . وحاجّه قومه قال : أتحاجّوني في الله وقد هدان . . . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه . . . ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً هدينا ونوحاً من قبل ومن ذريته داود وسليمان . . . وكلاً فضّلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾[1] .

ونحن نعلم أنه سبحانه لا يعني بذلك إمكان وقوع الشرك ممن وصفهم بالهداية ، وإنما يعني بذلك أصحابهم وأتباعهم وأممهم وشعوبهم .

ونحن نعلم ـ ببداهة التاريخ ـ أنه لم يكن كل من عرف باسم الصحابي صالحاً متقياً ، ولنا أن نفهم ذلك أيضاً من حديث نقله البخاري في صحيحه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال :

« أنا فرطُكم على الحوض ، ليرفعن إليّ رجال حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول أي ربّ أصحابي ؟ يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك »[2] .

« وعن أبي حازم قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : سمعت النبي يقول : « أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني

---

(١) سورة الأنعام : الآيات ٧٤ ـ ٨٨ .

(٢) صحيح البخاري ٩ : ٥٨ كتاب الفتن . و ٨ : ١٤٨ وفي آخره : ونقل أيضاً عن حذيفة .

وبينهم » . قال أبو حازم : فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا فقال : هكذا سمعت سهلاً ؟ فقلت نعم . قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه، قال: « إنهم مني فيقال : إنك لا تدري ما بدلوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي »[1] .

« وعن ابن عمر : أنه سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[2]

« وعن ابن عباس في حديث له عنه يقول فيه : وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ؟ أصحابي ؟ فيقول : إنه لم يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم . فأقول كما قال العبد الصالح : :﴿ **وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيني كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾[3] » .

« وعن أنس عن النبي قال : ليردنّ علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول : أصحابي ! فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك »[4] .

« وعن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله قال : يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلأون عن الحوض ،فأقول : يا رب أصحابي ! فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى »[5] .

« وروي عن عمار بن ياسر أيضاً أنه قال : إن في أصحاب النبي

---

(١) صحيح البخاري ٩ : ٥٨ ، ٥٩ كتاب الفتن و٨ : ١٥٠ . وصحيح مسلم ٧ : ٩٢ .
(٢) صحيح البخاري ٩ : ٦٣ ، ٦٤ وكتاب الفتن وصحيح مسلم ١ : ٥٨ .
(٣) صحيح البخاري ٤ : ١٦٩ و ٢٠٤ و٦ : ٦٩و٧٠ و١٢٢ . و٨ : ١٣٦ وصحيح مسلم ٨ : ١٥٧ .
(٤) صحيح البخاري ٨ : ١٤٩ وصحيح مسلم ٧ : ٧٠ ، ٧١ .
(٥) صحيح البخاري ٨ : ١٥٠ .

(صلى الله عليه [وآله] اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط »[1] .

وكتب التفتازاني في كتابه (شرح المقاصد) يقول : « إن ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المذكور المسطور في كتب التواريخ والمذكور على ألسنة الثقات، يدل بظاهره على أن بعضهم قد حاد عن طريق الحق ، وبلغ حدّ الظلم والفسق. وكان الباعث له الحقد والعناد والحسد واللداد ، وطلب الملك والرئاسة ، والميل إلى الملذات والشهوات ، إذ ليس كل صحابيّ معصوماً ، ولا كل من لقي النبي بالخير موسوماً . . »[2] .

إذن ، فإن لم يكن لأتباع بعض المذاهب الإسلامية مودة بالنسبة لبعض الصحابة أو التابعين ، بل كانوا يشكلون عليهم بعض الإشكالات ، لم يكن ذلك علة للعنهم أو سبباً لسبهم ، ولا ينبغي أن تؤدي هذه الأمور إلى الجدل والنزاع والحقد بينهم ، ولا يجوّز ذلك لأن نحكم على أمة رسول الله بالفسق أو الكفر ، فإن ذلك كان موجوداً بين الأصحاب أنفسهم : فقد صاح جمع منهم في السقيفة بقتل سعد بن عبادة ، فأخذ ابنه قيس بن سعد بلحية عمر يجرّه إليه ! وصاح الزبير في السقيفة : أنه لا يغمد سيفه إلاّ أن يبايعوا علياً (عليه السلام) ، فصاح عمر عليه : خذوا على يد هذا الكلب ! فضربه أصحاب عمر ! وإن عمل عمر مع المقداد في السقيفة ، وعمل عثمان مع ابن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذرّ الغفاري وكثير من سائر اصطداماتهم تبيّن لنا ما كان بينهم من جدال وسباب ! وعلى هذا فالآراء المختلفة بالنسبة إلى بعض كان بينهم صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله) لا تجوّز لنا تكفير أصحابها أو لعنهم ، ولا ينبغي أن نقدح في وحدة المسلمين من هذا السبيل .

---

(١) صحيح البخاري ٨ : ١٥٠ ، ١٥١ والجمع بين الصحيحين الحديث : ٢٢٧ .

(٢) شرح المقاصد ٢ : ٣٠٦ ط الأستانة .

بل إن في أتباع مذاهب السنة أيضاً من لا يرى حرمة لجميع الصحابة والتابعين ، فإن الذين أقدموا على قتل عثمان إنما كان كثير منهم من الصحابة والتابعين ، ولقد كان مالك بن نويرة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقتله خالد بن الوليد وهو منهم أيضاً. أجل، لقد كان في الأصحاب شخصيات كبيرة من حيث الإيمان والتقوى والتضحية بل في قمة العظمة والكمال، وكان فيهم أيضاً من كان كثير من أفكار الجاهلية وآدابها قد تعشعش في زوايا ضمائرهم، فكانت لهم علاقة خاصة بالسنن السابقة! وكثير من أهل مكة من لم يتقبل الإسلام حتى بعد فتحها ، إلا أن شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونفوذه وحشمته كانت قد غطت على اتجاهاتهم الباطنية وخصالهم في دخيلة ضمائرهم ، فكانت هيمنة تلك الشخصية العظيمة لا تسمح لهم أن يتظاهروا بصورتهم الواقعية ، وما أن ارتحل ذلك الرجل العظيم حتى رجعوا إلى السنة والأخلاق الجاهلية . إذن ، فالأخذ بسنن الصحابة وتبرئتهم عن جميع السيئات والآثام والعقيدة بعد التهم جميعاً مما لا ينسجم مع سنة رسول الله أيضاً .

وعلى هذا ، فإن السعادة ليست حصراً على المهاجرين والأنصار ، وليس لأحد أن يدعي أن السعادة إنما تحصل باتباع أحد هذين الفريقين ، بل إن السعادة مشروطة بشروط على من يسعى للحصول عليها أن يحتفظ بتلك الشروط حتى الممات كي يحظى بالسعادة والفلاح .

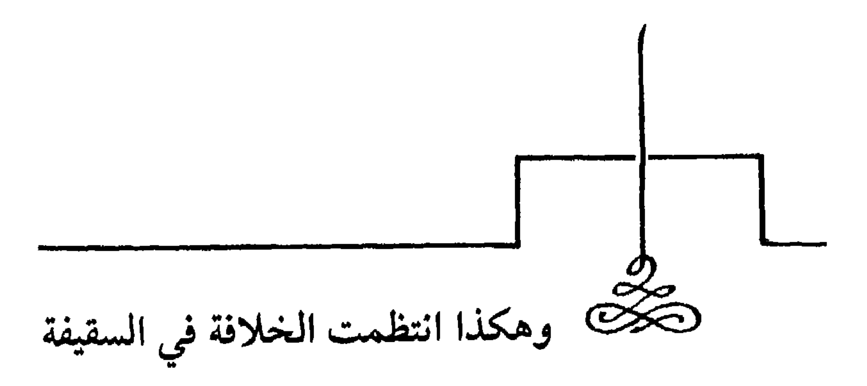
بيد أن علماء العامة يرون : أن جميع أصحاب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مجتهدون معذورون بل مأجورون ، ولذلك فهم ينزهونهم عما ينسب إليهم من عمل الخلاف أو يعذرونهم . وهذه الفكرة سلبت من الناس حق الاعتراض على عمل الصحابي ، وجرّأت جمعاً من طلاب الدنيا على ذلك ، فمدوا أيديهم إلى أية جناية من دون أن يكون لأحد أن يعترض عليهم بشيء ، أناس كعمرو بن العاص ، وسعيد بن العاص ، ومعاوية ، والمغيرة ، وخالد بن الوليد ، وبسر بن أرطأة . وبلغ الأمر إلى أن قال معاوية

بكل صلافة : إنما المال مال الله وأنا خليفة الله أعمل فيه كما شئت ! ولم يجبه أحد بشيء سوى صعصعة بن صوحان العبدي من أصحاب علي (عليه السلام) فإنه أجابه بجواب رده فيه .

ولو كانت الصحبة سبباً لسعادتهم وحصانتهم من كل سوء ، فلماذا ارتد بعضهم على عهد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى خيل الضلال ، فطرده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهدر دمه لولا شفاعة عثمان لأخيه من الرضاعة :سعد بن أبي سرح ؟! ألم يكن قائد الخوارج في النهروان « حرقوص بن زهير » من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ولم يكن أحد يومئذ يتصور أن هذا سيتجه في آخر عمره إلى تحريفة الضلال ، وأخبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مصيره الأسود المنكوب فقال : « إنه يمرق عن دينه كما يمرق السهم عن رميته » ! والتحق هو أخيراً بجماعة الخوارج ، وحمل في حرب النهروان بوجه علي (عليه السلام) لواء الباطل ، فقتل بيده (عليه السلام) .

وابتعد « عبد الله بن جحش » عن مركز الإسلام يومئذ مكة المكرمة فهاجر إلى الحبشة اضطراراً ، وكان الأمل فيه أن يكون هو إلى جانب سائر المسلمين المهاجرين إلى تلك الديار، يبدي من نفسه ثباتاً في العقيدة والرأي ، وأن يدافع عن حريم دين الله . . ولكن لم يمض شيء حتى استولى الظلام على قلبه ، فرفع اليد عن إسلامه ودخل في المسيحية ! .

إذن فإن رضا الرب عن صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مشروط بأن لا يبتعدوا عن الإيمان والتقوى حتى آخر حياتهم وإلى مماتهم، وأن لا يقطعوا ارتباطهم بالحق والحقيقة ، أما إذا غيروا اتجاههم واختاروا الانحراف عن الحق ، فإنه ستحبط أعمالهم الصالحة السالفة ، وتذروها الرياح ، ويتبدل رضا الله عنهم إلى غضبه عليهم لا محالة . وعلى هذا ، فليس لأصحاب الرسول (صلى الله عليهم وآله وسلم) والمؤمنين به ومن تبعهم بإحسان ضمان أن يكونوا على الحق والهدى دائماً .



وهكذا انتظمت الخلافة في السقيفة

انقضت حياة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) التي قضاها على أحسن ما يكون ومات ـ أخيراً ـ حامل رسالة الإسلام ، والمنقذ الأعظم ، وروح العالم ، ولبى دعوة ربه إلى الحياة الخالدة . وانقطع بموته الوحي . وانطفأت بموته تلك التجليات الملكوتية لذلك الوجود المقدس الذي يفوق وصف عظمته أفق قدرة البشر . . صلوات الله عليه .

لا زال جثمانه الطاهر على الأرض ، وكان علي (عليه السلام)وآل هاشم وعدد من الأصحاب مشغولين بتحضير مقدمات غسله والصلاة عليه ودفنه ، ولم يبق غير هؤلاء من يحوم حول جنازته[1] بينما اجتمع جمع من الأنصار تحت « سقيفة بني ساعدة » للحل والعقد في موضوع خلافة الرسول كما تشاء أهواؤهم ! .

« وأتى عمر الخبرُ فأقبل إلى منزل النبي (صلى الله عليه وآله) فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر في الدار ، وعلي بن أبي طالب دائب في جهاز رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فأرسل إلى أبي بكر : أن اخرج إليَّ ، فأرسل إليه : إني مشتغل ، فأرسل إليه : إنه قد حدث أمر لا بدّ لك من

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٠٤ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٤ وتاريخ الطبري ٣ : ٢١٩ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٦٠ وأسد الغابة ١ : ٣٤ والعقد الفريد ٣: ٦١ .

حضوره ! فخرج إليه ، فقال : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة . . فمضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم »[1] .

وكتب الكاتب المصري الشهير أحمد أمين ـ وهو ممن يتعصب ضد الشيعة جداً ـ يقول: اختلف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) على خلافته ، وكان ذلك قبل دفن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ولقد تآمر كبار الصحابة في خلافته وعلي (عليه السلام) مشغول بغسل الرسول ودفنه ، فلم يكن حاضراً عند جنازة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سوى علي (عليه السلام) وأهل بيته ، ولم يلتزم أولئك بأي حرمة لذلك الذي أنقذهم من ظلمات الجهل والضلال وهداهم إلى الحق المبين ، ولم ينتظروا دفنه وهم تنازعوا فيما بينهم على ميراثه[2] .

وثارت الأقوال في ذلك الاجتماع ، كل يحاول أن يعيّن للخلافة من يهواه ، وتذاكر الأنصار عن سابقتهم في الإسلام وإكرام الرسول لهم ، وجهادهم في سبيل الله ، كمزايا لهم لاستيلائهم على الأمر بعده ، فقالوا : نولّي هذا الأمر بعد محمد (عليه السلام) سعد بن عبادة ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض »[3] .

والمهاجرون يرون : أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل دارهم ، وأنهم لدخولهم في الإسلام وإيمانهم بالدين الحق قد هجروا أقرباءهم ونصروا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك فهم أحرى لإحراز هذا المنصب بعده !

إن هذه الروح القبلية التي كانت تسود أفكارهم ، كانت تسوّل لهم أن

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٩ .
(٢) نقلاً عن فجر الإسلام لأحمد أمين ، بتصرف .
(٣) الطبري ٣: ٢١٨ ط دار المعارف .

يحتكروا القوة التنفيذية لأنفسهم من دون أن يشاركهم فيها غيرهم ؛ بينما كان كل جناح منهم يزعم أنهم على استحقاق لأخذ الحكم[1] .

كان قد طال الكلام بينهم وانجرّ إلى النزاع والتخاصم ، وكان عمر وجمع من أصحابه يحمون جانب أبي بكر، وكان عمر يرغّب الناس إلى بيعته ويهدد المخالفين له .

وبدأ أبو بكر الكلام وأخذ في بيان مفاخر المهاجرين في خدمتهم لدينهم وعقيدتهم فقال :

« إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾[2] وقالوا : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[3] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به ، والمواساة له والصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر بعده، ولا ينازعهم ذلك إلّا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين ـ عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ! لا تفتئتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور ! » .

---

(١) الطبري ٣ : ٢١٨ ط دار المعارف .

(٢) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٣ .

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم، ولن يصدر الناس إلاّ عن رأيكم، أنتم أهل العزّ والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم ، فإن أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير ! .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع اثنان في قرن ! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ! من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدلٍ بباطل، أو متجانف لإثم ومتورط في هلكة! .

فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبيكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جُذَيْلُهَا المحكَّك ، وعُذَيْقُهَا المرجَّبُ ![1] أما والله لو شئتم لنعيدنَها جَذْعة (أي فتية) فقال عمر : إذاً يقتلك الله قال : بل إياك يقتل !

فقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار : إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر ! .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار ؛ إنّا والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين فما

(١) الجذيل المحكك : هو العود الذي يجعل في مبرك الإبل فتحتك الإبل به ، يضرب به المثل للرجل يستراح إليه .

والعذيق المرجب : النخلة التي تبنى إلى جانبها دعامة تسندها لكثرة حملها ، يضرب بها المثل للرجل الشريف المثمر . والمرجب : أي المعظم أو المؤيد .

أردنا به إلّا رضا ربّنا وطاعة نبيّنا والكدْح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك . ألا إن محمداً (صلى الله عليه وآله) من قريش وقومه أحقّ به وأولى ؛ وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتّقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم ! .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا ! .

فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟! ابسط يديك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد ، فبايعه .

فناداه الحبّاب بن المنذر : يا بشير عقك عقاق ! ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنَفِست على ابن عمك الإمارة (أي حسدته عليها) ؟ .

فقال : لا والله لا والله ، ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرّة فلا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ! فقوموا فبايعوا أبا بكر ! فقاموا إليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعداً لا تطأوه !

فقال عمر : اقتلوه قتله الله ! ثم قام على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك[1] فأخذ سعد بلحية عمر فقال عمر : والله لو

---

(١) أي تزول عن موضعها .

حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة[1] .

وقام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا معشر الأنصار ، إنكم وإن كنتم على فضل ، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي !

فقام المنذر بن الأرقم فقال : ما ندفع فضل من ذكرت ، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ، يعني علي بن أبي طالب ![2] .

وهنا صرخ جمع من الأنصار : لا نبايع إلا علياً. ويقول عمر :

« فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ! فبسط يده فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار . ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ! فقلت : قتل الله سعد بن عبادة »[3] .

وروى ابن قتيبة : أن بشير بن سعد الأنصاري لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادة قام ـ حسداً لسعد ، وكان بشير من سادات الخزرج ـ فقال : يا معشر الأنصار أما والله لئن كنا أولي الفضيلة في جهاد المشركين ، والسابقة في الدين ، ما أردنا ـ إن شاء الله ـ غير رضا ربنا وطاعة نبينا والكَدْحَ لأنفسنا ، وما ينبغي أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا ، فإن الله ولي النعمة والمنة علينا بذلك . ثم إن محمداً رسول الله رجل من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولي سلطانه ! وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً! فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم ! .

فقام أبو بكر فقال : إني لكم ناصح في أحد هذين الرجلين : أبي عبيدة بن الجراح أو عمر ، فبايعوا من شئتم منهما !

---

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . والخبر في الطبري ٣ : ٢١٩ ـ ٢٢٢ ط دار المعارف .

(٢) اليعقوبي ٢ : ١١٣ ، ١١٤ ط النجف .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ : ٣١٠ ط الحلبي وفي الطبري ٣ : ٢٠٦ ط دار المعارف . وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٤٦ .

فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا، أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله وأفضل منا في المال ! وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين، وخليفته على الصلاة والصلاة أفضل أركان الإسلام فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ، ابسط يدك أبايعك . فلما ذهبا يبايعانه سبقهما إليه بشير الأنصاري فبايعه . فناداه الحبّاب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عقتك عقاق ! ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ أحسدت ابن عمك على الإمارة؟! قال: لا والله، ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم[1].

وروى الطبري عن هشام الكلبي عن أبي مخنف ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عبد الرحمن بن عوف قال : فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطأون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعداً لا تطأوه ! فقال عمر : اقتلوه!قتله الله؛ ثم قام على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى تُنْدَر عضدُك (أي تزول عن موضعها) .

فأخذ سعد بلحية عمر . فقال عمر : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة [2] فقال أبو بكر : مهلاً يا عمر ! الرفق هنا أبلغ. فأعرض عنه عمر .

وقال سعد : أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك (أي يدخلكم في الحجر)أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع ! .

ثم قال لقومه : احملوني من هذا المكان . .

فحملوه فأدخلوه داره [3] .

ومضى أصحاب أبي بكر به إلى المسجد ليبايعه الناس ، وعلي (عليه

---

(١) الإمامة والسياسة :٨ و ٩ .

(٢)الواضحة : الأسنان التي تظهر عند الضحك .

(٣)الطبري ٣ : ٢٢٢ ط دار المعارف .

السلام) بعد لم يفرغ من غسل رسول الله (صلى الله عليه والـه وسلم) إذ سمع صوت التكبيـر مرتفعـاً من مسجد النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم) فسأل علي (عليه السلام) : ما الخبر ؟ فأخبره عمه العباس بالخبـر وقال : ألم أقل لك امدد يدك لأبايعك[1] .

وروى ابن إسحـق عن أنس بن مالـك قال : لمـا بويـع أبو بكـر في السقيفة (يوم وفاة الرسول) وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر. فقام عمر فتكلم فقال : .فقوموا فبايعوه . فبايع الناس البيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم قال ابن إسحق : فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله (صلى الله عليه [وآله]وسلم) يوم الثلاثاء. فلما فرغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته . . . ثم دخل الناس على رسـول الله يصلون عليه أرسالاً[2] .

إن الاجتماع الذي انعقد في سقيفة بني سـاعدة كـان يغيب عنه علي (عليه السلام)وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان ، وطلحة ، والزبير ، وحـذيفة ابن اليمان، وأبي بن كعب وأضرابهم، بل لم يكن فيه من المهاجرين سوى ثلاثة هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فحسب .

ألم يكن من اللازم أن يدعوا هؤلاء الشخصيات الكبار للمشاركـة في هذا المجلس والإدلاء بآرائهم في هذه المسألة الأساسية ؟ ! أفهل كانت هذه الجلسة القصيرة والمليئة باللغط والضوضاء وبمشاركة ثـلاثة من المهـاجرين فقط تكفي لأخذ قرار يتعلق بمصير المسلمين ؟! ألم تكن أهمية المـوضوع توجب أن تطرح هذه المسألة على طاولة البحث بمحضر من كبار الشخصيات الإسـلامية لـلإفـادة من أفكـارهم ثم يُتّخـذ القـرار النهـائي في جـوّ هـادىء سليم ؟! .

أولئك الذين كانوا يرون لأنفسهم الحق في أخذ هذا القرار ، إلى أي

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٣ : ٢٦٣ . وشرح ابن أبي الحديد ٢ :١٣٣ .

(٢)سيرة ابن هشام ٤ :٣١١ـ٣١٤ط الحلبي وأرسالاً أي : جماعات .

دليل استندوا في سلب هذا الحق من غيرهم ولم يعبأوا بآرائهم ؟ ! إذا استند جمع إلى عنوان الرأي العام واختاروا لمجتمعهم قائداً حاكما بعيدا عن مشاركة أصحاب النظر من الشخصيات الاجتماعية المحترمة عند الناس . فهل هو اختيار شعبي ؟ ! إن اختيار أبي بكر كان بدون إمعان نظر بل بدون إعداد سابق حتى أن عمر كان بعد ذلك يقول : « فلا يغرّنّ أمرأً أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وإنها قد كانت كذلك ، إلا أن الله قد وقى شرّها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه ، تغرّة أن يقتلا »[1] أي : خوفاً من أن يقتلا .

هذا ، على أن تعيين الخليفة الثاني من قبل الخليفة الأول يبيّن لنا أن الخلافة بالاختيار بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)كانت أطروحة لا أساس لها من الصحة ، إذ لم يرد أي أمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) بهذا الصدد وإلاّ لم يكن جمع من الناس يقترحون على الخليفة أن يختار لنفسه خليفة وهو بعد على قيد الحياة ، كي لا تضطرب في المجتمع المسلم أمواج الفتنة والفساد نتيجة خلاء الساحة من الزعيم القائد[2] .

وقد قال أبو بكر: لو كان أبو عبيدة حيّاً لكان لذلك أهلاً، لأني سمعت النبي يقول فيه : إنّه أمين هذه الأمة ! ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لكان أهلاً لذلك ، لأني سمعت النبي يقول فيه : إنه حبيب الله .

ومن ناحية أخرى ؛ نقول : إن اختيار القائد من قبل مجلس الشورى الذي عينه الخليفة الثاني ، لم يكن إثباتاً للنص ، ولا رجوعاً إلى الرأي العام ، وإن كان للخليفة أو عليه أن يختار الخليفة بعده فلماذا أحال هذا الأمر إلى الشورى المركبة من ستة أشخاص ؟

---

(١)سيرة ابن هشام ٤ :٣٠٨، ٣٠٩ط الحلبي .

(٢)انظر الإمامة والسياسة : ١٩ ط الحلبي .

لو كان اختيار الإمام حقاً من اختيارات الأمة وحقوقهم ، فبأي دليل سلب الخليفة الثاني هذا الحق من الناس ؟ وجعله في شورى اختارها هو ، ثم قال في أعضائها ما نفى عنهم صلاحيتهم لذلك .

هذا والقرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾[1] .

وفي موضع آخر يصف المؤمنين فيقول ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[2] .

ولكن المشورة هنا في الأمور الاجتماعية التي تتعلق بالخلق لا بالخالق ، ولا في مسألة الإمامة التي هي عهد من الله تعالى ، وما كان عهداً إلهياً لهداية خلق الله فلا يمكن الفصل فيه بالشورى .



---

(١)سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢)سورة الشورى : ٣٨ .

مستندات لا قيمة لها

إن الجو السائد في سقيفة بني ساعدة كان بحيث لو كان هناك صلحاء مخلصون لم يستطيعوا أن ينتصروا للحقيقة المهزومة، فإن الامتيازات التي كان المجتمعون في السقيفة يقولون بها لأنفسهم ـ وبذلك كانوا يرون الخلافة من حقهم ـ لم تكن امتيازات تستند إلى الكتاب والسنة ، وبين أولئك لم يكن حتى شخص واحد يطرح التقوى والرشاد ، والمستوى الروحي والمعنوي ، والمعرفة العميقة بمباني الإسلام وأحكامه ، والعصمة عن التلوث بالآثام شروطاً لإحراز مقام الخلافة وزعامة المسلمين ، بل أغمضوا عيونهم عن كل أولوية واقعية تتعلق بالقرآن والإسلام ، اللهم إلا بعض السوابق الحسنة .

وكان مما يبعث على الأسف عدم اعتنائهم بالكمالات الإنسانية والمعنوية الروحية ، من قبل أولئك الذين كان كل واحد منهم يأمل الانتصار على خصمه في ضميره ، في ذلك المجتمع التقريري !

حينما حفّ الأنصار بسعد بن عبادة خاطبهم فقال :

« يا معشر الأنصار ، إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع عبادة الأوثان ، فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا

يعرفوا دينه ، ولا يدفعوا عن أنفسهم . حتى أراد الله لكم الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوكم من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيد المكانة صاغراً داخراً ، حتى أثخن الله تعالى لنبيه بكم في الأرض ودانت بأسيافكم له العرب . وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين ، فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فإنكم أحق الناس وأولاهم به »[1] .

في حين أنهم إن كانوا يفكرون في مصالح الإسلام والمسلمين واستمرار رسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان عليهم بدل أن يستندوا إلى هذه المقاييس أن يلاحظوا مدى إلمام أوإحاطة الإمام والخليفة بمباني الشريعة وأسسها ومعرفته بالثقافة الإسلامية وحاجات المجتمع الإسلامي ، وطهارته من المعاصي والآثام الأخلاقية وما شاكل ، وأن يختاروا لمقام الإمامة من كانت له هذه الخصائص ويذعنوا له ويطيعوه . بينما جدالهم وكيفية استدلالهم مرآة يبدو لنا منها مدى عنايتهم بالجوانب المعنوية والروحية والفضائل النفسانية لخليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولهذا نراهم يقولون : « أنتم أهل العز والثروة ، وأولوا العدد والعدة ـ أو النجدة ـ وإنما ينظر الناس ما تصنعون »[2] .

وعمر يقول لأبي بكر : «أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفضل منا في المال»[3] . فتراهم يتفاخرون بالثروة وكثرة أفراد القبيلة ، فكأنهم يرون أن الفخر الأكثر هو في المال والعشيرة الأكثر عدداً ! وليس غضّهم أبصارهم عن الشروط الأساسية إلا

---

(١) الإمامة والسياسة : ٥ ط الحلبي .

(٢) الإمامة والسياسة : ٧ .

(٣) الإمامة والسياسة : ٩ .

لأنهم «أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله» من المعارف الإسلامية الواسعة والنواحي الروحية المعنوية ، أما العصمة فكيف يفهمونها وهم غير معصومين ؟ ! ولذلك نقول : إنهم لم يتمكنوا من أن يوطدوا أساس الحكومة الإسلامية على القيم الكبرى .

وأبو بكر يعترف أنه لا فضل له على كثير غيره ولا هو بعيد عن الخطأ والزلات فيقول :

« أيها الناس فإني ولّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني »[1] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن ابن عباس قال : كنت عند عمر ، فتنفس نفساً ظننت أن أضلاعه قد انفرجت فقلت : ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديد : قال : أي والله يابن عباس ، إني فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي ، ثم قال : لعلك ترى صاحبك لها أهلاً [يعني علياً (عليه السلام)] قلت له : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه ؟ ! قال : صدقت ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة[2] .

وروى ابن قتيبة في إباء علي (عليه السلام) عن بيعة أبي بكر : أنه أتي به إلى أبي بكر ، فقيل له : بايع أبا بكر فقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي . . . فقال له عمر : إنك لست متروكاً حتى تبايع . . فقال : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه . . فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلي (عليه السلام) : يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى

(١)سيرة ابن هشام ٤ : ٣١١ ط الحلبي . واليعقوبي ٢ :١١٧ ط النجف . وتاريخ الطبري ٣ ٢١٠ ط دار المعارف .والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢٩والبداية والنهاية لابن كثير ٦ :٣٠٣

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ١٠٦، ١٠٧ ط بيروت ٤ مجلدات .

أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به ؛ فسلم لأبي بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك[1] .

وروى مثله الشيخ الطبرسي في الاحتجاج ثم قال :

« فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : يا معشر المهاجرين والأنصار ؛ الله الله لا تنسوا عهد نبيكم إليكم في أمري ، ولا تخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن حقه ومقامه في الناس. فوالله معاشر الجمع إن الله قضى وحكم، ونبيّه أعلم وأنتم تعلمون ـ بأنا أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ، ما كان فيهم القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، المضطلع بأمر الرعية ، والله إنه لفينا لا فيكم ؛ فلا تبتغوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً ، وتفسدوا قديمكم بشرّ حديثكم »[2] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة بسنده : أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما مات وأبو ذر غائب ، وقدم وقد ولي أبو بكر فقال : أصبتم قناعة وتركتم قرابة ! لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان »[3] .

وبشأن المقداد بن عمرو يقول الراوي « دخلت مسجد رسول الله فرأيت شيخاً جاثياً على ركبتيه يتلهف تلهف من كأن الدنيا كانت له فسُلبها ، وهو يقول : واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين وابن عم رسول الله »[4] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أيضاً عن سلمان

---

(١) الإمامة والسياسة : ١١، ١٢ .وروى مثله الشيخ الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٩٦ ط ط النجف .

(٢) الاحتجاج١ : ٩٦ط النجف .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ١٣ ط أبو الفضل .

(٤) اليعقوبي ٢ : ١٥٣ ط النجف .

الفارسي أنه كان يقول للصحابة بشأن خلافة أبي بكر : « أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن » وفي رواية أخرى : « أصبتم ذا السن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رغداً »[1] .

وروي أن أم مسطح بن أثاثة خرجت يوماً إلى قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)فوقفت عنده ونادته : يا رسول الله :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها فاختلّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا »[2]

أجل ،إن علي بن أبي طالب ، أعني تلك الشخصية العظيمة الذي كان في سلوكه الأخلاقي الإسلامي ، وسيرته العملية ، وتقواه العميق بل عصمته ، ومواقفه الإنسانية نموذجاً واقعياً للحاكم الإسلامي . . كان يناجي ربه يقول :

« اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ويأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك »[3] .

فإذا كان في المجتمع الإسلامي من هو معصوم من المعاصي عالم بجميع المعارف ، معرف من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خليفة ووصياً له ، فلا معنى لأن يشكّل الناس مجلس شورى لاختبار الحاكم الزعيم ويتخذوا في ذلك قراراً لهم .

كما لم يكن أحد يتصوّر على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) أن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٤٩و٦ : ٤٣ ط أبو الفضل .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ١٣١و٦ : ٤٣ ط محمد أبو الفضل .

(٣) الاحتجاج للشيخ الطبرسي ١ : ٢٥٣ ونهج البلاغة ١ .

تتلخص مسؤوليّته في إبلاغ رسالته، وأن على الناس أن يتخذوا قراراً بشأن الحكومة ، وأن يختاروا لها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو غيره عن طريق المراجعة إلى الرأي العام أو الشورى . .

كذلك الوضع بالنسبة لما بعد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أي مع وجود أوصيائه الذين لا يبلغ شأوهم أحد في العلم بالأحكام الإلهية، ولا تتطرق إليهم الجرائم والزلّات، فإلى من نفزع لنأتي به إلى مسند خلافة حامل القرآن ؟ بل حيث إن الحكومة هي من شؤون الإمامة فلا صلاحية لزعامة أحد مع وجود إمام معصوم ، كما أن إدارة أمور الأمة في حياة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ليست من شأن أحد سواه ، ولم يكن أحد يصلح لأن يتعهد بأمر الحكومة والزعامة غيره .

ولهذا كتب العالم الشافعي الشهير ابن أبي الحديد يقول :«لا أحد كعلي (عليه السلام) كان يستحقها »[1] .

وروى الشيخ سليمان الحنفي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « كنا إذا عددنا أصحاب النبي قلنا : أبو بكر وعمر وعثمان. فقال رجل : يا أبا عبد الرحمن فعلي ما هو؟ قال : علي من أهل البيت لا يقاس به أحد ، هو مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في درجته ، إن الله يقول : ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم** ﴾ ففاطمة مع رسول الله في درجته وعلي معهما »[2] .

وعلى افتراض صحة منطق المهاجرين يوم السقيفة فالأولوية مع ذلك لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فإن أحداً لا يبلغ شأوه في السبق إلى الإسلام والإيمان، وذلك في جوّ لم يكن يساعده على ذلك، حيث لم يقبل قول الرسول (صلى الله عليه وآله) أحد من عشيرته الأقربين ، وكان أقرب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٥٢٠ .

(٢) ينابيع المودة : ٢٥٣ ط آستانة .

الأقربين إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)بل فتح عينه على يد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ونما وترعرع تحت رعايته وتربيته ، وقد انصهرت واختلطت بعمق روحه حقيقة الإسلام . إنه كان صهره وابن عمه وأخاه . .

« كلما أوقدوا ناراً للحرب أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها ، فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ، يخمد لهبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في الله ، قريباً من الله ، سيداً في أولياء الله ، مشمّراً ناصحاً ، مجدّاً كادحاً »[1] .

فمن كان أولى منه لإحراز مقام الزعامة الإسلامية بعده ؟ فلماذا وهبوا لغيره ما لا يملكون من سمة الخلافة للرسول في قيادة المسلمين ؟

* * *

أما حينما نراجع التاريخ لنجد جذور عمل الأصحاب وجدنا أن قريشاً لم تكن تود بني هاشم ، وكان هذا يظهر أحياناً على عهد الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)فكان أحياناً بعض القرشيين يفتحون أفواههم للطعن في بني هاشم بما كان يجرح عواطف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) [2]وبما أنهم لم يطيقوا تحمل خلافة بني هاشم كانوا يحاولون أن لا تستقر الخلافة فيهم[3] .

روى اليعقوبي في تاريخه عن ابن عباس قال : طرقني عمر بن الخطاب بعد هدأة من الليل فقال: اخرج بنا نحرس نواحي المدينة، فخرجت وخرج وعلى عنقه دِرّته ، حافياً حتى أتى بقيع الغرقد ، فاستلقى على ظهره وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوه صعداء !

---

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج ج ١ : ١٣٦ ط النجف .

(٢) ينابيع المودة ١٥٦ ، ١٢٢ .

(٣) ينابيع المودة ٢٧٣ وشرح ابن أبي الحديد ٣ :٢٨٣ .

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ما أخرجك إلى هذا الأمر ؟ قال : أمر الله يابن عباس .

قال : قلت : إن شئت أخبرتك بما في نفسك . قال : غص يا غواص إن كنت لتقول فتحسن . قال : قلت : ذكرت هذا الأمر بعينه وإلى من تصيّره قال : صدقت . . إلى أن قال : يا بن عباس أترى صاحبكم لها موضعاً ؟ فقلت : وأين يتبعد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعلمه ؟
قال : هو والله كما ذكرت ، ولو وليهم لحملهم على منهج الطريق فأخذ المحجة الواضحة إلا أن فيه خصالاً : الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي ، والتبكيت للناس مع حداثة السن !

قلت : يا أمير المؤمنين هلا استحدثتم سنّه يوم الخندق إذ خرج عمرو ابن عبد ود، وقد كعم عنه الأبطال ، وتأخرت عنه الأشياخ . ويوم بدر إذ كان يقط الأقران قطاً ، وهلا سبقتموه بالإسلام إذ كان حصيلته السغب ! .

فقال : والله يا بن عباس ؛ إن علياً ابن عمك لأحقّ الناس بها ، ولكن قريشاً لا تحتمله ، ولئن وليها ليأخذهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة ، ولئن فعل لينكثن بيعته ثم ليحاربن[1] .

وكذلك رواه ابن الأثير في الكامل [2] .

وقد تنبأ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بما تفعله قريش مع أهل بيته فقال :

« إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً . . . . »[3] .

وقد قال علي (عليه السلام) أيضاً :

---

(١) اليعقوبي ٢ : ١٤٧ ، ١٤٨ ط النجف .
(٢) الكامل في التاريخ ٣ : ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) ينابيع المودة : ١٣٥ ط آستانة .

« اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم ، فإنهم قد قطعوا رحمي ، وأكفأوا إنائي ، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري ، وقالوا : ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه ، فاصبر مغموماً أو مُتْ متأسّفاً . فنظرت فإذا ليس لي رافد ، ولا ذاب ولا مساعد ، إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية ، فأغضيت على القذى ، وجَرِعت ريقي على الشجا ، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم ، وآلم للقلب من وخز الشفار »[1] .

وقال عليه السلام كما في ينابيع المودة : « كل حقد حقدته قريش على رسول الله أظهرته فيَّ وستظهره في ولدي من بعدي ، مالي ولقريش! إنما وترتهم بأمر الله وأمر رسوله ، أفهذا جزاء من أطاع الله ورسوله ، إن كانوا مسلمين »[2] .

وقال المقداد بن عمرو الأسود الكندي : واعجبا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّهم ، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي ، وما أرادوا إصلاحاً للأمة ولا صواباً في المذهب ، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين[3] .

وكانت النتيجة أن وقعت الحكومة الإسلامية بيد أناس غير معصومين ، وبلغت الخلافة إلى حيث تبدل الجو الإسلامي إلى ما يشوبه الفساد فاقداً لروح الأخوة والمساواة والتقوى ، وفقد العالم الإسلامي ما له من خصائص دينية ومعنوية وعاد إلى الجاهلية العربية المشؤومة ، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه ! .

وروى الشريف الرضي (قده) في نهج البلاغة : قالوا : لما انتهت إلى

---

(١) نهج البلاغة ١ : ٣٣٦ ط الدكتور صبحي الصالح . القطعة : ٣١٧ . وفي ١ : ٣٤٦ من الخطبة : ١٧٢ .

(٢) ينابيع المودة : ٢٣٥ ط آستانة .

(٣) اليعقوبي : ٢٢ : ١٣٧ وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤١١ .

أمير المؤمنين (عليه السلام) أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (عليه السلام) : ما قالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منا أمير ومنكم أمير .

قال (عليه السلام): فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ؟ !

قالوا : وما في هذا من الحجة عليهم ؟

فقال (عليه السلام) : لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم .

ثم قال (عليه السلام) : فماذا قالت قريش ؟

قالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

فقال (عليه السلام) : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة ![1] .

ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في علاقته الخاصة بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وعناية الرسول بتربيته :

«وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويُمسُّني جسده ويُشِمُّني عَرْقَهُ ، وكان يمضَغُ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبةً في قول ، ولا خَطْلَةً في فعل، ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله وسلم) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره ـ ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثَر أُمّه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري . ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشم ريح النبوة .

---

(١) القطعة : ٦٧ من نهج البلاغة ط الصالح .

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ فقال : « هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير ، وإنك لعلى خير »[1] .

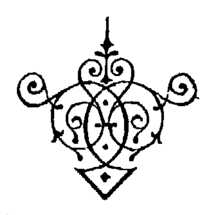
بينما الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى أن مقام الحكومة والإمامة إنما يتعلق بالإرادة الإلهية (التشريعية) ويعلن للناس أن لا خيرة له في ذلك يرسم هؤلاء الناس تلك الأولويات الاعتبارية في أذهانهم لاستقرار الحكومة ويستندون إليها، ويربطون بين خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين تلك المسائل القومية والمزايا التي لا أساس لها؛ بل البعيدة عن القيم الإسلامية العظيمة ! .

وروى الطبري بسنده عن الزهري قال : أتى رسول الله بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ! ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء قال : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك[2] .

---

(١) نهج البلاغة ١ : الخطبة ٩٢ ط الصالح . وشرح النهج لابن أبي الحديد ٣ : ٢٢٤ .

(٢) الطبري ٢ : ٣٥٠ ط دار المعارف . وهو رواه عن محمد بن إسحق ، قد رواه ابن هشام في السيرة عنه : ٢ : ٦٦ ط الحلبي .



نقـــد وردّ

النقـد : هناك من يقـول : إن الحكومـة إن كانت منبعثة من أوسـاط الناس ، وكان أفراد المجتمع يختارون قائدهم من بين العناصر الصالحـة ، مستمدين من عقولهم وإدراكاتهم وإراداتهم ومعرفتهم بنقـاط القوة والضعف في الشخصيـات الاجتمـاعيـة ، كـان ذلـك أكثـر انسجـامـاً مـع أصـول الديمقراطيـة ، وبذلـك ينال الناس إحدى أمـانيهم في تسلق قمة الحـرية ، ويستطيعون أن يؤسسوا أسس مجتمعهم وفقاً لآمالهم وثقافتهم وأخـلاقهم ، ويمسكون بذلك على العمود الفقري لنظام حكومتهم . أما إن لم يكن كذلك بل ردت أيديهم عن الأخذ بزمـام الاختيار في تعيين القـائد وانتخـاب الإمام الذي يتكفل رعـايتهم ، وكان الإمـام خليفة الـرسول (صلى الله عليـه وآله وسلم) كحاكم مطلق في مصيرهم متعيناً منصوباً عليهم (مئـة بالمئـة) كان الناس إنما ينظرون إليه كحاكم مستبد مفروض عليهم .

والردّ : إن هذا التصور ناتج عن تصورهم أن كون الإمام متعيناً منصوباً عليهـم يعني أن يكـون حـاكمـاً مستبـداً بهم . في حين أن الاستبـداد في الأنظمة السياسية في العالم إنما يتحقق عن طريق انقلاب عسكـري أو ثورة داخلية أو تدخل دولة أجنبية ، والحكم في الحكومة المستبدة إنما هو لـرأي الحاكم ونظره وقراراته الشخصية الفردية فقط .

أما من يعتقد بنظام الإمامة ، فهو يقول بوجود موازين ثابتة لا بد أن تتوفر فيمن يتولى مقام الإمامة ، أما من لم تتوفر فيه تلك المقاييس فلا يمكن أن يترأس المجتمع الإسلامي بعنوان الإمامة ؛ فالإمام متعيّن منصوب ومعناه : أن الله خالق الإنسان والعارف به على الإطلاق ، وبأثر محيطه وبيئته فيه وأثره فيهما ، والعالم المطلق بمصالحه ، يختار لرعاية المسلمين وقيادتهم أحسن وأحرى فرد من البشر ، يمتاز بمميزات خاصة من المعرفة التامة وصيانة النفس بل العصمة الكاملة ، بحيث لا تتأثر حياته بالهوى والمطامع الذاتية ، في حين لا يتمتع بحق وضع القوانين والأحكام الشرعية الأصلية (الأحكام الأولية) بل بما أن الرؤية الإسلامية ترى أن الله هو المشرع الأصل ، فلا يستند الإمام إلا إلى الأحكام والأوامر الإلهية التي أوحيت إلى القلب الطاهر لرسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يستوحي في أطروحاته وبرامجه مما عدا مدرسة الوحي الإلهي ، بل يحاول أن ينفذ أحكام الإسلام حسب تكليفه الشرعي .

وإذا كان الله هو مبدأ التقنين ، فإن القوانين الشرعية تشمل المصالح الحقيقية للإنسان ، أي أنها من ناحية تنسجم مع فطرة الإنسان ، ومن ناحية أخرى تحقق العدالة في الحياة الإنسانية بصورة عامة ، ومن ناحية ثالثة تمهد الأرضية الصالحة لتربيته ليتجه وجهته التكاملية في مدارج كمال الوجود .

وإذا كان الحاكم مختاراً من قبل الله تعالى وله الحكم المطلق ـ كان مبرأً من أي نوع من أنواع التلوث بالمعاصي والآثام ، ولم يكن يفكر إلا في خير الناس ومصلحتهم وهدايتهم ، وبناء مجتمع طاهر متكامل مبتنٍ على العدل . وهذه الحكومة لا تنسجم مع أي تعدٍّ على حقوق الآخرين فضلاً عن سحقهم وظلمهم وهضمهم .

بل إن هذه المحدودية التي تتحدد بها حرية الرأي العام في مدرسة الدين الإلهي لا تضادّ حقهم في الحكم ، وإن المجتمع بنفسه قد قبل هذا النظام الديني الحاكم عليه ، بكل حريته ورضاه بل تعلق قلبه به ، وهذا

النظام هو الذي يحدد الحكومة الوطنية والقومية بحدود يراها ضرورية ، والأمة بقبولها لأصل الدين والرسالة السماوية فقد ركزت حقها في الحكم في إطار القرار الديني .

وفي الحكومة الديمقراطية التى تتعين على أساس رأي الأكثرية ، إنما يكون نظر الحاكم إلى أهواء الناس واتّباع الرأي العام ، من دون أن يتقيّد بمشروعية تلك المطاليب، فإن أهواء الإنسان إنما تتأثر بالظروف والأوضاع والأصول التي ينشأ فيها ، ولها بدورها أكبر الأثر في أفكاره ، ورؤاه في التاريخ والمجتمع والفرد ، وكذلك على القوانين والأنظمة التي يسعى أن يختار أحسنها لمجتمعه ، وهي تجره في اتجاهاته نحو الأهداف التي استهدفها لنفسه حسب رؤيته .

إنما الذي يهم السياسي في هذه الحكومة هو أن يسعى ليوفق بين نفسه وبين أفكار الأكثرية ، ثم لا يبالي أن تكون أعماله التنفيذية والاجتماعية متفقة مع العدالة ، بل إنما يفكر في أن يحفظ لنفسه تلك المزايا السياسية والاجتماعية التي كان قد حصل عليها ، حتى مع غض النظر عن رأيه الشخصي الذي يراه حقاً، بل يمكن أن يسحق الحقائق أحياناً لكي يصون بذلك موقعيته على الصعيد السياسي ولا يخاطر بها . وقلة جداً تلك الشخصيّات التي لا تتهيب الرأي العام وإنما تحاول أن تتخذ ذلك القرار الصالح للأمة .

كتب أحد الكتاب السياسيين المعروفين « فرانك كنت » يقول :

« إن الحصول على الرأي الأكثر موضوع مهم جداً بحيث لا يمكننا ـ في سبيل الحصول عليه ـ أن نسمح لعناوين كالأخلاق والحق والباطل أن تتطرق فتمنعنا من الوصول إليه »[1] .

---

(١) مزايا الشجعان : ص ٣٥ (عن الفارسية) .

أجل هذه هي طريقة الانتخابات الحرّة في عالم اليوم حيث يتلاعبون فيها بالحقيقة والوجدان ، ومع علمنا هنا بهذه الحقيقة لهؤلاء الحكام الديمقراطيين جداً ، فهل من المناسب واللائق أن يكون تعيين خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهكذا أساليب ، وأن يحكموا الناس بها ؟ فيجتمع منهم جماعة في مجمع فيختاروا للخلافة ـ بأفكارهم ـ فرداً منهم ، ويوكلوا إليه الأمر ؟ .

وكيف يمكن لفرد جاهل بالثقافة الإسلامية ومباني الدين وفروع الأحكام الشرعية ـ إذا كان زعيم المسلمين ـ أن يبني مجتمعاً إسلامياً مئة بالمئة وينفّذ أحكام الله في المجتمع بدقة وأمانة ؟ ! وإذا استجدت حادثة فكيف يقدر أن يستنبط القرار المناسب لتلك الحادثة المستجدة التي لم تكن من قبل ليعلم حكمها ، كيف يستنبط حكمها من الأحكام الكلية للشريعة ، ثم كيف يجعل ذلك الحكم مورد التنفيذ ؟ ! .

ثم إن الأقليات المعتبرة تبقى في الحكومات الديمقراطية مهملة ، وعندئذ تبقى هذه الطبقة ـ ولعلها تكون عظيمة كنسبة ٤٩٪ ـ مستسلمة لآراء الأكثرية أي ٥١ ٪ ، وإن الإعراض عن آراء هذه الطبقة العظيمة من البشر ليس من العدل في شيء قطعاً ، فما الدليل على أن يكون غير الأكثرية مسؤولاً أمام الأكثرية ، والأكثرية تستطيع أن تسلب من بقية المجتمع حرّيتها وإرادتها ؟ مهما حاولنا أن نقول بأن ذلك مما فيه صلاح المجتمع عامة ، فإن ذلك لا يشكّل دليلاً على النفوذ الشرعي ولا يوجب إلزاماً ومسؤولية شرعية ، فما هي الجريمة التي ارتكبتها الأقلية لتستسلم لآراء الأكثرية ؟ ولماذا تكون طاعة الأكثرية والتقيّد بأنظارها واجباً إلزامياً على الأقلية ؟! .

وكذلك القوانين التي يتم التصويت عليها بالأكثرية تطبق على جميع الشعب ، في حين أن ميول الأكثرية ، قد تتجه إلى جهة ضارة بالمجتمع تخلّ بنموه وتقدمه واطراده .

وبالتالي فالحق إن كان حقاً فلا يصبح باطلاً بقلة أهله ، والباطل إن

كان باطلاً فلا يصبح حقّاً بكثرة أهله . صحيح أن رأي الأكثرية يقع موقع التنفيذ دائماً ، ولكن ذلك لأنه أقل عيباً من غيره ظاهراً ، وإلاّ فليس هو سمة الحق دائماً فإنه لا دليل يثبت أن ما تتوجه إليه الأكثرية أقوم وأحسن مما تتجه إليه الأقلية ، أو أن رأي الأكثرية يجب أن يكون مبدأ التقنين ، وتبنى عليه حياة الإنسان[1] .

أما في الدول الشيوعية التي تدّعي أنها ديمقراطية في إطار الماركسية ، فإننا عند تحليلها نجدها من نوع حكومة القوة ، إذ أن الحكم المطلق هو للحزب فقط ، فهو الذي يحمل الشعوب على ما يريد .

بينما لو كان الاختيار من قبل الله تعالى ، فالحكم حينئذ في واقعه لله تعالى ، وذلك ما يتقبله المجتمع المؤمن برحابة صدر ،والعقل يؤيّد ضرورة الالتزام بطاعته في تشريعاته، ثم يحظى الإنسان المتعهد بالعمل بأوامره بسعادة الدنيا والآخرة . ولا معنى للأكثرية والأقلية هنا، إذ الحكم هنا حكم الله تعالى ، وهو مبدأ الوجود ودينه برنامج لكمال الإنسان والعبد مسؤول أمام مولاه ، وقد أنعم على عبده بنعم لا تعد ولا تحصى ، فله حق الطاعة وعلى أساس هذا الحق فإن أوامره وأحكامه توجب على عباده المسؤولية أمامه ، تلك الأوامر التي شرعت على العدل مع ملاحظة السنن الطبيعية والاجتماعية ومع الإحاطة بحقيقة العلاقات الإنسانية العامة والخاصة ، ولم تشرع إلا لصالح الإنسان وخيره وبما يضمن سعادته واعتداله ولا يمكن أن تتوهم فيه أثراً للدوافع الذاتية والمصالح الشخصية والمنافع والأنانية .

إن المجتمع المؤمن بالله لا حاجة له إلى أن يتابع آراء الأكثرية التي من الممكن أن تتجه في مختلف الموارد إلى غير الصواب ، وأن تخرج آراؤهم وأحكامهم خطأ وخلافاً للواقع والحقيقة .

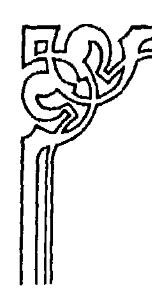
---

(١) إنما أورد المؤلف هذا النقد على العمل برأي الأكثرية في تشريع القوانين بصورة عامة ، ولا يقصد به إيراد النقد على العمل برأي الأكثرية في الأحكام الثانوية في منطقة الفراغ في إطار الأحكام الشرعية الأولية .

وما أكثر أولئك الذين كانوا محط آمال المجتمع البشري في بركـاتهم وخيراتهم ، ولذلك عمد الأكثـرية إلى أن أحلّوهم كـرسي الحكم بآرائهم ، ولكن سرعان ما تبدلت الآمال إلى اليأس ، والمحبـة والمودة المتبـادلة إلى عداوة !! .

وهكذا بإمكاننا أن ندرك أن آراء الأكثرية ، التي تحصل من التجارب الاجتماعية خليطة بالخطأ والخطل في القول والعمل ، ليس بإمكانها التنظيم العـادل للحياة الفـردية والاجتمـاعية لـلإنسان في جميـع جوانبـه وأبعـاده ، ولا تتمكن من أن تضمن السعادة والصلاح والعدل للبشر .





التشيع في خضم التاريخ

أبرز العلماء والمحققون أنظاراً مختلفة في ميلاد مذهب التشيع وتاريخ ظهوره ، ومنهم من واجه المسألة وأبدى رأيه فيها بناءعلى مبانيه النظرية وخطه الفكري واتجاهاته الخاصة ، لا موضوعياً متجرداً .

هناك من يرى أن التشيع إنما ظهر بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأن بذرة التشيع إنما نمت حينما تصدّت الصحابة لتعيين خليفة للنبي . فاليعقوبي مثلاً يقول :

« وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي ابن أبي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوام ، وخالد بن سعيد ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبي بن كعب »[1] .

ويقول آخرون : إن التشيع إنما ظهر على عهد خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

ويقول آخرون : إن التشيع إنما قام على قدميه في أواخر خلافة عثمان .

---

(١)اليعقوبي ٢ : ١١٤ ط النجف .

وآخرون يرون أن الإمام الصادق (عليه السلام) هـو مؤسّس مدرسـة التشيّع ! .

وصدّق أناس بأن أساس التشيع إنما بني على أسـاس إرادة الإيرانيين للانتقام من العرب المسلمين ، وأن التشيع إنما نشأ من المقاصد السياسية ، أو أن الغالب فيه ذلك ! .

وبعض يرى أن التشيع ظاهرة طـارئة على المجتمـع الإسلامي ، ولم يكن له وجود بارز وظواهر أو مظاهر خاصة يمتاز بها ، بل إنمـا اتّسع بفعـل التطورات الاجتماعية والأصعدة السياسية المتأخـرة عن صدر الإسلام وعلى مر الزمان !

وبشأن ميلاد هذا الجزء من أجـزاء جسد الأمة الإسلامية يرى البعض أنه نتاج أفكـار شخصية مـوهومـة باسم « عبـد الله بن سبأ » فينسبـون الفكر الشيعي إلى ذلك الرجل المتخيل ، ويبنون كل إدراكهم وأفكارهم وعواطفهم وأحكامهم حول التشيع على هذا الأساس ، وهـم على أساس هـذه الظنـون إنما يقيّمون التشيع وكأنه استثناء طرأ على المجتمع الإسلامي ناشزاً عنه[1] .

هذه المزاعـم ونظائرها إنما هي تهم تتسم بالعناد ، وإنمـا وقعت هذه المحاولات سعياً إلى ستر الحقيقة والواقع ، أو أنها نشأت من الجهل بالثقافة الأصلية والتراث الغني الإسلامي في التشيع ، وإلا فالواقع غير هذا قطعـاً .

وقد كتب الدكتور طه حسين المحقق المصري المعروف ، في الجزء الثاني من كتابه « الفتنة الكبرى » يقول :

« وأقـل ما يـدل عليه إعـراض المؤرخين عن السبئيّة وابن السوداء في حرب صفين : هو أن أمر السبئيّة وابن السوداء إنما كـان متكلفاً منحولاً ، قد

---

(١) للمزيد من المعلومات حول هذا العنصر الموهوم يراجع كتاب « عبد الله بن سبـأ » للمحقق القدير السيد المرتضى العسكري . أو عبد الله بن سبأ بين الواقع والخيال للسيد هادي خسرو شاهي .

اخترع متأخراً حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية : أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم . ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين ، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علي (عليه السلام) في أمر الحكومة .

وكتب الدكتور محمد كرد علي المحقق المعروف في الجزء السادس من كتابه « خطط الشام » يقول :

« أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ، فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم . ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك ، علم مبلغ هذا القول من الصواب . بل لا ريب في أن ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيَّع له، وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب أهله ثم استفحل أمره في العراق زمن خلافة علي (عليه السلام) »[1] .

وكتب الدكتور علي الوردي من أساتذة جامعة بغداد يقول ما فحواه :-

« هل كان لابن سبأ وجود خارجي أم هو شخصية خيالية ؟ هذه مسألة لها الأهمية الكبرى بالنسبة لمن يريد أن يقرأ ويحقق في التاريخ الاجتماعي للإسلام . وأنا أقول : إن ابن سبأ الذي يقولون عنه إنه كان هو محرك الفتنة إنما هو شخصية خيالية ، ويبدو أنهم متعمدون في اختلاق هذه الشخصية العجيبة . وقد اتهمت قريش محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدء دعوته أنه إنما يتلقى تعاليمه من عبد نصراني يسمى « جبر » وما يقوله إنما هو

---

(١)خطط الشام ٦ : ٢٤٦ ط بيروت .

من تعاليم ذلك العبد النصراني »[1] .

وبإزاء هذه الآراء يروي المحققون أن أطروحة التشيع إنما جاءت على لسان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن أساس التشيع إنما تكوّن بإشارة رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

كتب حسن بن موسى النوبختي في كتاب (المقالات والفرق) يقول :

« فأول الفرق: الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه ، والقول بإمامته ، ومنهم المقداد بن الأسود الكندي ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري ، وعمار بن ياسر المذحجي ، المؤثرون طاعته، المؤتمّون به، وغيرهم ممن وافق مودته مودّة علي بن أبي طالب ، وهم أول من سمّوا باسم التشيع من هذه الأمة ، لأن اسم التشيع قديم ، شيعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء »[2] .

وكذلك يؤكد المحققون من علماء الشيعة على هذه النظرية ، ويروون عدة روايات تفيد أن مبلّغ الإسلام الأول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أطلق كلمة «الشيعة» على أتباع علي (عليه السلام) وأنصاره .

روى المفسرون والمحدثون من أهل السنة في شأن نزول هذه الآية الكريمة : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾[3] أخرج الحافظ جمال الدين الزرندي عن ابن عباس : أن هذه الآية لما نزلت قال (صلى الله عليه وآله وسلم)لعلي : « هو أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك

(١) نقلاً عن هامش ص ٢٣٦ للترجمة الفارسية لحياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لهيكل . ويراجع كتاب : عبد الله بن سبأ بين الواقع والخيال للسيد خسرو شاهي تعريب الشيخ حسين الكوراني

(٢) المقالات والفرق : ١٥ .

(٣)سورة البينة : الآية ٧ .

يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين »[1] .

ويروي الطبري المؤرخ والمفسر السني المعروف في ذيل الآية المذكورة : أن الرسول الأكرم هو الذي استعمل هذه الكلمة[2] .

وعلى هذا فالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أطلق على جمع من خواص أصحاب علي (عليه السلام) ممن كانوا يقتدون به : كلمة «الشيعة» .

وهكذا نرى أن التشيع من صَميم المدرسة الإسلامية بل هو الإسلام بنفسه ، وقد جرى اسمه هذا على لسان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن كان يضاف إلى لفظة «الشيعة» «الجعفرية» أيضاً فإنما هو باعتبار مساعي الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في نشر ثقافة الإسلام والتشيع ، حيث كان قد حصلت على عهده فرصة مناسبة لذلك على أثر المصادمات الأموية والعباسية على الخلافة ، وحينما رأى الإمام ذلك الوضع السياسي ، وظهور الأفكار المختلفة ، وابتداع مصادر تشريعية حديثة مثل القياس والاستحسان لاستنباط الأحكام الإسلامية ، بدأ برنامجه التغييري لإصلاح الواقع السيىء آنذاك في نشر حقائق الدين وتربية الدعاة الصالحين له .

وقد كتب الكاتب المصري المعروف محمد فكري أبو النصر عن هوية التشيع يقول ما فحواه :

« إن الشيعة لا علاقة لهم بأبي الحسن الأشعري في الأصول ولا بالمذاهب الأربعة في الفروع ، على أساس أن مذهب أئمة الشيعة أسبق من

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني الفصل الأول باب ١١ ص ٩٩ ومناقب الخوارزمي الحنفي : ٦٦ . وفرائد السمطين للحمويني الشافعي١ : باب ١٣ . وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ، الباب ٥٦ . والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ١٠٥ . كفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١١٨ .

(٢) تفسير الطبري ٣ : ١٢٦ .

سائر المذاهب ، وبالنتيجة فهو أكثر وثوقاً واعتماداً ، وأحرى من سائر المذاهب بالتبعية ، وكذلك هو أجدر بالاتباع لانفتاح باب الاجتهاد فيه إلى يوم القيامة ، وأيضاً فإن هذا المذهب لم يكن ليصاغ متأثراً بالقوى والنزاعات السياسية »[1] .

ويقول الأستاذ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني :

«وقع كثير من الباحثين ـ سواء في الشرق أو في الغرب ، قديماً وحديثاً ـ في أحكام كثيرة خاطئة عن الشيعة لا تستند إلى أدلة أو شواهد نقلية جديرة بالثقة . وتداول بعض الناس هذه الأحكام فيما بينهم دون أن يسائلوا أنفسهم عن صحتها أو خطئها .

وكان من بين العوامل التي أدت إلى عدم إنصاف الشيعة من جانب أولئك الباحثين الجهل الناشىء عن عدم الاطلاع على المصادر الشيعية ، والاكتفاء بالاطلاع على مصادر خصومهم »[2] .

وهنا بإمكاننا أن نطلع جيداً على مدى الانحراف عن الحقيقة ، وماهية تفكير هؤلاء الذين كانوا يستلهمون الرؤى الطائفية التعصبية البغيضة ، أو يتأثرون بأجواء سياسية خاصة . إن هؤلاء بدلاً من أن يقدموا مصلحة الإسلام والقرآن والقبلة على كل شيء ، كانوا يتسابقون فيما بينهم في نشر التفرقة بين الأخوة المسلمين ، وإنما الذي يضحون به هو الإسلام .

* * *

علينا هنا أن نضيف هذه النقطة ، وهي : أنه لا ينبغي لنا أن ننسب هذه التسمية «بالشيعة» إلى فرقة متفرقة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرقة متفرقة عن سائر المسلمين ، بل بما أن جمعاً منهم على عهد

---

(١) مقدمة المراجعات ط القاهرة : ١٠ .

(٢) مع رجال الفكر في القاهرة : ٤٠-٤١ .

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يرون أن علياً هو أفضل ممن عداه بمراتب كثيرة في العلم بحقائق الإسلام العظيم والقيم والأهداف الرسالية ، لذلك كانوا قد انشدّوا إلى بصيرته النافذة وتفوقه في عقيدته ومعرفته بمبدأ الكمال ، بل بمجموع القيم الأخلاقية له (عليه السلام) فكانوا في سعيهم للتعالي في المراتب المعنوية يستوحون منهجه في سيرته كأكمل قدوة إنسانية وشخصية ممتازة استأثرت بعناية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

نعم ، إن الشيعة كفرقة إنما ظهرت بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أبى خواص أصحاب علي (عليه السلام) أن يمدوا أيديهم بالبيعة لأبي بكر على خطى السقيفة [1] بل تظاهروا بذلك دفاعاً عن النصوص الصريحة والقطعية الدلالة التي عينت علياً (عليه السلام) ولياً لأمر المسلمين، واعتراضاً على قرار السقيفة بإهمال إمامة الإمام توجيهاً وتأويلاً لمصلحة الإسلام والمسلمين ، وبذلك افترقوا عن الأكثرية . إذ أراد هؤلاء أن يكون علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو الذي يستقر على مسند القيادة الفكرية والسياسية للأمة بعد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى هذا فقد تأسس التشيع لعلي (عليه السلام) منذ ذلك الزمان .

أجل ، إن الذي أصبح محور الاختلاف والبحث والجدال بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما هو مسألة القيادة الاعتيادية ، لا مقام الإمامة التي هي الواجهة الروحية والمعنوية لرسول الله من الله ، ثم إلى الإمام من بعده ، ففي جلسة السقيفة لم يطرح أحد شيئاً حول اختيار إمام أو اتخاذ قرار بهذا الصدد ، ولم تتحقق أية محاورة بشأن تعيين الإمام ومقام الإمامة .

فهل كان تركهم هذا البحث حول مسألة الإمامة لأنهم لم يكونوا يشكّون

---

(١) الطبري ٢ : ٤٤٦ .

أو يشككـون في القيادة المعنـوية والـروحيـة لعلي (عليـه السـلام) أو أن المدّعين للخلافة حيث كانوا فاقـدين لشرائط الإمـامة لـذلك لم يـدّعوا هـذا المقام المعنوي والروحي ؟ فحقيقة الأمر واضحة .

أجل ، لم تكن مسألة الإمامة مطروحة على طاولـة البحث إلى مدة ، وإنما بدأ طرحها والبحث حولها بعد وفاة عدد من الخلفاء الأولين ، فمعاوية مثلاً هو أول من سمى نفسه إماماً !

في كتب التواريخ وعلمـاء أهل السنـة إنما كـان الكلام عن الخليفـة والخلفاء، ولكنهم مع هذا بالنسبة إلى علي وأبنائه المعروفين بإمامة الشيعة يذكرونهم بعنوان الإمام . والمبحوث عنه في مباحث علم الكلام هو الإمام ومسألة الإمامة . والشيعة حسب عقيدتهم يرون أن من الضروري الالتزام في شخص الإمام وخليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بموازين دينيـة دقيقة ومنها التقوى التامـة الكاملة، أي العصمـة ، بالإضـافة إلى سلسلة من المميزات الأخرى .

وقد كتب أحد التلامذة البارزين للإمام الصادق (عليـه السلام) وهـو هشام بن الحكم ، كتب كتاباً في الإمامة بحث فيه حول هذه المسألة بنفس العنوان «الإمامة » .

* * *

إن النبي الأكـرم (صلى الله عليه وآلـه) كان يجمـع إلى مقام النبـوّة بمعنى تلقي الـوحي وإبلاغـه إلى الناس ، أنـه كان حـاكم المسلمين ووليّ أمرهم ؛ وحينما نظم المسلمون أمرهم في المدينة كانت إدارة جميع الأمور الاجتماعية والسياسية من نصيب الحكّام والأمراء والقـادة والقضاة ؛ وتقسيم الغنـائم وأمر الحـرب والسلم من صلاحيـات واختيـارات شخص الـرسـول (صلى الله عليه وآله) فكان هو يقوم بتنفيذ المقررات والقوانين الإلهيـة في

الناس حسب تكليفه الحكومي والإداري والسياسي ، وكان الناس مكلفين بإطاعة أوامره . وهكذا كانت سمة الحكومة وإدارة المجتمع وإقرار النظام والأمن العام جانباً من نبوّة الرسول (صلى الله عليه وآله) . وبكلمة : فقد كان مقام النبوّة والقيادة المعنوية وكذلك الحاكمية والإمارة قد تمركزت على عهده في شخصه .

والذي أصبح بعد وفاته محور الجدال والنزاع والتجاذب إنما هو سمة حكومة وقيادة الرسول ، وكذلك كان الذين يفكرون في امتلاك الحكومة والقيادة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدّعون علاقة بالله لتلقي الوحي ، ولم يكونوا يدّعون الإمامة والخلافة الروحية للناس ، بل كانوا يلخصون كل دعواهم في الأخذ بزمام الحكومة وإدارة أمور المسلمين فحسب ، وكانوا يوجهون عملهم هذا بأن عليهم أن لا يتركوا المجتمع الإسلامي المنتظم آنذاك يختل وينحلّ ، وذلك بحسن سياسة الخليفة وحسن تدبيره .

فنرى أبا عبيدة ، حينما بايع الناس أبا بكر بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقترح على علي (عليه السلام) بقوله :

« يا بن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به ! فسلم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق ، في فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك »

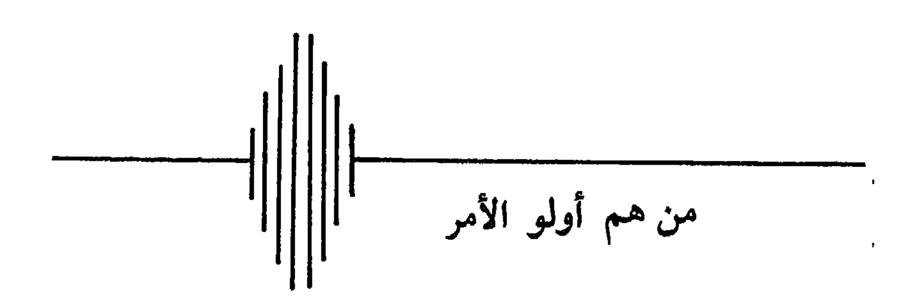
فقال علي (عليه السلام) :

« الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله ـ يا معشر المهاجرين ـ لنحن أحق الناس به لأنّا أهل

البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، المدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً »[1] .



(١) الإمامة والسياسة : ١١، ١٢ ط الحلبي . وفي نهج البلاغة واحتجاج الطبرسي مثله .



من هم أولو الأمر

إن مسألة « أولي الأمر » من الموضوعات المثيرة للبحث والجدال التي أصبحت موضع التفات المسلمين في ذلك المقطع من الزمان ، والتي كانت ذات علاقة بالحوادث الكائنة بعد وفاة رسول الإسلام ، وضمن البحوث والمجادلات اللفظية حول مسألة خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

بعد أن تم أمر بيعة الناس لأبي بكر ، تقدم أبو عبيدة بن الجراح إلى علي (عليه السلام) يقول :

« يا بن عم : إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر ، ولا أرى أبا بكر إلّا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به فسلم لأبي بكر هذا الأمر »[1] .

ولم يقصد من كلمة الأمر شيئاً سوى مقام الحكومة والقيادة .

والقرآن الكريم يصدر أمراً إلى المسلمين يدعوهم إلى إطاعة أوامر الله والرسول وأولي الأمر ، فيقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم ، فإن

---

(١) الإمامة والسياسة : ١١ ، ١٢ ط الحلبي .

تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1] .

إن هذه الآية تعين لنا المرجع الواقعي للمسلمين في مختلف المسائل الدينية والاجتماعية .

تبدأ أولاً بأمر المؤمنين بأن يذعنوا لأوامر خالق العالم والعالمين الذي هو أصل الوجود وربّه ومالكه ، أن يذعنوا له بلا أي قيد أو شرط ، وإنما تبدأ الآية بهذا إذ القيادات يجب أن تستمد منه وتنتهي إليه . وهذه الطاعة هي مقتضى خالقيته وحاكميته المطلقة . وبما أنه هو مبدأ التشريع والتقنين وإصدار الأوامر والنواهي ، فلا يكون دور الرسول (صلى الله عليه وآله) في رسالته سوى تلقّي الوحي الإلهي وإبلاغ أوامره .

ثم ثنّت الآية بالأمر بتبعية أوامر الرسول الذي هو ممثل الله بين عباده ، والذي هو معصوم مصون عن الخطأ والخطل في القول والعمل : **﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾** . وله بالإضافة إلى إبلاغ سلسلة من الرسالات الإلهية والأوامر الحقة أطروحات وبرامج تخصه لتنفيذ أحكام دين الله ، ونوع من السياسة الخاصة التي يتخذها بشأن المسائل الاجتماعية ، فهي من لوازم الحكومة ، وتشخيص الأمر في ذلك يرجع إلى القائد الديني الأعلى ، فله أن يصدر أوامره فيما يرى مصلحة الأمة فيه ، مع ملاحظة الظروف والشرائط الخاصة ، وبما يؤدي إلى حفظ التوازن في المجتمع الإنساني والإسلامي ، وفي مختلف الأصعدة المستمرة والمتغيرة المستجدة ، فالتشريع والتقنين في هذه الأمور مفوّض من الله إليه ، فهي تكتسب نفوذها ومشروعيتها من ذلك المولى الحقيقي المطلق .

وحسب ما مر اتضح أن طاعة الرسول بأمر الله هي في الواقع نوع من

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الطاعة لله تعالى ، فالمخالفة معه في الحقيقة مخالفة مع الله الخالق ؛ والقرآن الكريم يبين هذا الموضوع في الآية التي تقول :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾[1] .

وعلى هذا فإن إبلاغ أي قرار من جانب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون بمثابة إبلاغ أوامر الله تعالى .

وثلّثت الآية القرآنية في أمر الناس بالطاعة : لأولي الأمر ، الذين قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، أي أولئك الذين إليهم ينتقل منصب القيادة والحكومة الخاصة للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وإليهم تفوض قيادة المجتمع الإسلامي في جميع شؤون الحياة من جانب الله والرسول ، وهم حفظة دين الله ودنيا الناس ، فلهم أن يصدروا أوامرهم لإدارة أمور مجتمع المسلمين في إطار القرارات الشرعية ، ويكلفوا الناس بتنفيذها وتطبيقها . إذن فلزوم الطاعة لأوامر أولي الأمر مسألة قطعية لا ريب فيها ، إنما البحث والجدال والقيل والقال على صعيد مصاديق أولي الأمر .

والآن لنر ماهو مقصود القرآن من أولي الأمر ؟ فهل أن من يستولي على رئاسة الحكومة الإسلامية ويقبض على أمور الدولة فيها فينفذ أوامره في الناس ، هو ولي الأمر بمنظار القرآن الكريم ؟ بمعنى أن من تمكن من الاستيلاء على مقام القيادة تجب طاعته على الجميع ولا تجوز مخالفة أوامره ؟ مهما كانت حياته تغط في ظلمات الضلال والجهل ، وكان كيانه خلواً من الفضائل المعنوية والروحية ؛ يواجه أحكام الله وأوامره كأجنبي عن دينه ، فهو يلعب بشؤون الإنسان وحقوقه في محيط قدرته واستبداده ، ويقوم نظام حكمه الجبار بإيصال الظالمين والمفسدين في المجتمع ممن تقرب إليه إلى العزة المصطنعة والحكم الإلزامي ، ليقوم أولئك بدورهم بخنق أصوات

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٠ .

المظلومين في حناجرهم ويكون الأمر كما في بعض الأدعية: « فقتل من قتل وسبى من سبى ، وأقصى من أقصى » أفهذا هو معنى أولي الأمر في القرآن ؟ ! .

إن كان هذا هو المفهوم من النص القرآني كان التناقض في صدر الآية مع ذيلها مما لا مفر منه، وذلك فيما إذا أصدر الزعيم أمراً خلاف أوامر الله. فصدر الآية يقول : ﴿ **أطيعوا الله** ﴾ ، بينما ذيل الآية يقول : ﴿ **وأولي الأمر منكم**﴾ فأي الأمرين هو المقدم ؟ هل أمر الله أم أمر ولي الأمر؟ وهما هنا لا ينسجمان ، بل الأمر ينتهي هنا إلى اجتماع الأمر والنهي في مورد واحد وباعتبار واحد ![1] .

وقد يكون من لوازم هذا الاستنباط الانقياد لإرادة كل من ولي الأمر وإن كانت أوامره تناقض الأحكام الإلهية وتنافيها . إن هذا مما لا تقبله العقول .

وكيف نصدق بأن الله تعالى يعبىء أنبياءه لتنفيذ الأحكام الإلهية ، مستعدين لتقديم أرواحهم لصيانة الجوهرة الأصيلة من تعاليم الأديان ، وبسط القسط ونشر العدل، ومن ناحية أخرى يرى لزوم طاعة الناس لأوامر الذين لم يقوموا بخطوة واحدة لحفظ كيان الأمة وتبيين أحكام الدين، بل الذين يريدون أن يجعلوا أتعاب الأنبياء أدراج الرياح ويسحقوا القانون الإلهي ؟ فهل أن الفلاح والسعادة الاجتماعية في تبعية هؤلاء الأمراء ؟ وهل للمسلمين أن يبلغوا العزة والسعادة في ظل هذه الحكومات ؟ وهل لنا أن ننسب أمراً كهذا بعيداً عن اللطف والحكمة إلى الله تعالى ؟ .

نعم ، من الممكن أن نقول بحصر طاعته فيما إذا كان حكمه يطابق المقاييس الإلهية ، فإذا خطا خطوة خلاف أحكام الله كان على الأمة المسلمة

---

(١) انظر بهذا الصدد بحث العلامة الطباطبائي في الميزان ٤ :٣٨٨ ـ ٤٠٠ ط بيروت فهو بحث موسع ضافٍ حول مُفاد هذه الآية .

أن تقوم بوجهه فترده إلى حده .

ولا يمكن غض الطرف وصرف النظر عما يرد على هذا الكلام من الإشكال :

إذ من الواضح أن جميع الناس لا يعرفون الأحكام الإلهية كيما ـ إذا واجهوا أحكاماً خلاف الشرع ـ يقوموا بواجبهم فيردوا الحاكم إلى حده . وإذا كان أكثرية الناس غير مجهزين بالمعارف الدينية ، فكيف يمكنهم أن يشخصوا وظيفتهم في مواجهة أوامر الأمراء ؟ أي يتابعوهم في كل أمر مطابق للمقاييس الدينية ، ويقوموا بمخالفتهم بالنسبة إلى ما يصدر منهم على خلاف الأحكام الإلهية .

وإذا افترضنا صحة ذلك وصدقه ، كانت تبعيتنا لأوامر الحاكم فيما يوافق أحكام الله في الواقع تبعية لأوامر الله ، لا حكم الحاكم ، وعلى هذا كان الأمر بطاعة أولي الأمر لغواً من الكلام .

ومن ناحية أخرى ينفتح الطريق بهذا لكلّ فرقة فيما إذا رأت قراراً خلافاً لمصالحها أن تتخلف وتتمرد على الأوامر وتعصي الأمراء والحكام وأولي الأمر ، وحينئذ يضعف حسن الطاعة في الأمة بصورة ملحوظة . « وما وراء عبادان قرية » . وعندئذ تتزلزل أركان المجتمع وينتهي الأمر في الأخير إلى انفراط النظم والانضباط فيه . إذن فلا يمكن أن نحمل مفاد الآية المذكورة على هذا الفرض بأي وجه .

أما إذا افترضنا أولي الأمر في الآية منطبقاً على زعيم مختار بالانتخاب عن طريق الآراء العامة ، ففضلاً عن أن هذا مما لا يمكن أن نصل إليه من الإمعان في معنى الآية ، فإن ما أمر به القرآن هو طاعة أولي الأمر ، أما كيف يتوصل هؤلاء إلى هذا المقام ومن أي طريق ؟ فتكون الأمة الإسلامية من ثَمّ مكلفة بإطاعتهم ، فالآية ساكتة عن هذه الخصوصيات ولا نرى فيها شيئاً يمكننا أن نستند إليه .

والإشكال الذي كان يرد على التفسير السابق يشمل هذا الفرض أيضاً .

وعلى هذا ، وبالنظر إلى هذه الإشكالات ، لا يبقى طريق لمعنى الآية ومعرفة هوية القائد الحق ، إلا أن نعرض عن هذين التفسيرين ، ونصرف النظر عن هذين الاحتمالين في معناها .

ولا يبقى لنا إلا طريق واحد بإمكانه أن ينقذنا من هذا الطريق المسدود ، فيهدينا سواء السبيل والصراط المستقيم الموصل إلى المطلوب ، وهو أن نقبل أن يكون تعيين الزعيم الحاكم من حق الله تعالى ، وأنه هو الذي له وعليه أن يختار ويعين ذلك العنصر الفاضل المستحق للخلافة ، والذي تكون فضائل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تبلورت فيه ، ويبدو في محياه نور الله ، كي تكون طاعته باتجاه التبعية لأوامر الله والرسول .

صحيح أن رسول الإسلام كان قد بين أصول الدين والفروع الكلية له في حياته تلك القصيرة ، وأنه بلغ بدين الله إلى الكمال ، وبالإمكان أن تصبح هذه القواعد الكلية أساساً لاستخراج الأحكام الإلهية التي يحتاج الناس إليها إلى يوم القيامة . ولكن ماذا نفعل بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ أفلا يحتاج الناس بعده إلى مرجع ديني يقضي لهم حوائجهم الدينية وغيرها ، وليتمكنوا معه وفي ظلال القرآن وأصول السنة أن يستخرجوا حاجاتهم في مختلف الحوادث ولا سيما الحوادث المستجدة التي لم تكن على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟

لقد انقضت ثلاثة عشر عاماً من عمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكفاح مع مشركي قريش الذين كانوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وأن لا يتطرق النداء التحرري الإسلامي إلى مسامع طلاب الحق والفضيلة ، فصرف ما بإمكانه لتحقيق حقائق التوحيد ونفي عبادة

الأصنام وتقرير المواقف الحقة ، حتى جعل بذلك أفكار المجتمع مستعدة لاستيعاب تلك الثقافة الثرية ، ولم تبق له فرصة لبيان الأحكام الإلهية وعرض المسائل والفرائض والسنن الدينية ، ولهذا فقد أوكل بيان الأحكام إلى فترة أخرى .

وفي المدينة أيضاً لم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) فارغ البال ، فقد واجه في هذه المدة القصيرة (عشر سنين) تلك المشكلات الجمة ، حتى استوعبت أوقات الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) مؤامرات المنافقين من ناحية وغزواته وحروبه مع المشركين واليهود من ناحية أخرى ، حيث شارك هو بنفسه في هذه الحروب أكثر من عشرين مرة ، ولهذا السبب لم تبق له الفرصة الكافية لمتابعة دعوته الحقة ، كي يضيف سائر الناس المستعدين لقبول دعوة الحق إلى المجتمع الإسلامي . وعلى هذا ، أفلم يكن من اللازم لما بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) أن تتعهد شخصية ممتازة بعمل حفظ وصيانة أحكام الله عن التحريف ، وكذلك بتفسير ونشر الثقافة الإسلامية في فروعها المختلفة وحسب اختلاف الظروف ؟ أفلا يحسّ المسلم حينئذٍ بلزوم وجود شخصية معصومة عن المعاصي والآثام قد صورها بارئها بنفحاته الربوبية وأنواره الربّانية ؟ .

إن ولي الأمر الذي يأمر الله بطاعته أمراً قطعياً ثابتاً وبهذه الصراحة ، ثم يقرنه من حيث الطاعة بنفسه وبرسوله ، يجب أن يكون طاهراً مطهراً معصوماً منزهاً عن كل زلة وعثرة وعصيان وآثام ، فكما كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مأمن من الحرام على كل حال ، كذلك يجب أن يكون ولي الأمر أيضاً يتمتع بهذه العصمة .

أجل ، إن أولي الأمر الذين جعل الله طاعتهم عدْيلاً لطاعة الله والرسول (صلى الله عليه وآله) إنما هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وهم المعنيّون بأحاديث الرسول ونصوصه وتصريحاته بفضلهم والأمر بمودتهم وتبعيتهم والارتباط بهم .

وإن استنباط أحكام الحوادث غير المتناهية التي تقع باستمرار ، ليس

أمراً يسيراً لكل أحد ، وذلك بالنظر إلى العدد المحدود من الآيات والروايات عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فإن آيات الأحكام لا تتعدى في المجموع عن خمسمئة آية ، والروايات المنقولة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في موضوع التكاليف الدينية من الحلال والحرام لاتتعدى المئتين ، فبالنظر إلى هذا من هو ذلك الأوحدي من الناس الذي يستطيع أن يستخرج أحكام كل الحوادث المستجدة والمتزايدة في المجتمع الإسلامي من هذين المصدرين المحدودين ، أفهل يتمكن من ذلك أحد إلا من يتمتع بالتعاليم الإلهية الغيبية ؟ .

أما وضع القوانين للمسائل المستحدثة التي تتغير أحكامها بتغير الأوضاع الزمانية والمكانية المختلفة، فهو أيضاً على عهدة ولي الأمر ، حيث فوض إليه أن يضع أحكامها الثانوية حسب الشروط والصلاحية المخولة إليه ، وإن عدم وجود حكم صريح في هكذا مورد ليس دليلاً على إهمال أو تقصير الشريعة عن بيان الأحكام أو نقصان القوانين الشرعية الأولية ، بل على العكس تماماً ، فهو من قدرة الشريعة على المرونة واتساع نطاقها وشمولها واستيعابها لمختلف الظروف والأحوال .

والاستناد إلى آية إكمال الدين لا يفيد هنا شيئاً ؛ لأنها بناءً على الرواية المعروفة بين المحدّثين نزلت في يوم الغدير بعد نصب الأمير (عليه السلام) للخلافة . وإذا فكرنا وأمعنا النظر في الوضع الموجود يومئذٍ نرى أن هناك خطراً حاضراً هو أن يقع الدين الجديد بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) موقع الإغارة والهجوم ، وبذلك يتلقى الدين الإسلامي الجديد وموضع الحق فيه ضربات متتالية مؤثرة .

لهذا لم يكن للإسلام أن يطّرد في تقدمه في برامجه لهداية الناس ويستمر فيها ويقيم نظامه على ما هو المطلوب في نظر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) من دون وجود مرجع إلهي منصوب من قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما اندفع ورود هذا النقص بسبب نصب علي

(عليه السلام) لرعاية خلافته في أمته بعده .

والآية ليست بصدد أن تعلن للناس : أن جميع المقررات الإلهية الدينية بكل فروعاتها وعلى جميع الأصعدة قد اكتملت ، فإنه صحيح من ناحية أن الوحي انتهى بوفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه كان قد تلقى من مبدأ الوجود ما يحتاج إليه الناس إلى الأبد ، وأن التشريع الأولي الإلهي قد انتهى ، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه لم تصلنا أحكام جميع الموضوعات لا من القرآن الكريم ولا في سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن الأدلة الفقهية الموجودة هذه لا تكفي للإجابة في جميع الحوادث المستجدة الطارئة ، وهذا كأثر طبيعي لقصر مدة الرسالة ، والمشاكل المتوالية فيها كانت تمنع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القيام بجميع الأعمال الأساسية اللازمة ولا تدعه يعلّم الناس ما تعلمه من الله .

إن كثيراً من الأصحاب والجيل المعاصر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا معتمدين على شخصيته الكريمة ، وما داموا مستظلين بظله لم يكونوا ملتفتين إلى ضرورة تعلم الأحكام والمفاهيم الدينية ، وبعد وفاته ـ مع ما حلوا فيه من المكانة الاجتماعية ـ كانوا غير مطلعين على كثير من أحكام المسائل التي تتعلق بالعبادات والمعاملات والقضاء وكثير من الأمور الدينية الأخرى، وكانوا ضعفاء من حيث إدراكهم للحوادث السياسية وأحكام الإمامة والخلافة والمعرفة بزمانهم ، فهناك أحاديث كثيرة جاءت في كتب علماء السنة تحدثنا أن الصحابة لم تكن لهم تصورات واضحة بيّنة لكثير من مسائل الإرث والقضاء والحدود والديات وسائر الأمور الدينية .

ومن هنا اقتضت حكمة الرسالة أن تتعرف الأمة على أمور دينها في مدة أطول مما مر عليها على عهد الرسالة ، ولذلك فقد أودع الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) مجموعة من العلوم الإلهية بالفروعات والأحكام الإسلامية مما كان قد تلقاه من طريق الوحي إلى خليفته ووصيه ، ذلك الوصي الذي إنما كان كيانه متشكلاً بالإسلام . وكانت له المعرفة التامة

بالأهداف السامية ، وكان هو يجسدها بنفسه وبكل كيانه . فأطلعه في مدة قصيرة ـ وبالتصرف في روحه وقلبه ـ على جميع حقائق الإسلام وتعاليمه ، وأعده للقيادة ، وأوكل إليه العمل للحفاظ على الثقافة الإسلامية الأصيلة والمعارف الدينية ، ليجعلها بدوره بعد الرسول وحسب اقتضاء الظروف الزمنية تحت تصرف الأمة الإسلامية ، ويعرّف المجتمع بتكاليفه من معين علومه الواسعة .

إن في حياة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) شواهد تدل على أنه كان يخلو بعلي (عليه السلام) ساعات من الليل والنهار ، فيبصره بما عليه أن يعمل فيما يواجه بعده من مشاكل . وحينما كان الإمام يسأله عن شيء كان يرفد فكره بما ينميه ويرشده ، ويجعل تحت تصرفه كل ما لديه من مفاهيم الرسالة وحقائقها .

ولذلك كان هذا الطريق بعد وفاة رسول الإسلام هو الطريق المستقيم للوصول إلى الحقيقة ، والاستغناء عن العمل بالظن والشك والقياس والاستحسان .

إننا لو جعلنا القياس والاستحسان ملاكاً للعمل في الإسلام ، كنا قد بنينا ديننا على أساس الحدس والتخمين الظنيين ،و﴿ **إن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ .

فنرجع في النتيجة إلى أن الأمة ليست بموضع من العلم والفهم والثقافة والمعرفة بحيث تستطيع أن تتعهد بتعيين الخليفة للرسول ، بل على شخص الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يعهد بهذه الأمانة الإلهية إلى من يكون كمثله في الحصانة والصيانة ، ولا يغفل عن حراسة دين الله والحق ولا لحظة واحدة .

أما إذا استبدلت الاستنباطات الشخصية بالأحكام الإلهية فإن ذلك سيجرح في برامج الرسالة ، ومما يؤدي بالتالي إلى انحياز المجتمع عن أوامر الله تعالى .

إن التاريخ المسند يشهد بأن المستوى العلمي والثقافي الديني لأولياء الأمور في الإسلام لم يكن بالمستوى الذي يستطيعون معه الإجابة عن الأسئلة الملحة، وإن الحوادث التي استجدت بعد وفاة رسول الإسلام أثبتت أن زعماء تلك العهود كانوا يفتقدون المعرفة الكافية لحل تلك المشاكل وإصدار الأوامر المناسبة ،وقلة معرفتهم بمعارف الإسلام كانت سبباً للانحراف في كثير من القوانين الإلهية عن مسارها الصحيح ، واستبدلت بها أحكام أجنبية عن الإسلام .

روى المحدثون والمؤرخون قالوا :

جاؤوا بامرأة محصنة حامل من الزنى إلى عمر، فأمر عمر برجمها، فقال علي (عليه السلام) : ماشأن هذه ؟ قالت : يذهبون بي ليرجموني . فقال : يا أمير المؤمنين لأي شيء ترجم ؟ إن كان لك سلطان عليها فمالك سلطان على ما في بطنها ! فقال عمر : كلّ أحدٍ أفقه مني ـ ثلاث مرات ـ فضمنها علي [عليه السلام] حتى وضعت غلاماً ، ثم ذهب بها إليه فرجمها[١] . فكان أن امتنعوا عن تنفيذ حكم خلاف الشرع والدين .

وكانت امرأة مجنونة ارتكبت الزنى، فحكم عليها الخليفة بالحدّ، ورأى الإمام أن هذا الحكم خلاف للشرع الإسلامي ، فذكر لهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل ، فترك رجمها[٢] .

ونقل كثير من علماء السنة أن عمر حينما كان يحتار في مسألة ما فيحل علي (عليه السلام) المشكل ، وكان يقول : « لولا علي لهلك عمر » أو

---

(١) ينابيع المودة : الباب ٥٦ ص ٢١١ ط آستانة ، عن الإمام أحمد وابن السمان في كتاب الموافقة .

(٢) المصادر في الغدير ٦ : ١١٠ و ١١١ .

يقول : « لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن »[1] .

هذه هي جوانب من الحوادث التي كانت تصدر بصددها أحكام لا علاقة لها بالوحي والدين [2] .

أفهل كان الله يسمح بنقض قوانين دينه في الحوادث المستجدة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن تستبدل بها أحكام باطلة ؟ أو الأحرى أن يكون قد أودع أزمة الأمور بيد أناس يعلمون كل ما يتعلق بأحكام الإسلام بجميع جزئياتها ، وهم مكلفون بتنفيذها في المجتمع الإسلامي ؟ .

إننا إن افترضنا أن يكون وجوب الطاعة محصوراً بأولئك الذين تكاملت فيهم شروط القيادة فسوف لا تحدث أية معارضة بين ما يريدون وبين أوامر الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) وإن تفسيراً كهذا للآية الكريمة سوف يدفع كل تلك الإشكالات المتقدمة على معنى الآية ، وسوف يغنينا عن كل تفسير غير قابل للاعتماد عليه ولا يمكن الاطمئنان إليه . إن القرآن الكريم لا يسمح بالتبعية لأولئك الذين يفضلون إراداتهم على أوامر الله ويصرخ قائلاً : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[3] .

وبدهي أن الحكم بخلاف ما أراد الله لا اعتبار له ، وليس لأحد أن يتخذ موقفاً مخالفاً لأحكام الله وأن يشرّع بنفسه بإزاء تلك الأحكام . فالعقل والفطرة والآيات والروايات المستفيضة في هذا الموضوع تفرض علينا أن ننقاد لأوامر الله ونتبعها فقط .

وقد قال علي (عليه السلام) : « إنما الطاعة لله عزّ وجلّ ولرسوله ولولاة الأمر ، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته »[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ١٠٣ .

(٢) للمزيد من هذه القضايا يراجع الغدير ٧ و٨ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

(٤) بحار الأنوار ٢٥ : ٢٠٠ .

وقال الباقر (عليه السلام) : « الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى أن تقوم الساعة »[1] .

وروى العياشي في تفسيره عن حكيم قال : « قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : جعلت فداك ؛ أخبرني عن أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ؟ فقال لي : أولئك علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر أنا . فاحمدوا الله الذي عرّفكم أئمتكم وقادتكم حين جحدهم الناس »[2] .

وروى البحراني في تفسيره (البرهان) عن ابن بابويه بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري : لما أنزل الله عزّ وجل على نبيّه محمد (صلى الله عليه وآله) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ قلت: يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ .

فقال (صلى الله عليه وآله) : هم خلفائي ـ يا جابر ـ وأئمة المسلمين من بعدي : أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر . ستدركه يا جابر ، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سميّي ـ محمد ـ وكنيتي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي ، ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان[3] .

---

(١) اثبات الهداة ٣ : ١٣١ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٢ .

(٣) عن اثبات الهداة ٣ : ١٢٣ .

وروى العياشي في تفسيره عن عيسى أو يحيى بن السرى ، قال : قلتُ لأبي عبد الله (عليه السلام) : أخبرني عن دعائم الإسلام التي بني عليها الدين ، لا يسع أحداً التقصير في شيء منها ، التي من قصّر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه علمه ، ومن عرفها وعمل بها صلح له دينه وقبل منه عمله ، ولم يضرّ ما هو فيه بجهل شيء من الأمور إن جهله ؟ .

فقال: نعم، شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والإقرار بما جاء به من عند الله ، وحق في الأموال الزكاة ، والولاية التي أمر بها ولاية آل محمد ، وقال رسول الله : من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية . فكان الإمام علي ثم كان الحسن بن علي ثم كان الحسين بن علي ، ثم كان علي بن الحسين ، ثم كان محمد بن علي أبو جعفر . وكانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم ولا حلالهم ولا حرامهم حتى كان أبو جعفر؛ فحج لهم وبين مناسك حجّهم وحلالهم وحرامهم ، حتى استغنوا عن الناس ، وصار الناس يتعلمون منهم بعدما كانوا يتعلمون من الناس . وهكذا يكون الأمر ، والأرض لا تكون إلا بإمام [1] .

ليست قليلة تلك الفجائع التي أحدثها خلفاء بني أمية وبني العباس بصفتهم أولياء الأمور ، بالنسبة إلى الدين والمسلمين ، أولئك الذين جعلوا الخلافة مركزاً للفساد والخواء والرذالة؛ ولتثبيت دعائم حكمهم الباطل لطخوا أيديهم بدماء ما لا يقدّر من الأبرياء بل الأبرار ، ومع ذلك كله كانوا يدعون لأنفسهم إمرة المؤمنين ! .

فإن كان الله سبحانه هو الذي قرر حكومة مثل هؤلاء الجناة الأشرار الفتاكين ، بل أوجب لهؤلاء الخلفاء المفسدين الطاعة على المسلمين ، فأين

---

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٢ وفي تفسير البرهان ١ : ٣٨٦ والبحار ١٥ : ٢١٠ وينابيع المودة : ١٣٧ .

القسط والعدل وأين هي حقوق الفرد والمجتمع ؟ وأليست أوامر الله التي تتكفّل بالتكامل الحقيقي للإنسان وسعادته في الدارين من جميع الجهات والجوانب ، أليست تحرّف عن وجهتها الصحيحة ؟! .

هذا ، وقد نقل بعض كبار أهل السنة من الأحاديث ما يؤيد تفسير « أولي الأمر» في الآية الكريمة بأنهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)[١] .

إن القرآن الكريم قد حصر الولاية ورعاية المسلمين بالله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ـ بمعنى الصدقة ـ وهم راكعون فيقول : **﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾**[٢] .

إن هذه الآية إنما تشير إلى حادثة إنما تحققت في الواقع الخارجي مرة واحدة فحسب ، إذ لا حكم في الإسلام بدفع الزكاة في حال الركوع لا واجباً ولا مندوباً ، كي نتمكن من أن نقول : إن من الممكن أن يكون بعض الناس قد بادر إلى هذا العمل .

والحادثة كانت كما يلي : كان علي (عليه السلام) راكعاً إذ سأل سائل مساعدته بالمال ، فأشار إليه علي (عليه السلام) بإصبعه وأفهمه أن يخرج من يده الخاتم ، فأخرج السائل الخاتم من يد علي (عليه السلام) وخرج .

وهنا نزل أمين الوحي على الرسول (صلى الله عليه وآله) فتلا عليه هذه الآية المذكورة ، واتفق الشيعة والسنة على نزولها بشأن علي (عليه السلام) وأنه هو مصداق هذا الوحي الإلهي[٣] ، فلفظ الجمع في

---

(١) نقل بعضها الشيخ سليمان القندوزي في كتابه : ينابيع المودة : ١١٤ ـ ١١٦ . وبعضها المفسّر الأندلسي المعروف في تفسيره : البحر المحيط ٣ : ٢٧٦ . وبعضها أبو بكر المؤمن في رسالة خاصة كما في إحقاق الحق ٣ : ٤٢٥ .

(٢) سورة المائدة : ٥٥ .

(٣) تفسير الطبري ٤ : ١٦٥ . الكشاف للزمخشري في ذيل الآية . وأسباب النزول=

الآية إنما هو كناية عن فرد واحد دفع زكاة - صدقة - في حال الركوع ، ولا خلاف أنه هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

أما استعمال لفظ الجمع وإرادة الفرد الواحد منه فهو غير منحصر بهذا المورد ، ولا في ذلك ، وقد جاء في القرآن الكريم لفظ الجمع بالنسبة لنعيم بن مسعود الأشجعي أيضاً كذلك[1] . وكذلك يراد بضمائر الجمع في سورة « المنافقون » شخص عبد الله بن أبي بن سلول[2] ، وكذلك آيات أخرى[3] .

وعلى هذا ، وبملاحظة الاعتراف الصريح لكبار أهل السنة بشأن نزول الآية ، لا تبقى شبهة في أن الإمام والقائد بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو علي (عليه السلام) الذي قرن الله ولايته بولايته .

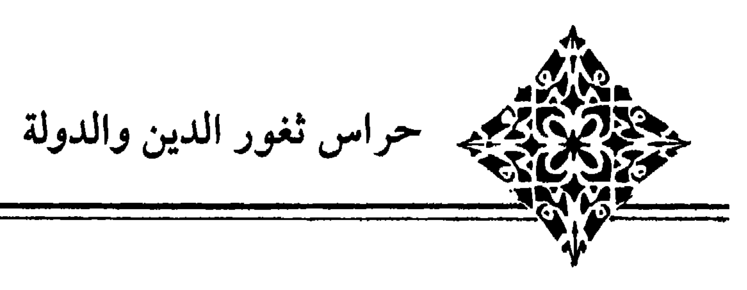


= للواحدي : ١٤٨ . ومفاتيح الغيب للرازي ٣ : ٤٣١ والدر المنثور ٢ : ٢٩٣ وتفسير المنار ٦ : ٤٤٢ وغيرها .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢ : ٢٧٠ والدر المنثور ٦ : ٢٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ وسرة التوبة : الآية ٦١ .



حراس ثغور الدين والدولة

إن الإسلام ـ خلافاً للمسيحية الحالية التي يبتنى نظامها الفكري والعقائدي على دعوة روحية ومعنوية ، وتتلخص مهمة هذا الدين اليوم في التبشير به وإرشاد الناس إليه وهدايتهم نحوه ـ نظام لا يكتفى فيه بسلسلة من المراسيم الدينية الجافة ! .

إن الدعوة في هذا الدين إلى السعي الهادف وتقديسه، وإيجاب الدعوة إليه ، وتشريع الأحكام التي تعم المادة والمعنى ، ومشاركة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحروب المختلفة ، كل ذلك في الإسلام مما يدل على أن النظام الفكري لهذا الدين الإلهي إنما هو في اتجاه تأسيس نظام حكومي يهدف إلى الآمال التحررية الكبرى ، ويسعى ليعود بالإنسان إلى نفسه ، ليدرك قيمته ، فيختار لنفسه النظام الإنساني الأمثل متمكناً من إقامة شريعة التوحيد ، والممانعة عن أنواع العدوان على بلاد الإسلام والأحكام الإلهية ، منفذاً إياها بدقة متناهية .

حكومة تعي مسؤوليتها عن حفظ أحكام الله ، فهي أمام ضغط المخالفين من أعداء الإسلام ـ مهما كان وبأية درجة كان الضغط ـ لا تكون مستعدة لتناسي نقطة صغيرة من الأحكام الإلهية ، أو أن تغض النظر عن تنفيذ ما هو الحق في ذلك ، أو أن تصرف النظر عن الأوامر الإلهية .

وأصولاً ، إن انفصلت الإمامة الدينية عن القيادة، وكان الدين لا يعير أية أهمية بالنسبة إلى النظام السياسي وقيادته ، واكتفى بوعظ جماهير الناس ، لم يكن ضمان للتنفيذ ، وإن اتفق بفضل جهود العلماء والمفكرين أن اطلع الناس على تعاليم الرسالة ، وأرادوا تطبيقها في حياتهم ، منع ذوو القوة الغاشمة وأصحاب السلطة الباطلة عن تطبيق تلك البرامج المشرعة لسعادة الإنسان ، ولا سيما تلك الأوامر التي تنتهي إلى الضرر بالجهاز الحاكم ، والتي يمكن أن يكون لها دور مهم في تحرير البشر من أسر الجبارين ، منعوا عن ذلك بمختلف الخطط والأحابيل ، وفي المقابل قاموا بتنفيذ أطروحات مبرمجة ومحسوبة بدقة من شأنها أن توطد حكومتهم في المجتمع ، وتؤمن منافعهم ومصالحهم عاجلاً أو آجلاً .

إذن فالدين إن كان يرى سعادة المجتمع ونجاته في اتّباعه لتعاليمه ، كان عليه أن يدلي برأيه في مسألة القيادة ، فيعرض للناس نظاما وينظّم أحكاماً ، يقرر بذلك مباني الدين بين أفراد المجتمع ، ويفتح بذلك السبيل للدعوة إلى دين الله . وقد أولى الإسلام ودين التوحيد بصورة عامة لإقامة النظام الصالح عناية خاصة ، وكان هذا الأمر الأساسي محط نظر الدين دائماً ، وحاول حاملو ألوية المرسلين أن لا يتركوا ثمار مساعيهم التربوية لرحمة حوادث التاريخ كيفما كانت .

إن الحكومة الإسلامية بمعنى إدارة شؤون الأمة على أساس أحكام الإسلام ـ بدأت منذ هجرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ودخوله مدينة يثرب ، ومنذ ذلك الحين تعين أسلوب نظام الحكومة الإسلامية . منذ اليوم الذي شيّد رسول الله (صلى الله عليه وآله) مدرسة التوحيد رغم مواقف الضالين والمشركين ، واقتلع الأشواك من طريق القيم والمثل ، وتوسعت سلطة الإسلام في الجوانب السياسية والاقتصادية والجغرافية والثقافية ، عين بعض العناصر اللائقة كمسؤولين عن بعض شؤون الدولة ، ليديروا بتدبيرهم الأمور التي ترتبط بإدارة دولة الإسلام ، فكلما دخلت الأراضي تحت تصرف

جيوش الإسلام في الحروب التي كانت تقع لرفع الموانع عن طريق نشر الحق واستقرار العدل ، كان يعين لها الرسول حاكماً وقاضياً ، ومعلماً ليتقدّم فيهم برفع مستوى الثقافة العامة ، ونشر الرؤية الدينية والتعاليم الإسلامية . أما بالنسبة إلى الناس غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في مناطق نفوذه فقد كان يولي القيم الثقافية والإنسانية فيهم بالحماية والتأييد .

والقرآن الكريم يعرف الرسولِ الأكرم (صلى الله عليه وآله) بصفته حاكماً وقاضياً فيقول :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبّع أهواءهم عمّا جاءك من الحق ﴾[1] .

إن الأنبياء هم الذين وطدوا أركان الحكم الإلهي في الأرض ، وهم الذين وجهوا الناس باتجاه الأخذ بزمام الحكم لصالح المؤمنين .

وكذلك يصف القرآن الكريم يوسف (عليه السلام) بالحكم فيقول :

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾[2] .

وبالنسبة إلى داود يقول :

﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[3] .

إن أحكام «الحدود» و «الديات» ونحوها من أبواب الفقه لهي من

---

(١)سورة المائدة : الاية ٤٨ .

(٢)سورة يوسف : الآية ٢٢ .

(٣)سورة ص : الآية٢٦ .

القواعد التطبيقية والتنفيذية للحكومة الإسلامية التي أسسها الرسـول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إن لحكومة رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) ـ بالإضـافة إلى جانبها الإجرائي ـ خصوصيـة أخرى ، هي أنـه كان عليـه أن يوجـد بحكمه قاعدة مناسبة لاستقرار الدعوة الإسلامية وتنفيذ الأحكام الإلهية ، فيـبيّن لعباد الله ما يوجب قيام الرسالة ودوامها ، ويبلّغ إليهم مفاهيم الكتاب السماوي ، فيبلغ بهم من حيث الثقـافة الـدينية إلى المـدارج العاليـة حيـث الأهـداف الإسلامية السامية .

وعن هذه الميزة الرسالية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول القرآن الكريم :

﴿ هـو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم يتلو عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[(١)] .

وعلى هـذا ، فإن رسـول الإسـلام كـان حـاكم المجتمـع الإسـلامي ومتكفلاً بأمور إرشاد الناس وهدايتهم وتبليغ أحكام الله إليهم ، ولهـذا فمن أراد أن يتسلق مقام خلافته يجب أن يكون له كلا هاتين الناحيتين من جوانب وأبعاد شخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله سلم) ، أي تكون لـه الحكومة في المجتمع وكذلك- أهلية القيام في مقام هداية الأمـة الإسلامية . مهمة الحفاظ على مباني العقيدة وأحكـام الشريعـة ، وصيانـة نظام الـوحي وأحكـامه عن أي تغييـر أو تبديـل ، والمقاومـة الصلبة أمـام أمــواج الكفـر والشبهـات المغـرضـة والمضللة ، وحـل مـا ينشـأ من المشـاكـل من آثــار التحريف ، ومكافحة أي نوع من التعدي والنفوذ من جانب الأجانب إلى ثغور الدولة الإسلامية ، كي يحصل بذلك الضمان لبقـاء الإسلام واستمـراره بين مختلفـ الأمواج العاتية .

---

(١)سورة الجمعة : الآية٢ .

وأحسن سبيل للحفاظ على جميع الحقوق والشؤون الفردية والاجتماعية وبسط العدل ونشر الرحمة ، لهو طريق حكومة الصالحين ، وأصلح أنواع الحكومة هي حكومة المعصومين التي يصح فيها الأمل في الحفاظ على جميع الحقوق والشؤون الإنسانية . فإن حكومة الحاكم المختار من قبل الله تعالى هي في الواقع حكومة الله سبحانه،وهذه القيادة هي التي تمكّن الإنسان من أن يحافظ فيها على شخصيته وكرامته وقيمته السامية ، وأن يصل فيها إلى جميع حقوقه ، فإن رعاية المكانة الإنسانية والسعي لاستقرار العدالة هما من الأصول الأساسية لهذه الحكومة ، ولا تتحقق هذه الرعاية إلا بالقيادة الإلهية. وإلا فإن أصحاب السلطة الظالمة والحكّام الطغاة الفاسدين يتبجحون بحقوق الإنسان ويدّعون لأنفسهم الدفاع عن مكانة الفرد والمجتمع ، ولكنهم في عملهم يمرّغون شرف الإنسان بالتراب ، ولا يحصل للأمة من منجزاتهم سوى سياسة التزوير والسلطة الظالمة والتمييز بين بني البشر .

إن أهمية القيادة الحقة ، وسعي قادة الدين في سبيل نشر الفضيلة وخير الأمة ، واستهدافهم تحقيق الحق والحرية . . وكذلك الأضرار الناتجة من سلطة الحكام غير الصالحين الذين لاتهمهم المسائل المصيرية للمجتمع ، والمتهاونين في تحقيق الحقوق الفردية والاجتماعية ليس ممّا يمكن التشكيك فيه .

إن الذي يريد أن يتكفل بمهام هداية الجماهير البشرية ويتعهد بالزعامة الدينية ، وأن يستند إلى مسند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحكم ، يجب أن يشبه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في المعرفة والعلم والعمل وأسلوب التفكير ، وأن تكون له بالإضافة إلى الخصائل الأخلاقية والفضائل الروحية ، والاهتمام بتهذيب النفس إلى مستوى العصمة . . إحاطة تامة بحقائق الدين ومعارفه ، كي يتمكن من الإجابة المناسبة عن جميع المسائل الموجهة إليه على أساس الحق ومباني الشريعة

الإسلامية ، وأن يحل ما يحتاج إلى الحل والفصل من موارد الخلاف في الأمة . وإلا فإن الإسلام يأبى من أن يضع أزمة أمور الأمة الإسلامية بيد كل حابل ونابل ، ويدع مكانة المجتمع الإسلامي وشؤونها في كف كل أحد .

إن القرآن الكريم يرى أن التفوق العلمي بالإضافة إلى الاستعداد الظاهري الجسماني لطالوت هو السبب في احتياره بجدارة لزعامة قومه فيقول : ﴿ **وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟! قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم** ﴾[1] .

فكما كان شخص الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) متصدياً لكلا المنصبين ، كذلك من الطبيعي لمن أراد أن يكون خليفة بعده أن يكون له كلا الميزتين اللتين كانتا للرسول ، أي العلاقة الخاصة بمبدأ الوجود الذي هو أمر إلهي يفيضه على من يشاء من عباده ، بالإضافة إلى صفة الحكومة على الأمة الإسلامية ، ولا يمكن الاكتفاء في قيادة الأمة بجانب واحد من مميزات وخصائص شخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فإن هذين المنصبين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولا ينبغي أن يفصل الجانب السياسي من إدارة المجتمع عن الإمامة المعنوية والروحية ، فالإمام له صفة الولاية التشريعية من جانب ، وهو من جانب آخر المدير الصحيح للمجتمع البشري الذي أراده وبناه الأنبياء .

الإمام الباقر (عليه السلام) حينما يذكر منطق أهل السقيفة حيث تمّ فصل أحد هذين المنصبين عن الآخر ، يتلو هذه الآية ـ وهو يريد أن الله قد وهب لبعض أبناء إبراهيم إدارة أمور المجتمع مع الإمامة الروحية :

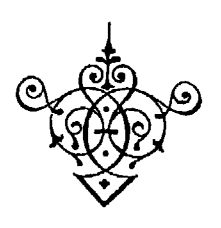
﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ ! فقد آتينا آل**

---

(١)سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

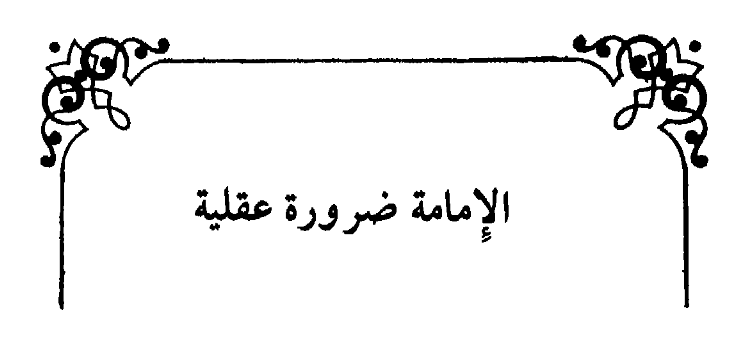
إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾[1] .

ثم يضيف الإمام قائلاً : « فكيف يقرّون بذلك في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد (صلى الله عليـه وآله وسلم) »[2] .



(١)سورة النساء : الآية ٥٤ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٤٧ عن بريد بن معاوية العجلي (ت ١٥٠) كما في النجاشي ٨١ ط الهند .



الإمامة ضرورة عقلية

إن الإنسان بناء على فطرته السليمة وطينته الطاهرة لفي حركة لا تتوقف إلى جهة الكمال، فهو يقطع الطريق من حيث يشعر أو لا يشعر، بل باشتياق شديد إلى الموقف الأخير في مسير الكرامة الإنسانية ، وهذه حقيقة متجلية في كيان الإنسان ، وهو بإحساسه بالحاجة الروحية يحاول أن يقطع مراحل أكثر من هذا الطريق الطويل ، لكي يتقرب من المدارج العالية والقيم السامية . ولهذا الطريق التكويني مراتب مختلفة يربط بينها رباط وثيق عميق .

وإلى جانب هذا هناك في باطن الإنسان أعداء للتكامل هي أهواؤه غير المتّزنة ، وعلى الإنسان في مسير حركته أن يحارب هذه الطاقات الكامنة المخربة والتي تحاول دائماً أن تسلبه سعيه ورقيّه إلى غايات الوجود ، بل أن تجره إلى أن يصبح من ضحايا الشياطين . وعليه أن يستمر في جهاده هذا .

وما دام الإنسان في صعيد الوجود ، يجب أن يكون هناك أمامه طريق الكمال وفي نهايته الغايات ، وإلى جانب ذلك يجب أن يكون بين المجتمعات الإنسانية ذلك الإنسان الفرد المتميز ، الجامع لكل المزايا الروحية ، والبالغ إلى أعماق الأحكام الإلهية ، وتلك الشخصية التي تكون في سواء سبيل الكمال ولا تميل إلى الانحراف قيد شعرة ، هي شخصية

الإمام المعصوم ، أي ذلك الإنسان الذي اختاره الله ليكون داعية التوحيد ، والـذي يشتمل على جميـع المـزايـا التي يمكن أن تتحقق في فـرد متحـرر متسام .

ذلك هو رائد ركب الإنسانية وواسطة الفيض الرباني ، ورابطة الوصل بين عـالم الغيب والنوع الإنسـاني ، وهـو الـذي يتلقى هـدايـة الله بصـورة مستقيمة وبلا واسطة ، وهو مصباح الهداية في خضم الظلمـات ، وعليه أن يرتقي بكل إنسان بهدايته وتعاليمه السماويـة ، حسب ظرفيـة ذلك الإنسـان واستعداده ، وأن يستعين بإيمانه وإرادته وعقله في طريق الكمـال ، فيهديـه إلى منابع التوحيد والعدل والقداسة ، ويهبه بذلك العزة والكرامة .

أما إذا حرم المجتمع البشري من وجـود هكذا شخصيـة إلهية ، فـلا يتمكن الإنسان من أن يجد وجهتـه بنفسه ، ولم تكن هنـاك بينه وبين عـالم الغيب أية علاقة ورابطة ، وبطبيعة الحال أصبحت حركته التكامليـة لا تصل إلى نتائجها المرجوّة .

والله الـذي جهـز الإنسـان بقـوى تتـوق إلى الكمـال ، ووهبــه هـذا الاستعـداد الذاتي لكي يتسلّق المدارج العاليـة ، محال أن لا يهـديه طـريق الوصول إلى الغاية .

أجل ، إن الألطاف الإلهيـة اللانهـائية تقتضي أن يهـدي عبده طـريق الوصول إلى الحقائق السامية ، وأن يساعده بأطروحة جامعـة شاملة تضمن له سعادة الدنيا والآخرة . وقد بعث بهذه البرامج الجامعة الشاملة لجميع جوانب وجود الإنسان ، بواسطة أنبيائه المصطفين إلى عباده المؤمنين .

وإن من عقيـدة التوحيـد أن لا حاكم في الـوجود إلا الله ، ففي عالم الإنسان الذي هو جزء من كل نظام الوجود، يجب أن يكون الحكم أيضاً لله . صحيح أن الإنسان يتمتع بحق حرية الاختيار في دائرة أعماله ، وذلك على أساس الإرادة المفوضة إليه (لا مطلقاً) ولكن من أجل أن يوفق هذا الجزء من

الوجود نفسه مع النظام العام عليه ان يعمل بأوامر الله ، كي لا يتصرّف في حكومة الله إلا برضاه ، فإذا هو لم يرع حرمه القوانين التي جاء بها الرسول وخالفها ، فإنه قد أبدى بذلك نوعاً من عدم الانسجام بين هذا الإنسان الصغير وما سواه من العالم الكبير ، وهنا يكون قد غيّر من جهة مساره الصحيح وتمايل إلى الانحراف .

وكما أن طاعة أوامر الوحي والرسالة بما أنها تمثل مسار التوحيد في طول التاريخ فهي طاعة لله تعالى ، كذلك يجب أن يكون لمن يريد أن يتكفل بحكومة المجتمع التوحيدي وإدارتها بعنوان خلافة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) نفس تلك الجوانب الباطنية والعلاقة الخاصة بالمبدأ كما كانت للرسول ، لتكون متابعته مسايرة لمسار الهدف الحق والصراط المستقيم .

منذ أن أسس رسول الله الحكومة الحقة ، وعمل لتمهيد الأرضية المناسبة لإيجاد بيئة نورانية ، تكفّل بنفسه بالقيام بتطبيق برامج تربية الإنسان التي كان يحمل هو لواءها . ولكن بما أن عمر رسول الله (صلى اللهعليه وآله سلم) كسائر أبناء البشر لم يكن ليستمر طويلاً فكان لا بد من أن يترك هذه الحياة الأرضية يوماً ما ، لهذا كان من اللازم عند خلوّ الساحة من وجود المربي الكبير أن يؤدي خليفته دور الموجه ، أعني ذلك الإنسان الصالح الجامع لشرائط زعامة المسلمين . ذلك الذي يجمع في وجوده كل كمال وكل خصيصة للإنسان الكامل ، الذي بإمكانه أن يغذي أرواح جميع أتباعه بإفاضاته وجذباته المعنوية ، وأن يعلمه كيفية الحركة في طريق الحق وإليه وإطاعته والإعراض عما سواه . وعندئذ تكون أبواب الصراط المستقيم مفتوحة للناس ، ويستطيع الجميع أن يجعلوا أنفسهم على مسار السعادة الأبدية .

وبإمكاننا أن ندرك جيداً هذه الحقيقة إذا ما علمنا أن لا فاصل بين الدنيا والآخرة ، وأن ليس بإمكاننا أن نفصل البرامج التي تتعلق بالحياة الجسمانية

عن الموازين والقواعد التي تتعلّق بالحياة النفسانية والروحية ، ولا أن نفترض لكل منهما مسؤولاً وحرساً خاصاً ، ولهذا يجب أن تكون تلك الشخصية الطاهرة المعصومة التي اصطفاها الله تمسك بيدها أزمة أمور الدنيا والآخرة، فيحرس المصالح العامة لعالم الإسلام أمام سائر الملل والدول .

وببركة وجود هذا القائد الحق وخليفة الله في الأرض ، يبقى الطريق الوحيد للوصول إلى السعادة الحقيقية مفتوحاً بوجه الناس ، وهو بمعنويته التامة وأسلوبه الحكيم يقودهم في ذلك الطريق الذي ينتهي بهم إلى حيث جميع القيم الطيبة الطاهرة والخالصة الأصيلة بين يدي الله العزيز .

صحيح أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) من بين الأئمة الاثني عشر هو الذي أمسك بيده أزمة أمور الأمة مدة محدودة ، ولم يجلس سائر الأئمة بعده بمسند الحكومة، ولم يدعوهم ليفيدوا المجتمع من موقعيّتهم الاجتماعية لتحكيم مفاهيم القرآن الكريم ونشر الثقافة الإسلامية وتعميق هوية الأمة . . ولكن النقص هذا كان من ناحية الناس أنفسهم الذين لم يمهدوا السبيل لاستقرار هذه الحكومة الحقة فيهم ، فحرموا من ثمار وجود هؤلاء القادة قدوة الإنسانية وأسوتها ، وإلا فإن الله كان قد أتم الحجة بهم على خلقه ، وعرّف هؤلاء الصالحين الذين اختارهم لهم ، المصطفين الذين لم يكن وجودهم مثمراً ومصيرياً لعموم المسلمين فحسب ، بل للإنسانية جمعاء .

ومن ناحية أخرى فإن بركات وجود الإمام لا تتلخص في الحكومة والزعامة فقط، بل هو يؤدي دور اختياره من قبل الله من سائر أبعاده وجوانبه، فهو مسؤول عن حراسة المواقف الحقة وصيانة أحكام الله عن متناول أيدي العابثين بالتحريف ، وهو مكلف من قبل الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)بتعليم الناس الحقائق الدينية والثقافات القرآنية والتعاليم الاجتماعية ، وأن يربّيهم ويزكّيهم ويوجههم . أضف إلى ذلك أن الإمام هو مصب الفيض الإلهي سبحانه .

وعلى هذا ، فإن الناس وإن كانوا قد حرموا من حكومة العدل والقسط على أثـر تهاونهم وعـدم كفاءتهم للقيـام بذلـك ، إلا أنهم لم يحـرمـوا من مختلف الآثار الأخرى لوجود أولئك المعصومين ، فـإن أولئك الـذين كانـوا وسائط فيض الله لخلقه سواء جلسوا في مسند الحكم أو منعوهم عن استقرار الحكم فيهم ولم يتركوا لهم إدارة المجتمع الإسلامي، فإنهم لا يزالون منشأ الخير والبركة للناس ، يستثيرون استعداداتهم ويثيرون أفكارهم .

أضف إلى ذلـك أن استقرار أسـاس الدين على أي حـال كان يـرتبط باتجاهـاتهم الخاصـة إلى مسار الثقـافة الإسـلامية وقيـادتهم النزيهـة ، وإن إحسـاس النـاس بحضـورهم بينهم منـع من ظهـور كثيـر من التحـريفـات الأساسية .

إن علي بن أبي طـالب (عليه السـلام) كـان يـراقب أوضـاع زمـانـه كمراقب يقظ واع ، فكلما صدر قضاء بالباطل ، أو وقع تحريف في حكمه أو أرادوا تنفيـذ حـدّ غيـر صحيـح ، كـان (عليـه السـلام) يتـدارك المـوقف ويـرشدهم ، وكـان لـه المـوقف الجـاد في الحفـاظ على أصـول الإسـلام وفروعه ، وكان يبدي بذلك قيادته الواقعية ، وكان على استعداد دائم لإجابة علماء الأديان الذين كانوا يفدون إلى المدينة من مختلف الجهات للحصول على أجوبة مسائلهم .

لقد انتشرت ببركة وجودهم معارف الإسلام وتعاليمه الحقوقية والتربوية والاجتماعية وانتشرت أحكام القـرآن وأوامره بين المسلمين ، حتى نبع من ينـابيع علومهم هـذا الجم الوفيـر من الأخبار الثـرة والغنيّة بـالعلم والحكمة والمعـرفة في جميـع جـوانب الـدين ، تحت سلطة الحكـومـات الخشنـة والموحشة، وفي مختلف ظروف الخلافة في كل زمان ، ومع خلفاء كانوا قد توغّلوا في الفساد والتعدي والخواء، بل الذين كانوا يحاولون تحديد النفوذ الثقافي لجناح الحق في أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وأن يصرفوهم عن استيعاب تلك الثقافة الغنيّـة . . وبهذه الطريقة حرسوا الحقيقة وعلموا الناس التعاليم الضرورية .

وبعض الخلفاء كالمأمون سعى سعيه وناصب جهده ليكسر شوكة الإمام العلمية عن طريق تشكيل مجالس البحث والمناظرة بينه وبين علماء الأديان والمذاهب المختلفة ، ولكنه لم ينته إلا إلى ظهور المقام العلمي للإمام وبالتالي إلى مصلحة الإسلام والمسلمين والحق المبين .

وببركة هؤلاء الوارثين لتعاليم الرسالة ، وصل إلى أيدي العلماء والمحققين المسلمين آلاف الأحاديث التي رووها للناس في مختلف المناسبات لتبيين الدين، ولنشر المباني العقائدية الحقة والاستدلال لها ، وفي مختلف أبواب الفقه والأخلاق والسلوك والمعارف الفكرية والباطنية . . . وبهذا الرأسمال استطاعوا أن يوسعوا كثيراً من دائرة العلوم الإسلامية ولا سيما الفقه الصحيح أمام المتفقهين في ذلك الواقع الفقهي المهترىء ، وبذلك حملوا مشعل المعارف الدينية وأوقدوها إلى الأبد .

وبإمكاننا أن ندرك جيداً مدى الجهاد الجاد والخدمات الثقافية الإسلامية لأهل البيت (عليهم السلام) في مختلف فروعها ، وحسب مقتضيات الظروف يومئذٍ ،وأن نعرف الجوانب العظيمة لخدمات هؤلاء القادة العلماء المخلصين عن طريق المقارنة بين أحاديث أهل السنة وبين روايات الأئمة الطاهرين وسعة هذه وشمولها واستيعابها . وحينئذ تتضح الرؤية العميقة والأصالة الفكرية والدينية ومختلف فروع المعرفة لدى أئمة الشيعة . وحتى فقهاء العامة وعلماؤهم لم يحرموا من معارفهم وعلومهم ، بل إن محققيهم قد استفادوا منهم فوائد جمة ، سواء مباشرة أو غير مباشرة ، وبذلك بينوا للناس مقامهم الرسالي كحراس للإسلام عالمين بكل شيء .

إن الإمام الصادق (عليه السلام) كان هو الذي فتح أبواب علوم الفلسفة والكلام والرياضيات والكيمياء ، فكان من تلامذته مفضل بن عمر ، ومؤمن الطاق ، وهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم ، متخصصين في الفلسفة وعلم الكلام . وجابر بن حيان في الرياضيات والكيمياء ، وزرارة

ومحمد بن مسلم ، وجميل بن دراج ، وحمران بن أعين ، وأبو بصير ، وعبد الله بن سنان ، متخصصين في الفقه والأصول والتفسير[1] .

وقال ابن شهر آشوب في (المناقب) : « ينقل عنه من العلوم ما لا ينقل عن أحد ، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات ، فكانوا أربعة آلاف رجل » .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) : « إن جعفر الصادق ، حدّث عنه من الأئمة والأعلام : مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريج ، وعبد الله بن عمرو ، وروح بن القاسم ، وسفيان بن عيينة ، وسليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر ، وحاتم بن إسماعيل ، وعبد العزيز بن المختار ، ووهب بن خالد ، وإبراهيم بن طحّان في آخرين ، وأخرج عنه مسلم في صحيحه محتجّاً بحديثه »[2] .

وابن أبي الحديد وهو يعدّ من كبار علماء أهل السنّة ، كتب بشأن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول :

« وما أقول في رجل تنتمي إليه كل فضيلة ، وتنتهي إليه كل فرقة ، وتتجاذبه كل طائفة ؛ فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عُذرها وسابق مضمارها ، ومجلّي حلبتها ، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لان شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف العلوم ، ومن كلامه اقتُبِس وعنه نُقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ ؛ فإن المعتزلة ـ الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ، ومنهم تعلم الناس هذا الفن ـ تلامذته

---

(١) انظر : الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، للمرحوم الأستاذ الشيخ أسد حيدر النجفي .

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٤ :٢٤٧ ، ٢٤٨ . وراجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة :٣ .

وأصحابه ؛ لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه (عليه السلام) .

وأما الأشعرية : فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ، وهو تلميذ أبي علي الجبّائي ، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بالآخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

ومن العلوم : علم الفقه ، وهو أصله وأساسه ؛ وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه . أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة . وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة . وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي ويرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وقرأ جعفر على أبيه وينتهي الأمر إلى علي (عليه السلام). وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس ، وقرأ عبد الله بن عباس عن علي (عليه السلام) . وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك ، كان لك ذلك . فهؤلاء الفقهاء الأربعة . وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر .

وأيضاً فإن فقهاء الصحابة كانوا عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ، وكلاهما أخذا عن علي (عليه السلام) ، أما ابن عباس فظاهر ، وأما عمر فقد عرف كل أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقوله غير مرة : لولا علي لهلك عمر ، وقوله : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وقوله : لا يفْتينّ أحد في المجلس وعليّ حاضر ، فقد عُرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه .

وقد روت العامة والخاصة قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

«أقضاكم علي»، والقضاء هو الفقه فهو إذن أفقههم . وروى الكل أيضاً أنه (صلى الله عليه وآله) قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه » وقال : فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين .

وهو (عليه السلام) الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر ، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية ، وهو الذي قال في المنبرية : « بل صار ثمنُها تُسعاً » وهذه المسألة لو فكّر الفرضيّ فيها فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهةً واقتضبه ارتجالاً ؟! .

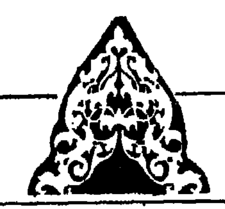
ومن العلوم : علم تفسير القرآن ، وعنه أخذ ومنه فُرّع ، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك ، لأن أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس ، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له وانقطاعه إليه وأنه تلميذه وخِرّيجه ، وقيل له : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة إلى البحر المحيط .

ومن العلوم : علم النحو والعربية ، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدأه وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام كله ثلاثة : اسم وفعل وحرف . ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة ، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم . وهذا يكاد يلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط »[1] .

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٦ .



من يفصّل الأحكام الإلهية

إنّ ما ينظّم ويدوّن من القوانين بـالمساعي العلمية والفكرية لجمهرة عـظيمة من العلماء، للمجتمعات البشرية، ، لا تستغني في مـرحلة التنفيـذ والتطبيق عمّن يفسّرها ويشرحها من الواعين اليقظين . وهذا أمر عام يشمـل حتى القوانين الإسلامية التي تستند إلى الهداية الإلهية بالوحي وبسنة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

إن القـرآن الكـريم وهـو المصـدر الأوّل لأي نـوع من الاجتهـاد في الإسلام ، لا تتمتع بعض آياته بالدلالـة الناطقـة والوضـوح الكامـل والإفادة القطعية ؛ ولهذا فإنّ الإفادة من التفسير لبيان مجمله حاجة جادّة وضرورية ، ذلك أن القرآن الكريم إنما يبيّن الخطوط العريضة والأصول العامة للبـرامج الإسـلامية في مختلف المـواضيع ، ولا يتعـرّض لبيان مـا أجمـل منهـا ولا لتفصيل جزئياتها ، فمن أراد أن يحصل على معرفة تامة بالأحكام لم يتمكن من أن يكتفي بالأوامر الإلهية قطعاً .

ويحصل اختلاف في مفاهيم الآيات والروايات ، وتستنبط استنباطات متنوعة من كثير من الآيات القرآنية والأحاديث الدينيـة ، لها الأثـر الكثير في تحريف المفاهيم الإسلامية الأصيلة ، وهنا بإمكان المغرضين من العصابات المرتبطة بالبلاط الحاكم أن يفسّروا طبقاً لمنافـع منابـع القدرة من أصحـاب

السمات الرسمية ، وقد ظهر كثير من هذه العناصر في مختلف الحوادث في خلافة الأمويين والعبّاسيين .

فماذا علينا أن نفعل في خضمّ هذه الأمواج المتلاطمة ؟ أليس من الضروري أن نرجع إلى مرجع علمي فقهي عالم معصوم محيط بعلوم الكتاب السماوي وارث لعلوم الرسول الكريم ؟ مرجع يطبق لنا أوامر القرآن الكريم على موضوعاتها بصور عملية واقعية ، ويعيّن لنا حدود الأحكام الإلهية بصورة لا تقبل التأويل ، ويكون تشخيصه وتوضيحه وتشريحه واستدلاله على مباني الأصول القرآنية باستلهام الوحي الإلهي حجةً قاطعةً للمسلمين ، وحكماً فصلاً ينهي ما قد يبدو من اختلاف في وجهات النظر ، ويكون كبوصلة القطب تنقذ الملاّح التائه عن حيرته .

إنّنا إن لم نر إلى جانب القرآن الكريم مفسّرين محلّلين جامعين لشرائط بيان القرآن ابتلينا بالإبهام والضلال والضياع الفكري ، وابتعدنا بتفاسيرنا غير المشروعة عن محور الحقائق الواقعية للقرآن الكريم .

* * *

إنّ الإمام الصادق (عليه السلام) فتح في عهده أكبر جامعة إسلامية ، وربّى ـ لتعليم الناس وتعرية الخطوط الفكرية لرواة الأكاذيب ـ جماعة عظيمة من العلماء العاملين ، فكان نشاطه الفكري والعلمي العلاج الصحيح لمواجهة التيارات الفاسدة من المفاهيم الخاطئة والنظريات الدينية المغرضة ، تلك التحريفات التي كانت الأوضاع السياسية قد مهدّت لها أرضيةً مساعدة .

وذات يوم ، وجماعة من أصحابه وتلامذته الذين كانوا يستفيدون من أفكاره العلمية والذين أثرت عنهم ثروة ثقافية عظيمة للأمة الإسلامية ، كانوا بين يديه ، وفيهم هشام بن الحكم ، إذ خاطبه الإمام يقول : « يا هشام : ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته ؟

فقال هشام : يابن رسول الله إني أُجِلُّك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك !

فقال أبو عبدالله : إذا أمرتكم بشيء فافعلوا .

قال هشام : بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة ، فعظم ذلك علي ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة ، فأتيت مسجد البصرة ، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد ، وعليه شملة سوداء متّزر بها من صوف ، وشملة مرتدٍ بها ، والناس يسألونه .

فاستفرجت الناس فأفرجوا لي ، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتيّ .

ثم قلت : أيها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة ؟ فقال لي : نعم .

فقلت له : ألك عين ؟ فقال : يا بُنيّ أيّ شيء هذا من السؤال ؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه ؟!

فقلت : هكذا مسألتي ! فقال : يا بُنيّ سل ، وإن كانت مسألتك حمقاء !

قلت : أجبني فيها .

قال : سل .

قلت : ألك عين ؟ قال : نعم ،قلت: فما تصنع بها ؟ قال : أرى بها الألوان والأشخاص .

قلت : فلك أنف ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أشمّ به الرائحة .

قلت : ألك فم ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أذوق به الطعم .

قلت : فلك أذن ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع بها ؟ قال : أسمع بها الصوت .

قلت : ألك قلب ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواس ! .

قلت : أوليس في هذه الجوارح غنىً عن القلب ؟ فقال : لا ، قلت : وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة ؟

قال : يا بُنيّ ، إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمّتْه أو رأته أو ذاقتْه أو سمعتْه ، ردَّتْه إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك .

قال هشام : فقلت له : فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح ؟ قال : نعم ، قلت : لا بدّ من القلب وإلاّ لم تستيقن الجوارح ؟ قال : نعم ، فقلت له : يا أبا مروان ! فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقنّ به ما شك فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم ، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم ، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك ؟! قال هشام : فسكت ولم يقل لي شيئاً .

ثم التفت إليّ فقال لي : أنت هشام بن الحكم ؟ فقلت : لا ، قال : أمن جُلسائه ؟ قلت : لا ، قال : فمن أين أنت ؟ قال : قلت : من أهل الكوفة. قال : فأنت إذاً هو ! ثم ضمنّي إليه وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت . قال : فضحك أبو عبد الله (عليه السلام) وقال : يا هشام من علّمك هذا ؟ قلت : شيء أخذته منك وألّفته . فقال : هذا ـ والله ـ مكتوب في صحف إبراهيم وموسى[1] .

كذلك نقول : إنّ الناس إنّما يتمكنّون من الوصول إلى الأحكام والأوامر الإلهية ، فيما إذا أخذ بقيادة الأمة الإسلامية بعد الرسول من يتبيّن للناس منه جدارته العلمية والمعنوية ، ليبيّن للناس تلك التفاصيل التي لم

(١) أصول الكافي ٢ : ١٦٩ ، ١٧٠ ط آخوندى .

تشتمل عليها الأوامر الإلهية بصورة مباشرة والتي لا بدّ منها للناس حين التطبيق والتنفيذ ، وإلّا فإن الأمّة تنجرف إلى الانحراف عن الرسالة والبعد الثقافي ، وتضلّ السبيل إلى دار السعادة والهدف من الخلقة .

إنّ الأئمة الطاهرين قاموا بعد الرسول بنشر تعاليم القرآن ما أمكنهم طوال سنين ممتدة، وفي الظروف المختلفة في التاريخ ، وفي حالات متغيّرة ومضطربة ، وعلّموا المسلمين تطبيق قوانين القرآن ، وكانوا هداة للناس بأقوالهم وأعمالهم ، وخلّفوا مجموعة تعاليم تمثل لنا كنزاً غنيّاً ثريّاً من التراث الإسلامي ، ويتمتع هذا الكنز الغنيّ بالدليل والبرهان والأسناد المعتمدة ، وهي شاملة ومستوعبة يمكن لها أن تحلّ لنا أية مسألة أو مشكلة طارئة

بينما يعلم الجميع بأن الخلفاء بعد رسول الله (صلى الله عليه واله) كانت معرفتهم بأحكام الإسلام وحاجات الناس الدينية قليلة جدّاً : فالخليفة الأول لم ينقل عنه أكثر من ثمانين حديثاً[١] .

وقال النووي في تهذيبه : روى الصدّيق عن النبيّ ١٤٢ حديثاً ، أورد السيوطي منها في تاريخ الخلفاء ١٠٤ ، وله في البخاري ٢٢ حديثاً[٢] .

القائد الديني الذي ينبغي أن يكون منقذاً للأمة في كل غمّة ، وحلّالاً لمعضلاتها الدينية وغيرها ، كانت ثقافته الإسلامية بمستوى احتاج معه أن يتعلم حكم الله بشأن إرث الجدّة من «المغيرة بن شعبة» ذلك الرجل الضالّ والفاسد[٣] .

واعترف هو بكل صراحة يقول : « فإنّي قد وُلّيت عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني . . أطيعوني ما أطعت

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١ : ٢ ـ ١٤ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٤ ط الثالثة .

(٣) موطّأ مالك : ٣٣٥ .

الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »[1] .

أمّا عمر فلم يصحّ عنه إلا حوالي خمسين حديثاً ، كما أثبت ذلك ابن حزم[2] .

وقد رووا عن مستوى الثقافة الدينية للخليفة الثاني : أنه جاءه رجل يسأله : وجب عليّ الغسل فلم أجد ماءً فماذا عليّ ؟ قال الخليفة : سقط عنك الصلاة[3] .

بينما قد بيّن القرآن الكريم حكم هذه المسألة صريحاً[4] .

أما عثمان فقد روى البخاري له تسعة أحاديث ، ومسلم خمسة[5] .

إنّ هذه الحقائق الواقعة تبيّن لنا المستوى العلمي والثقافة الدينية لمن كان قد أخذ بزمام قيادة المجتمع الإسلامي ، فكيف يمكن أن نأمل ـ والحال هذا ـ أن يبقى إطار الأحكام الإلهية مصوناً عن التغيير والتحريف ، وأن يتقدم المجتمع الإسلامي باتجاه الأهداف الدينية العالية ؟! .

إنّ الذي يتكفّل بأن يحمل على عاتقه ثقل قيادة الأمة يجب أن تكون ثقافته الدينية شاملة وذات جوانب بعيدة المدى والغور ، كي يتمكن من الجواب لكل سؤال . بينما كانت معرفة الخلفاء بالفقه الإسلامي الأصيل والدقيق قليلة ضئيلة ، مع أن العلم بالأحكام الإلهية يعد من الأركان الأساسية لمقام القيادة .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه في باب التيّمم بأربعة طرق ، عن

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ : ١٥١ والطبري ٣ : ٢١٠ .وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٧٤ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٤ ط الثالثة .

(٣) كما في سنن ابن ماجة ١ : ٢٠٠ .

(٤) سورة النساء : الآية ٤٣ وسورة المائدة : الآية ٦ .

(٥) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٥ .

عبد الرحمن بن أبزى : إن رجلاً أتى عمر فقال : إنّي أجنبت فلم أجد ماءً ؟ فقال عمر : لا تصلّ !

فقال عمّار : أما تذكر ـ يا أمير المؤمنين ـ إذ أنا وأنت في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماءً ، وأمّا أنت فلم تُصلّ ، وأمّا أنا فتمعّكت في التراب وصلّيت ؟ فقال النبيّ (صلى الله عليه [وآله]) إنّما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ ، ثم تمسح بهما وجهك وكفّيك ؟

فقال عمر : اتّق الله يا عمّار ! قال : إن شئت لم أحدّث به ؟

وفي لفظ : قال عمّار : يا أمير المؤمنين ! إن شئت ـ لما جعل الله عليّ من حقك ـ أن لا أُحدّث به أحداً »[1] .

ويكفي بشأن الثقافة الدينية للخليفة الثاني أن نشير إلى حادثة واحدة هي :

أخرج البيهقي في سننه الكبرى ٧ : ٢٣٣ عن الشعبي قال : خطب عمر بن الخطاب (رض) الناس فحمد.الله وأثنى عليه وقال : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو سبق إليه ، إلاّ جعلت فضل ذلك في بيت المال . ثم نزل ، فعرضت له امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين أكتاب الله تعالى أحق أن يتّبع أو قولك ؟ قال : بل كتاب الله تعالى ، فماذاك ؟ قالت : نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً** ﴾ فقال عمر (رض) : كل أحدٍ أفقه من عمر . مرتّين أو ثلاثاً . الحديث[2] .

فهل من المناسب أن نودع أزمة أمور المجتمع الإسلامي بأيدي أُناس

---

(١) الغدير ٦ : ٨٣ وعن أحمد والسنن الأربعة .

(٢) سنن البيهقي ٧ : ٢٣٣ ، كما في الغدير ٦ : ٩٦ .

بُعداء عن أحكام دين الله إلى هذا الحد حسب اعترافهم الصريح ؟! ذلك الدّين الذي عليهم أن يكونوا أئمته ودعاته ومنفّذي أحكامه في المجتمع ؟ أفهل يُودع الله ـ حقاً ـ مصير وجميع شؤون الأمة التي غذّاها بالوحي ، والتي أسسّها على أساس آخر نسخة من وحيه وعلى يد أسمى ذخيرة في الوجود ، يُودع مصيرها بأيدي أناس لا يستطيعون أن يجعلوا الأمة الإسلامية على مسار السنن الكونية الإلهية ، ولا أن يرفعوا ستائر الإبهام عما تعقّد من المسائل والأحكام ، بل هم أعجز من أن يبيّنوا للناس المسائل الدينية البسيطة ، وأعجز من أن ينفّذوا قانون الشريعة بصورة صحيحة .

كيف يحكم العقل والفكر البعيد عن التعصّب ، والذهن الخالي من الأحكام الإلزامية السابقة لأوانها ؟



الإمامة والهداية الباطنية

ومن خصائص الإمامة والقيادة الشرعية الإلهيـة : الهدايـة الباطنيـة ، والتي هي ليست من نوع الهدايات التشريعيـة الظاهـرية ؛ وإن هـذا المقام الخاص والسامي إنمـا يفاض من قبـل الله الكبير المتعـال على جماعـة من خاصة أصفيائه المصطفين النبّلاء ، وإنّ الأوامر التكوينية الإلهية إنما تتحقق بواسطة شخصيـات سامية، تستطيـع بعلمها بمـراتب إيمان النـاس ومعرفتهم وأعمالهم وسلوكهم أن تؤثر حتى في مجاري أفكارهم ودخائل أمورهم، وأن تنوّر قلوب الناس وتجلوها على اختلاف درجاتها في الإيمان ، وأن تساعدهم على تهذيب نفوسهم وأرواحهم . وعلى الأتباع أن يوفقّوا أنفسهم مع خطوط هـدايتهم ، وأن يعصمـوا أنفسهم عن الـوقـوع في مصـائـد أهـواء النفس ومشتهياتها الذليلة .

إن من الأنبياء من نال مقام الإمامة وهذه الهداية الباطنية بعـد أن وقع موقع مختلف الامتحانات والاختبارات الإلهية ، وثبتت بذلك قدرتهم الروحية والمعنوية وأنهم بلغوا مرتبة اليقين .

ويفهم من عدد من الآيات الكريمة أن الإمـام المعصوم لـه نفس هذه الموقعيّة الحسّاسة من الهداية الباطنية ، وأنه واسطة للفيض الإلهي ، وإنّمـا تفاض هذه الهداية على باطنه من عالم الملكوت الأعلى .

فالقرآن الكريم يذكر شروطاً خاصّة لإحراز مقام الإمامة إذ يقول :

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] .

فالمراد من الهداية هنا هو الهداية التكوينية لا التشريعية ، فإن الهداية الظاهرية والسعي في سبيل إرشاد الناس وتوصيتهم بالحق والصبر من وظائف كل مسلم كما أمر به الشرع ، وليس تنفيذ هذا الأمر مشروطاً بمقام الإمامة والصبر واليقين ، ولا حاجة فيه إلى طيّ هذه المراحل والمقدمات المختلفة ؛ لكن الهداية بأمر الله هي مقام لا يتحقق إلا بجعل من الله ، وإنما يتيسر الوصول إلى هذه المرتبة السامية لمن أوتي من الصبر في مواجهة الحوادث المرّة ما يتمكن معه من الفوز في الامتحانات والاختبارات الإلهية ، فهو صبور في مواجهة الذنوب والآثام ، وعندئذٍ يكون هذا العنصر الفاضل الممتحن قد بلغ مرتبة اليقين السامية ، وحينئذٍ ينال مقام الإمامة . وهذه هي شرائط الهداية الباطنية .

وكذلك يقول القرآن الكريم : **﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾**[2] .

و**﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾**[3] .

وإذ اختبر إبراهيم (عليه السلام) بأمور فأتّمها قال له : **﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذرّيتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾**[4] .

وفي هذه الآية عدة نقاط :

١ ـ إن إمامة إبراهيم (عليه السلام) إنما كانت تتشكل على أثر كيفية

---

(١) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٧٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧١ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

مواجهته لأنواع الاختبارات الإلهية في رسالته ، وإنها كانت مرتبطة بكيفية خروجه من ورطة الامتحانات كفؤاً مرفوع الرأس ؛ فإنه بعد أن قطع كل تلك المراحل بقدرة عالية أوحي إليه بلوغه إلى مقام الإمامة ، وأنه أنيطت إليه مسؤولية الهداية الباطنية وتزكية النفوس والإشراف على الخط المستقيم .

٢ ـ إن إبراهيم (عليه السلام) إنما خوطب بذلك بعد أن قطع كل تلك المراحل الصعبة من الاختبارات والامتحانات الإلهية في حين أنه كان قد قرب من نهاية عمره أو كاد ، ولا ريب أنه في تلك الفترة من عمره كان نبيّاً متكفلاً بهداية الناس في العقيدة والفكر والعمل ، ومع ذلك أوكل إليه مقام الإمامة . ومن هنا يفهم أن منصب الإمامة بمعنى النفوذ الباطني في دخائل الناس لعونهم على مسيرتهم الروحية كان منصباً أسمى من النبوّة التي كان قد أحرزها منذ مدة مديدة .

٣ ـ إن العصمة عن المعاصي والتلوث بالآثام من شرائط الإمامة ؛ فإن الآية تعلن : أن الظالمين الذين تخطّوا حريم العصمة والتقوى وتعدّوا حدود الله في الظلم، سواء في ظلم الناس؟ أو ظلم أنفسهم ، تعلن الآية أن هؤلاء محرومون عن الوصول إلى مرتبة الإمامة والولاية على الناس .

٤ ـ إن الإمامة عهد إلهي ، وإنها تخصّ من الناس من كان من العدالة والتقوى في مستوى العصمة والطهارة ، وإن هؤلاء هم الذين لهم أن يرشدوا الناس ويُمدّوهم بالهداية الخاصة حتى المراتب السامية . ومع هذا فلا يكون هذا المنصب من اختيار الناس كي يختاروا من شاؤوا منهم لهذا المقام السامي .

٥ ـ إن الإمامة تجتمع مع النبوّة في الأنبياء ، كما كان ذلك في إبراهيم (عليه السلام) ؛ فإنه كان يتلقى الوحي الإلّهي بنبوّته وأخذ في إصلاح الأفكار المنحرفة ببراهين قاطعة وحجج قوية ، ومن ناحية أخرىٰ حصل على الإمكانات اللازمة لهداية الناس الروحية والمعنوية الباطنية في ظلّ ما قام به

من أعمال خاصّة استثنائية ، وهنا انفتحت بوجهه أبـواب الإمامـة ونال هـذا المنصب السامي .

ويفهم من الآية أن الله يهب مقام الإمامة لغير الظالمين من ذرّية إبراهيم (عليه السلام) ، ولا ريب أن أصلح من يجمع شرائط إحراز هذا المقام من ذرّيـة إبـراهيم هم النبيّ والأئمـة المعصـومـون ، ولهـذا فـإن هؤلاء القـادة المتميزين هم المصداق الأجلى من ذرّية إبراهيم الذين نالوا مرتبـة الإمامـة والهداية الباطنية بما فيها من علم غيب (مفاض عليهم من الله تعالى) .

روى الكليني في (الكـافي) عن الباقـر والصادق (عليهمـا السلام) قالا : « إن الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبـل أن يتّخذه نبيّـاً ،واتّخذه نبيّـاً قبل أن يتّخذه رسولاً ،واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليـلاً ، واتّخذه خليـلاً قبل أن يتّخذه إماماً . . فلمّا جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ قال له : ﴿ **يا إبراهيم إني جاعلك للناس إمـاماً** ﴾ فمن عـظمها في عين إبـراهيم (عليه السـلام) قال : يا ربّ ﴿ **ومن ذرّيتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[1] » .

وقد رويت روايات كثيـرة عن قادة الإسـلام تثبت وتؤكد على ضـرورة وجود الإمام لهداية الخلق ، وأنه ما دام يعيش على الأرض بشر فلا بـدّ من وجـود حجة لله عليهم ، لكي يـرسم للأمـة المعالم الفكـرية والاجتمـاعيـة والعقائدية في ظل البرامج التعليمية التي يقوم بها ولّي الله بصفته ممثلاً لدين الله مبيّناً إيّاه للناس .

قال علي (عليه السـلام) : « ألا إنّ مثل آل محمـد (صلى الله عليه وآله) كمثل نجوم السماء ، إذا ذوى نجمٌ طلع نجم ، فكأنكم قد تكـاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون » .

وقال الصادق (عليـه السلام) في خـطبة لـه : « إنّ الله أوضح بـأئمة

---

(١) أصول الكافي ١ : ١٧٥ ، الحديث ٢ و٤ ط آخوندى .

الهدى من أهل بيت نبيّه (صلى الله عليه وآله) دينه ، وأبلج بهم باطن ينابيع علمه ، فمن عرف من الأمة واجب حق إمامه وجد حلاوة إيمانه وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأنّ الله نصب الإمام علماً لخلقه ، وحجة على أهل أرضه ، ألبسه الله تاج الوقار ، وغشّاه نور الجبّار ، يمدّه بسبب من السمّاء ، لا ينقطع موادّه ، ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه ، ولا يقبل الله معرفة العباد إلا بمعرفة الإمام ، فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الوحي ومعميّات السنن ، ومشتبهات الفتن ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين من عقب كل إمام يصطفيهم لذلك ، وكلّما مضى منهم إمام نصب الله لخلقه من عقبه إماماً علماً بيّناً ومناراً نيّراً ، أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون ، وخيرة من ذرّية آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل (عليهم السلام) ، وصفوة من عترة محمد (صلى الله عليه وآله) اصطنعهم الله في عالم الذرّ قبل خلق جسمهم عن يمين عرشه، مخبوءاً في علم الغيب عنده ، وجعلهم الله حياة الأنام ودعائم الإسلام[1] » .

وقال (عليه السلام) كما في رواية عنه في (أصول الكافي) : « لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام ، وقال : إنّ آخر من يموت الإمام ، لئلا يحتجّ أحد على الله عزّ وجل أنّه تركه بغير حجة لله عليه »[2] .

وأخرج الحمويني بسنده عن الأعمش قال: « قلت لجعفر الصادق (عليه السلام) : كيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور ؟ قال : كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب »[3] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : « والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم

---

(١) ينابيع المودة : ٢٣ ، ٢٤ عن المناقب للإمام أحمد بن حنبل . وفي أصول الكافي ١ : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ط آخوندى .

(٢) أصول الكافي ١ : ١٨٠ ط آخوندى .

(٣) ينابيع المودة : ٢١ عن الحمويني في فرائد السمطين ط آستانة .

(عليه السلام) ، إلّا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله ، وهو حجّته على عباده ، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده »[1] .

وروى فيه بسنده عن أبي خالد الكابلي قال : سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا** ﴾[2] ؟ فقال : « يا أبا خالد ، النور ـ والله ـ الأئمة ، يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم الذين ينوّرون قلوب المؤمنين ، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها »[3] .

وروى الشيخ الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : قلت : لأيّ شيء يحتاج إلى النبيّ والإمام ؟ فقال : لبقاء العالم على صلاحه ؛ وذلك أن الله عزّ وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبيّ أو إمام ؛ قال الله عزّ وجل : ﴿ **وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم** ﴾[4] وقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) : « النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون ، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون » يعني بأهل بيته : الأئمة الذين قرن الله عزّ وجل طاعتهم بطاعته ، فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[5] وهم المعصومون المطهّرون الذين لا يذنبون ولا يعصون ، وهم المؤيَّدون الموفّقون المسدّدون ، بهم يرزق الله عباده ، وبهم يعمر بلاده ، وبهم ينزل القطر من السماء ، وبهم تخرج بركات الأرض ، وبهم يُمْهَل أهل

---

(١) أصول الكافي ١ : ١٧٩ .

(٢) سورة التغابن : الآية ٨ .

(٣) أصول الكافي ١ : ١٩٥ ط آخوندی .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ٥٩ .

المعاصي ولا يُعَجّل عليهم بالعقوبة والعذاب ، لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه ، ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم ، صلوات الله عليهم أجمعين[1] .

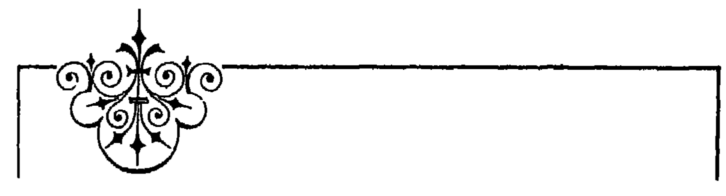
وروى الشيخ الكليني في أصول الكافي) بسنده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قـال : قلت له : أتبقى الأرض بغيـر إمام ؟ قال : لا ، قلت : فإنّا نروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنها لا تبقى بغيـر إمام إلّا أن يسخط الله تعـالى على أهل الأرض أو على العبـاد ، فقال : لا ، لا تبقى ، إذاً لساخت[2] .



---

(١) البحار ٣٣ : ١٩ عن علل الشرائع : ٥٢ .

(٢) أصول الكافي ١ : ١٧٩ .



عصمة الإمام ولزوم الاعتقاد بها

مما يحتوى عليه تاريخ الجدل العقائدي في الإسلام هو البحث والكلام حول ضرورة العصمة في النبيّ والإمام وعدم ضرورتها .

فقد أجمع الشيعة على اعتبار العصمة في الإمام ، وأكّدوا على تحقق هذا الشرط الأساسي في صلاحية من يحرز منصب الإمامة ؛ ذلك لأن مقام الإمامة حسّاس وخطير للغاية . إنّ من يتحمل جمّاً كثيراً من مسؤوليات الرسالة والأمة لَيواجه دائماً خطر الزلّة والانجراف إلى الانحراف من حيث يعلم أو لا يعلم ؛ ولا شك في أن شرف الأمة التي يتزعّمها وقيمها واعتبارها سوف ينجرّ بذلك إلى الانحطاط والسقوط ، وأنّ الآثار السلبية لانحراف القائد سوف تصيب القاعدة أي المجتمع الإسلامي .

إن هذه الانتباهة الخاصة إلى ضرورة العصمة لهي من خصائص التشيّع ، وإنها لدليل على نضج الفكر الدينيّ لديهم وإدراكهم العميق للإسلام ، إذ يسعون للتعرّف على القائد بمنتهى الدقة واليقظة ، ويرون القيادة قلادة لا تليق إلا بإنسان سامٍ عالم معصوم . العصمة فيه كغاية درجات التقوى ونهيه نفسه عن الهوى ، أما العلم فيه والمعرفة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو نابع من ينبوع علم الله المطلق . وأنّ هذه الخصائص لا تتحقق إلاّ في الأئمة من عترة الرسول . بينما يقبل أهل السنة إمامة وخلافة

كثير من مدّعيها من دون أيّ شرط أو قيد من هذا القبيل ، فهم لا يشترطون فيمن ينال هذا المقام من الخلفاء العصمة من الذنوب والمعاصي .

إنّ العصمة : هي قوة باطنية تعصم صاحبها عن المعاصي ، وهي إنما تنبع من الإيمان والتقوى والمعرفة التامة والدقيقة بالله العليّ العظيم ، وتمنح صاحبها الحصانة أمام أنواع المعاصي والمفاسد الأخلاقية وغيرها . إنّ هذه الصفة النفسانية الذاتية التي تحصل من معرفة حقائق الأشياء في عالم الوجود ، تؤثّر في امتناع الإنسان عن أيّ تمرّد أو عصيان على الخالق ، سواء في الصغائر أو الكبائر ، في العلن أو السرّ .

وإنّ ما نقوله من عدم تأثير دواعي المعاصي في كيان هذا الإنسان ، لا يعني أن هناك ـ بإرادة الله ومشيئته ـ قوة جبريّة تمنعه عن الانجذاب نحو الذنوب ، وتسلبه قدرته على القيام بأية معصية ، بل نريد : أنه ـ ومع تمتّعه بحرية الاختيار والعمل ـ لا تدعه رؤيته الواقعية ومعرفته بالله العظيم وعلمه بإحاطة الله به ، لا تدعه أن يتقرّب إلى منطقة خطر الذنوب ، وأنّه قد بلغ من العلم والمعرفة درجة عميقة لا يتطرق معها إلى حريم فكره الطاهر حتى تصوّر الذنوب ، وأنه في تقواه وتسلّطه على نفسه موفّق توفيقاً يصل معه احتمال ارتكابه المعاصي درجة الصفر لا يتعدّاها .

إنّ ارتكاب الأعمال غير الصالحة ينشأ من الجهل وعدم المعرفة بقبح العمل وآثاره الضارّة ، وإذا كان معتقداً بقبح العمل إلى حدّ ما ، وكان وجدانه الباطنيّ يحذّره مغبّة عمله ، فإنه قد يفتقد قدرته على ضبط نفسه أمام ضغوط الأهواء فينجذب إلى الذنوب والفساد . وعلى هذا فإن التوجّه إلى خسائر وأضرار الأعمال السيّئة مع الشعور بحق طاعة المولى ، وبمعونة قوة التقوى ، يوجد في الإنسان حصانة خاصّة ، لا حاجة معها إلى عامل آخر لضبط النفس عن السوء .

روى الشيخ الصدوق في أماليه بسنده عن محمد بن أبي عمير قال: «ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن

من هذا الكلام في صفـة عصمة الإمـام ؛ فإني سـألته يـوماً عن الإمـام أهو معصوم ؟ قال : نعم ، قلت : فما صفة العصمة فيه ؟ وبـأي شيء تُعرف ؟ قال :

إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها : الحرص ، والحسد ، والغضب ، والشهوة . فهذه منفيّة عنه ؛ لا يجوز عليه أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه ؛ لأنه خازن المسلمين ، فعلى ماذا يحرص ؟ ولا يجوز أن يكون حسوداً ، لأن الإنسان إنما يحسد من هو فوقه ، وليس فوقه أحد ، فكيف يحسد من هو دونه ، ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلّا أن يكون غضبه لله عـزّ وجل ، فـإنّ الله عزّ وجـل قد فـرض عليه إقـامة الحدود ، وأن لا تأخـذه في الله لومـة لائم ، ولا رأفة في دينـه ، حتى يقيم حدود الله عزّ وجل . ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ؛ لأن الله عزّ وجل حببّ إليه الآخرة كما حببّ إلينا الدنيا ، فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا ، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح ، وطعاماً طيبـاً لطعـام مُرّ ، وثـوباً ليّنـاً لثوب خشن ، ونعمـة دائمة بـاقية لـدنيـا زائلة فانية » ؟!(١) .

ويخضع الناس لدعوة القائد بوصفها تكليفاً شرعياً ، ويتقبّلون تعاليمه بدون أي قيد أو شرط فيما إذا اعتقدوا بأنّ أوامره تمثّل أحكام الله تعالى ، من دون أيّ ريب أو تـرديد . أمـا إن لـم نأمن من أحـد ارتكاب الـذنوب لعـدم حصانته من الخـطأ والخطل والسهـو والزلـل فهل لنـا أن نعتمد على أقـواله بالقطع واليقين ، وأن نطمئن إلى أقواله وأوامره بقلوبنا ؟! .

إنّ الإنسان أمام المظاهر الخلّابة والميول النفسانية وحبّ الجاه والمال والثروة ، لا يزال في معـرض الزلّات والهفـوات والعثرات ، وإنمـا هي قوة العصمة التي لا تدعه يتزلزل أمام عوامل الانحـراف ، ولا تتركـه ينكسر في مقاومته لها .

---

(١) أمالي الصدوق : ٥٠٥ ط بيروت .

وإن لم يتمكن الإنسان من الاعتماد على القائد مئة بالمئة بقيت رسالة الأديان ـ وهي تكامل الإنسان ـ ناقصة غير تامة ؛ فإنه مع عدم حصانة القائد عن الخطأ والخطل سوف تبتلى الرسالة بتحريفات كثيرة ، وسوف يبتعد دين الله عن هدفه الأصيل ،وسيبتلى الناس في كل أمر من أوامر القائد بالشك والترديد في أن تكون أوامره هذه مبتنية على أساس الوحي ونظر الإسلام الواقعي ؟! .

ولا يمكن أن نقتصر في عصمة قائد المسلمين وطهارته ونزاهته وبعده عن أيّ اعوجاج أو انحراف أو اقتراف ، على عهد إمامته فحسب ، بل يجب أن لا يتلوث قلبه بالإثم في جميع أدوار حياته من قبل نيله مقام الإمامة ؛ فإن المعاصي تسقط بأصحابها عن مقام الكرامة الإنسانية ، على أن الناس لو علموا في القائد سابقة سوء لأصبح في معرض الاتهام لديهم بالآثام دائماً ، ولسرت الشبهة في مشروعية حكمه وقيادته في قلوب الناس ، ولم تعرفه الأمة مثلاً للتقوى والصلاح ، فضلاً عن أن تصبح مغرمة بأعماله وفضائله المعنوية والروحانية .

إن الناس سوف لا ينسون الخواطر المرّة عمّن قد قضى قسطاً من عمره في الآثام والفساد ، ومن هنا يتقوّى موقف المخالفين تقوية تامّة ، فإنهم يتمكنون بذلك من تعييره بكل صراحة واقتدار ، وأن يسقطوه بذلك عن أعين المسلمين ، وبذلك يفصلون بين القائد وقاعدته الشعبيّة . ولا يتمكن هو من الدّفاع عن كرامته الروحية والمعنوية ، وأن يرد هجمات المخالفين بالبيان والاستدلال .

إنّنا لو لاحظنا حياة الأئمة الطاهرين لرأينا أنّ مخالفيهم ـ بما فيهم من الوقاحة والصلافة ـ لم يلجأوا في سعيهم لكسر شوكتهم في أعين الناس إلى اتّهامهم بفساد الأعمال ، ولو كانت فيهم أية فرصة لذلك لما سكتوا عن مثله . وأيضاً لو كان كذلك لما كان الناس يطمئنّون إلى كلامهم في الوحي والأحكام الإلهيّة هذا الاطمئنان ، إذ كانوا يحتملون فيهم الكذب والقول

بخلاف الواقع والحقيقة ، وبذلك كان الشك والترديد يتطرق دائماً إلى كلامهم ودعاويهم ، والقيادة الدينية بوصفها مرتبطة بالله تعالى لا تثبت في جوّ يشوبه عدم الوثوق بالقائد .

ونقرأ في آيات الذكر الحكيم أن فرعون الطاغي الباغي لمّا واجه موسى (عليه السلام) وجّه أصابع التهمة إليه بسابقته السيّئة عنده فقال له : ﴿ **ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين * قال : فعلتُها إذاً وأنا من الضالّين * ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين** ﴾[1] .

ولهذا نقول : إنّ أولى الشرائط الضرورية لإحراز مقام الإمامة هي طهارة باطنه وعصمته . ونزاهة قلبه في جميع أدوار حياته قبل وبعد وصوله إلى مقام إمامة الأمة .

صحيح أن الإنسان مُعرَّضٌ للخطأ والنسيان ؛ ذلك لأن معلوماته إنما هيَ سلسلة من المفاهيم والتصورات التي حصل عليها بحواسّه ، فهو لهذا ليس في مأمن عن الخطأ والنسيان . أما الإمام الذي يرى بواطن أمور الكون رؤية واقعية ، وله الطريق إلى كنوز المعارف والعلوم الحقيقية ، أما هذا فإنه حينما يدرك الحقائق والواقع كذلك لا بحواسّه ، يكون بمنأى عن الخطأ والخطل والزلل ، فإن الخطأ إنما ينشأ في تطبيق الصور الذهنية على الواقع الخارجي ، وهذا لا يكون فيما لو كان الإنسان يقع على حقائق الأشياء بصورة مباشرة وبلا واسطة ، فإنه هنا لا معنى للخطأ والاشتباه .

إنّ عصمة الإمام التامة في أقواله وأفعاله لهي من آثار علومه الإلهية الغيبيّة ، فإن الإنسان بطبيعة الطرق العادية لا يتمكن من الوصول إلى جميع الواقعيّات ولا أن يدرك الحقائق كما هي ، وهذا هو العلم الإلهي والغيبيّ

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٨ ـ ٢١ .

الذي يصون الإنسان عن الخطأ والنسيان دائماً ، ويهديه إلى حقـائق الأمور أبداً .

وإنّ لهـذه العصمة ـ التي هي غـايـة درجـات التقـوى العمليـة ـ دوراً أسـاسياً في تـربية نفـوس الناس ؛ وإن أثـر أفعال وصفـات القائـد في تغيير وتحويل وتنمية نفوس الناس وتربيـة التقوى في قلوب أتبـاعه أكثـر بكثير من أقواله وبياناته المختلفة . إن المتكفّل بمسؤولية القيادة المعنوية للأمة لو كان مجرّداً عن الفضائل الروحية ولم نجد فيه النزاهة التامة والتقوى الكاملة ، لم يتمكن من تربية غيره تربية عالية سامية ، ولم يستطع أن يؤدّي دوراً بنّـاءً في تغيير وتحويل نفوس الناس ، بل ولا أن يهديهم نحو أهداف التربية الدينيـة أبداً .

هذا وقد نسب القرآن الكريم إلى الأنبياء الكرام مـا يوهم العصيـان ، فعلينا أن نستوضح نوعية الذنوب ليتضّح لنا واقع الأمر : إن عصيان الأوامـر الإلهية بمعنى التورّط في ورطة السيّئات ، لهو ذنب واقعيّ لا يغتفر وقوعه من الأنبياء ، وبإزائه جزاء خاص مقررّ له . وإنّ ساحة قدس الأنبياء منزّهة عن هذا النوع من الآثام . ولكن هناك نوع آخر من المعاصي قد يطلق عليها الذنوب النسبيّة ، ولا يستتبع ارتكابُها جزاءً عليها ، ولكن صدور مثل هذه المعاصي النسبية أيضاً من ناحية سالكي سبيل الله من أوليائه المقرّبين الذين يـرتبطون بمبدأ الوجود برابطة مستقيمة ، وهـم يلمسون الحقائق الخفيّة لمساً واقعياً ، لهوَ خلاف ما يتوقـع منهم ، فلا ينتـظر منهم ـ مع مـا هم عليه من المعـرفة التامة ـ أن يغفلوا عن ذكر الحق ولو لحظة واحدة . ولهـذا فإن غفلتهم ولـو لمـدة قصيرة سـوف تقصـر بهم عن رتبتهم ومقـام قـربهم في سـاحـة الحق سبحانه .

إن أولياء الله مع ما لهم من الإيمان الراسخ والعلم العـظيم ووصولهم إلى الحقائق الواقعية ومنابع المعرفة التامة واليقظة الكـاملة ، إن ابتلوا ـ ولو موقّتاً ـ بأقل انقطاع عن الحق تعالى ، عُدَّ منهم وكأنّه ذنب ومعصية وزلة وعثرة

لا تستتبع لغيرهم حتى عتاباً فضلاً عن العقاب ، وذلك لعدم مناسبة صدور مثلها من تلك الشخصيات العظيمة المقدسة .

وهذه حقيقة تصدق حتى بالنسبة إلى الشخصيات الاجتماعية بالنظر إلى موقعيتهم في المجتمع ، فإن ما ينتظره ويتوقعه الناس من الشخصيات يختلف ويتفاوت بتفاوت مراتبهم في المجتمع ، وعلى كل شخصية أن يراعي ما يتوقعه منه الناس حسب شؤونه ووزنه عندهم . فمثلاً : يتوقّعون من عالم أديب من أدب الكلام وعفّته ما لا ينتظرونه من فرد عاميّ أميّ لا يقرأ ولا يكتب .

صحيح أن العلم بالآثار السيّئة لأعمال السوء لا يوجب حصانة عند العالم بها ، ولا أثر لهذا العلم كعامل مانع رادع يُطمَأَنّ إليه دائماً ؛ ولكن العلم بالواقع وبالشكل الواسع بجميع الآثار الخطيرة للذنوب والخوف من عقاب الله الأليم ، وبكلمة : تلك المعرفة العميقة والرؤية الكاشفة عن الواقع بصورة محسوسة ملموسة بحيث لا تؤثر فيها فواصل الزمان والمكان ، إنّ هذا العلم لهو عامل مهم في انضباط حامله بحيث يجعل صدور المعصية من المعصوم من غير الممكن .

إنّ الطيّار العاقل لا يطير بطيّارة يعلم أنها ستنفجر في الفضاء بفعل قنبلة موقوتة بها ؛ ولا ريب أن هذه الحصانة في هذا الطيار عن هذا العمل الجنوني لا تكون فيه بلا إرادة منه معها ، بل إنّه ذو إرادة واختيار في أن يطير أو لا يطير على حدّ سواء ، وإنّ امتناعه وتقواه عن الطيران إنما يبتنى على أساس وعي كامل تام لتلك النتيجة الضرورية الموحشة لهذا العمل (الطيران) ؛ وإنما هو العقل والعلم اللذّان لا يسمحان له بالطيران ، ويهبطان باحتمال إقدامه على مثل هذا العمل ـ مع علمه بعاقبته ـ إلى الصفر .

هنا لنا أن ندرك جيّداً كيف أن الاطّلاع الواعي والعميق والواضح كالمحسوس الملموس بالنسبة إلى النتائج الخطيرة للأعمال يُوجد لصاحبه

الحصانة من تلك النتائج ،وكيف يكون لهذا الإدراك مظاهر علميّة وقدرة على إيجاد المنعة عند الإنسان .

فالإمام والقائد الـدينيّ المعصوم ليس مجبـوراً في طاعتـه لأوامر ربّـه واتّصافه بالطهارة والفضائل النفسانية ، والعصمة لا تنفي عنه الإرادة والاختيار بحيث لا يقرب الذنب قهراً وبلا إرادة . ومن نـاحية أخـرى : فإن تـوجههم الـدائم إلى ذات ربّهم ، وسعيهم الحثيث في سبيله ، وتضحيتهم وتحمّلهم للألم له ، وصرفهم كل إمكاناتهم وقواهم وطاقاتهم لرضـاه ، كل ذلـك مما يحصّنهم ضد الذنوب ، فهم مع ما لهم من القوة والقدرة على عمل السيّئات لا يلوّثـون أنفسهم بها ، بـل وحتى إنّ أفكـارهم لا تميـل إلى جـانب الإثم والعدوان .

إنّ معرفتهم التامّـة بمفاسـد المعاصي من نـاحية ، ومعـرفتهم التامـة بعظمة وقداسة الربّ تعالى من ناحية أخرى ، تجعل جميع ميولهم وأهوائهم النفسيـة في وجودهم في قبضـة إرادتهم واختيـارهم ، وتثبّت أقـدامهم على الحق والهدى والفضيلة والتقوى وكل ما هو خير للبشر .

وحتى بين الأفـراد غير المعصـومين يوجـد أناسٌ متيّمـون بحب ربّهم يضحّون بكلّ كيانهم لرضا الحق وفي سبيل الوصول إلى الدرجات المعنوية العالية ، ومن أجل بلوغ المقام السامي في الإنسانيـة والحصول على رضـا الحق تعالى يعتصمون بـه عن كثير من المعـاصي ، وتصبح دوافـع التخلّف عندهم عن الأوامر الإلهية باهتة لديهم جدّاً . ومن الممكن أن تكون لهم هذه الحالة من دون بصيرة واعية ومعـرفة تـامّة بـالقيم والمُثل ، بـل يكون حسّ الطاعة فيهم لأوامر الله تعالى وطهارة أفكارهم وأذهانهم هما ما يدفعانهم إلى سلوك هذا السبيل ، وهمـا اللذان يحوّلانهم ذلـك التحوّل الـذي يقتل فيهم روح التمـرد والعصيان والـطغيان والميـول الهـوجـاء ، ويجـرّهـم إلى حيث يتّخذون هذه المواقف الحاسمة في طاعة ربّهم .

ومن جانب آخر : فـإنّ العنايـة الإلهية بتبليـغ رسالته إلى الناس تنفي

السهو والخطأ عن حاملها ؛ فكما أنّ تلقّي الرسول لأحكام الله بالوحي يتم بعناية الله ومراقبته ، فتتحقق العصمة في هذه المرحلة من الرسالة بعناية الله ، إذ يجب أن تصل أوامر الله إلى الناس بعيدةً عن التحريفات العمدية والسهوية وبدون أدنى زلّة فيها . . .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلّوك ، وما يضلّون إلّا أنفسهم ، وما يضرّونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[1] . . .

كذلك يجب أن يكون إبلاغ وتنفيذ الأحكام الموحى بها إليه يتمتع بهذه الميزة أيضاً ، وإنّ حقيقة امتداد خطّ الرسالة تستوجب أن يكون الإمام القائد كذلك في حصار من الحصانة والعصمة قولاً وعملاً وفكراً ؛ فإنّ الخطأ في بيان أحكام دين الله سوف يُحبط أهداف الإمامة ، كما أنّ الحاكم الظالم والفاسد يشكل خطراً حقيقياً على أهداف الرسالة .

لا ريب في أن مسؤولية صيانة وتنفيذ القوانين الإلهية إن لم يتعهّد بها معصوم بعيد عن السهو والخطأ ، يكون على رأس القوة التنفيذيّة لكي ينفّذها بدقة وأمانة وإخلاص ، لم تبق أحكام دين الله بمأمن من التحريف والتغيير ، إذ يحتمل حينئذٍ ـ إن لم يكن الإمام معصوماً ـ أن يخطىء منفّذ الأحكام في مقام التنفيذ ، أو يخطىء في فهم الحكم ، بل أن يغيّرها ويحرفها حسب مصلحته الشخصية عمداً .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من آيات القرآن الكريم بحاجة إلى التفسير والتوضيح ، وهذا من وظائف إمام المسلمين ، فهو الذي عليه أن يبيّن ويوضح الحقائق لهم .

إنّ من بلغت الكمالات الإنسانية فيه من القوة إلى الفعل فهو الإنسان

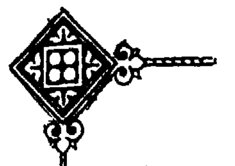
---

(١) سورة النساء : الآية ١١٣ .

الكامل ، وهو غاية الحركة التكاملية للبشر ، وهو الذي يكون على صراط مستقيم في الدين ، وعليه أن يكون عاملاً بأوامر الشريعة في جميع عمره ، وأن لا يتلوث بلوث الآثام في كل دهره ، إذ لو كان يقضي ولو شيئاً يسيراً من عمره في الآثام منحرفاً في حركته عن متن الصراط المستقيم ولو لمدة قصيرة كان عاصياً لله فيها ، فهذا لا يمكن أن يعتبر شخصاً نموذجيّاً وأسوة دينية كاملة ، وعلى هذا فلا يتحقق فيه الهدف الإلهي في تنمية قابليّات البشر عن طريق طاعتهم لأوامر الله تعالى .

لهذه الحقائق ، لا يمكننا أن نغضّ النظر عن ضرورة العصمة التامّة في مبيّن القوانين الإلهية ومنفّذها حتى من قبل تصدّيه لمقام الإمامة ؛ فإن الأمة لا تستطيع أن تخضع مطمئنةً لمن لم تتحقق فيه شرائط الإمامة وأن تستسلم لهدايته وإرشاداته .





تأييد وجوب العصمة من الكتاب والسنّة

إن آية التطهير تدلّ على عصمة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فإنها ترسم لنا عنهم صورة ظاهرة نزيهة ، وتقدس شخصيّاتهم وتنزّهها عمّا يشينها فتقول : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرّكم تطهيراً** ﴾[1] .

أما الرّجس فقد جاء في اللغة العربية بمعنى كلّ ما يلوّث الإنسان سواء كان لوثاً ظاهرياً أم باطنياً والذي يُعبّر عنه بالإثم ، وكذلك جاء في القرآن الكريم بالمعنيين ، ففي مورد جاء بمعنى اللوث الظاهري إذ قال : ﴿ **ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنّه رجسٌ** ﴾[2] .

وجاء في مورد آخر بمعنى النجاسة الباطنية والذّاتية إذ يقول : ﴿ **وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[3] .

أما في الآية الكريمة التي نطقت بإذهاب الرجس عن أهل بيت النبوّة ؛

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٥ .

فلا يمكن أن يفسر بمعنى اللوث الظاهري ؛ إذ الابتعاد عن النجاسة الظاهرية وظيفة دينية عامّة لجميع المسلمين ، فكلهم مكلّفون بأن يتطهّروا من النجاسات الظاهرية ، ولا يخص هذا الأمر بأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) بينما الآية تتضمّن ميّزة خاصة لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) . ثم إنّ الاجتناب الظاهريّ من النجاسة الظاهرية لا تعدّ فضيلة لهم حتى يخصّ القرآن الكريم بها أفراداً معيّنين . إذن فلا يمكن أن نتصوّر للآية مفهوماً صحيحاً واضحاً سوى أن نفسّر الرجس في آية التطهير بمعنى نجاسة الروح والباطن فقط .

أما إرادة الله أن يذهب الرجس عن حريم أهل بيت النبوة فهي إرادة تكوينيّة ، بمعنى أن الله أراد في نظام التكوين أن تكون ساحة أهل هذا البيت بريئة من كل رذيلة متحلية بكل فضيلة . إذ لو فسّر إرادة الحق تعالى في الآية بالإرادة التشريعية فهم من الآية أن الله في قانونه وتشريعه قد قررّ أن لا يدنّس أهلُ البيت أنفسهم بلوث الآثام ، أو أن يجتنبوا الأرجاس والأنجاس ؛ ولا ريب أن هذا المعنى بعيد عن الواقع جدّاً ولا يمكن قبوله ؛ إذ ترك الذنوب والتطهّر من النجاسات وظيفة دينية وتكليف شرعي ، وليس فخراً خاصاً بأحد ولا ميّزة له ، حتى يعمل الرسول له ما لم يعمله من قبل فيضع على رؤوس أهل بيته كساءً ويمنع غيرهم من الدخول فيه .

إنّ نزول آية التطهير دوّى بين أصحاب الرسول على عهده (صلى الله عليه وآله) وهم الذين أطلقوا بالفعل على هؤلاء الخواص المشمولين للآية عنوان : أصحاب الكساء ، ولم يتردّدوا في قداستهم وإخلاصهم . وكذلك أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) كانوا إذا رأوا ضرورة لبيان موقعهم المعنوي والروّحاني الخاص استندوا إلى نزول آية التطهير فيهم كسند فخار خاصّ بهم .

فلقد احتجّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في الشورى الذي انعقد بعد قتل عمر لتعيين الخليفة فقال :

« نشدتكم بالله هل فيكم أحد أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً غيري ؟ قالوا : لا »[1] .

وروى السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) رواية طريفة عن ابن عباس أنه قال : « شهدنا رسول الله (صلى الله عليه [وآله]) وسلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً** ﴾ » .

ورواه أيضاً عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه : رأيت رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً** ﴾ .

وأيضاً عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ولفظه : حفظت من رسول الله ثمانية أشهر بالمدينة ليس مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلاّ أتى إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً** ﴾[1] .

ففي هذه الرواية نرى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) قد فسّر آية التطهير ببيت فاطمة بكل صراحة .

وأما سبب نزول الآية وشأنها ، فإن أم سلمة زوج النبي (صلى اللهعليه وآله وسلم) المعروفة بالفضل والتقوى والتي وقع الأمر في بيتها ، قد روت قصة نزول الآية للناس كما يلي :

« في بيتي نزلت: «إنماا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

---

(١) الاحتجاج ١ : ١٩٥ط النجف عن الباقر (عليه السلام) بهامشه عن مناقب الخوارزمي : ٢١٧ بسنده عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي (عليه السلام) قال : فأنشدكم بالله هل فيكم أحد أنزل الله فيه آية التطهير حيث قال : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ غيري ؟ قالوا : اللهم لا » وفي غاية المرام : ٢٩٥ .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٩٩ .

ويطهركم تطهيراً » جاءت فاطمة ببرمة فيها ثريد ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لها : ادعي لنا زوجك وحسناً وحسيناً . فدعتهم . فبينا هم يأكلون إذ نزلت هذه الآية ، فغشاهم بكساء خيبري كان عليه وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وحاميتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . ثلاث مرات »[1] .

ونقل القندوزي في ينابيع المودة عن جواهر العقدين : أخرج أحمد في المناقب وابن جرير والطبري عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية في خمسة : النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وفاطمة والحسن والحسين [2] .

ويفصل القصة عمر بن أبي سلمة ربيب النبي (صلى الله عليه وآله) فيقول : نزلت ﴿ **إنما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيزاً** ﴾ في بيت أم سلمة (أمه) فدعا النبي (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء ، وعلي خلف ظهره ، فجلّلهم بكساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وأنت إلىٰ خير . ثم قال : هذا حديث حسن صحيح وهو أحسن شيء روي في هذا الباب[3] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) غداة غدوة وعليه مرط مرجَّل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

---

(١) ينابيع المودة : ١٠٧ط استانبول ، عن ابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم .

(٢) ينابيع المودة :١٠٨ ط استانبول .

(٣) ينابيع المودة : ١٠٧ط استانبول . أخرجه عن سنن الترمذي في مناقب أهل البيت بعد ذكر مناقب الأصحاب . ورواه جامع الأصول ١ : ١٠١ .

ويطهركم تطهيراً »[1] .

وحيث كان من شهد حديث الكساء أناساً معدودين ، لذلك، ولأهمية الموضوع وعناية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بنشر الخبر بين الناس لتبيين مصداق أهل البيت ، ولئلا يبقى الخبر محصوراً في نطاق محدود بل يطلع الأصحاب على ما جرى في ذلك ، وليبلغ الشاهد الغائب بذلك ، كان يتابع هذا الموضوع إلى مدة مديدة ، وكما روى أنس بن مالك إلى مدة ستة أشهر : كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت يرحمكم الله . ثلاثاً .[2] .

وروى مثله السيد البحراني في كتابه « غاية المرام » عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) [3] .

وحاول البعض أن يقول : بأن آية التطهير إنما نزلت ضمن موضوع الآيات المتعلقة بنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقرينة السياق تقتضي أن تكون الآية ترتبط بنساء النبي أيضاً ، أو أن لا نخرجهن عن شمول هذه الآية . ولوكانت الآية على العصمة للزم أن يكون نساء النبي جميعاً معصومات ، في حين لم يقل بعصمتهن أحد ، إذن فعلينا أن نرى هذه الآية مرتبطة بنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا دليلاً على العصمة فيهن أو في سائر أهل البيت .

ولا يرد هذا الإشكال ، ولا يتفق هذا الاستنباط وتركيب الآية ذاتها ، إذ

---

(١) ينابيع المودة : ١٠٧ ط استانبول ، ثم قال : وأخرجه الحاكم أيضاً .

(٢) ينابيع المودة : ١٠٨ ط استانبول أخرجه عن أحمد بن حنبل وابن أبي شيبة نقلاً عن شرح الكبريت الأحمر للشيخ علاء الدولة السمناني وص ١٧٤ ،روى مثله الكنجي الشافعي في كفاية الطالب : ٢٣٢ عن ابن عباس ، وفي صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨ ومستدرك الحاكم ٣: ١٥٨ وكنز العمال : ١٠٢ والفصول المهمة : ٨ وتفسير الطبري ٢٢ : ٥ وابن كثير ٣ : ٤٨٣ .

(٣) غاية المرام : ٢٩٥ .

لو كانت الآية تتعلق بنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للزم أن يكون الخطاب للمؤنث لا لجمع المذكر ، بينما الآية تقول «عنكم» و«يطهركم» .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر : فقد صرحت روايات كثيرة بشأن نزول الآية ، وفيها : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب أم سلمة وزينب وعائشة اللواتي كنّ يسألنه : هل هن من أهل بيته ؟ كان يقول : لا تقربي ، كوني بمكانك ، وأنت على خير . . أما إذا تلقينا آية التطهير كجملة معترضة بين الآيات المتعلقة بنساء النبي فلا إشكال في ذلك ، إذ مثل ذلك كثير بين كلمات الفصحاء ، وفي القرآن الكريم أيضاً لا يختص بهذا الموضوع فقط .

على أن التطهير هنا كأنه مرادف للعصمة ، ولم تكن نساء النبي بهذه المرتبة بإجماع جميع المحدثين والمؤرخين المسلمين ، بل إنّهنّ آذين رسول الله مراراً حتى بلغ الأمر بالنبي أن هجرهن شهراً كاملاً وهددهن بطلاقهن . وأكثر من هذا ، فقد توقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع جمع من أصحابه عند بعض حُجَر نسائه وأشار إليه يقول : من هنا الفتنة . من هنا الفتنة[1] .

ويطرح العلامة السيد شرف الدين هنا احتمالاً يقول : « الرابع : أن القرآن لم يترتب في الجمع على حسب ترتيبه في النزول بإجماع المسلمين كافة . وعلى هذا فالسياق لا يكافيء الأدلة الصحيحة عند تعارضهما ، لعدم الوثوق حينئذ بنزول الآية في ذلك السياق . ولذا كان الواجب في مقامنا هذا ـ آية التطهير ـ ترك فحوى السياق لو سُلّم ظهوره بما زعموا »[2] .

فمع هذا ، كيف لنا أن نرى نساء النبي مشمولة لعموم آيات التطهير ؟ .

---

(١) صحيح البخاري ١ : ١٨٩ .

(٢) الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء ، بهامش الفصول المهمة في تأليف الأمة .

ومن ناحية أخرى فإن الروايات التي تبيّن عصمة الأئمة (عليهم السلام) بصراحة ليست بقليلة ، فعن عليّ (عليه السلام) أنه كان يقول : « فأين تذهبون ، وأنّى تؤفكون ؟ والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة . فأين يُتاه بكم وكيف تعمهون ؟! وبينكم عترة نبيّكم ، وهم أزمّة الحق ، وأعلام الدين ، وألسنة الصّدق ! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، ورِدوهم ورود الهيم العطاش .

أيها الناس ! خذوها عن خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلي منا وليس ببال » فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه »[1] .

وقال الرضا (عليه السلام): « الإمام : المطهر من الذنوب ، والمبرّأ عن العيوب ، المخصوص بالعلم ، والموسوم بالحلم ، نظام الدين وعزّ المسلمين ، غيظ المنافقين وبوار الكافرين »[2] .

وقال الصادق (عليه السلام) : « الأنبياء وأوصياؤهم لا ذنوب لهم لأنهم معصومون مطهرون »[3] .

ويوضح الموضوع أكثر من هذا فيقول بهذا الصدد : « فالإمام هو المنتخب المرتضى ، والهادي المنتجى ، والقائم المرتجى . اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الذرّ حين ذرأه ، وفي البرية حين برأه ، ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه ، محبوّاً بالحكمة في علم الغيب عنده . اختاره بعلمه وانتجبه لطهره . بقية من آدم ، وخيرة من ذرية نوح ، ومصطفى من آل

---

(١) نهج البلاغة ١ : ١٢٠ خطبة ٨٧ ط صبحي الصالح .
(٢) أصول الكافي ١ : ٢٠٠ ط آخوندي .
(٣) البحار ٢٥ : ١٩٩ عن الخصال للصدوق ٢ : ١٥٤ .

إبراهيم ،وسلالة إسماعيل ، وصفوة من عترة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . لم يزل مرعياً بعين الله يحفظه ويكلأه بستره ، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده ، مدفوعاً عنه وقوب الغواسق ، ونفوث كل فاسق . مصروفاً عنه قوارف السوء ، مبرأً من العاهات ، محجوباً عن الآفات ،معصوماً من الزلّات، مصوناً عن الفواحش كلها، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه ، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه ، مسنداً إليه أمر والده ، صامتاً عن المنطق في حياته .

فإذا انقضت مادة والده إلى أن انتهت به مقادير الله إلى مشيئته ، وجاءت الإرادة من الله فيه إلى محبته ، وبلغ منتهى مدة والده (عليه السلام) ، فمضى وصار أمر الله إليه من بعده وقلده دينه ، وجعله الحجة على عباده ، وقيّمه في بلاده ، وأيده بروحه وآتاه علمه ، وأنبأه فصل بيانه ، واستودعه سرّه ، وانتدبه لعظيم أمره ، وأنبأه فضل بيان علمه ، ونصبه علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل عالمه ، وضياءً لأهل دينه ، والقيّم على عباده ، رضي الله به إماماً لهم ، استودعه سرّه واستحفظه علمه ، واستخبأه حكمته ، واسترعاه لدينه ، وانتدبه لعظيم أمره ، وأحيا به مناهج سبيله وفرائضه وحدوده ، فقام بالعدل عند تحيّر أهل الجهل وأهل الجدل ، بالنور الساطع والشفاء النافع ، بالحق الأبلج والبيان اللائح من كلّ مخرج على طريق المنهج ، الذي مضى عليه الصادقون من آبائه (عليهم السلام) ، فليس يجهل حقّ هذا العالم إلّا شقيّ ، ولا يجحده إلّا غويّ ، ولا يصدّ عنه إلّا جريّ على الله جلّ وعلا »[1] .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله قال : « إني أوشك أن أدعى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٤ ط آخوندي .

الخبير أخبرني : أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[1] .

هذا الحديث هو الحديث المعروف بالثقلين الذي رواه كبار علماء الشيعة والسنة في كتبهم بأسانيد عديدة بل متواترة ، ولنا أن نستفيد من هذا الحديث عدة نقاط مهمة :

أول ما في هذا الحديث مما ينبغي التوجه والالتفات إليه هو أن السيرة العملية للأئمة المعصومين ليست ممّا ينبغي الاقتداء به فحسب ، بل من اللازم والواجب والضروري أن نجعل سيرتهم أسوة وقدوة لعملنا ، وأن الإعراض عن سيرتهم ممّا يوجب الضلال عن الحق والهدى . وهذا إنما يصحّ فيما لو كانت خطاهم لا تزلّ عن طاعة الرحمان إلى سبيل العصيان ، بل كانوا مستقرين ثابتين على عصمتهم ، إذ لو لم يكونوا كذلك كان من الطبيعي أن تقع الأمة باتّباعها لهم في مهاوي الضلال . بينما يعلن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن اتّباع عترته لا ضلال فيه ، إذ هم الإسلام المجسّد ، ولهذا كان على الأمة أن تتبع سيرتهم كأسوة للعمل ، وعليهم أن يجسدوا ذلك عملياً في حياتهم اليومية .

والمطلب الثاني في هذا الحديث : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يرى أن القرآن والعترة لا ينفصلان حتى يوم القيامة ، فكما أن القرآن الكريم قد تضمن الله ببقائه حتى يوم القيامة ، كذلك لا تخلو الأرض من وجود الإمام حتى يوم النشور ، وهم كما يراهم الرسول الأكرم مرجع علمي على كافة المسلمين أن يرجعوا إليهم في أحكام دينهم في مختلف الأزمنة .

يقول الإمام الرضا (عليه السلام) : « وإن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده ، شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاماً ، فلم يَعْيَ بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو

(١) ينابيع المودة : ٣٦ ط استانبول .

معصوم مؤيد ، موفق مسدد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصّه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1] .



(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٢ ط آخوندي .



جامعيّة علم الإمام بالمعارف الإسلامية

إن الإمام هو ذلك الوجود منبع الخير والبركة ، والمطلع على حاجات الأمة في جميع الأصعدة ، وله علم بجميع أسباب الشرف والسعادة للإنسان في الدارين ، وبكل ما له دور في سعادة البشر المادية والمعنوية ، ويفهم كل ما يلزم فهمه لإدارة أمور الناس وهدايتهم ، وله خبر عن جميع الجزئيات والتفاصيل لجميع هذه الأمور بكل ما لها من سعة واستيعاب وشمول ، مما له دخل في إنقاذ الإنسان من محيط الحياة سعيداً شريفاً ، وإيصاله كذلك إلى أوج الرفعة والكرامة . إن علم الإمام بالمعارف الإسلامية وعلى أعلى المستويات في الرؤية الدينية والمعرفة القرآنية ، إنما هو جانب من جامعية شخصيته التي هي في الواقع امتداد لشخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه واله وسلم) ، فهو في العلم والمعرفة وسائر المزايا صورة مصغرة عن الرسول الكريم . وهذه خصيصة من الألطاف الإلهية التي يهبها لأكمل عباده فقط .

إن القائد الديني البالغ باطن الحقيقة ، والذي هو على الصراط المستقيم ، والذي علمه بمعارف الدين عن قطع ويقين لا عن رأي واجتهاد ، لا يمكن أن نتصور فيه الجهل أو قلة المعرفة . وكيف نجرؤ على نسبة قلة

المعرفة بقوانين الشريعة الإلهية مثلاً إلى من هو مصب الفيوضات الإلهيـة ؟ ولذلك فهو هادي البشر جميعاً .

وإن ذلك الإنسان المعصـوم الذي أوكـل الله إليه صيـانة دينـه ، وهو خـازن أحكام الله للنـاس ، سوف يمهـد الأرضية لتـربية وتكـامـل البشـر ، وسيجعل الصراط المستقيم الذي هو مسيرهم نحـو الكمال بمتنـاول أيديهم وأرجلهم ، ومن تكاليفه صياغة المناهج الكفيلة بحفظ ما هو لصـالح الأمـة عقائديـاً واجتماعيـاً ، فإن لـطف الله اللانهـائي يقتضي أن لا يترك الإنسـان سـدى ، ولهذا فـإن زعيم الدين والـدنيا يجب أن يكـون المرجـع الـروحي والفكري للناس ،العالِم بجميع البـرامج الـلازمة لـذلك ، وأن يكـون طريق الوصول إلى الأحكام الإلهية مفتوحاً له دائماً ،كي يتمكن عن طريق تعاليمه وإرشاداته أن يهدي المجتمع نحو أهداف الدين في تنمية قابليّاتهم. وهكذا يكون مفتاح حل المشاكل بيد البشر ، وتتم عليه الحجة ، ولئلا يقول أحد : لولا أرسلت إلينا رسولاً وأقمت لنا علماً هاديـاً فنتّبع آيـاتك من قبـل أن نَذِلّ ونخزى. وقد اتضحت هذه المفاهيم بكثير من أبعادها ضمن مئات بل الاف النصـوص الواصلة إلينـا من الأئمـة الـطاهـرين ، إن مستـواهم العلمي في إجاباتهم الثابتة والقطعية على الأسئلة الدينية والشبهات والأفكار الإلحادية ، وبيانهم للحقائق في مناظراتهم ، وأبحاثهم العلمية ومقالاتهم الموضـوعية ، كلها تبين سعة مستوى الرؤية الدينية والفكرة الإسلامية لديهم .

أجل ؛ إن من كانت ذاته منوّرة بالنور الإلهي ، مجهـزاً بعلم أوسع ، وعمق نظر أبصر وأسـرع ، وعقل أوعى وأجمـع ، والتفات وتـوجه أعمق ، وفوق كل ذلك موسوماً بـالعصمة ؛ لهـو أحق أن يتّبع من كـل من عداه ومـا سواه .

فإن الإنسان الجاهل والمحدود في رؤيته الدينية في معـرض مخالفـة القرآن الكريم ، ولا ضمان لانطبـاق أقوالـه وأعمالـه على قوانين كتـاب الله وشريعته ، ولهذا فإن تبعية الناس له سوف تؤدي إلى مخالفة القـرآن الكريم

في كثير من أحكامه ومعارفه ، وذلك لظنية معرفة الإنسان العاديّ به في كثير من الموارد والمسائل والمواضيع ، ولا شك في أن كثيراً ممن يختارون أرجح الاحتمالات وأقربها إلى القرآن الكريم سوف تقع الفجوة عندهم عن مسير القرآن في كثير من الأحيان ، فضلاً عن عيرهم .

في خبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول : « إن الله عزّ وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه . فمن عرف من أمة محمد واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه ، وألبسه الله تاج الوقار ، وغشاه من نور الجبار ، يمد بسبب إلى السماء ، لا ينقطع عنه مواده ، ولا يُنال ما عند الله إلا بجهة أسبابه ، ولا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى ومعميات السنن ومشتبهات الفتن ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين (عليه السلام) من عقب كل إمام ، يصطفيهم لذلك ويجتبيهم ، ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم . كلّما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً علماً بيناً وهادياً نيراً وإماماً قيماً وحجة عالماً ، أئمة من الله ، يهدون بالحق وبه يعدلون ، حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه ، يدين بهديهم العباد ،وتستهلّ بنورهم البلاد ، وينمو ببركتهم التلاد . جعلهم الله حياة للأنام ومصابيح للظلام ومفاتيح للكلام ودعائم للإسلام . جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها »[1] .

وقد جاء في النصوص الإسلامية عنهم : أن الله علّم نبينا وأوصياءه كل ما كان قد علّمه الأنبياء والمرسلين السابقين الأولين جميعاً :

فقد روى الشيخ الصدوق في كتابه «التوحيد» بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٣ ط آخوندي .

« إن لله علماً خاصاً وعلماً عاماً ، فأما العلم الخاص فالعلم الذي لم يطلع عليه ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين ، وأما علمه العام فإنه علمه الذي أطلع عليه ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين ، وقد وقع إلينا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) »[1] .

وروى في « معاني الأخبار » بسنده عن علي بن يقطين عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قال :

« والله أوتينا ما أوتي سليمان وما لم يؤت سليمان ، وما لم يؤت أحد من العالمين ، قال الله عزّ وجل في قصة سليمان : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾[2] . وقال في قصة محمد (صلى الله عليه وآله) : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ »[3] .

وروى القمي في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « إن الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين (عليه السلام) ». وسئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم ؟ أم الذي عنده علم الكتاب ؟ فقال : « ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر » .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين »[4] .

وروى الكليني في «الكافي» بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إن لله تبارك وتعالى علمين : علماً أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله ،

---

(١) البحار ٢٦ : ١٦٠ عن التوحيد : ١٢٨ . وكذلك رواه الصفار في بصائر الدرجات : ٣١ .
(٢) سورة ص : الآية ٣٩ .
(٣) البحار ٢٦ : ١٥٩ عن معاني الأخبار : ٣٥٣ والآية في الحشر : الآية ٧ .
(٤) البحار ٢٦ : ١٦٠ عن تفسير القمي : ٣٤٣ ط حجر .

فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه ، وعلماً استأثر به ، فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا ذلك ، وعرض على الأئمة الذين كانوا قبلنا »[1] .

وروى فيه بسنده عنه(عليه السلام) أيضاً قال : « إن لله علمين علماً عنده لم يطلع عليه أحداً من خلقه ، وعلماً نبذه إلى ملائكته ورسله ، فما نبذه إلى ملائكته ورسله فقد انتهى إلينا »[2] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام)قال : « إن العلم الذي نزل مع آدم (عليه السلام) لم يُرفع ، والعلم يُتوارث . وكان علي (عليه السلام) عالم هذه الأمة، وإنه لم يهلك منا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ما شاء الله »[3] .

وروى السيد هاشم البحراني في كتابه«غاية المرام في حجة الخصام » بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أيضاً أنه كان يقول : نحن خزنة علم الله ، لا أقول خزنة الذهب والفضة ولكن خزنة علم الله [4] .

وروى الشريف الرضي في « نهج البلاغة » عن علي (عليه السلام) أنه قال لكميل بن زياد :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا وأين أولئك ؟ ! أولئك والله الأقلون عدداً ، والأعظمون عند الله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى . أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى

(١، ٢) أصول الكافي ١ : ٢٥٥ ط آخوندي .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢٢٢ ط آخوندي .

(٤) غاية المرام : ٥١٤ .

دينه . آه آه شوقاً إلى رؤيتهم ! انصرف يا كميل إذا شئت »[1] .

وفي كثير من الموارد التي يشكل حلّ بعض المعضلات من المسائل الدينية على الخلفاء ، كان علي (عليه السلام) هو المرجع لحل هذه المعضلات ، فكانوا يضطرون للرجوع إليه (عليه السلام) ، وليس بالعكس ، فلا نجد في تاريخ الإسلام حتى مورداً واحداً راجع فيه الإمام (عليه السلام) لمعرفة نظرية الإسلام إلى أي شخص آخر غيره .

بينما ينبغي أن يكون رأي من يتعهد بمسؤولية إدارة الحكومة الإسلامية ، هو المقياس والملاك لمعرفة قوانين الإسلام للمسلمين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أم من لا يَهِدّي إلا أن يُهدى** ﴾؟![2] .

إن هذه الآية الكريمة خاطبت الضمير الإنساني وردت إليهم الحكم في هذه المسألة ، وبدهي أن وجدان الإنسان إنما يحكم بأن من هو جدير بأن يتّبع إنما هو من قد عرف الحق فيهدي المجتمع إليه ، ولا يستحق الطاعة من هو في هدايته يحتاج إلى غيره ليأخذ بيده في تشخيص الصراط الحق ، إذن فلا تحق الطاعة والتبعية إلا لمن هو غني في نفسه عن الاهتداء بغيره في معرفة الحق في مسائل الإسلام وأحكامه .

روى الكليني في «الكافي» بسنده عن هشام بن الحكم : أنه لما جاء مع بريهة إلى أبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام) لقي في الطريق أبا الحسن موسى بن جعفر الكاظم ، فحكى له هشام حكاية صاحبه بريهة ، فلما فرغ قال أبو الحسن موسى بن جعفر الكاظم لبريهة : يا بريهة كيف

---

(١) الكلمة ١٤٧ من الكلمات القصار في ج ٣ من نهج البلاغة ط صبحي الصالح ص ١١٢ من المعجم المفهرس .

ورواه الخوارزمي في مناقبه : ٢٦٤ وقد ذكروا في المعجم المفهرس له ١٣ مصدراً : ١٤٠٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ٣٥ .

علمك بكتابك ؟ قال : أنا عالم به ؟ فقال : فكيف ثقتك بتأويله ؟ قال : ما أوثقني بعلمي فيه ؟ ! فابتدأ الإمام الكاظم (عليه السلام) يقرأ الإنجيل ، فقال بريهة : إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك ، ثم آمن بريهة وآمنت المرأة التي كانت معه .

ودخل هشام وبريهة على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن موسى وبين بريهة ، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » فقال بريهة : أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء ؟ ! قال : هي عندنا وراثة من عندهم ، نقرأها كما قرأوها ونقولها كما قالوا ، إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري »[1] .

وروى الشيخ الصدوق بسنده عن الحسن بن محمد الهاشمي النوفلي العراقي قال : لما قدم علي بن موسى الرضا (عليه السلام) على المأمون ، أمر الفضل بن سهل : أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق (الكاثوليك = رئيس النصارى) ورأس الجالوت (الكهنوت = رئيس اليهود) ورؤساء الصابئين ، والهربَذ الأكبر أكبر أصحاب زرادشت ، ونسطاس الرومي ؛ والمتكلمين . ليسمع كلامه وكلامهم . فجمعهم الفضل بن سهل ثم أعلم المأمون باجتماعهم ، فقال : أدخِلهم عليّ ، ففعل .

فرحّب بهم المأمون ثم قال لهم : إني إنما جمعتكم لخير ، وأحببت أن تناظروا ابن عمي هذا المدني القادم عليّ ، فإذا كان بُكرة فاغدوا عليّ ولا يتخلّف منكم أحد . فقالوا : السمع والطاعة .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فبينا نحن في حديث لنا عند أبي الحسن الرضا (عليه السلام) ، إذ دخل علينا ياسر الخادم ، وقال له : يا سيدي ، إنّ أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : فداك أخوك ، إنه اجتمع

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٧ ط آخوندي .

إليّ أصحاب المقالات وأهل الأديان والمتكلمون من جميع الملل ، فرأيك في البكور إلينا إن أحببت كلامهم . فقال أبو الحسن : أبلغه السلام وقل له : قد علمت ما أردت ، وأنا صائر إليك بكرة إن شاء الله .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فلما مضى ياسر الخادم التفت إلينا . . وتبسّم وقال لي :

يا نوفلي ! أتخاف أن يقطعوا عليّ حجتّي ؟! .

فقلت : لا والله ، ما خفت عليك قط ، وإنّي لأرجو أن يظفرك الله بهم إن شاء الله تعالى .

فقال لي : يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون ؟ قلت : نعم ، قال : إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم ، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وعلى أهل الزبور بزبورهم ، وعلى الصابئين بعبرانيتّهم ، وعلى الهرابذة بفارسيتهم ، وعلى أهل الروم بروميتّهم ، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم ، فإذا قطعت كل صنفٍ ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي علم المأمون أن الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحِقّ له ، فعند ذلك تكون الندامة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فلما أصبحنا أتانا الفضل بن سهل وقال له : جعلت فداك ، إنّ ابن عمك ينتظرك ، وقد اجتمع القوم فما رأيك في إتيانه ؟ فقال له الرضا (عليه السلام) : تقدَّمني فإنّي صائر إلى ناحيتكم إن شاء الله .

ثم خرج وخرجنا معه ، حتى دخل على المأمون ، وإذا المجلس غاصّ بأهله ، وجماعة من الطالبيين والهاشميين والقواد حضور. فلما دخل الرضا (عليه السلام) قام المأمون وقام جميع بني هاشم ، فما زالوا وقوفاً والرضا (عليه السلام) جالس مع المأمون حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا .

ثم التفت المأمون إلى الجاثليق وقال : يا جاثليق هذا ابن عمي

عليّ بن موسى بن جعفر ، وهو من ولد فاطمة بنت نبيّنا وابن علي بن أبي طالب . فأحب أن تكلمه أو تحاجه وتنصفه .

فقال الجاثليق : يا أمير المؤمنين كيف أحاجّ رجلًا يحتجّ علي بكتاب أنا منكره ونبيّ لا أؤمن به ؟!

فقال الرضا (عليه السلام) : يا نصراني ؛ فإن احتججت عليك بإنجيلك أتقرّ به ؟ .

قال الجاثليق : وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل ؟! نعم والله أقرّ به على رغم أنفي !

فقال له الرضا (عليه السلام) : سل عما بدا لك واسمع الجواب . .

ثم أخذ الإمام (عليه السلام) يستدل بكتب الأنبياء السالفين لإثبات نبوّة نبيّ الإسلام ، فكانت براهين الإمام (عليه السلام) من الوضوح والعمق والاستقامة بحيث لم تدع لأحدٍ أي شبهة أو إشكال ، وحتى قال الجاثليق : ليسألك غيري ، فلا وحق المسيح ما ظننت أنّ في علماء المسلمين مثلك !

فالتفت الرضا (عليه السلام) إلى رأس الجالوت فقال له : تسألني أو أسألك ؟

فقال : بل أسألك ، ولست أقبل منك حجة إلّا من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم وموسى .

فقال الرضا (عليه السلام) : لا تقبل مني حجة إلا بما تنطق به التوراة على لسان موسى بن عمران ، والإنجيل على لسان عيسى بن مريم ، والزبور على لسان داود . .

ثم استدل عليه الرضا (عليه السلام) من هذه الكتب لإثبات نبوّة نبيّنا حتى لم يحر رأس الجالوت جواباً . .

فدعا (عليه السلام) : بالهـربذ الأكبر . . واستدل عليه حتى انقـطع الهـربذ مكانه . .

فقال الرضا (عليه السلام) : يا قوم إن كان فيكم أحد يخالف الإسلام وأراد أن يسأل فليسأل غير محتشِم .

فقام إليه عمران الصابىء ـ وكان من المتكلمين أوحدّياً فيهم ـ فقال : يا عالم الناس لولا أنك دعوت إلى مسألتك لم أقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلت الكوفة والبصرة والشام والجزيرة ولقيت المتكلمين فلم أقع على أحد يثبت لي واحداً ليس غيره قائماً بوحدانيّته ! أفتأذن لي أن أسألك ؟

قال الرضـا (عليه السـلام) : إن كان في الجمـاعة عمـران الصابىء فأنت هو ؟ قال : أنا هو . قال : سـل يا عمـران ، وعليك بـالنصفة وإيـاك والخطل والجور .

فقـال : والله يا سيّـدي مـا أريـد إلاّ أن تثبت لي شيئـاً أتعلق بـه فـلا أجوزه .

قال : سل عما بدا لك . فازدحم الناس وانضم بعضهم إلى بعض . وأخذ عمران يسأل . . والإمام يجيب ، حتى قال الرضا في آخر جواب له : أفهمت يا عمران ؟ قال : نعم يا سيدي قد فهمت ، وأنا أشهد أن الله تعالى على ما وصفت ووجدت ، وأشهد أن محمداً عبـده المبعوث بـالهدى ودين الحق ، ثم خرّ ساجداً نحو القبلة وأسلم .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابىء ، وكان جدلاً لم يقطعه عن حجة أحد منهم قط ، لم يدن من الرضا (عليه السلام) أحـد منهم ولم يسألـوه عن شيء . وأمسينا فنهض المـأمون والرضا (عليه السلام) فدخلا ، وانصرف الناس[1] .

---

(١) عيون أخبار الرضا ١ : ١٥٤ ـ ١٧٧ . وكتاب التوحيد للصدوق أيضاً : ٤٢٧ ـ ٤٢٩ . ورواه الحر العاملي في إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ٦ : ٤٥ ـ ٤٩ .

ما هي منابع علوم الإمام؟

إنّ أعمق وأدق ما للإمام من علم إنما هو يحصل من طريق الإلهام من عالم الغيب . والقرآن الكريم بحدّ ذاته منبع ثـريّ لإفادة الأئمـة الأطهار ، فإنّهم بما كان لهم من العقلية الواسعة والكاملة من الناحية العلمية ، وبما كان لهم من سعة أفق الفكر والرؤية الدينية كان بإمكـانهم أن يستنبطوا الأحكـام وجوابات المسائل ، ويستخرجوا مختلف الحقائق العلمية من باطن هذا الكتاب الإلهي والمنبع الإسلامي الأصيل . ولهم ـ في الرتبة الثالثة ـ لمزيد قدرتهم العلمية وتوسعة رقعة معرفتهم بالدين إفادتهم من الكتب أي الصحائف التي كانوا يتوارثونها عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) .

وقد وردت في هذه الموارد الثلاثة روايات كثيرة نعرض لذكر بعضهـا فيما يلي :

روى الشيخ الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمـام الصادق (عليه السلام) قال لأبي بصير :

«يا أبا محمد إنّ الله عزّ وجل لم يُعط الأنبياء شيئاً إلاّ وقد أعطاه محمداً (صلى الله عليه وآله) قال : وقد أعـطى محمداً جميع ما أعطى الأنبيـاء ، وعندنا الصحّف التي قال الله عزّ وجـل « صحف إبراهيم ومـوسى » قلت :

جعلت فداك هي الألواح ؟ قال : نعم »[1] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال : « وإنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجل لأمور عباده ، شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه إلهاماً ، فلم يَعْيَ بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصّواب ، فهو معصوم مؤيَّد ، موفَّقٌ مسدَّد ، قد أمِن من الخطايا والزَّلل والعثار ، يَخُصّه الله بذلك ليكون حجتّه على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[2] .

وكتب الحسن بن العباس المعروفي إلى الرضا (عليه السلام) : جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام ؟ فكتب : « الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام : أن الرسول : الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي ، وربّما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ، والنبيّ : ربّما سمع الكلام وربّما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام : هو الذي يسمع الكلام ، ولا يرى الشخص »[3] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال : « مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه : ماضٍ وغابر وحادث ، فأمّا الماضي فمفَسّر ، وأما الغابر فمزبور ، وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع ، وهو أفضل علمنا . ولا نبيّ بعد نبيّنا »[4] .

إذن فالإفاضات الروّحية التي كانت للرسول (صلى الله عليه وآله) سوف تستمّر في الأوصياء المعصومين ، ولا تنقطع العلاقة بين الخالق والمخلوقين بموت الأنبياء والمرسلين .

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٥ ط آخوندي .
(٢) أصول الكافي ١ : ٢٠٢ ط آخوندي .
(٣) أصول الكافي ١ : ١٧٦ ط آخوندي .
(٤) أصول الكافي ١ : ٢٦٤ ط آخوندي .

وبشأن إفادة الأئمة الأطهار من القرآن الكريم لنستمع من لسانهم :

روى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : « إنّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه ، وعلم تغيير الزّمان وحدثانه . إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم ، ولو أسمع من لم يسمع لولّى مُعرضاً كأن لم يسمع ، ثم أمسك هنيئة ، ثم قال : ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا . والله المستعان »[1] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال يخبر عن القرآن :

« إنّ فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة ، وحكم ما بينكم ، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون ، فلو سألتموني عنه لعلّمتكم »[2] .

وروى فيه بسنده عن الصادق (عليه السلام) أيضاً قال : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم ونحن نعلمه »[3] .

وروى فيه بسنده عن سماعة بن مهران قال : قلت لأبي الحسن موسى (عليه السلام) : أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه (صلى الله عليه وآله) ؟ أو تقولون فيه ؟ قال : بل كل شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه (صلى الله عليه وآله) »[4] .

إنّ علم تأويل القرآن من العلوم الغيبيّة ، أي هو علم لا يمكن تعلّمه من الطرق الطبيّعية ، وعلى هذا فتأويل القرآن ـ أي كشف الستار عن الصورة الحقيقية الواقعية لمراد الله تعالى ـ يُعدّ نوعاً من علوم الغيب ، ولذلك فلا يمكن التوصّل إليه إلاّ بإفاضة الله تعالى .

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٩ ط آخوندي .

(٢) أصول الكافي ١ : ٦١ ط آخوندي

(٣) أصول الكافي ١ : ٦٢ ط آخوندي .

(٤) أصول الكافي ١ : ٦٢ ط آخوندي .

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبّعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلاّ الله والرّاسخون في العلم ﴾[1] .

وعلى هذا ، فالرّاسخون في العلم هم من لهم علم بتأويل الآيات المتشابهة كما أراد الله تعالى ، وقد وردت روايات كثيرة عنهم (عليهم السلام) تثبت علم الإمام بتأويل القرآن الكريم .

ففي تفسير العيّاشي عن الفضيل بن يسار قال : سألت أبا جعفر الإمام الباقر (عليه السلام) عن هذه الرواية : ما في القرآن آية إلاّ ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلاّ وله حدّ ، ولكلّ حدّ مطلع ، ما يعني بقوله : ظهر وبطن ؟ قال : ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله ، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد ، يجري كما يجري الشمس والقمر ، كلما جاء منه شيء وقع ، قال الله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والرّاسخون في العلم ﴾ نحن نعلمه »[3] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال :

« إنّ رسول الله أفضل الراسخين في العلم ، قد علّمه الله عزّ وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه ، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ يقولون : آمنا به كلٌ من عند ربّنا ﴾ والقرآن خاصّ وعام ، ومحكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، فالرّاسخون في العلم يعلمونه »[3] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٢) تفسير الميزان ٣ : ٧٢ .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢١٣ ط آخوندي .

والمصدر الآخر لاستفادة قادة الدين خلفاء الرسول الأمين في كتب ، أي صحائف توارثها منه الأئمة (عليهم السلام) .

روى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس ، وإنّ الناس ليحتاجون إلينا ، وإنّ عندنا كتاباً إملاء رسول الله وخطّ علي (عليهما السلام) ، صحيفة فيها كلّ حلال وحرام . وإنكّم لتأتونا بالأمر فنعرف إذا أخذتم به ونعرف إذا تركتموه »[1] .

وروى الصفار في (بصائر الدرجات) بسنده عن محمد بن مسلم قال : سألته عن ميراث العلم ، ما بلغ ؟ أجوامع هو من العلم ؟ أم فيه تفسير كل شيء من هذه الأمور التي يتكلم فيها الناس من الطلاق والفرائض ؟ فقال : إن علياً (عليه السلام) كتب العلم كله القضاء والفرائض ، فلو ظهر أمرنا فلم يكن شيء إلاّ وفيه سنّة نمضيها »[2] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام) : اكتب ما أملي عليك . قال علي (عليه السلام) يا نبيّ الله وتخاف عليّ النسيان؟قال: لست أخاف عليك النسيان وقد دعوت الله أن يحفظك ولا ينسيك ، ولكن اكتب لشركائك . قال : قلت : ومن شركائي يا نبيّ الله ؟ قال : الأئمة من ولدك ، بهم تُسقى أمتي الغيث ، وبهم يستجاب دعاؤهم ، وبهم يُصرف البلاء عنهم ، وبهم تنزل الرحمة من السماء ، وهذا أولهم . وأومأ بيده إلى الحسن . ثم أومأ بيده إلى الحسين ثم قال : الأئمة من ولدك »[3] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إنّ الكتب

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٤١ و٢٤٢ ط آخوندي .

(٢) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٣٨ .

(٣) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٤١ .

كانت عند علي (عليه السلام) ، فلما سار إلى العراق استودع الكتب أمّ سلمة ، فلما مضى (عليه السلام) كانت عند الحسن (عليه السلام) ، فلما مضى الحسن كانت عند الحسين (عليه السلام) ، فلما مضى الحسين كانت عند علي بن الحسين (عليه السلام) ، ثم كانت عند أبي »[1] .

وروى فيه بأسناد ثلاثة عن جابر قال : قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) « يا جابر لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا ، لكنّا من الهالكين ، ولكنّا نفتيهم بآثار من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وأصول علم عندنا نتوارثها كابر عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم »[2] .

ونقل القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) عن (المناقب) لابن المغازلي عن يحيى بن أم الطويل ، قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : « ما بين لوحي المصحف من آية إلاّ وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت ، وإنّ بين جوانحي لعلماً جمّاً ، فسلوني قبل أن تفقدوني ، وقال : إذا كنت غائباً عن نزول الآية كان يحفظ علي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما كان ينزل عليه من القرآن ، وإذا قدمت عليه أقرأنيه ويقول : يا علي ، أنزل الله عليّ بعدك كذا وكذا ، وتأويله كذا وكذا . ويعلّمني تأويله وتنزيله »[3] .

وعنه (عليه السلام) فيما قاله لكميل بن زياد : « ها إنّ ها هنا لعلماً جمّاً (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حَمَلَةً ! بلى أصبت لَقِناً غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدّنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه . أو منقاداً لحَمَلَةِ الحقّ لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة . ألا لاذا ولا ذاك ! ومنهوماً باللذّة ، سلس القياد للشهوة . أو مُغرماً بالجمع والادّخار ، ليسا من رُعاة الدين في شيء ،

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٤١ .

(٢) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٣٠ .

(٣) ينابيع المودة ١ : ٧٢ . ط استنابول .

أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة ! كذلك يموت العلم بموت حامليه »[1] .

وقد رووا عنه (عليه السلام) أنه كان يقول : « علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب » .

ولا ريب في أن هذا التعليم لا يمكن أن يكون من نوع التعليم العادي والمعمول بين أرباب العلوم والعقول ، أن يفتح الرسول في فرصة محدودة بكلماته ونصوصه المتوالية ألف باب من العلم لعلي (عليه السلام) ، وهكذا يجعل قلبه عيناً فيّاضاً بالعلوم والمعارف الإلهية ؛ بل إنّ هذا التعليم وتنمية درجة المعارف لديه وتجهيزه له ، إنما تحقق بكيفية نابعة من الهداية الباطنية الخاصة برسالة الرسول الكريم ، أجل ، هكذا ملأ قلب علي (عليه السلام) بحقائق المعارف ، تلك الحقائق التي كانت تتناسب وسعة أفق العقل والفكر والنظرة المتسامية لديه .

وقد روى سليم بن قيس الهلالي العامري عنه (عليه السلام) أنه كان يقول : « وليس كل أصحاب رسول الله كان يسأله عن الشيء فيفهم ، وكان منهم من يسأله ولا يستفهم ، حتى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله حتى يسمعوا . وقد كنت أدخل على رسول الله كل يوم دخلة ، وكل ليلة دخلة ، فيخليني فيها أدور معه حيث دار - وقد علم أصحاب رسول الله أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري - فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ، أكثر ذلك في بيتي ، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه ، فلا يبقى عنده غيري ، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد من بَنيّ . وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني . فما نزلت على رسول الله آية من

---

(١) الحكمة : ١٤٧ من الكلمات القصار في القسم الثالث من نهج البلاغة ط الصالح ص ١١٢ من المعجم المفهرس وذكروا لها في ص ١٤٠٧ أربعة عشر مصدراً . وقريب منها في غاية المرام : ٥١٨ .

القرآن إلّا أقرأنيها، وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها ، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ، ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا ، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال وحرام ، ولا أمر ولا نهي ، كان أو يكون ، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علّمنيه وحفظتُه ، فلم أنس حرفاً واحداً . ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً ، فقلت : يا نبيّ الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوتَ الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ، ولم يفُتني شيء لم أكتبه ، أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد ؟ فقال : لا ، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل »[1] .

أجل ؛ إنّ وجود هذه الخصائص لعلي (عليه السلام) كان السبب في أن يقول الرسول الأكرم بشأنه : « أنا مدينة العلم وعليّ بابُها ، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها »[2] .

ونقل القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) عن (المناقب) لابن المغازلي بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : يا علي أنا مدينة العلم وأنت بابها ، كذب من زعم أنه يصل إلى المدينة إلّا من قبل الباب »[3] .

إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلمه بحاجة المجتمع إلى المرجع العلميّ سعى ليودع علومه إلى من يتمكن من الإجابة الكاملة على مراجعاتهم الدينية ، وأن يجعل الأحكام الإلهية بمتناول أيدي الناس من دون

---

(١) أصول الكافي ١ : ٦٤ . وفي كتاب سليم بن قيس من ص ١٠٣ إلى ص ١٠٨ اقتطعه الكليني في الكافي إلى ص ١٠٦ ولم يكمله .

(٢) المناقب للخوارزمي : ٤٠ وكتبه من المصادر الأخرى .

(٣) ينابيع المودة : ٧٢ و ٧٣ ط استانبول .

أي تبدّل أو تغيير . ولهذا أيضاً أمره الله ليسعى في تربية علي (عليه السلام) ، أي تلك الشخصية اليقظة الواعية التي كانت تشكل النواة الأصيلة لتربية الناس على دين الله ، والذي كان ذا استعداد كافٍ لحفظ وصيانة الأحكام الإلهية ، والذي كان يستجمع جميع الشروط المعتبرة في القائد الفذّ . . أجل . كان النبيّ مأموراً بأن يُعدّ علياً لتقبّل وتحمّل هذه المسؤولية الكبرى .

نقل القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) عن ابن المغازلي في (المناقب) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لما صرت بين يدي ربّي كلّمني وناجاني فما علمت شيئاً إلّا علّمته علياً ، فهو باب علمي »[1] .

ونقل فيه عنه بسنده عن أبي الجارود عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) عن أبيه عن جده الحسين (عليه السلام) قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[2] قالوا : يا رسول الله أهو التوراة أو الإنجيل أو القرآن ؟ قال : لا ، فأقبل إليه أبي (عليه السلام) فقال (صلى الله عليه وآله) : هو هذا الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء »[3] .

وقال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : « ولقد كان يجاورُ في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وخديجة وأنا ثالثهما . أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمُّ ريح النبوّة . ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ـ صلى الله عليه وآله ـ فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ فقال : « هذا

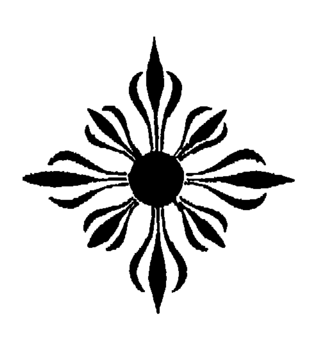
---

(١) ينابيع المودة : ٦٩ط استانبول .

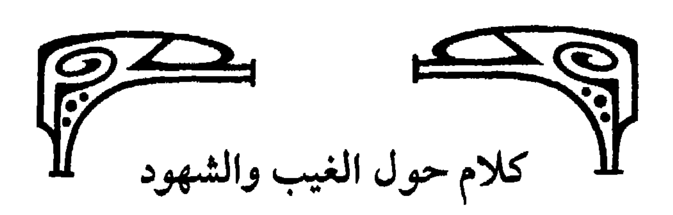
(٢) سورة يس : الآية ١٢ .

(٣) ينابيع المودة : ٧٦ ـ ٧٧ ط استانبول .

الشيطان قد آيس من عبادته ، إنك تسمع ما أسمع ، وترى ما أرى ، إلاّ أنك لست بنبيّ ولكنّك لوزير »[1] .



(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ ط الصالح وذكروا لها في المعجم المفهرس ستة مصادر ص ١٣٩١ .



كلام حول الغيب والشهود

عـالم الغيب يقابـل عالم الشهـادة ؛ فكل مـا يخرج عن دائـرة حيطة حـواسّ الإنسان ولا يـدرك ظاهـراً يحسب من الغيب. نحن لا نعلم شيئاً من أحوال وأهوال يـوم البعث والنشور وكيفيـة الثواب والعقـاب ، وكيفية وجـود الملائكة ، وكنه الذات وحقيقة الصفات لحضرة الحق سبحانـه وتعالى ، لا بسبب أن هذه الوجودات هي من الأجسام اللطيفـة وفي غايـة الدّقـة ونهايـة الصغر مثلاً ، بل لأنّها أسمى من أفق إدراكنا ، أي خارجة عن محيط المكان والزمان .

وينقسم الغيب إلى قسمين : الغيب المـطلق والغيب النّسبيّ ، فمن الغيب ما هو غيب مطلقاً ، أي لكل أحد وفي كل زمان، فلا يدخل في حيطة الحواسّ الظاهرية أبداً ، كالعلم بكنه ذات الحق تعالى . وقـد يكون الغيب نسبيّاً فهو غيب بالنسبة لبعض وشهود لآخريـن .

أمّـا الشهود فهـو كلّ مـا يمكن إدراكه عن طـريق الحواسّ الخمس ؛ وبعبـارة أخرى نقـول : إنّ الشهـود هـو أن يكـون الشيء داخـلاً في حيـطة الحواسّ الظاهرة للإنسان . فالمادّة وآثارهـا هي من عالم الشهـادة لأنها من الممكن إدراكها عن طريق إحدى حواسّ الإنسـان ، وحتى لو كـانت مما لا يمكن رؤيتهـا بالعين غيـر المسلّحة لصغـر حجمها كـالذرّات والميكـروبات

والفايروسات ، فهي كلّها من عالم الشهود ، وإن كانت حواسّنا لا يمكنها أن تدركها لصغر حجمها ، إلاّ أنّها غير خارجة عن إمكان إدراكاتنا ولو بوسائل خاصّة ، تكبّر حجمها ملايين المرّات . وكذلك لا يُعد من الغيب ما يكتشفه العلماء والمحققّون من حقائق موجودة في هذا العالم المليء بالأسرار والرموز ، كقوة الجاذبية ، وأشعة إيكس ، وأشعة لايزر ، وإن كانت لا تُرى في الظاهر ، إلا أنها حيث ندركها بالوسائل الطبيعية ويمكن أن يطلّع عليها الناس بعد اكتشافها فهي ليست من علوم الغيب فعلاً .

وهنا ندرك أن النقص في إدراكنا إنّما هو من ناحية حواسّنا المحدودة ، التي لا تستطيع إلى هذه الدرجة أن تستوضح لنا واقعية الأمور بصورة طبيعية .

بل قد تكون قدرة إحساس بعض الحيوانات أكثر منّا بكثير ، فإن بإمكان بعضها أن ترى ما يخفى علينا ، أو أن تدركه بسائر حواسّها ، بينما نحن لا يمكننا أن نطلّع على وجوده إلاّ عن طريق آثاره وثمراته .

وعلى هذا ، فما كان من عالم الغيب لا نقدر نحن أن نتصوّره إلاّ عن طريق الدلائل العقلية ، أو إخبارنا وإعلامنا من قبل مَن له الإحاطة والسلطة على عالم الغيب وعلم بالأمور المستورة والخفيّة ؛ وذلك لعدم إحاطتنا نحن بعالم الغيب . بخلاف المظاهر والظواهر المادية التي تتجانس وحواسّنا ؛ أو هي مما نستطيع الاطّلاع عليه بالوسائل العلمية وبشرائط خاصّة وفي أفق محدود. أما بالنسبة إلى الحقائق التي لا خبر لنا عنها فبإخبار من يهدوننا إليها نستطيع أن نصل إلى العلم بها ، وأن نقرّر إيماننا واعتقادنا على أساس إخبار أولئك المخبرين الغيبيّين . ولهذا نقول : إن ما يمكن أن نتصوّره من عالم الغيب إنّما هو ما يمكن تصوّره عن طريق الإخبار عن أيّ مفهوم علميّ عنه .

فنحن بما أنّنا بوجودنا الناقص المحدود محبوسون في إطار عالم المادة ، لذلك يخرج عن حيطة إدراكنا كثير من الحقائق غير المادية وغير المحسوسة ، ونحرم من الوصول إلى كثير من الأسرار والرموز ، بل ليست لنا

القدرة الكافية لإدراك ظواهر هذا العالم المحسوس مع ما له من مجانسة مع وجودنا المادي بلا قيد أو شرط . ولهـذا فإن عـالم الوجـود ينقسم علينا إلى قسمين : ظـاهـر وبـاطن : غيب وشهادة. ونفس هـذه الأمـور المستـورة اللامحسوسة لنا والمخفية عن أبصارنا والتي لا يمكننا إدراكها ، هي ظاهـرة وحاضرة لدى مالك الكون والوجود ربّ الكائنات والذي هو على كـل شيء قـدير وبكـل شيء محيط أبداً وسـرمداً ، ولا شيء يمنـع عن إحاطـة علمـه الواسع ، ولا شيء يحدّ من قدرته المطلقة .

إن كل حادثـة اتفق وقوعهـا في التاريـخ السحيق ولم يبق في خواطـر البشر منها شيء ، وحتى لم تنعكس على صفحات التاريـخ ، هي حاضـرة لـدى الربّ سبحـانه ، والجنـة والنار اللتان إنمـا تتحققان بـالنسبة إلينـا في المستقبل البعيد والمجهول لنا ولا يتراءى اليوم لنـا أيّة صـورة عنهما ، همـا حاضرتان بالنسبة إلى الله تعالى؛ فإنّ الخالق المطلق الـلامحدود والـذي لا يخلو منه مكان لا يخفى عليه شيء كذلك ، فهو مشرف على جميع الحقائق والأمور ، ولا يخرَج عن محيط علمه ما مـرت عليه مليـارات السنين أو تمرّ عليه بعدِ اليوم .

إن تصوّر الحوادث السـالفة إنمـا يتحدّد بـإمكانـاتنا في آفـاق أفكارنـا ووجـودنا المحـدود ، والذي حـاز لنفسه زمـاناً ومكـاناً خـاصاً ، ذلـك لأننا مـوجودات مـادّية ، والمـادة ـ حسب قانـون النسبية الفيـزياوي ـ تحتـاج في تغييراتها المستمرة وتكاملها التدريجي إلى المكان والزمان دائماً .

إنّ علمنا بالنسبة إلينا حاضر لدينا فهو من شهودنا ، وكذلـك علم الله تعـالى ، إلّا أنّه حضـوريّ له بصـورة مطلقـة . وذات الله تعـالى ليس عين أفعاله ، إلّا أنّه ليس غيرها بالمباينة ، وبكلمة : الماضي والحاضر والمستقبل حاضر لديه بلا واسطة في علمه به .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « كـل سرّ عنـدك علانيـة ، وكلّ

غيب عندك شهادة »[1] .

أجل ، إنه يعلم بجميع ذرّات الوجود في السموات والأرضين ، وبحركات مليارات الموجودات الصغار والكبار في جميع الوجود ، ويعلم بظاهر كل شيء وباطنه ، ولا ينحصر علمه وإحاطته الكاملة بالماضي والحاضر من الوجود الفعلي والحوادث الحاضرة ، بل إنّ علمه بالمستقبل كعلمه بالحاضر تماماً .

إنّنا لو كنّا حاضرين في كل مكان غير شاغرين لنقطة خاصة لكنّا كذلك مطلّعين على جميع الحقائق واقفين على جزئيات الأمور ، ولم يكن ليخفى علينا شيء صغير أو كبير ، وما من شيء إلّا وكان تحت إشرافنا وبمرآنا ومسمعنا .

ولا شباهة بين علمه وعلم الإنسان ، وليس بالإمكان قياس أحدهما إلى الآخر ، ولا نستطيع أن نتعرف على علمه عن طريق التحقيق في علوم مخلوقاته ، إذ علم الإنسان يتوقف على وجود المعلوم في الخارج ، فلا بدّ أن يكون المعلوم موجوداً ليتعلق علم الإنسان به (أو مركّباً من بعض الوجودات الخارجية والتصورات الانتزاعية عنها) في حين أن علم الله ليس هكذا أبداً ؛ إذ لا غيب بالنسبة إليه ولا يستر عنه شيء شيئاً ، بل العالم كلّه عنده عالم الشهادة .

وفي القرآن الكريم : ﴿ **هو الله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** ﴾[2] .

﴿ **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[3] .

---

(1) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٩ ط الصالح . ورواه الآمدي في غرر الحكم في صفة النبيّ . والزمخشري في ربيع الأبرار في صفة الملائكة . وابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ : ٧٦ .

(2) سورة الحشر : الآية ٢٢ .

(3) سورة الرعد : الآية ٩ .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾[1] .

﴿ ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾[2] .

﴿ ثم تُـرَدُّون إلى عـالم الغيب والشهـادة فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾[3] .

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[4] .

وروى الشيخ الصدوق في كتابه (التوحيد) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال :

« الحمد لله الذي . . . . وعلمها لا بأداةٍ لا يكون العلم إلّا بها ، وليس بينه وبين معلومه علمُ غيرِه »[5] .

وهنا نطرح هذا السؤال : هل أنّ علم الغيب من خصائص الخالق المنحصرة بذاته سبحانه ؟ وهل الغيب والشهود سواء بالنسبة إلى وجوده المطلق من حيث إحاطته بجميع عالم الوجود ؟ أم من الممكن إقامة هذه العلاقة العلمية بين أيّ إنسان وبين عالم الغيب ؟

يُصرّ بعض أرباب النظر على أن العلم بالغيب والاطّلاع على خفايا الحقائق من خصائص الله فقط ؛ يذهب هؤلاء في عقيدتهم إلى عدم إمكان التوصل إلى أمور الغيب حتى للأنبياء والمرسلين وأئمة الدين المبين . وقد تمسكت هذه الفرقة لإثبات نظريتها هذه ـ أي فكرة حصر علم الغيب في

---

(١) سورة الزمر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٣ .

(٣) سورة الجمعة : الآية ٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٣ .

(٥) توحيد الصدوق : ٧٣ . ط مكتبة الصدوق .

وجود الله تعالى ـ بسلسلة من آي الذكر الحكيم عدّ فيها الله علم الغيب من خصائصه وأنه مما يحتفظ بـه في رموزه المكتـومة ، والتي نفى فيهـا الأنبياء السابقون عن أنفسهم علم الغيب بصورة قطعية . فبعض هذه الآيات تقول :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ﴾[1] .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضـراً إلّا ما شـاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنّي السوء ، إنْ أنا إلّا بشير ونـذير لقـوم يؤمنون ﴾[2] .

﴿ ولا أقـول لكم : عندي خـزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنّي ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴾[3] .

﴿ وقــل : لا يعلم من في السمـوات والأرض الغيب إلّا الله ، ومـا يشعرون أيّان يُبعثون ﴾[4] .

﴿ قـل مـا كنت بِـدْعـاً من الـرسـل ، ولا أدري مـا يُفعـل بي ولا بكم ﴾[5] .

﴿ ومن أهل المدينة مَردُوا على النفاق ، لا تعلمهم ﴾[6] .

وعلى هذا ؛ فليس بإمكان أيّ إنسان ـ حتى الأنبياء ـ أن يتوصل إلى علم الغيب إلّا الله تعالى .

وهذا صحيح ؛ أن لا يطّلع على علم الغيب بصورة مطلقة أيّ إنسان ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٨ .

(٣) سورة هود : الآية ٣١ .

(٤) سورة النمل : الآية ٦٥ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٦) سورة التوبة : الآية ١٠١ .

سوى الله ذي الوجود المطلق والمحيط بجميع الوجود إحاطة تامّة كاملة ، وأنّ هذه العلوم ـ علوم الغيب ـ هي تحت إرادة الله تعالى فقط . وتفوّق الأنبياء الآخرين ، وإن كان محرزاً من سائر الجهات إلا أنهم كسواهم ـ لمحدوديتهم ـ لا إحاطة لهم بذواتهم بعالم الغيب ، ولكن ليس هذا بمعنى أن تؤدّي محدوديتهم هذه إلى انسداد أبواب عالم الغيب عليهم دائماً ، وأنهم ـ حتى مع إرادة الله المالك للغيب والشهادة ـ لا يتوصّلون إليه . فإنّ التوصل إلى الغيب موهبة إلهية ، متى ما شاء الله فتح أبواباً منه على رسله وعباده الطاهرين ، وأوصل ما بينهم وبين ذلك العالم الغريب ، وإنما هذه العلوم أشعة من العلم الإلهي ، غير خارجة عن إرادته ومشيئته .

أمّا الآيات المذكورة ؛ فنرى من خلالها أن الناس في عهود الجاهلية كانوا يتصوّرون الرسُل سلطة تامّة على العالم وما فيه ، وأن للرسول قدرة يتمكن بها أن يستكثر لنفسه كلّ خير وأن يدفع عن نفسه كل ضر بكل يُسر . لهذا أمر الله رسوله (صلى الله عليه وآله) (أن يصرّح ـ لنفي هذه الأوهام ـ أنه لا يجد في نفسه هذه الإمكانات ، وأن « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » ، وأنّ ماله إنما هو ما أفاضه عليه سبحانه ، وأن حظّه من العلم والمعرفة إنّما هو ما تعلّمه بواسطة الوحي وتعليم الله تعالى ، ولو كان غير هذا لتوصّل إلى كنوز الأرض وحصل بذلك على أموال وثروات طائلة ، ولم تكن تصيبه أية مصيبة ﴿ وما مسّني السوء ﴾ .

فهنا ـ بقطع النظر عن التعليم من قبل الله بالوحي ـ ينفي النبيّ عن نفسه العلم بالأمور المذكورة ، ويسوق الناس إلى تصحيح الاعتقاد بهذه الفكرة عندهم وفروعها ، ولكن قد يطّلع هذا النبيّ بنبأ الوحي الإلهيّ على مؤامرات المتآمرين عليه ، وبعلمه هذا ينجو من الخطر المحتوم لولا النجاة عنه . فالآيات هذه لا دلالة لها على سلب العلم بالغيب عن غير الله بصورة مطلقة ، ولا يمكننا أن نغضّ النظر عن تلكم الآيات التي تصرّح بتعليم الله بعض الغيب لبعض الأنبياء .

بل حينما يقول في الآية الآنفة الذكر : ﴿ **ما كنت بدعاً من الرسّل** ﴾ قد يكون في مقام الإشارة إلى هذه النقطة المهمة : وهي أن ليس مقتضى النبوة أن تفيض منه العلوم والمعارف بدون الاستناد إلى المعين الذي لا ينضب من العلم الإلهي ، كما أنّ علم سائر الأنبياء أيضاً لم يكن نابعاً من أنفسهم ، ولذلك ينفي عن نفسه العلم بعاقبة أمره وغيره بدون تعليم الله له بذلك بالوحي .

وفي الآية التي ترتبط بالمنافقين : واضح أن النفاق قد لا يكتشف في الظاهر وبالطرق الطبيعية ، ولكنه قد يُكشف للنبيّ بغير الطرق الطبيعية والعادية ، وما في الآية إنّما هو نفي معرفة الرسول لهم بالطرق العادية الطبيعية ، لا ما يمكن أن يحصّل الرسول عن طريق تعليم الغيب .

بل إنّ التاريخ يدلّ على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكن ليعرف المنافقين فقط ، بل كان أحياناً يعرّف أصحاب السرّ من أصحابه بهم أيضاً .

فقد روى ابن حجر في (أسد الغابة) : أن حذيفة كان من خواصّ الأصحاب ، بل كان من أصحاب السر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فكان يعرّفه الرسول المنافقين . فسأله يوماً الخليفة الثاني : هل ترى في أصحابي وعمّالي أحداً من المنافقين ؟ قال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فأبى حذيفة عن ذكره ، وعرفه الخليفة بالتالي فعزله . وكان عمر لا يصلي على ميّت حتى يحضر صلاته حذيفة[1] .

ولا يمكن التكليف بلا معرفة ؛ وقد أمر الله الرسول الكريم أن يجاهد الكفّار والمنافقين وأن لا يطيعهم في أهوائهم وآرائهم حيث يقول : ﴿ **يا أيها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾[2] .

---

(١) أسد الغابة ١ : ٣٩١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تُطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾[1] .

فهل من الممكن أن يأمر النبيّ بجهاد المنافقين ولا يعرفهم الرسول ؟ من ناحية يحذّره أن لا يطيعهم ومن ناحية أخرى لا يعرّفهم لرسوله إلى آخر عمره ؟ من هنا نستنبط أن عدم معرفته بهم كان مؤقتاً لا دائماً[2] .

بل إن القرآن الكريم يثبت أنّ للأنبياء علماً بالغيب إذ يقول : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسُله** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾[4] .

﴿ **عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾[5] .

تقول هذه الآية : إنّ الله تعالى يملك علم الغيب ، ولا يطلع أحداً على غيبه إلا من ارتضاهم ، ومن هؤلاء هم الأنبياء الذين يطلعهم الله على غيبه ويجعل لهم حفظة .

ويقول تعالى : ﴿ **إنّه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مُطاع ثَمّ أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين** ﴾[6] .

أي كلّ ما رأى من الصلاح أن يطلعكم عليه من الغيب أخبركم به .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٨ .

(٢) العلم الثالث : ص ١٨٤ (بالفارسية) .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٧٩ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٤ .

(٥) سورة الجن : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٦) سورة التكوير : الآيات ١٩ ـ٢٤ .

فهنا نزّه النبيّ عن البخل بأخبار الغيب ، وبيّن اطّلاعه على الغيب إجمالاً .

وحينما نقارن بين هاتين الفئتين من الآيات الكريمة نرى فيهما قرائن تشهد بعدم المنافاة بينهما ؛ بل الآيات الأولى تنفي عنهم العلم الذاتي والاستقلالي بالغيب ، والآيات الأخرى تثبت للأنبياء علماً بالغيب بتعليم الله تعالى لهم ، إذن فهناك عباد صالحون يتمتعوّن بصلاحية الورود إلى دائرة علم الله بالغيب .

إنّ الوحي للأنبياء نوع من العلاقة غير المعروفة لهم بعالم الغيب ، وهو فيض إلّهي يفيضُه على قلب كل واحد من عباده المصطفين لذلك عنده .

ولا نغفل عن نقطة أخرى هي أن اطّلاع الأنبياء على الغيب يتناسب وظرفيّتهم الروحية والمعنوية ؛ وإنّ من يدّعي علم الغيب للأنبياء والأئمة لا يدّعيه لهم ذاتيّاً واستقلالياً بل كما تكرر ـ تعليميّاً ووحياً منه سبحانه إليهم .

وهكذا يتوضّح لنا مفهوم هاتين الفئتين من الآيات القرآنية ؛ أي،الآيات التي تنفي علم الغيب عن غير الله بصورة مطلقة ، والآيات الأخرى التي تُثبت العلم بالغيب لعباد الله المصطفين في إطار الإرادة الربّانيّة وبصورة محدودة .

ونقول : إنّ دعوى النبوة والرسالة الإلهية يُصاحبها دعوى الارتباط بعالم الغيب والاطّلاع بالوحي على بعض الغيب ، ولا معنى لأن يدّعي النبيّ النبوة من ناحية ومن ناحية أخرى ينفي عن نفسه علمه بالغيب بصورة مطلقة . أما تركيز القرآن وتأكيده على نفي علم الغيب عن الأنبياء فإنما هو لتخطئة أسلوب التفكير الجاهلي بشأن خصائص الأنبياء وامتيازاتهم ؛ إذ أنهم كانوا يزعمون أن الأنبياء بريئون بعيدون عن الخصائص الإنسانية الطبيعية ، ومجهّزون باطّلاع علميّ خارق للعادة في هذه الحياة بحيث يمكنهم أن يفعلوا كلّ شيء بقدرتهم اللاّمحدودة ! .

ولا زيب في أن هذه الرؤية للأنبياء في عصر الجاهلية كانت تمهّد

الدرب لعبادة الأنبياء وكأنهم قدرة مطلقة تفوق البشر ؛ ولهذا فإن القرآن لكي ينفي هذه الأوهام ويهيّىء الأذهان لتقبّل الواقع والحقيقة يعلن : أن الأنبياء ـ كسائر الناس ـ يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق ويحتاجون إلى الراحة والاستجمام ؛ ومع ذلك فإنّ أهم مميزاتهم هو أنهم يتلقّون الرسالة الإلهية عن طريق الوحي ليبلّغوها إلى الناس حسب استيعاب رسالتهم .

إن القرآن الكريم يهدف إلى أن يثبت حقّانيّة رسالة الأنبياء بين البشر والمرسلين إليهم من أنفسهم ، ومن ناحية أخرى يضرب الأفكار الباطلة فيهم عرض الحائط ، لكيلا تشوب رسالاتهم بالشرك بأن يعبدوهم وكأنهم قدرة قاهرة فوق البشر من دون الله ، ولهذا قال :

﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كِسَفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرأه ، قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولاً ﴾[١] .

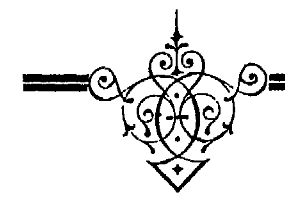
﴿ وقالوا : ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ؟! لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يُلقى إليه كنزٌ ، أو تكون له جنَة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبّعون إلّا رجلًا مسحوراً ﴾[٢] .

أجل كان هكذا هو أسلوب التفكير الجاهليّ الذي كان يكافحه القرآن في آياته تلك .

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٧ ـ ٨ .



هل بإمكان الإمام أن يتصّل بعالم الغيب؟

يوجد بين البشر أفراد تفتح لهم أبواب السماء بالإلهام والإشراق على أرواحهم ، فيطّلعون على بعض الحقائق الخفيّة ، بينما لا يتيسّر للإنسان الورود إلى تلك الحوزة الغيبيّة عن طريق الاستدلال وإعمال الفكر والعقل . وإن هذا الإدراك غير الحسّي الذي هو من تجلّي الإلهام ، لهو طريق صدق لمعرفة الواقع والحق ، وإن كان لا يجد له تفسيراً في الرؤية المادّية الضيّقة ، إلّا أنه بالنظر إلى الأصول العلمية مما لا يقبل الإنكار .

ومن مشاهير علماء العصر الحديث الذين يقرّون للإلهام بقيمة ومنزلة خاصة ويرونه موهبة استثنائية ، هو (الدكتور الكسيس كارليل) إذ يقول :

« إن النوابغ من البشر إلى جانب قواهم الطبيعية لإدراك المعلومات يتمتّعون بخصائص أخرى كالإلهام أيضاً ، يجدون بها أشياء تخفى على غيرهم ، ويرون بين القضايا غير المرتبطة ظاهراً روابط مجهولة لغيرهم ، ويدركون بفراستهم كنوزاً مجهولة لمن سواهم . إن أصحاب هذه البصيرة الخاصّة يدركون أفكار الآخرين عن غير طريق الأعضاء الحاسّة ، وكذلك يرون قليلاً أو كثيراً من حوادث بعيدة عنّا زماناً ومكاناً ، ويخبروننا عن بعض

الأشياء والقضايا بأخبار موثقة أكثر وثوقاً مما يدرك بالأعضاء الحاسّة .

إنّ قراءة أفكار الآخرين أيسر على أصحاب البصيرة من وصفهم لصورهم ، ولا يكفي تعبير الرؤية والحسّ لبيان ما يجري في شعورهم ، إذ لا يرون شيئاً ولا يفتّشون عن شيء ولكنهم يعرفونه ويعلمون به .

وكثير من الناس ليسوا من أصحاب هذه البصيرة ولكنّهم جرّبوا هذه الرابطة القلبية والروحية في طول أعمارهم مرة أو مرتّين ، وهذا يعني أن معرفة العالم الخارجي قد تتيسّر لنا من طرق أخرى غير الحسّ . ونحن لا نشكّ في قدرة أفكارنا على أن تربط بين فردين من البشر بصورة مستقيمة من دون أن يكون بينهما أيّ رابط في الواقع الخارجي . ويجب أن نقبل بهذه الأمور التي يبحث عنها في علم «الميتاسيبيشك» كما هي عليه ، ففيها حقائق بصدد التعرّف على جوانب من الوجود للإنساني لم تعرف حتى اليوم ، ولعلّها تتمكن من أن تبيّن لنا سبب البصيرة الخارقة في بعض البشر »[1] .

وعلى هذا فللرّوح الإنسانية غير الأعضاء طريق أو طرق أخرى للارتباط بالعالم الخارجي ، ما عدا الإدراك الحسّي والعقلانيّ . وإنّ المحقّقين يرون اطّلاع البشر على بعض الغيب أمراً ممكناً حسب تحقيقاتهم .

فكما يُثبت الحسّ وتُثبت التجربة إمكانية أن يرتبط الإنسان في منامه ورؤياه بالعالم الخارجي فيكتسب بعض الأخبار والمعلومات ؛ كذلك لا مانع من أن تصل قدرته الروّحية والباطنية إلى هذه النتيجة في عالم اليقظة أيضاً . وإنّ هذا نافذة أمل قد يفتحها الله لبعض عباده ليطّلعوا على طرف من الحقائق الخفيّة والأسرار المضمرة .

وإذا كان بالإمكان للإنسان هذه الموهبة من القدرة الروّحية ؛ فلم لا يتمكن أولئك الكُمّل ، كالأنبياء والأولياء ، الذين يتمتّعون بصفات سامية

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ـ بالفارسية : ١٣٥ .

وكرامات عالية ، من أن يرتبطوا بعالم الغيب في مُستوى أوسع وأفق أعلى ، بتعليم وإفاضة من الله ، وعلى أساس من عمق إخلاصهم وطهارة ضميرهم وباطنهم ، فيطّلعوا على بعض الحقائق مما وراء الستار ؟ .

إنّ عمدة الطرق لعلم الأئمة هو ما يفاض عليهم من الإلهام بأمر ربّهم ، فيتوصلون بارتباطهم بعالم الغيب إلى كشف كثير من الحقائق والوقائع . وقد وردتنا روايات كثيرة تؤكّد لنا أن بإمكان أناس من المصطفين المخلَصين أن يرتبطوا بعالم الغيب ، فينالوا بذلك إدراك سلسلة من الحقائق الخفية والأسرار والرموز المضمرة في ضمير هذا الوجود ، وإن كان ما يُلقى إلى الأئمة من عالم الغيب فيطّلعون من هذا الطريق على طرف من خفيّات الأمور ليس من نوع الوحي ، فإنهم لا يرون فيما يُلهمون ملك الوحي جبرئيل أو غيره ، إلا أن ما يطّلعون عليه من الحقائق يُوسّع عليهم دائرة إدراكاتهم ، ويُضيف في فهمهم وطاقاتهم العلمية .

وليس ارتباط الأئمة بعالم الغيب ارتباطاً مطلقاً بلا حدود وإطار ، إنه بإمداد من القدرة المطلقة والإلهية من دون أن يصل إلى الإحاطة الكاملة بكل العلوم والأسرار ؛ بل إن ارتباطهم مؤطّر بإطار خاص وفي حوزة معيّنة قد قدّر الله حدودها وعيّنها . فهم بعلمهم المحدود وحاجتهم إلى المدد من الله لا يصلون إلى العلم المطلق بالغيب . ولكنهم بكمالهم الإنسانيّ وحسب نورانيتّهم وكونهم مظاهر لأسماء الله وصفاته ، إذا توجّهوا ببواطنهم الظاهرة وجواهرهم النيّرة إلى عالم الغيب ، أفاض الله الخالق عالم الغيب والشهادة عليهم طرفاً من المسائل الغيبية وحقائق الوجود ، وفتح عليهم نوافذ من ذلك العالم لتعميق علومهم . وعلى هذا فإنّ ارتباطهم بعالم الغيب ليس داخلاً في اختيارهم بالاستقلال ، وهذا هو المفهوم من الروايات التي ينفي فيها الأئمة عن أنفسهم علمهم بالغيب وهو أن علمهم ليس مطلقاً غير محدود ، وأنهم لا يطّلعون على ما يطّلعون عليه بغير إذن الله وإرادته ومشيئته .

أحد أصحاب الإمام الباقر (عليه السلام) سأله عن قوله جلّ ذكره :

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾[1] فأضاف الإمام الباقر (عليه السلام) : ﴿ إلّا من ارتضى من رسول ﴾[2] ثم قال : « وكان والله محمد من ارتضاه . وأما قوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ فإنّ الله عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدّر من شيء ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يفضيه إلى الملائكة ، فذلك - يا حمران - علم موقوف عنده ، إليه فيه المشيئة ، فيقضيه إذا أراد ، ويبدو له فيه فلا يمضيه . فأمّا العلم الذي يقدّره الله عزّ وجل فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ثم إلينا »[3] .

فالقرآن الكريم يعلن بصراحة : أنّ الله تعالى يطلع على الغيب بعض المصطفين من عباده كالأنبياء في مختلف العصور ، فالأئمة الأطهار كذلك بالاستمداد من عناية الله بإمكانهم أن يتصلوا بعالم الغيب إذا اقتضى الأمر فيطّلعوا على ما يلزمهم من علوم . وليس هذا بمعنى أن الأئمة حتى في حياتهم العادية وفي كل أعمالهم يتصلون بعالم الغيب فيستفيدون مما يطّلعون عليه ، فإن الله اختار أن يكون النبيّ والإمام من البشر ومع البشر من دون اختلاف فيهم عن الآخرين في كيفية حياتهم ، بل عليهم بناءً على هذا أن يتّخذوا قراراتهم على ظواهر الأمور ، وأن يشاوروا في كثير من أمورهم مع أصحابهم . فالأعمال التي يقومون بها في مسيرة حياتهم كثيراً ما تبتنى على اختيارهم وعلمهم العادي ، وهم كسائر الناس مكلّفون بجميع التكاليف والمقرّرات الدينية ؛ وعلى هذا فلا يصح أن نفصل حياتهم في المجتمع تعليماً وتربية وهدايةً للخلق عن سائر الناس ، فإنهم في أكثر أمورهم هذه كانوا عاديّين طبيعيّين ؛ حتى أن حياتهم الشخصية الطبيعية وأسلوب أعمالهم في مختلف الأصعدة الاجتماعية سبّب في أن يقرنهم بعض الناس بكثير من غيرهم في العلم .

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الجن : الآية ٢٧ .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢٥٦ .

ويجب أن نلتفت هنا إلى نقطة أخرى هي : أنّ اطّلاعهم على الغيب ، أي علمهم بوقوع بعض الحوادث لم يكن له أي أثر في مسيرة الحياة الطبيعيّة ، فهو لا يؤثر في أعمال الآخرين أصحاب تلك الحوادث الآتية ، ولا يكون منشأ للتكليف لهم . إنّ علم الإمام ـ بأنّ إنساناً ما سيقدم على عمل ما بإرادته واختياره ـ لا يؤثر في اختيار ذلك الإنسان أيّ أثر ، ولا يكون مانعاً ولا رادعاً له عن إعماله لإرادته ، ولا تسلب حرية العمل والحركة من ذلك الإنسان . أما التكاليف بالنسبة للأئمة فإنّما تتحقق بالطّرق الطّبيعية لا بالغيب ، أي إن المعلومات الغيبية والاطّلاع على قضاء الله المبرم والمشاهدة ـ الملكوتية ـ لعدد من الحقائق إنما هي أخبار عن حوادث ، ولا توجب أيّ تكليف ولا أيّ أمر أو نهي في مورد تلك الحوادث .

روى الشيخ الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن معمّر بن خلّاد قال : سأل أبا الحسن (الإمام الكاظم) (عليه السلام) رجل من أهل فارس فقال له : أتعلمون الغيب ؟ فقال : قال أبو جعفر (الباقر) (عليه السلام) : يُبسط لنا العلم فنعلم ، ويُقبَض عنّا فلا نعلم . وقال : سرّ الله عزّ وجلّ أسرّه إلى جبرئيل ، وأسرّه جبرئيل إلى محمد ، وأسرّه محمد إلى من شاء الله »[1] .

وروى الصفّار في (بصائر الدّرجات) بسنده عن عبد الرحيم قال : سألت أبا جعفر الباقر (عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** ﴾[2] قال : كشط له السموات والأرض حتى رآها وما فيها ، حتى رأى العرش ومن عليه ، وفعل ذلك برسول الله (صلى الله عليه وآله) »[3] .

وروى فيه عنه بسنده عن أبي بصير عن أحدهما قال : قلت له :

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٣) البحار ٢٦ : ١١٦ عن بصائر الدرجات : ٣٠ .

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ؟ قال : « كشفت له السموات والأرض حتى رآها ورأى ما فيها والعرش ومن عليه . قال : قلت : فأُوتي محمد (صلى الله عليه وآله) مثل ما أُوتي إبراهيم (عليه السلام) ؟ قال : نعم ، وصاحبكم هذا »[1] .

وروى فيه عنه بسنده عن أبي بصير أيضاً قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : هل رأى محمد (صلى الله عليه وآله) ملكوت السموات والأرض كما رأى إبراهيم ؟ قال : نعم ، وصاحبكم »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن عبد الرحمن بن كثير قال : سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول : نحن وُلاة أمر الله ، وخزنة علم الله ، وعيبة وحي الله »[3] .

وروى فيه بأسناده عن أبي الربيع الشامي وأبي عبيدة المدائني عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال : « إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك »[4] .

وروى فيه بسنده عن سيف التمّار قال : كنّا في جماعة من الشيعة مع أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في الحِجر ، فقال : علينا عين ؟ فالتفتنا يمنةً ويسرة فلم نَرَ أحداً ، فقلنا : ليس علينا عين . فقال : وربِّ الكعبة ، وربِّ الكعبة ، وربِّ الكعبة ، لو كنت بين موسى والخضر (عليهما السلام) لأخبرتهما أني أعلم منهما ، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ؛ لأنّ موسى والخضر أُعطيا علم ما كان ولم يُعطَيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثة »[5] .

---

(١) البحار ٢٦ : ١١٥ عن بصائر الدرجات : ٣٠ .
(٢) البحار ٢٦ : ١١٥ عن بصائر الدرجات : ٣٠ .
(٣) أصول الكافي ١ : ١٩٢ ط آخوندي .
(٤) أصول الكافي ١ : ٢٥٨ . ط آخوندى .
(٥) أصول الكافي ١ : ٢٦٠ .

وروى ابن شهر آشوب في كتابه (مناقب آل أبي طالب) عن صفوان بن يحيى عن بعض رجاله عن الصادق (عليه السلام) قال : « والله لقد أعطينا علم الأولّين والآخرين » فقال له رجل من أصحابه : جعلت فداك أعندكم علم الغيب ؟ فقال له : ويحك إنّي لأعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ويحكم وسّعوا صدوركم ولْتبصر أعينكم ولْتعِ قلوبكم ، فنحن حجة الله تعالى في خلقه ، ولن يسع ذلك إلاّ صدر كلّ مؤمن قوي ، قوّته كقوة جبال تهامة ، إلاّ بإذن الله .

والله لو أردت أن أحصي لكم كلّ حصاة عليها لأخبرتكم . وما من يوم وليلة إلاّ والحصى تلد إيلاداً كما يلد هذا الخلق . والله لتتباغضون بعدي حتى يأكل بعضكم بعضاً »[1] .

وروى الصفّار في (بصائر الدّرجات) بأسناده عن صفوان بن يحيى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إنّ الله أجل وأعظم من أن يحتجّ بعبد من عباده ثم يخفي عنه شيئاً من أخبار السماء والأرض »[2] .

وعن المفضّل بن عمر أنه قال : « الله أحكم وأكرم من أن يفرض طاعة عبده ويحجب عنه خبر السمّاء صباحاً ومساءً »[3] .

وروى فيه بسنده عن سعد بن الأصبغ الأزرق قال : دخلت مع الحصين ورجل آخر على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فاستخلى برجل فناجاه ما شاء فسمعته يقول له : أفترى الله يمّن بعبد في بلاده ويحتجّ به على عباده ثم يخفي عنه شيئاً من أمره ؟ » .

وروى فيه بسنده عن أبي بصير عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

---

(١) البحار ٢٦ : ٢٧ عن المناقب ٣ : ٣٧٤ .

(٢) البحار : ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ .

(٣) البحار ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ والخبر في أصول الكافي ١ : ٢٦١ ط آخوندي .

سُئل علي (عليه السلام) عن علم النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقال : علم النبيّ علم جميع النبيّين ، وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة . ثم قال : والذي نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبيّ (صلى الله عليه وآله) وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة »[1] .

وروى ابن الشيخ في أماليه عن المفيد بسنده عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «أعطيت تسعاً لم يُعطَها أحد قبلي سوى النبيّ : لقد فُتحت لي السبل ، وعلمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ، ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربّي ، فما غاب عنّي ما كان قبلي ، ولا ما يأتي بعدي ، وإنّ بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتمّ عليهم النّعم ، ورضي لهم إسلامهم إذ يقول يوم الولاية لمحمد (صلى الله عليه وآله) : يا محمد أخبرهم أني أكملت لهم اليوم دينهم وأتممت عليهم النعم ورضيت إسلامهم . كلّ ذلك منّاً منّ الله عليّ ، فله الحمد »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن خريس الكُناسيّ قال : سمعت أبا جعفر الباقر (عليه السلام) وعنده أُناس من أصحابه يقول لهم : « عجبت من قوم يتولّونا ويجعلونا أئمة ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ثم يكسرون حُجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم ، فينتقصونا حقّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا والتسليم لأمرنا . أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم »؟![3] .

هذه خلاصة فصل طويل من الروايات التي وصلتنا من الأئمة الطاهرين

---

(١) البحار ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ .

(٢) البحار ٢٦ : ١٤١ عن أمالي ابن الشيخ : ١٢٨ ، والآية في سورة المائدة : ٣ .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢٦١ ط آخوندي .

بهذا الصدد ، وكلما كانوا يرون من وظيفتهم بيان بعض الحقائق الغيبية كانوا يفتحون بها أفواههم فيبيّنون للناس ما بان لهم منه وخفي على غيرهم .

وقد كتب عالم السنّة ابن أبي الحديد يقول : « وقد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده : أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به . . وهذه الدعوى ليست منه (عليه السلام) إدّعاء الرّبوبيّة ولا ادّعاء النبوّة ، ولكنّه كان يقول : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبره بذلك، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً ، واستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة »[1] .

إن وقوع أخباره الغيبية لدليل على صدق كلامه هذا ، ومبيّن كذلك لعلمه الذي يختصّ به بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « إنكم لا تسألوني عن أمر يحدث بينكم وبين يوم القيامة إلّا أخبرتكم به » .

وإن قصّة ميثم التمّار لمن القصص المعروفة :

روى ابن أبي الحديد عن كتاب الغارات لأبي إسحق إبراهيم الثقفي عن أحمد بن الحسن الميثمي من أحفاد ميثم التمار قال : كان ميثم التمّار مولى علي بن أبي طالب (عليه السلام) عبداً لامرأة من بني أسد ، فاشتراه علي (عليه السلام) منها وأعتقه ، وقال له : ما اسمك ؟ قال : سالم ، فقال : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبرني أنّ اسمك الذي سمّاك به أبوك في العجم « ميثم » ! فقال : صدق الله ورسوله وصدقت يا أمير المؤمنين ، فهو والله اسمي ، فقال علي (عليه السلام) : فارجع إلى اسمك ودَعْ سالماً فنحن نكنّيك به . فكنّاه أبا سالم .

وكان قد أطلعه علي (عليه السلام) على علم كثير وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدث ببعض ذلك ، فيشك فيه قوم من أهل

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧ : ٤٧ ثم سرد لذلك أمثلة من أخباره (عليه السلام) إلى ص ٥٠ فراجع .

الكوفة وينسبون علياً (عليه السلام) في ذلك إلى المخرقة (أي اختلاق الكذب) والإيهام والتدليس ! حتّى قال له يوماً بمحضر من خلق كثير من أصحابه وفيهم الشاك والمخلص : يا ميثم إنك تؤخذ بعدي وتُصلب ، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دماً حتى تُخضبَ لحيتك ، فإذا كان اليوم الثالث طُعِنت بحربة يقضى عليك . فانتظر ذلك ! والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمرو بن حريث ، وإنك لعاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم من المطَهّرة ـ يعني الأرض ـ ولأرينّك النخلة التي تصلب على جذعها . ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين .

وكان ميثم يأتيها فيصلّي عندها ويقول : بوركت من نخلة لكِ خُلِقتُ ولي نَبَتِّ !

فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علي (عليه السلام) حتى قُطعت ، فكان يرصد جذعها ويتعاهده ويتردّد إليه ويبصره . وكان يلقى عمراً بن حريث فيقول له : إنّي مجاورك فأحسن جواري ! فلا يعلم عمرو بن حريث ما يريد ميثم ، فيقول له : أتريد أن تشتري دار ابن مسعود أم دار ابن حكيم ؟!

وحجّ في السنّة التي قتل فيها فدخل على أم سلمة رضي الله عنها ، فقالت له : مَن أنت ؟ قال : عراقي ، فاستنسبته فذكر لها : أنه مولى علي بن أبي طالب . فقالت : أنت هيثم قال : بل أنا ميثم . فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوصي بك علياً في جوف الليل . فسألها عن الحسين بن علي فقالت : هو في حائط له ، قال : أخبريه أني قد أحببت السلام عليه ونحن ملتقون عند ربّ العالمين إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه وأريد الرجوع . فدعَتْ بطيب فطيَّبت لحيتَه ، فقال : أما إنّها ستخضب بدم ! فقالت : من أنبأك هذا ؟ قال : أنبأني سيّدي . فبكت أمّ سلمة وقالت له : إنّه ليس بسيّدك وحدك فهو سيّدي وسيد المسلمين . ثم ودَّعتْه .

فقدم الكوفة ، فأخذ وأدخل على عبيد الله بن زياد وقيل لهِ : هذا كان

من آثر الناس عند أبي تراب ! قال : ويحكم هذا الأعجمي ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربّك ؟ قال : بالمرصاد ! قال : قد بلغني اختصاصك بأبي تراب ؟ قال : قد كان بعض ذلك فما تريد ؟ قال : ما الذي أخبرك أني صانع بك ؟ قال : أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهّرة . قال : لأخالفنّه ! قال : ويحك ! كيف تخالفه ؟ إنّما أخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخبر رسول الله عن جبرائيل وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه أين هو من الكوفة ؛ وإنّي لأول خلق الله أُلجَم في الإسلام بلجام كما يُلجم الخيل .

فحبسه ابن زياد وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، فقال ميثم للمختار : إنك تفلت وتخرج ثائراً بدّم الحسين (عليه السلام) ! فَتَقْتُل هذا الجبّارَ الذي نحن في سجنه ، وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخدّيه .

فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتله طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد يأمره بتخلية سبيله . وذلك أن أخت المختار كانت تحت عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألت بَعْلها أن يشفع فيه إلى يزيد ، فشفع ، فأمضى شفاعته وكتب بتخلية سبيله بالبريد ، فوافى البريد وقد أُخرج ليضرب عنقه فأُطلق .

وأما ميثم ؛ فأخرج بعده ليصلب، وقال عبيد الله : لأمضيّن حكم أبي تراب فيه : فقال رجل لميثم : ما كان أغناك عن هذا يا ميثم ! فتبسّم وقال : لها خُلِقتُ ولي غُذِيَتْ . فلما رُفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث فقال عمرو ، لقد كان يقول لي : إنّي مجاورك . . وجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم ومخازي بني أُميّة ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هذا العبد ! فقال : ألجموه ! فألجم ، فكان أول خلق الله ألجم في الإسلام ، فلما كان في اليوم الثاني فاضت مُنْخَراه وفمه دماً ، فلما كان اليوم الثالث طُعن بحربة فمات . وكان

ذلك قبل قدوم الحسين العراق بعشرة أيام »[1] .

وبعد الانتهاء من حرب الجمل وفتح البصرة لعلي (عليه السلام) خطبهم فقال : « بلادكم أنتن بلاد الله تربة ، أقربها من الماء وأبعدها من السماء ، وبها تسعة أعشار الشرّ ، المحتبس فيها بذنبه ، والخارج بعفو الله . كأنّي أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء ، حتى ما يُرى منها إلاّ شُرَفُ المسجد كأنه جؤجؤ طير في لُجّة بحر » .

وقال ابن أبي الحديد في شرحها : « فأما إخباره (عليه السلام) : أن البصرة تغرق عند المسجد الجامع بها » . فالصحيح أن المخبر به قد وقع ؛ فإن البصرة غرقت مرّتين : مرة في أيام القادر بالله ومرة في أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلاّ مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطير ، وهو عظم الصدر ، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين (عليه السلام) ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة فارس ومن جهة الجبل المعروف بالسّنام »[2] .

وروى الشيخ الصدوق في المجلس الرابع والعشرين من أماليه بسنده عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده : أن الحسين بن علي (عليهما السلام) دخل يوماً إلى الحسن بن علي (عليهما السلام) ، فلما نظر إليه بكى ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ قال : أبكي لما يصنع بك . فقال له الحسن : إن الذي يؤتى إليّ سمّ يدسّ لي فأقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدّعون أنهم من أمة جدّنا محمد (صلى الله عليه وآله) وينتحلون دين الإسلام ، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٩١ ـ ٢٩٤ ط أبو الفضل إبراهيم ، والخبر غير موجود في النسخ المخطوطة والمطبوعة من كتاب الغارات لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الأصفهاني المتوفى ٢٨٣ هـ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢٥١ و٢٥٣ ط أبو الفضل إبراهيم .

ونسائك وانتهاب ثقلك ، فعندها تحل ببني أمية اللعنة ، وتمطر السماء رماداً ودماً ، ويبكي عليك كل شيء حتى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار »[1] .

واجتمع بنو هاشم ليختاروا محمد بن عبد الله بن الحسن المجتبى (عليه السلام) للخلافة ، فخطبهم عبد الله بن الحسن ودعاهم إلى بيعة ابنه محمد ، فقال بعضهم : لم يجتمع أصحابنا فلسنا نرى أبا عبد الله جعفر بن محمد ؟! فقال عبد الله بن الحسن : لا ترسلوا إلى جعفر فإنه يفسد عليكم ! فأبوا إلّا أن يأتيهم ، فأرسل إليه عبد الله بن الحسن فأتاهم ، فأوسع له عبد الله بن الحسن إلى جانبه وقال : قد علمت ما صنع بنا بنو أمية ، وقد رأينا أن نبايع لهذا الفتى ! فقال : لا تفعلوا فإنّ الأمر لم يأت بعد ، ولا يحملني على ما أقول الحسد ، ولكن هذا وإخوته وأبناؤه دونكم ، وضرب بيده على ظهر أبي العباس وقال : إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ، ولكنّها لهؤلاء ! وإنّ ابنيك لمقتولان ! أو قال : إنّ هذا الأمر والله ليس إليك ولا إلى ابنيك ، وإنما هو لهذا ـ وأشار إلى السفاح ـ ثم لهذا ـ وأشار إلى المنصور ـ ثم لولده من بعده ، لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبّيان ويشاوروا النساء ! .

فقال عبد الله بن الحسن : والله يا جعفر ما أطلعك الله على غيبه ، وما قلت هذا إلّا حسداً لابني ! فقال ، لا والله ما حسدت ابنك ، وإنّ هذا ـ وأشار إلى المنصور ـ يقتله على أحجار الزيت ، ثم يقتل أخاه بعده بالطفوف وقوائم فرسه في الماء . ثم قام مغضباً يجرّ رداءه »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال لأخيه زيد :

---

(١) أمالي الصدوق : ١٠١ ط بيروت . ورواه الحرّ في إثبات الهداة : ١٤٧ ط طهران .

(٢) مقاتل الطالبيين : ١٧٢ ط الحيدرية . ورواه عنه المفيد في الإرشاد : ٢٧٦ ط الحيدرية .

« . . فلا يستخفّنّك الذين لا يوقنون » إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، فلا تعجل فإن الله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا تسبقنّ الله فتعجزك البليّة فتصرعك . . . . أعيذك بالله يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة . ثم أرفضّت عيناه وسالت دموعه ثم قال : اللهبيننا وبين من هتك سترنا وجحدنا حقّنا وأفشى سترنا ونسبنا إلى غير جدّنا وقال فينا ما لم نقله في أنفسنا »[1] .

ورواه الحرّ في كتابه (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) ثم قال : « ما أخبر به الإمام الباقر (عليه السلام) في هذا الخبر وقع وبلغنا بالتواتر »[2] .

وروى أبوالفرج الأصبهاني في (مقاتل الطالبيّين) بسنده عن حسين بن بشّار عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه أخبره بأن عبد الله المأمون سيقتل محمداً الأمين ابن زبيدة ، فكان كما أخبره (عليه السلام)[3] .

وروى الحرّ في (إثبات الهداة) بسنده عن حذيفة بن اليمان قال : سمعت الحسين بن علي يقول : « والله ليجتمعّن على قتلي بنو أمية ، ويقدمهم عمر بن سعد » وذلك في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، فقلت له : أنبأك بهذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؟ قال : لا . فأتيت النبيّ فأخبرته فقال : علمي علمه وعلمه علمي »[4] .

وروى الكليني في (الكافي) بسنده عن أبي هاشم الجعفري قال : شكوت إلى أبي محمد ضيق الحبس وكتل القيد . فكتب إليّ : « أنت تصلّي اليوم الظهر في منزلك » فأخرجت في وقت الظهر فصلّيت في منزلي كما قال

---

(١) أصول الكافي ١ : ٣٥٦ ـ ٣٥٨ ط آخوندي .

(٢) إثبات الهداة ٥ : ٢٦٦ ط طهران .

(٣) مقاتل الطالبيين : ٢٩٨ .

(٤) إثبات الهداة ١ : ٥٨٩ ط قم .

(عليه السلام) وكنت مضيّقاً فأردت أن أطلب منه دنانير في الكتاب فاستحييت ، فلما صرت إلى منزلي وجّه إليّ بمائة دينار ، وكتب إليّ : « إذا كانت لك حاجة فلا تستحي ولا تحتشم واطلبها فإنك ترى ما تحبّ إن شاء الله »[1] .

وروى فيه بسنده عن خيران الأسباطي قال : قدمت على أبي الحسن (الإمام الهادي) (عليه السلام) المدينة فقال لي : ما خبر الواثق (بالله الخليفة العباسي) عندك ؟ قلت : جعلت فداك خَلّفْتُه في عافية ، أنا من أقرب الناس عهداً به ، عهدي به منذ عشرة أيام . قال : فقال لي : إنّ أهل المدينة يقولون : إنه مات ! فلمّا أن قال لي : « الناس » علمت أنه هو . ثم قال لي : ما فعل جعفر (المتوكل) ؟ قلت : تركته أسوأ الناس حالاً في السجن . فقال : أما إنه صاحب الأمر ! ما فعل ابن الزيّات (الوزير) ؟ قلت : جُعلت فداك ، الناس معه والأمر أمره ، فقال : أما إنه شؤم عليه ! ثم قال : لا بدّ أن تجري مقادير الله تعالى وأحكامه ، يا خيران مات الواثق ، وقد قعد المتوكل جعفر [مقامه] وقد قُتل ابن الزيّات ! فقلت : متى جُعلت فداك ؟ قال : بعد خروجك بستّة أيام »[2] .

وروى ابن أبي الحديد عن الحسن بن محبوب ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن سويد بن غفلة قال : إن علياً (عليه السلام) خطب ذات يوم (في مسجد الكوفة) فقام رجل من تحت منبره فقال : يا أمير المؤمنين إني مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عُرْفطة قد مات ، فاستغْفِر له !

فقال (عليه السلام) : والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حمار ، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا حبيب بن حمار وإني لك شيعة ومحب ، فقال :

---

(1) أصول الكافي ١ : ٥٠٨ ط آخوندي . ورواه الحرّ في إثبات الهداة ٥ : ٢٨٦ .
(2) أصول الكافي ١ : ٤٩٨ ط آخوندي . ورواه الحرّ في إثبات الهداة ٦ : ٢١٣ ط طهران .

أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنّك لحبيب بن حمار ؟ قال : إي والله ! قال : أما وإنك لحاملها ولتحملّنها ولتدخلُنّ بها من هذا الباب ، وأشار بيده إلى باب الفيل من مسجد الكوفة .

قال أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار: فوالله ما متّ حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي (عليه السلام) ، وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدمته ، وحبيب بن حمار صاحب رايته ، فدخل بها من باب الفيل »[1] .

ومن الحوادث العجيبة التي تنبّأ عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) ما أصاب رشيد الهجري .

روى ابن أبي الحديد عن أبي إسحاق إبراهيم الثقفي بسنده عن زياد بن النضر الحارثي قال :

« كنت عند زياد وقد أتـي برشيد الهجريّ ، وكان من خواصّ أصحاب علي (عليه السلام) ، فقال له زياد : ما قال خليلك لك إنّا فاعلون بك ؟ قال : قال : تقطّعون يدي ورجلي وتصلبونني ! فقال زياد : أما والله لأكذّبنّ حديثه ، خلّوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال : ردّوه ، لا نجد شيئاً أصلح مما قال لك صاحبك ؛ إنّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت ، اقطعوا يديه ورجليه ! فقطّعوا يديه ورجليه ، وهو يتكلّم ، فقال : اصلبوه خنقاً في عنقه ، فقال رشيد قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه ! فقال زياد : اقطعوا لسانه . فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال : نفّسوا عنّي أتكلم كلمة واحدة ، فنفّسوا عنه ، فقال : هنا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرني بقطع لساني . فقطعوا لسانه وصلبوه »[2] .

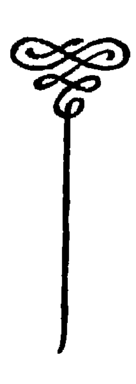
هذه نماذج معدودة من القضايا والقصص الكثيرة المنقولة في كتب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ط أبو الفضل إبراهيم .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٩٤ ط أبو الفضل إبراهيم .

التاريخ والحديث من رواة مختلفين لم يجتمعوا على الكذب في مكان وزمان واحد ، تضطّر كل محقق منصف إلى الاعتراف بارتباط الأئمة الطاهرين بعالم الغيب ، وأنهم كان بإمكانهم متى ما شاؤوا وشاء الله أن يـطّلعوا على بعض الحقائق الخفية .





أسلوب انتخاب الإمام والقائد

من المسائل التي لا زالت محل كلام ومقال بين المسلمين منذ صدر الإسلام ، هي مسألة انتخاب الإمام والقائد ، هذه المسألة التي قسمت الأمة الإسلامية إلى مدرستي السنّة والشيعة .

فتعتقد الشيعة بأن حق تعيين الإمام والقائد إنما هو من حق الله تعالى الخاصّ به ، وعليه فلا يتمكن الناس أن يؤدّوا أيّ دور في اختيار الإمام ، بل إنما هو خالق العالمين يختار رجلاً ليتعهّد بالقيادة بواسطة رسوله الأمين فيعرفّه للناس .

إن تبعيّة الشيعة لأصل الإمامة والدّقة المتناهية لهم في هذا الأمر ، واعتقادهم بتعيين حجة وقائد دينّي من قبل الله ورسوله لكل عصر ، يلازم الدلالة على تعظيم حقوق الإنسان .

إنهم يقولون : إنه لا يصّح أن نلغي بالنسبة للإمامة ما كنّا نشترط في مقام النبوّة . فالالتزام باشتراط هذه الصفات في الإمام القائد يعني أنهم لا يرون إماماً يليق بالإمامة للبشر دون الإمام العادل المعصوم العالم . إذ أن المعرفة التامّة القطعية بمعارف الدين ، وإبلاغ الأحكام والقوانين الإلهية ، وتنفيذها الصحيح في المجتمع وحراستها وصيانتها ، لا تتحقق بدون أن تتحقق كل تلك الخصائص (التي كانت في النبوّة) في قيادة الأمة . والله

المطّلع على الضمائر والسرائر ، العالم بمدى القوى الباطنية والثقافة الدينية ومستوى التقوى عند الإمام ، هو الذي يعلم لمن يودع مصير المعارف الإلهية ، من يمكنه أن يتعهد بذلك ، ولا يغفل ولا لحظة واحدة عن الدعوة إلى الحق وأصول العدالة ، ولا عن حراسة حدود دين الله .

وهذه العقيدة في الشيعة بالإضافة إلى جانبها الربّاني هي أسمى الآمال الإنسانية . أما ما نقول به من عدم مداخلة الناس في أمر الإمام القائد ؛ فذلك بسبب أن الناس لا علم لهم بطهارة الضمائر ومستوى التقوى في الأفراد ومدى القيم الإسلامية والقرآنية عندهم ، ولا يمكنهم أن يدركوا ملكة العصمة عند الأئمة . وعلى هذا الأساس فإنّ تعيين الخليفة من قبل الرسول أو التعريف به من قبل الإمام السابق للاحق، وذلك هو المقياس الأصيل لمعرفة الحقيقة والواقع .

وكذلك يمكن معرفة الإمام والقائد الديني العامّ وإحراز مقام إمامته فيما إذا كان بإمكان مدّعي الإمامة أن يثبت للناس ارتباطه بالغيب وعصمته وإمامته بالإعجاز .

هذان طريقان سلكهما مذهب التشيع للتوّصل إلى معرفة الإمام والهوية الحقيقية للخلافة الإسلامة . وبهذين الطريقين لا يبقى الإمام الحق وراعي الأمة غير معروف في عصره .

ويوجد في المسلمين في مقابل الفكر الشيعي فكر آخر : قالوا إنهم يتّبعون نظام الشورى ؛ ولكن حيث إن نظام الشورى لم يكن له ذلك الوضوح الكافي لتعيين إمام المسلمين منذ البدء، لذلك تمسّك أهل السنّة أصحاب هذه الفكرة لتعيين الخليفة بأساليب مختلفة ، واستقر منطقهم في أمر القيادة على المباني التالية .

١ ـ الإجماع : قالوا : إن مسألة الخلافة الإسلامية تدور مدار اختيار الأمة الإسلامية ، والمقبول من كل ما يقال في الأمر هو اختيار الناس

وانتخابهم ، فإذا اختارت الأمة فرداً خاصّاً لمقام الإمامة والزعامة ثبتت قيادته ولزمت طاعته .

وأقاموا دليلاً لذعواهم هذه سيرة أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد وفاته ؛ أي بما أن أصحاب رسول الله بعد وفاته، حيث عقدوا مجلساً لتعيين الخليفة توصلوا إلى الاتفاق فيه ، فأيد أكثر الحاضرين في سقيفة بني ساعدة صلاحية أبي بكر لإحراز هذه السمة الإسلامية ، وبايعوه على ذلك ، إذن ثبتت خلافة أبي بكر . وعلى هذا فقد تحقق إجماع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على اختيار أبي بكر ، ولم يواجه أبو بكر اعتراضاً عليه من الصحابة . فهذا أحد طرق إثبات الخلافة .

٢ ـ الطريق الثاني لانتخاب الخليفة : بأسلوب الشورى وتبادل الآراء ؛ فإذا اختار كبار الشخصيات الإسلامية في اجتماعهم لذلك وبمشورة فيما بينهم رجلاً لزعامة المسلمين ونصبوه للإمامة وللقيادة ، كان على الأمة الإسلامية أن تقبل بخلافته وتخضع لطاعته .

وهذا أسلوب اتّخذه في صدر الإسلام الخليفة الثاني ؛ بأن رشّح عمر عند وفاته ستة أشخاص لمقام الخلافة على أن يختاروا من بينهم أحدهم لذلك ، وأكدّ على أصحابه أنّ على هؤلاء أن يتبادلوا آراءهم في ثلاثة أيام فيفوّضوا أمر الخلافة إلى أحدهم ، فإن توافق أربعة أو خمسة منهم على أحدهم وقام الباقون بمخالفته فاقتلوا المخالفين منهم .

وقام هؤلاء بعقد مجلسهم حسب وصية الخليفة ، وبعد البحث وتبادل الآراء فوّضوا زمام أمور المسلمين إلى يد عثمان بن عفّان . وهكذا تحقق تعيين القائد من قبل مجلس الشورى لهؤلاء الستة ، وهكذا أثبتت شرعية تعيين الخليفة بهذه الطريقة أيضاً .

٣ ـ أما الطريق الثالث لتعيين خليفة الرسول (صلى الله عليه وآله) : فهو تصميم الخليفة السابق على اختيار الخليفة اللاحق ، بأن ينصب من

أحرز صلاحه لذلك بمقامه . وهذا ما وقع في صدر الإسلام أيضاً، وبه نـال الخليفة الثاني مقام زعامة المسلمين بناءً على تشخيص صلاحيته لـذلك من قبل أبي بكر ، ولم يعترض المسلمون على إقـدام الخليفة الأول وتصميمـه على ذلك بشيء .

هذه هي رؤية أهل السنة في مسألة خلافة الرسول وإمامة الأمة .

ولنا هنا أن نعرض لبعض ما يرد على هذه المستندات من إشكال :

أما بالنسبة إلى المستند الأول ، فنقول :

إنّ القول بضرورة عصمة الإمام وإدراكه العميق ورؤيته وبصيرته النافذة وإحاطته بجميع المسائل الكلية والجزئية في دين الله ، هذا القول مبتنىً على آيات من كتاب الله وأحاديث من سنة رسول الله والتجربة التاريخية . وكل ما حـدث في تاريـخ الإسلام من التعـدي والـظلم والفسـاد والخـطأ والخـطل والغلط ، إنما نشأ من عدم ملاحظة خصائص الإمامة في قيـادة الأمة . ولهذا نقول : لا يصلح لتعيين الإمام أحد سوى الله تعالى ، وحتى لو صمّم جميع أفراد الأمة الإسلامية على انتخاب فرد للإمامة وخلافـة الرسـول (صلى الله عليه وآله) فسوف لا يمنح الإجماع هذا اعتباراً وحجيّة لعملهم هذا .

وفي خلافة أبي بكـر ، لم يبايعـه كل المسلمين كي يتحقق الإجمـاع التام ، وليس بالإمكان أن نغضّ النظر عن هذه الواقعة فنعبرها بسلام ، فإنّه لم يتحقق الانتخاب الحقيقي بشأنه ، فإنّ المسلمين لم يكونوا مجتمعين إذ ذاك في المـدينة ، ولم يشتـرك كـل أهـل المـدينـة في مجلس سقيفـة بني ساعدة ، أضف إلى ذلك أنّ جمعاً من أهل بيت النبيّ (صلى الله عليه وآله) وكثير من الصحابة ،وحتى بعض حضّار ذلك المجلس من أصحاب السوابق الصادقة في الإسلام ،لم يعلنوا ولاءهم للخليفة المنتخب بل أبوا بيعته .

بل إنّ علي بن أبي طالب ، والمقداد ، وسلمان ، والزبير ، وعمّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن عبادة ، والعباس بن عبد المطلب ،

وأسامة بن زيد ، وأبيّ بن كعب ، وعثمان بن حُنيف ، وجمعاً آخرين من كبار الصحابة أبدوا ردود فعل مختلفة على هذا الاختيار والانتخاب واعترضوا على خلافة الخليفة أبي بكر ولم يخفوا خلافهم في ذلك ، فمع كل هذا كيف تحقق إجماع المسلمين حسب منطق العامة المعتقدين بمدرسة الخلفاء ؟

أمّا ما تقولون من عدم لزوم اشتراك كل الناس في اختيار الخليفة ، بل لو صمم جمع من الشخصيات الشهيرة والمعروفة من أهل العلم والفضل والعقد والحلّ كنواة أصلية في تشكيل مجلس شورى ، كان على سائر المسلمين تصويب عملهم وقبوله .

فما هو الدليل على حجية تصميم هؤلاء على سائر المسلمين ؟ ولماذا يكون سائر مشاهير الأمة من أصحاب الفكر والمقبولين لدى الأمة في إطار القيم المعنوية ومن حيث العلم والمعرفة والديّانة والنزاهة والقداسة ، غائبين عن اتّخاذ التصميم الذي له دور كبير في مصير الأمة الإسلامية ، ومع ذلك يكون عليهم أن يخضعوا لإرادة جماعة منهم من دون أيّ قيدٍ أو شرط ؟! .

أما ما تُصرّون عليه من أن خلافة أبي بكر تحققت بهذه الطريقة ؛ فإن وقوع عمل ما حتى في الصدر الأول من الصحّابة لا يكون دليلاً على مشروعيته مطلقاً ، ونحن نقول : ما الدليل على حجيّة هذه الطريقة في الإسلام ؟ أفهل يصبح عمل جماعة من الصحابة في الصدر الأول كظاهرة تاريخية واجتماعية من دون أن يكون مستنداً إلى دليل ـ حجة على الآخرين ؟ .

نعم يُقبل هذا الدليل فيما لو كان مصرّحاً بمشروعيّته إلى جانب الكتاب والسنّة ، كما بيّن الله ذلك في كتابه بالنسبة إلى رسوله بكل صراحة إذ يقول القرآن الكريم : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1] .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .

وليس بأيدينا بالنسبة إلى الأصحاب حجة على صحة أعمالهم بصورة عـامة ومـطلقة ؛ ولا سيمـا مع النـظر إلى اختلافهـم في آرائهم ونـظريـاتهم وتصاميمهم ؛ ومع هذا فبأيّ دليل نرجّح نظرية جماعـة على نظريـة جماعـة آخرين منهم ؟ .

ولا تحلّ المشكلة بالاستناد إلى هذا الحديث المرويّ عن رسـول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : « إنّ أمتي لا تجتمع على خطأ » فإنه إنمـا يمكن الاستنـاد إلى هذه الـرواية فيمـا لو لم يـرد أي نصّ بهذا الصـدد عن الرسول ، وإلاّ لـزم التناقض بين إجمـاع الأمة ومقـال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن الإجماع في مقابل نصّ الـرسول يسبّب إعـراض الناس عن العمل بأوامر الرسول (صلى الله عليه وآلـه) وانصرافهم عنهـا ، وتقديمهم لتصميمهم على أحكامه .

إذن فيجب حصر حجيّة الإجماع على ما لا نصّ فيه (حتى على القول بحجيّة الإجماع) .

أضف إلى ذلك : أن الرسول (صلى الله عليه وآله) إنما قصـد بهذه الجملة ـ على فرض صحتها ـ نفي الخـطأ والاشتباه عن الأمـة فيما لـو كان مسمـوحاً لهـا أن تعمل بـرأيها ومشـورتها وتبـادلت الآراء في جوّ بعيـد عن الضغط ، واختارت رأياً باتفاق آرائها . أما لو مال جماعة من الأمة إلى جهة خـاصة وأرادت أن تحمـل آراءهـا على الآخـرين في جـوّ مليء بـالـدّعـايـة والإعلان ، فلا دليل على صحة تصميم هؤلاء .

أما في مورد البيعة التي وقعت في سقيفة بني ساعدة ، فلو افترضنا أن الله ورسوله كانا قد سمحا للناس بالعمل بنتيجة مشورتهم في الأمر ، فالقضيّة لم تتم بالمشاورة ، بل قام بها أفراد معدودون ؛ وقد نشطوا لذلك أشد نشاط حتى جـروّا إلى جانبهم جمعـاً كثيراً بغيـر سابق إرادة . وهـذه حقيقـة كـان الخليفة الثاني يعبّر عنها فيما بعدُ فيقول :

« إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمّت ، وإنّها قد كانت كذلك ، إلاّ أن

الله قد وقى شرّها »[1] .

إن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) في حياته المليئة بالحوادث كان مهتمّاً بأمر المسلمين ومصالح الأمة اهتماماً بالغاً ، بل كان كلّ اهتمامه منصبّاً على بقاء الشريعة وانتظام أمور الدين والمسلمين غاية الاهتمام ، وكان أحياناً يبدي مخاوفه من حدوث التفرقة في أمته ومن مغبّة عواقب حدوث الاختلاف بينهم . كلما تقدم المسلمون وتصرّفوا ببلدٍ أو مدينة كان أوّل ما يهتمّ به تعيين الأمير الحاكم والقاضي ، وفي الحروب التي كانوا يواجهونها كان يعيّن أمير العسكر من قبل ، بل كان يعيّن الأمير بعد الأمير بدلاً عنه . .

وحينما كان يُريد سفراً كان ينصب حاكماً لإدارة أمور المدينة ، فمع هذا كيف يمكن أن لا يفكّر الرسول في أية أطروحة لانتظام أمور المسلمين بعد حياته ، وأن يترك المجتمع الإسلامي الجديد بلا زعيم ؟ ويهمل أمراً مهماً كهذا الأمر الذي ترتهن به السعادة في الدنيا والآخرة ؟ أفهل من المعقول أن يرسل الله رسولاً لهداية الناس وإرشادهم وتبليغ رسالة الله ، ويقوم ذلك الرسول بتحمّل الآلام والمصائب في سبيل تبليغ القوانين والأحكام ، ثم يترك كل هذا ويمضي إلى ربّه ؟ بأية حكمة وأيّ منطق ؟ من منّا يقبل أن يهمل هكذا نتائج أتعابه ومساعيه بيد حوادث الحياة ؟! .

إذا كانت مدرسة الدّين مدرسة لتربية البشرية ، وإذا كانت قوانينه وأحكامه وسيلة لتسامي الإنسان ، فعليه يجب أن يكون لهذه المدرسة مدير يتمتع بشروط خاصة ، يتمكن بها من أن يؤمّن الحاجات الفردية والاجتماعية المادية والمعنوية لقافلة الإنسانية جمعاء ، فيمكّنها من التسامي والارتقاء . ولا شك في لزوم الحكومة والقدرة لتطبيق الأحكام الإلهية وصيانة أوامر الله ونواهيه ، وكذلك لا شك في ضرورة الإمام والقائد اللائق والواجد لجميع الشروط والمواصفات الخاصّة ، كي يرشد البشرية في طيّها لطرق السعادة

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ :٣٠٨ ط الحلبي . وتاريخ الطبري ٣ : ٢٠٥ ط دار المعارف .

في الدّارين وسلوك سبيل السمّاء ، والتي تقل معرفة الإنسان بها وتكثر وساوسه النفسانية والشيطانية فيها . . وبدون ذلك فسوف يتلوّث وجه الدين والمعين الزلال للثقافة الدينية بما تبثّه النظريات والآراء والأهواء الشخصية من خرافات وتحريفات وبدع ، وبذلك تسقط هذه الأمانة الإلهية من الوحي السماويّ عن درجة الاعتبار ، وسوف لا تصل مدرسة الدين إلى أي شيء من أهدافها في الحياة .

ولو كان الرسول (صلى الله عليه وآله) قد جعل تعيين الخليفة على عهدة المسلمين أنفسهم ، كان عليه أن يصرّح بهذا الأمر المصيريّ المهم ، ثم يبلغّهم كيفية تعيينه من بعده هداية وإرشاداً . . اللهم إلاّ أن لا ترتبط أمور الأمة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) بالله والرسول ! أو أن يكون الناس أكثر تدبراً في ذلك من الله والرسول ! أو أن يكونوا أقوى في تشخيص صلاحيّات القائد ؟! .

فإن كان الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يعيّن خليفة من بعده فلماذا لم يتابعه خليفته الأول أبو بكر؟! وإذا كان قد عيّن فلماذا تركوه ؟! .

لا شك في أنّ الإمامَ يجب أن يتّصف بالإيمان الكامل والديانة التامة والعلم الواسع والمعرفة التامة بقوانين دين الله ، وإلاّ فماذا يفعل المسلمون وإلى من يراجعون فيما يواجهون من مسائل اختلافيّة وما يُبهم عليهم من معضلات معاني القرآن الكريم ؟ ومقال من يلتزمون ويجعلونه لهم سنداً إليه يستندون ؟ . وهنا نلتفت إلى مسألة الخلافة العلمية عن الرسول ونتنبّه إلى ضرورتها الحتمية .

وقد شرحنا قبل هذا الدور الأساسيّ للعصمة وضرورتها في وجود الإمام والرسول الذي يختار الإمام ويعينّه . . وهنا نقول : كيف يمكن للأصحاب ـ وهم بعيدون عن مقام العصمة ـ أن يعرفوا المعصوم كي يختاروه للخلافة ؟! .

أضف إلى ذلك أنّ اختيار الخليفة إن كان من حق المسلمين ، فكيف فُوِّض هذا الحق من قبل عمر إلى ستة أشخاص وحُرم الآخرون من ممارسة حقهم هذا ؟! وكيف تمكن هؤلاء الستة أن يتدخلّوا في مصير سائر الناس وبالاستناد إلى أيّ دليل ؟ وكيف اختصّ حق تعيين الخليفة بهذه العدة اليسيرة من بين سائر المسلمين ؟ وكيف أصبح تصميم هؤلاء ملزماً لسائر الناس ؟!

إن الآية التي تقول : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ لا تثبت شيئاً سوى أنّ من أوصاف المؤمنين أنهم في أمورهم يشاور بعضهم بعضاً ، ولا تشير من قريب ولا بعيد إلى ابتناء إمامة المسلمين على أساس أكثرية الآراء ، وإنّما ترغّب المسلمين في أن يشاوروا في أمورهم بعضهم بعضاً ، أمّا لو انتخب أحد المسلمين للخلافة بمشورتهم وبآراء أكثريتهم فلا توجب الآية الالتزام بما اتّخذ من تصميم من قبل جمع من المسلمين على سائرهم ، والآية ساكتة عن المشورة العامة بين جميع المسلمين . ، فلو كانت الشورى حجة ، وكان المسلمون ملزمين باتّباع آراء المتشاورين منهم ، كان المفروض أن يكون اتّخاذ التصميم في أمر الخلافة بمشورة عامة المسلمين لا خاصّتهم ؛ فضلاً عن ستة منهم .

وعمر نفسه لم يشاور الصحابة في اختيار هؤلاء الستة للترشيح للخلافة ، ولم يتبادل معهم الفكر فيما اتّخذ من قرار بهذا الصدد . ومن قراراته الطريفة أنه جعل حق « الفيتو » للرأسمالي المعروف «عبد الرحمن بن عوف» وهذا مما لا يمكن توجيهه بأيّ ميزان من موازين الحقوق الاجتماعية في الإسلام . أضف إلى ذلك أن الجوّ الحاكم على مجلس الشورى كان جوّاً مليئاً بالتهديد والإرعاب ، فعلى أيّ دليل شرعي صدر الأمر بقتل جميع الأعضاء أو بعضهم فيما إذا لم يتوافقوا على اختيار خليفة من بينهم ؟! .

وكذلك أبو بكر من قبل ؛ فإنه في اختيار عمر لم يشاور الآخرين ، ولم يفوّض أمر الخلافة من بعده إلى الأمة الإسلامية ، بل إنه في اختياره لعمر أقدم بنفسه رأساً ودون أية مشورة .

والمشاورة في أصلها إنما هي في مرحلة ما بعد تعيين الخليفة أو الإمام القائد ، أو صدور أمر منه بتشكيل مجلس للشورى يتبادلون فيه آراءهم في مختلف المسائل الاجتماعية المتغيّرة واليومية ، التي ترتبط بكيفية العلاقات الإنسانية والسياسة التي ينبغي للإمام القائد أن يتّخذها تجاه تلك المسائل والحاجات الاجتماعية ، وعلى أعضاء مجلس الشورى أن يتشاوروا في كل أمر مع أصحاب الاختصاص فيه ، وبعد استقراء الآراء وتجميع النظريات وبالنظر إليها يأتي دور الإمام القائد ليتّخذ القرار الأخير ، بصفته أعلم الناس بالرسالة والشريعة ، ولأنه يتمتّع بين الطبقات العامة بنفوذ الكلمة . وعلى أي حال . . ففي مقام تنفيذ ما يصوت عليه مجلس الشورى يجب الحفاظ على ضرورة التبعية من الإمام القائد ، ويجب الحفاظ على وحدة القيادة ، فإنّ من البديهي أنّ اختلاف الآراء وعدم اتّخاذ القرار الأخير من قبل القيادة يجرّ إلى انفراط سلك الحكومة وضعف الحكومة المركزية . . كما أشار إلى هذا الأمر القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[1] .

ومما يدل على أن الشورى في سورة الشورى ليست لتعيين الإمام الأمين هو أنّ سورة الشورى نزلت في مكة المكرمة ، ولم يكن قد تشكّل إلى ذلك اليوم نظام حكومة للإسلام في مكة ، وفي المدينة أيضاً لم يبتن أمر الحكومة على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) على أساس الشورى .

وعلى هذا فإن «الشورى» في الآية الكريمة التي رغّبت المسلمين فيها ليست في أمر الحكومة والقيادة، بل ترتبط بأعمال الناس وما تواجهه مختلف المجتمعات الإسلامية من مختلف المسائل اليومية . وإن الاستدّلال بالآية لصحة اختيار الخليفة عن طريق الشورى ليس في محله جدّاً ؛ فإن أمر الحكومة والولاية في عهد نزول القرآن الكريم كان بيد الرسول (صلى الله عليه وآله) لا على أساس الشورى ، بل لا محل لها إذ ذاك .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٦ .

وأخرى : أن ما ذكر بعد هذه الجملة من الآية الكريمة : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ هو ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ مما يدلّ على رجحان الفعل بالمعنى الأعم من الإلزام لا وجوب المشاورة والاتفاق .

والآية الثانية جاءت بين سلسلة من الآيات التي تتعلق بغزوات الرسول (صلى الله عليه وآله) ففي بعض الآيات يوجّه الخطاب إلى المسلمين ولا سيما المجاهدين منهم ، وفي بعضها الآخر يوجّه الخطاب إلى شخص الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وفي ضمن هذه الآيات آية الشورى وواضح من لحن الآية بل صريحها أن الأمر بمشاورة الرسول مع أصحابه بلحاظ حصول الرحمة والرأفة منه بالنسبة إليهم؛ والاعتناء والاعتداد بهم وبآرائهم ونظرياتهم ، وإلاّ فلم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) مأموراً مكلّفاً موظّفاً ملزماً بالعمل بآراء المشاورين ، بل يصرّح القرآن الكريم فيقول : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾[1] .

أضف إلى ذلك أن المشورة هنا تتعلق بالحرب، وبالخصوص حرب بدر والأمور الدفاعية والعسكرية . وقد شاور الرسول أصحابه في أن يعرض لقافلة قريش التجارية التي كانت ترجع من الشام برعاية أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وإذا أفلتت فهل يرجع بهم إلى المدينة أو يواجه نفير قريش لإنقاذ تلك القافلة بقيادة أبي جهل هشام بن المغيرة المخزومي ، وهم الطائفة ذات الشوكة والعدة والعدد ، وهم الفئة الكثيرة والمسلمون الفئة القليلة ذات العُدّة الضئيلة؟ فابتدأ أبو بكر بإبداء رأيه الذي لم يرتضه الرسول (صلى الله عليه وآله) ثم ثنّاه الخليفة الثاني عمر فلم يقبل به الرسول أيضاً ، فقام المقداد وقال برأيه الذي قبله الرسول[2] .

وواضح هنا أن الغاية من مشاورة الرسول لم تكن تعلّم الرأي الأقوم من

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر ٣ : ٣-١٤ .

الآخرين ليعمل على أساسه ، بل المنظور تربية نفوس المسلمين ، فرسول الله يريد أن يعلمهم أسلوب المشاورة واستقراء آراء الآخرين واستخراج الصحيح والعمل به منها ، وأن يقّرر بذلك سنة المشاورة بينهم . وعلى خلاف الأمراء وزعماء العالم آنذاك ـ وحتى اليوم ـ الذين لم يكونوا يشاورون الناس من كبرهم ونخوتهم وغرورهم ، أمر أن ينشر على رؤوس أصحابه رأفته ورحمته فيقاول أصحابه في الأمور الجارية فيقيّمهم بذلك ، ويطّلع على آرائهم ونظرياتهم ، في حين أن له القرار الأخير . كما أن الله تعالى كان قد أخبر رسوله في غزوة بدر عاقبة الأمر من قبل ، وكان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قد أبلغ بعض أصحابه بذلك بعد أن شاورهم .

وإن الأمر بالشورى وتبادل الآراء يعني أن نداول العقل والفكر في المشاورة للتعرّف على الطريقة المثلى والأكثر فائدة للعمل بالتكليف ، لا تعيين التكليف (انتبه) ! فإذا كان تكليف الناس معيناً مبيّناً بالنصّ الصرّيح ، فلا وجة حينئذٍ للمشاورة أساساً ، فلا يحق للمجتمع أن يجعل الأحكام الصادرة من الوحي موضع المشورة ، إذ يلزم من ذلك إلغاء بعض الأحكام الثابتة في الشريعة ، كما أن التكليف القانوني لو كان معيناً لم يكن معنىً لتجديد المشورة فيه . وإن خلافة علي (عليه السلام) كانت قد تعيّنت بأمر الله تعالى منذ بدء رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله) وفي غدير خم، وحتى حينما كان الرسول في فراش الموت ؛ فماذا تعني المشاورة في هذه المسألة مع هذا الوصف ؟!

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُه أَمراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الخِيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مبيناً ﴾[1] . ﴿ وربّك يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[2] وعلى هذا فلو كان اختيار الإمام القائد لله تعالى ، وقد اختاره وعيّنه وعرّفه لنا على

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(٢) سورة القصص : الآية ٦٨ .

لسان رسوله (صلى الله عليه وآله) ، فلا معنى لأن نذهب هنا وهناك ، ومع وجود إمكان الخطأ والغلط في اختيار الناس فلا قيمة لهذا الاختيار في مقابل اختيار الله ورسوله . .

وحيث إن دور الإمام هو إرشاد الناس وتنميتهم وهدايتهم إلى سعادة الدارين ، فالطريقة الحقّة لتعيينه هي الطريق الذي يذكره القرآن الكريم بشأن النبوّات ؛ فإن دليل الحاجة إلى الإمام هو نفس الدليل على الحاجة إلى النبيّ والرسول ، والقرآن يقول : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾[1] .

فهداية الخلق على الله تعالى ، وهو الخبير البصير بالإنسان وبما يحتاج إليه في جميع مراحل الوجود وبحسب نظام الخلقة والفطرة ، ومن حاجاته الفطرية الأساسية الهداية التي هي على الله تعالى ، وإنما ينتصب بهذا المنصب من نصبه الله تعالى لذلك ، والآيات القرآنية تشهد بأن الله تعالى فوّض هذه الوظيفة إلى أنبيائه ورسله ولذلك جعلهم أئمة على عباده .

وتعيين الإمام والخليفة لرسول الله ـ كإرسال الرسل ـ إنما هو لبكون هادي الأمة ومقتداها ، ولتكون طاعته كطاعة الرسول لازمة واجبة مفترضة على الجميع ، فلا يحق لأحد أن يدّعي القيادة على عباد الله بدون دليل من الله والرسول ، فيدعوهم إلى اتباعه وطاعته . ولو ادّعاها إنسان من دون دليل شرعي كافٍ لإثبات دعواه أفلا يُعدّ غاصباً لحق من حقوق الله والناس ؟! .

وما يتمسك به أهل السنة من عمل الخليفة الأول أبي بكر لإثبات حق الخليفة السابق في تعيين الخليفةاللاحق ، ففيه إشكال ؛ إذ لو كان يتم تعيين الخليفة من قبل الإمام المعصوم لكان حجة معتبرة ، فالمعصوم يعرف المعصوم وله أن يكل إليه أمر الأمة ويعرّفه إلى الناس ، أما غير المعصوم فلا يحقّ له أن يعيّن الخليفة ويلزم الناس له بالطاعة ، أما الاستناد إلى عمل

---

(١) سورة الليل : ١٢ ـ١٣ .

الخليفة الأول، أبي بكر بهذا الصدد، وأنه أقدم على تعيين الخليفة لنفسه ولم تعترض عليه الأمة المسلمة آنذاك . . فيقال في الإجابة عليه : إن التاريخ ها هو يشهد بما اعتُرض عليه ، ولكنه لم ينفع .

هذه هي أدلة علماء أهل السنة على شرعية هذه الطرق الثلاثة لاختيار خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله) وقد أجبنا عليها بما أجبنا .

* * *

ومن المسائل التي تكلّم فيها علماء العقيدة من السنة والشيعة هو بحث أفضيلة الإمام . فحسب نظرية علماء العقيدة من العامة : حتى لو كان بين الأمة الإسلامية شخصية ممتازة لا يرقى إليها أحد من حيث الفضائل الإنسانية والعلم والتقوى بل العصمة ، مع ذلك يحقّ لآخر ليس له حظّ من هذه المزايا والصفات أن يستند إلى مسند القيادة ويستقل بمقام الإمامة والخلافة عن الرسول (صلى الله عليه وآله) .

ولإثبات صحة هذه النظرية تمسكّوا بقصة خلافة الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر ، وقالوا : مع أنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان بعد رحلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين المسلمين ، وكان كماله وفضائله وجدارته للخلافة متجلّية للجميع ، مع ذلك اختار الصحابة أبا بكر لمقام الخلافة .

ويعتقد الشيعة بأن الإمامة امتداد لخط الرسالة واستمرار لنفس الفيض المعنويّ للنبوّة ؛ فالذي يكون بعد رحلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرجع المسلمين في الأحكام ومعرفة مباني الإسلام ، ويكون على الأمة أن ترجع إليه فيما يستحدث من مسائل لا نصّ فيها من القرآن والحديث ، وأن يجعلوا كلامه ملاكاً ومستنداً ودليلاً وحجة للعمل ، يجب أن لا يكون أي شك في تفوّقه على الآخرين من حيث الكمالات والفضائل ، وأن لا يصل أحد من هذه الجهات إلى مرتبته السامية . وإذا كان لله أن يحكم ويختار إمام

الأمة ومربّي الإنسانية الذي يتكفّل بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ببيان الأحكـام الإلهية وتفسير معضلات معـاني القرآن الكـريم ، ويكون مـرجعاً للأحكام وحارساً للحق وصائناً لكيان الأمة ومعلماً لها بعلوم القرآن الكريم ، فهـو يفوّض هـذا المقام إلى شخصيـة تمتاز بـالعصمة وتكـون في المـراتب المعنوية والجدارات الروحية والعلمية منفـردة في عصرهـا ، ومرتبـطة بعالم الغيب ؛ وذلك ليحفظ لدين الله كيانه الحق ، ويثمر الثمار الصادقة ، وتصل الأمة في ظل تعليماته إلى الكرامة الخالدة والسعادة الأبدية . . وهذا الإنسان السامي ،حيث يشاهد ملكوت السموات والأرض ببصيرته،وحيث هو متوجه إلى ربّه الحق في كل حالاته و آناته ، فلا مجال للخطل في فكره وعقيدته ولا فعله وعمله .

وعلى هذا يكون الإمام أجدر العنـاصر البشـرية في عصـره ، وأسمى إنسان في حياته ، وبالنسبة لمعاصريه .

يقـول الإمام الـرضا (عليـه السلام) وهـو يعدّد خصـائص الإمام في حديث له :

« الإمام : المطهّر من الذنـوب ، والمبرّأ عن العيـوب ، المخصوص بـالعلم ، المـوسـوم بـالحلم ، نـظام الـدين ، وعـزّ المسلمين ، وغيظ المنافقين ، وبوار الكافرين . الإمام واحد دهره لا يدانيـه أحد ، ولا يعـادله عالم ، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير ، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضّل الوهاب »[1] .

وتم الكتاب بعون الملك الوهّاب .

---

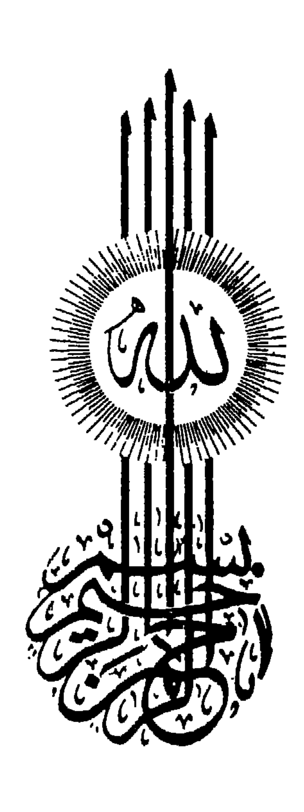
(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٠ ، ٢٠١ ط آخوندي .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


أصول العقائد
في الإسلام


بسم الله الرحمن الرحيم



تأليف
السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الرابع

تعريب
محمد عبد المنعم الخاقاني

حقوق الطبع والنشر محفوظة

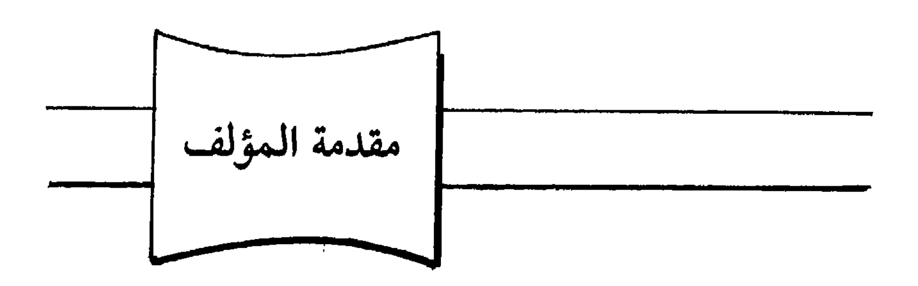
الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ ـ غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم



إن ما يبعد الإنسان بشكل مستمر عن الواقعيات ويلقي به في أحضان المستنقعات المتعفنة إنما هو « الفراغ الفكري والأيديولوجي » .

ونحن نشاهد اليوم تبعثر قسم عظيم من الطاقات المنتجة الخلّاقة تلك التي أشاحت بوجهها وأغمضت عينيها عن أثرى البحار الثقافية وأنقى العقائد الدينية ، ثم ضحت بأفكارها في مذبح الأيديولوجيات الحديثة الشائعة في العالم اليوم .

وتعرض على الأجيال الراهنة المتعطشة والثائرة ومن قنوات مختلفة أفكار ناقصة صاغها على عجل فلاسفة وعلماء محدودون في تفكيرهم ، وتبدو هذه الأفكار في الظاهر أنها مفيدة وتلبي مطالبهم ، ولكنه في ظلها لا العالم يصبح ذا معنى ومفهوم ولا الحياة تغدو ذات هدف وغاية .

ولن تكون أمثال هذه الاتجاهات ذات البعد الواحد غذاء صحيّاً ونافعاً

لتلك العقول الحساسة ، بل وحتى ليس من المناسب عرضها في جو لم يمت فيه العقل والمنطق .

ولا شك أن ما نلاحظه من ألوان الظلم والقسوة والعذاب والاضطراب مما يملأ الساحة التاريخية هو ناشىء من التناقض الذي يملأ العالم ويغطي حياة الإنسان .

ونحن نعتقد أن للإسلام وعقيدة التوحيد التي تتضمن تحليلاً فلسفياً وعلمياً شاملاً وعميقاً للعالم الواقعي والأمور الخارجية ، والتي تتناول الإنسان بكل أبعاده لتفهمه وتعالج أدواءه ـ نعتقد أن للإسلام قدرة وطاقة يستطيع بها أن يحل التناقضات الفكرية من جذورها ، وأن يقود الإنسان نحو البناء والاستمرار في التحرك الأصيل الباني للمستقبل ، ونعتقد أن أي عقيدة وإن كانت أسسها عالمية وجذورها خالدة فإنها تحتاج إلى عرض جديد تقدم به إلى الجيل الحديث بحيث يتناسب مع مقتضيات ذلك العصر .

ولهذا السبب فإنه لا بد للعلماء والمفكّرين والمدركين لروح العصر الذين يحسون بالحاجة الملحة للبحث حول الأمور الأساسية لمواجهة ما يملأ دنيا العلم والفلسفة من جديد ـ لا بد لهؤلاء من الالتفات والتعمّق في المسائل المختلفة معتمدين على المصادر الإسلامية الأصيلة ، ودارسين إياها بشكل جاد وواسع ، وذلك ليظهروا الوجه الناصع للحقائق كما تقتضيه الرؤية التقدمية الشاملة للإسلام ، وعندئذٍ يطّلع العالم على الأسس الفكرية للإسلام .

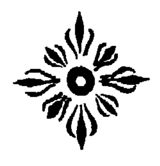
وهذا الكتاب هو بحث مضغوط سعينا ما أمكننا لنستعرض فيه « أصول العقائد » الإسلامية بشكل حي وبصورة تقييمية ، بحيث يشتمل على الناحية الاستدلالية ، ولا يبتعد في نفس الوقت عن البساطة والوضوح في التعبير .

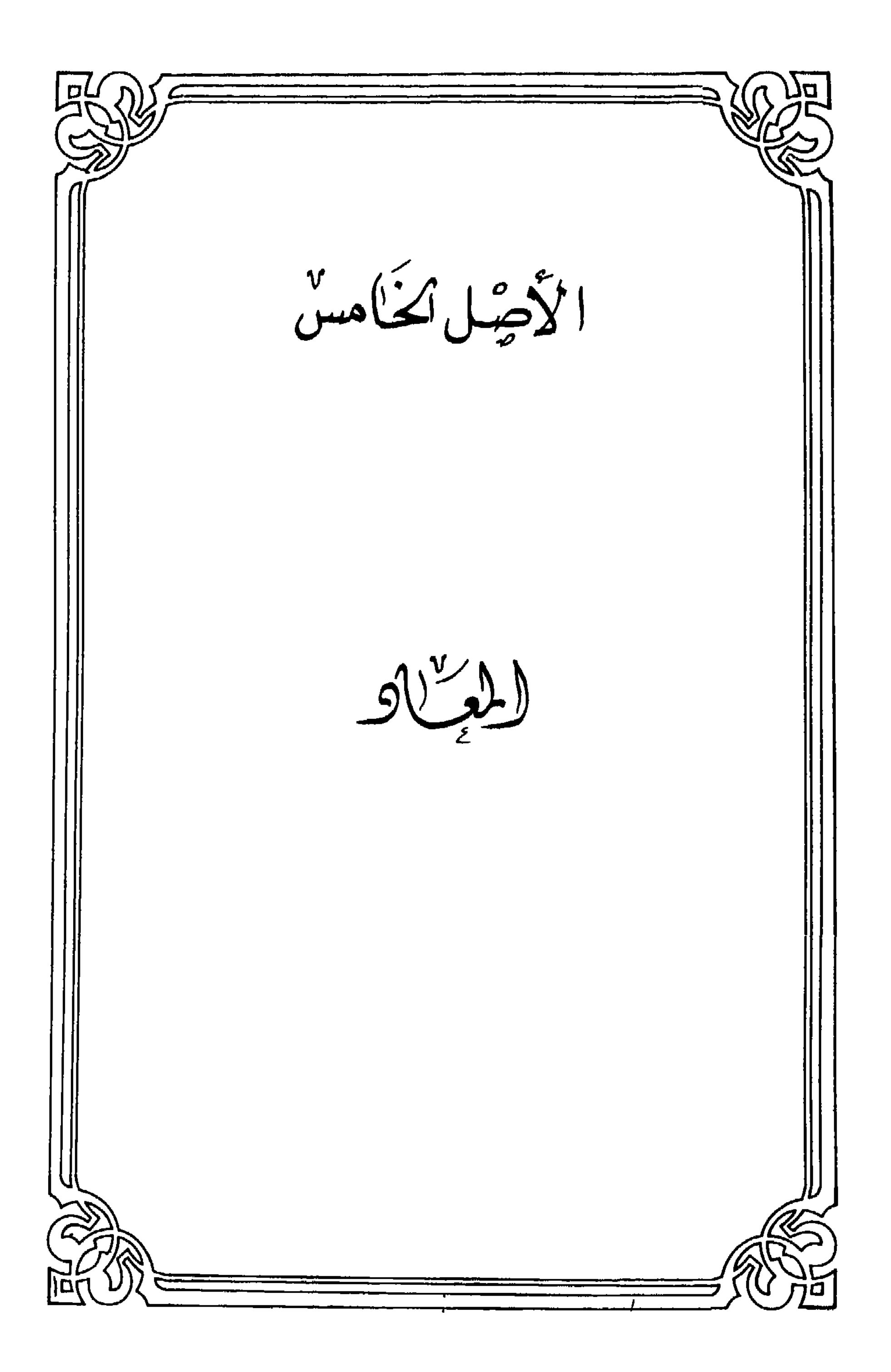
وكان الهدف المهم من وراء هذا الكتاب هو أن يخرج بحجم صغير لتسهل الاستفادة منه ، ولهذا فقد أحجمنا عن التبسط في نقد آراء ونظريات الفلاسفة والعلماء .

وهذا هو الجزء الثالث من الكتاب المذكور وهو يشمل موضوع « المعاد » نـرجو أن يكـون خطوة ولـو قصيرة في طـريق توضيـح نـظرات الإسـلام في المسائل الأساسية (الخفائض) .

ومن حسن الحظ أنـه قد تمت تـرجمة الجـزءين الأول والثـاني من هـذا الكتاب إلى اللغة العربية وبعض اللغات الأخرى ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

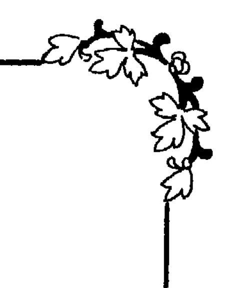
السيد مجتبى الموسوي اللاري





الأَصْلُ الخَامِسُ

المَعَادُ



تصوير الموت بشكلين مختلفين

صحيح أن ظاهرة الحياة أغلى المواهب وفقدها باعث على الغم والفزع ، ولكنه لا شك أيضاً أن الإنسان ـ شاء أم أبى ـ يضع أقدامه في هذا العالم ليبدأ حياته فيه ثم يقيم قليلاً في هذا الممر ليواجه في خاتمة المطاف الموت بشكله المؤلم الموحش ، وعندئذٍ تنطوي صفحة حياته .

إن عالمنا هو عالم اللاثبات وعدم الاستقرار ، فلا تتوقف فيه عجلة التوالد ، ولهذا فإنه لا ينبغي أن يتوقع أحد وجود شيء يعلو على التغيير في عالم التوالد والموت ، فكل ما يوجد فيه فهو يقطع الطريق الذي ينتهي به إلى الموت سواء أكان إنساناً أم موجوداً آخر من الموجودات التي تملأ هذا العالم ، وعلى أي حال فإن كل ظاهرة تتحرك في إطار المادة فهي إلى زوال لأن صفتها المشخصة لها تجرها في النهاية إلى الفناء ، ويسمع في الأفق رثاؤها الذي يعلن نهاية عمرها .

ونرى من اللازم قبل كل شيء أن نتناول مسألة نهاية الحياة بالتحليل والتفصيل ونحاول الجواب عن الأسئلة المطروحة في هذا المجال .

فهل الحياة مقصورة على هذه المرحلة الأرضية التي تقع بين الولادة والموت ؟ وهل تتلخص في هذه الفترة الزمنية التي يملأ فيها القادمون إلى الدنيا مكان المغادرين لها باستمرار ؟ وهل يصح لنا أن نتصوّر أنه لا حقيقة

لوجود آخر غير هذا الوجود ذي الأبعاد الثلاثة ، ثم تختم شخصيتنا وخصائصنا الفردية بخاتم العدم ؟

أم هناك ـ حقاً ـ غد للإنسان وراء هذه الحياة يحس فيه بعالم جديد ، وتتبدل السمات الفيزيائية لهذا العالم إلى سمات جديدة ومتكاملة لعالم آخر ، أي أن هناك هدفاً ربانياً من وراء هذه الظواهر التي تأتي وتذهب ، تحيا وتموت ؟ وهذا يعني أن الإرادة الإلهية قد تعلقت بإيجاد الإنسان ـ الذي هو خليفة الله ـ ليعيش على هذه الأرض بشكل مسافر ثم يرتحل عنها إلى عالم آخر يخلد فيه .

لو فسرنا الموت بالشكل الأول لأصبحت الحياة في جميع الظروف باعثة على الألم ، ومولّدة للفزع ، لأن الإحساس بالعدم والفناء يغرق الإنسان في الخوف ويشل نشاطه ، ولا يستطيع أحد أن ينكر النتائج السيئة المترتبة على هذا الوضع .

ولكننا إذا نظرنا إليه من الزاوية الثانية ، أي بنظرة الإنسان المتمسك بعالم ما وراء الطبيعة . وهو ينظر إلى هذا العالم من ذلك المستوى الرفيع ، ويعتقد أن الحركة التوحيدية ـ التي توجد بين الإنسان والعالم ـ لا تتوقف ؛ وأن الموت ليس سوى كسر لقفص الجسم الضيق والتحرر منه للانتقال إلى أفق أوسع وعالم مثالي تشرئب إليه النفوس فإن الموت حينئذٍ لا يكون سوى تغيير للقالب واللباس ، فبالموت يتخلى الإنسان عن هذا اللباس الترابي ليرتدي اللباس البرزخي ، ثم يعرج من هذه المرحلة إلى مرحلة أرفع ويحلق نحو اللانهاية ؛ وعندئذٍ يقذف اللباس البرزخي ليتشح باللباس الأبدي .

فنهاية هذه الحياة بالنسبة للإنسان الذي يتمتع بهذه الأفكار الرفيعة القيّمة ليست سوى تحوّل مليء بالخير ، تحوّل يستعيد فيه كل شيء هويته الخاصة ويتجرد فيه عن كل الشوائب .

يقول العالم الفرنسي الشهير (الدكتور كارل) :

« إن جواب الدين للاضطراب الذي تعانيه البشرية أمام سر الموت مقنع أكثر بكثير من الجواب الذي يقدمه العلّم ، فالدين يقدم للإنسان جواباً يحبه قلبه »[1] .

إذن من الطبيعي أن يشعر الذين يعتبرون الموت خاتمة لجميع أبعاد وجودهم ، ويظنون أنه لا وجود لشيء وراء هذه الحياة ـ من الطبيعي أن يشعر هؤلاء بمرارة لا تفوقها مرارة لفكرة ترك الدنيا .

ولكنه في رؤية الذين يعتقدون أن هذه الدنيا ليست سوى ألوان متعددة من اللعب كالألعاب التي يستغرق فيها الأطفال والفنانون، وأن الارتحال من العالم المادي ليس سوى ارتقاء وعروج نحو اللانهاية، فإن الموضوع سيتغير بأكمله وتتبدل صورته بحيث لا تزول عن الموت صورته الموحشة المخيفة فحسب ، بل هناك عاشقون يبذلون قصارى جهودهم لكي يتحرروا من هذا الجسم الترابي ويظفروا بـ « وصاله » جل وعلا ! .

إن مثل هذه النظرة للموت تحمل الإنسان على الاستبسال والتضحية بروحه في سبيل أهدافه النظيفة ، من أجل أن يفر ممّا يجر عليه الاستعباد كما تفر فراشة تحررت من السجن .

فذلك هو المقاتل في الساحة التي تفوح منها رائحة الدماء يفضل الموت الأحمر ويذبح رغباته ودوافعه من أجل أن يصل إلى غد يتميز بالعزة والرفعة ويحقق آماله الخيرة .

لماذا يقدم على هذا ؟ .

لأن لحياة الإنسان ـ من وجهة نظره ـ بعدين ، أحدهما مادي يخضع للظروف الحيوية والضرورات الاجتماعية ، والآخر روحي معنوي حيث ينطلق الإنسان في هذا البعد للتفكير والإبداع فينمي آماله ويحققها في الخارج بشوق وحماس ، ويخضع مصير مجتمعه وحتى التاريخ لإرادته .

---

(١) طريق الحياة واتّجاهها ص ١٤٢ (بالفارسية) .

ومن العوامل التي تجعل الموت مخيفاً دافعاً لـلاضطراب قلة الـوعي وضآلة المعرفة، فيظهر الموت بشكل كابوس رهيب .

« دخل الإمام الهادي (عليه السـلام) على مريض من أصحـابه وهـو يبكي ويجزع من الموت فقـال له : يـا عبد الله تخـاف من الموت لأنـك لا تعرفه ، أرأيتك إذا اتسخت وتقذرت وتأذيت من كثرة القـذر والوسـخ عليك وأصابك قروح وجرب ، وعلمت أن الغسل في حمام يـزيل ذلـك كله ؛ أما تـريد أن تـدخله فتغسل ذلـك عنك ؛ أو مـا تكره أن لا تـدخله فيبقى ذلك عليك ؟ قال : بلى يابن رسول الله ، قال : فذاك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيئاتك ؛ فإذا أنت وردت عليـه وجاوزتـه فقد نجـوت من كل غمّ وهمّ وأذى ووصلت إلى كـل سـرور وفـرح ، فسكن الـرجـل واستسلم ونـشط وغمض عـين نـفسـه ومـضى لسبيله »[1] .

ومن جهة أخرى فإن المنكر للمعاد ينظر إلى الإنسان من زاوية واحدة فهو يفرضه موجوداً تائهاً في إطار المادة ، ويظن أن كـل وجوده يتلخص في هذا الجسم الترابي وفي هذه اللحظات القصيـرة لهذه الـدنيا ، وتؤدي هـذه النظرة إلى الوضع المحزن السائد في عالمناالمعاصر، حيث تعتبر حياته لعبة بيد عوامل عديدة بعضها معروف وأكثرها مجهول ، وهو يفتح عينيه على هذا العالم والألم رابض في أعماقه ، ثم يمسك نفسه أياماً فيه خاضعاً لألوان من الظلم والاستعباد ، ثم يمضي ليعانق الموت ويضيع في أمواج الفناء .

حقّاً إنها لحياة منغصة ، والبقاء في هذا العالم يصبح أمراً كريهاً ، وكل من ينظر إلى مصير الإنسان بهذا الشكل فإنه ينتهي إلى نفس النتيجة بالنسبة للوجود بأجمعه ، فهو لا يقتصر على كون الإنسان غارقاً في العبث والظلم بل كل موجود ما دام لم يبتلعه الفناء فهو يقطع طريق العبث واللاعدالة في هذه الأيام المتصرمة ، فالكل محروم من العـدالة ، من الإنسـان الذي لا يـدخر

---

(١) معاني الأخبار ص ٢٩٠ .

وسعاً في سبيل بقائه ، إلى الحيوانات المفترسة والسامة ، إلى الأمطار الغزيرة التي تكتسح الديار إلى الفاضانات التي تخرب المدن ، إلى الزلازل التي تهدم البيوت على رؤوس أصحابها إلى . . .

ن كل هذا العالم ظاهرة غير مشروعة ، وهو مجموعة من الأمور العابثة الظالمة .

وهذه رؤية من قطع كل صلة له بالوجود الأبدي الأزلي ، الذي هو منشأ كل الموجودات ، ولا شك أنه قد ارتكب بهذا خطأً فادحاً لا بد أن يدفع ثمنه ، ولمثل هذا الشخص تكون الأمراض والحرمان . والعجز عن تحقيق الآمال والوصول إلى الأهداف والمناصب ، أو فقدها والخوف من المستقبل الغامض المظلم ـ كل هذه تكون من العوامل المحطمة لروحه والمفجرة لعذابه .

يقول الكاتب الفرنسي الشهير (فيكتور هيجو) :

« حقاً إن الإنسان إذا فكّر في العدم واعتقد أن بعد هذه الحياة ليس إلا العدم المطلق فالحياة بالنسبة إليه لا تكون لها أية قيمة .

إن الذي يجعل حياة الإنسان سائغة وطيبة ويجعل عمله مفرحاً ساراً ، ويمنح قلبه الدفء ويوسع آفاق رؤيته ، إنما هو ذلك الشيء الذي يصله عن طريق الوحي والدين ، أي الاعتقاد بالعالم الأبدي وبقاء الإنسان ، والإيمان بأنك أيها الإنسان لا تفنى بل أنت باق وأنت أكبر من هذا العالم الذي ليس هو بالنسبة إليك إلا مقراً صغيراً موقتاً ، إن هذا العالم مهد لمرحلة طفولتك ، أما مرحلة نضجك وعظمتك فإن لها عالماً آخر » .

لقد أصبح الإحساس بالعبث وعدم الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة الدنيا بعثاً وحساباً وكتاباً عاملاً للرعب وتحطيم شخصية إنسان عصر الرقي والعلم والتكنولوجيا ، الذي يكرّس كل جهوده لتنمية بعد واحد من أبعاده وهو المتعلق بالحياة المادّية، حيث يعدها هدفه الوحيد وغايته القصوى .

إن هـذه المكتسبات التي كـان ينبغي أن تنقذه من كثيـر من الأخـطار والأخطاء وأن تحرره من القيود والأغلال ، قد سلبت منه الاستقرار والطمأنينة وألقت به في لجج الاضطراب ، فدنيانا اليوم قد أصبحت ميـداناً يتقـدم فيه الإنسان بجنون في جهة واحدة وهي جهة الظفر بالقوة والرخاء ، فقد اعتبـر ذلك المصدر لسعادته والغاية لجهوده .

ونتيجة هذه النظرة الضيقة التي تعتبـر العالم لا مدبر له،وأن الإنسان متروك لنفسه يفعل ما يشاء هي أن الدنيا قد امتـلأت بالخـوف والمذابـح ، وتزكم الأنوف رائحة الدماء في كل جانب من جوانبها الموحشة .

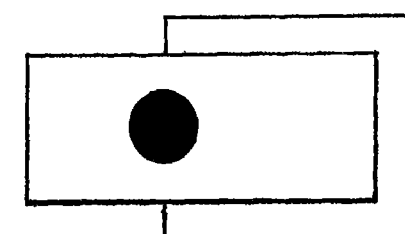
وقد انتهى المطاف بهذا الإنسان إلى هذا الحد فأصبح غريباً عن نفسه وتحوّل إلى موجود يمتلىء حقداً وحسداً وإيذاء وحرصاً ، ولسنـا ندري إلى أي شيء يصير فيما بعد ، ويعتبر ظهور المذاهب الفلسفيـة الحديثـة علامـة على إحساسه بالألم الممض والفراغ الفكري والمعنوي العميق .

يقول العالم الكبير والأستاذ الشهير (يونج) :

« إن ثلثين من المرضى الذي يترددون عليّ من جميع أرجاء العالم هم من المثقفين والناجحين في حياتهم ؛ ولكن هناك ألماً عظيماً يعذّبهم وهو خلوّ الحياة من المعنى وعبثيتها ، والحقيقـة هي أن التكنولـوجيا وجمـود التعاليم والتعصّب وقصر النظر قد حرمت إنسان القرن العشرين من الدين ، ولهذا فهو يبحث الآن عن روحه ، وما لم يظفر بالدين فإنه لا يستقر ، فاللادينية تؤدي إلى العبثية وإلى فقدان الحياة معناها »[1] .

---

(١) صحيفة « كيهان » العدد (٨١٩٦) .



رؤيتان في مجال لذات هذا العالم

لا يستطيع الإنسان أن يقف في مقابل خطر تفتت شخصيته المعنوية وأن يقيم سداً محكماً للحفاظ عليها إلا إذا وصل إلى اليقين الديني والتصديق بالوحي ، الذي يتضمن أن عذابنا وفرحنا لا يذهب هدراً ولا يزول من صفحة الوجود. فنحن لا نتّجه نحو العدم، بل نحن نتحرّك دائماً نحوه سبحانه ، وهذا يعني أننا نبقى في هذه الأرض بصورة موقتة حتى يحين يوم المعاد فنبعث من قبورنا ليوم الحشر ، وننتقل من ضيق الأرض إلى فسحة المقر الأبدي فنجاور في ذلك المنزل الخالد رحمة الحق وألطاف ذلك الوجود اللانهائي المعطاء .

فالإيمان بوجود الحقيقة الأزلية هو الذي يمنح الإنسان القيمة والكرامة، وهو الذي يستطيع أن يصوغه صياغة رفيعة ، وبدونه تفقد الطبيعة ـ بكل عجائبها وأسرارها ـ أي معنى ، ولهذا فإن الإنسان إذا ظفر به فإنه تستقر نفسه ويطمئن قلبه .

يقول المفكّر الفرنسي (جان بدن) :

« عندما يقوم الإنسان بتصفية أفكاره وبالابتعاد عن النزوات والشهوات التي تؤذي روحه فإنه يرتفع عن الأمور العادية ويتجه نحو جمال الطبيعة ، فيلتذ من تنوّع الأحياء ومن التأمل في النباتات والمصادر الطبيعية ، فيلاحظ

كيفياتها وأشكالها ، ويـراقب اتصالاتهـا وصراعـاتها ، ويلتفت إلى تسلسـل علاقات العلية الموجودة في كل ظاهرة طبيعية .

وإذا تجاوز هذه المرحلة الأولى فإنه يحلّق بأجنحة الفكر والخيال في السماء ليدرك عظمة وجمال وجلال الأجـرام السماوية، فيشاهد ما فيهـا من حركات هائلة وما بينها من فواصل عظيمة ، ولينصت إلى النغم البديع الذي ينطلق من كل أرجاء العالم ، وعندئذٍ ينغمس كل وجوده في لذة عميقة وشوق متأجج للوصول إلى العلة الأولى والخالق المبدع الذي فجّـر في نفسه هـذا الينبوع من الجمال ، ولكنه يعرف أن قدرة هذه العلة وعقلها وإحسانها وقوتها غير متناهية ولا يمكن الإحاطة بها ، وعندئذٍ تهدأ نفسه ويرتاح باله »[1] .

فإذا اعتبرت الدنيا مكاناً للامتحان ، والآخرة استمراراً لهذه الحياة إلا أنها في مستوى أرفع ، وعد الجسم جهـازاً للتنفيذ ووسيلة لـظهور الـطلبات والرغبات ، فإن إنسانية هذا الفرد لا تنحصر في إطار مغلق بل تحلق في آفاق واسعة وتعرج إلى مستويات رفيعة ، وبهذا يكون قد أضفى على حياته معنى واقعياً .

ولو أننا قمنا بتقييم لتأثير الإيمان بالآخرة في المحافظة على الاستقرار الاجتمـاعي والحيلولة دون اتّسـاع أمـواج الفسـاد والخيـانـة والتجـاوز على القانون ، لوصلنا إلى هذه النتيجة التي تؤكـد أن الاعتقاد بـالمعاد هـو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تكف نفس الإنسان الجامحة عن ارتكاب الجـرائم والذنوب ، وتكـون درعاً يحفظ الإنسـان من هجمات الأهـواء . ومثل هـذا الإنسان يتبع من دون رياء مجموعة من الأسس الأخلاقية الصحيحة التي يؤمن بها وينفذها بمراقبة من ضميره دون حاجة إلى ضغط خارجي .

وأي شيء آخـر من قبيـل ارتفـاع المستـوى الثقـافي والاقتصـادي والتكنولوجي وتعدد واتّساع المؤسسات القانونية فـإنه لا يستـطيع بمفـرده أن

---

(١) من كتاب (طلائع الفكر السياسي) ج ٢ ص ٧٥ (بالفارسية) .

يحقق لنا ذلك الهدف المطلوب ، ومثل هذا المجتمع لا يمكنه الظفر بوضع متزن متعادل .

ونحن اليوم نلاحظ التيارات الكاسحة والمتزايدة من الفساد واللاعدالة والقسوة تنتشر في البلاد الغنية جداً من حيث الثقافة والاقتصاد والمؤسسات القانونية، ومع أنها تمتلك جهازاً بوليسياً منظماً وأجهزة دقيقة، وفرتها الثورة العلمية والصناعية ومكنتهم من السيطرة على القوى الاجتماعية المختلفة، إلا أنها لم تستطع أن تمسك زمام النفس الجامحة ، ولا استطاعت أن تحول دون عوامل التخريب والانحراف ، فاتّسعت أمواج الفساد وتحدت تلك الأجهزة الدقيقة التنظيم التي فشلت في أن تحل محل الإيمان القادر على تهذيب النفوس والحيلولة دون الانحراف .

وفي هذا العصر ليسوا قليلين أولئك الذين ملّوا الأوضاع السائدة في مجتمعاتهم ، وهم يرزحون تحت ثقلها ولكنهم عاجزون عن تقديم أي شيء في سبيل تحسينها ، بل هم لا يستطيعون تعيين مصيرهم في المستقبل أيضاً .

فالمجتمع الذي تحكمه الثقافة المريضة لا بدّ أن يكون مليئاً بالدناءات والأشياء المحزنة ، والثقافة المريضة تعني انعدام الهدف والتشاؤم والاعتقاد بعبثية الحياة، ومن العلامات الواضحة لهذه الثقافة هي الضياع الفكري. وكل الحلول المطروحة من قبل الاتجاهات المنحرفة لرفع الاضطرابات المتفشية في هذا المضمار إنما هي عقيمة وغير مثمرة .

فالعلم الحديث علاوة على أنه قد أبعد الإنسان عن كثير من المجالات ، وقد تركت هذه الظاهرة أثرها الواضح على الإنسانية بأجمعها، فإنه يكون مفيداً للإنسان بمقدار ما يتمتع به من عقيدة سليمة ، ويصبح ضاراً له بنفس النسبة التي يتخلى فيها عن العقيدة المستقيمة ، وذلك لأن الإنسان لا يستنتج دائماً من علومه نتائج منطقية ، ومن هنا إذا أردنا للحضارة العلمية

أن تكون منتجة ومفيدة فلا بد من إنماء الإيمان الحقيقي المتعقل في موازاة النمو العلمي والثقافي .

وفي هذه الدنيا التي نشعر فيها بضرورة إحياء الفضائل فإن القدرات الإنسانية تتعرض للاختبار إزاء المتاع الدنيوي ، وهذا الإيمان بالمنزل الأبدي هو الذي يوسّع أفق هذا الشخص ويعرض أعماقه لتحوّلات كيفية ، وهي تتّسع كالأمواج التي يعقب بعضها بعضاً ، حتى يصل إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يسيطر على رغبات نفسه وحرصه المجنون ، ويخمد الشرر الناشىء من ذلك للظفر بالفوائد المنتشرة في ميدان الحياة الواسع ، ويتحكّم في جميع قواه وإمكانياته ، وبالتالي فهو ينتظر الجزاء الرفيع ، ويحذر العقوبة المؤلمة فيكف نفسه عن الاتجاهات اللامعقولة في الاستغلال المادي. وذلك لأنه يعلم أنه يقيم هنا في عالم الفناء ويمر بهذه الأرض كما تمر القافلة المسرعة ، وعندما يغادر هذا القالب الجسمي الذي هو مظهر العمر غير الباقي ويفر من جو الأرض الضيق ، فإن أبواب العالم الآخر تنفتح أمامه وتتوفر له نعم لا يقاس إليها أبداً ما في هذا العالم من خيرات .

وما دام الإنسان في هذه الدنيا فإن قلبه لا يكف عن التمني ، ومع هذا فهو عند ما يلجأ إلى الإيمان ويعرف أن الفرص في هذه الدنيا محدودة والأرباح فيها ضئيلة،وحتى إذا ظفر بها فإنه لا يستطيع الاحتفاظ بها بشكل دائم ، وأن الأفراح والملذات الحقيقية لا تقتصر على هذه الفترة القصيرة فإنه حينئذٍ لا تستولي عليه الرغبات المتلاحقة فتستعبده وتحطّم ذاته ، ولا ينتابه الحزن والغم لأنه لم تصل يداه إلى مقدار أكبر من اللذائذ والنعم .

ولا يكون موقفه من الأرباح المادية موقف المتعجل المصاب بالاضطراب وعدم الاستقرار، الخائف من انتهاء الرزق قبل الموت ، وذلك لأن هذه الأرباح تعتبر هدفاً عند عبيد الدنيا، بينما يستغل المؤمنون بالآخرة خيرات هذه الأرض بعنوان أنها وسيلة للوصول إلى المقصد النهائي .

وعلاوة على هذا فإن مواجهة ما في هذه الدنيا باللامبالاة وعدم الاعتناء

يؤدي بالإنسان إلى الاستقرار ، ولا شك أن الهـدوء النفسي يضيف لذة إلى لذات الحياة الحاصلة في ظل الموازين الدينية .

يقول (جان جاك روسو) :

« أنا أعلم بأنني أسير نحو الفناء ، فلماذا أوجد لنفسي تعلقات في هذا العالم ؟ أن كل شيء في هذا العالم يتغيّر ويمر مرّ السحاب ، وأنا أيضاً سوف ينتهي دوري بسرعة ، فماذا ينفعني التعلّق بالأشيـاء ؟ يا ولـدي « أميل » لـو افتقدتك فلأي شيء أنا باقٍ عندئذٍ ؟ ولكنه لا بد لي مع هـذا أن أعد نفسي لهذه الحادثة الفاجعة ، لأنه لا يستـطيع أحـد أن يطمئنني على أنني سـوف أرحل عن هذه الحياة قبلك .

إذن إذا أحببت أن تعيش حيـاة سعيدة ومتعقلة فـاجعل قلبـك متعلقـاً بـالأشياء الجميلة التي تستعصي على الفنـاء ، وابـذل كـل جهـودك لتكـون طلباتك محدودة وواجباتك مقدمة على كل شيء ، وابحث فقط عن الأمـور التي لا تخالف قانون الأخلاق ، وعوّد نفسك على فقد أي شيء من دون أن تتألم عليه ، ولا تقبل شيئاً من دون أن تستفتي ضميرك ، وعندئذٍ سوف تكون بالتأكيد سعيداً ، وسوف لن تتعلق بأشياء الأرض تعلّقاً شديداً »[1] .

أجل ، عندما تفيض روح الإنسان بالإيمان الحق وتطمئن بأنها خالدة فإنها تحس بقوة متزايدة وقدرة عجيبة ، وفي هذه الأثناء يشعر أنه مستغن عن التعلّق المطلق بالقيم الأرضية غير المستقرة ، وهو يصبح في الواقـع مالكـاً للعالم ، ويشعر باطمئنان يمنحـه الصمود أمـام الرغبـات النفسية والمـظاهر الخداعة لهذا العالم ، وحينئذٍ لا صوته يرتفع متألمـاً عندمـا يواجـه نقصاً أو حادثة مفجعة ، ولا يقع فريسة للغرور وعبادة الـذات عندمـا يحقق نصراً أو يواجه أمـراً مفرحـاً ، وكل الأشيـاء التي تدفـع الآخرين ليضيّعـوا أنفسهم لا يمكنها أن تؤثر فيه أثراً غير مستحسن .

---

(١) أميل ، نقلاً عن الترجمة الفارسية ، ص ٥٤٧ .

ومن المؤكد أن من الميزات المنحصرة والقيمة للإنسان المؤمن بأصل المعاد شعوره بأن مستقبله مبني ومتوقّف على كيفية أعماله في هذه الحياة ، ولهذا فإن أعماله تكون صادقة لا رياء فيها ، خالصة نظيفة لا غش فيها .

ومثل هذا الاعتقاد علاوة على أنه يرفع العمل من ناحية الكيف فإنه يزيده من ناحية الكم أيضاً ، فكلما كان محتوى هذه العقيدة أغنى كان مستوى الإخلاص فيه أعلى، حتى ينتهي الأمر إلى إدراج أي حركة في إطار النية الخالصة .

فهو يشعر أن أعماله تخضع للمراقبة الشديدة ، وكل عمل يقدم عليه ـ سواء أكان خيراً أم شراً ـ فإنه يسجّل في ملفه ثم يحفظ ليدقق في يوم الحساب ، ومن الواضح أن من يسجل عليه لا يغيب عنه أي شيء .

أما من خلا قلبه من الإيمان باليوم الآخر ، وهو ينظر إلى أصدق الواقعيات بنظرة سلبية، لأنه يظن أنه لا يوجد حساب في نظام الوجود على الأبعاد المختلفة لأعماله ، فإذا أوقد اليوم ناراً فإنه لا يحترق بلهيبها غداً ، وإذا امتدت يداه اليوم إلى الإفساد فإنه لا يجد نتائجه الوخيمة في المستقبل فإنه يعيش في بحر من الأوهام، وترتفع حوله أمواج من الأخطاء، وتمتد عيناه إلى ألوان من الرذائل ، بينما هو ينظر إلى الفضائل النفسية القيمة نظرة باردة لا روح فيها .

وحتى إذا أقدم مثل هذا على عمل عظيم فإن المستقبل الأعمى الذي لا هدف له ـ حسب نظرته ـ سوف لن يعرف له قدره ، ولهذا فهو يسمح لنفسه أن يقف موقف اللامبالاة إزاء الفضائل والأمور العاطفية ، ولا يعير بالاً للصفات الإنسانية الممتازة .

وكذا في مورد الخيانة وارتكاب الجرائم ، فإنه إذا لم يقع في شباك المقررات الاجتماعية فهو لا يشعر بأي مرجع آخر يحاسبه على انحرافاته وجرائمه، ويوصله إلى ما يستحق من جزاء .

والنقص الأساسي في القوانين البشرية يكمن في هذا الأمر ، حيث يعلنون أن الحياة الإنسانية تنتهي بالموت، ويخططون كل أمورهم على أساس الرغبة العاطفية للأكثرية ، أما الشرائع السماوية فإن لها مسلكاً آخر مبنياً على أساس كون الحياة البشرية أبدية لا تنقطع بالموت ، ولهذا فإن المنهج الذي تعلنه هذه الشرائع يسير حسب هذا الاتجاه الفكري .

ولا بد هنا من التأكيد على أن العلم والفكر البشريين لا يستطيعان النهوض بالدور الذي ينهض به الدين في صياغة الأبعاد الرفيعة في وجود الإنسان، وإيجاد التغييرات الجذرية في نفسه، والسبب في سقوط الناس في هوة الابتذال ووجود الاضطرابات الاجتماعية ناشىء من نفس هذا النظام الفكري ، وكامن في عدم انسجام هذه المفردات مع أعماق الفطرة الإنسانية .

وبناء على هذا فإن الإنسان المتديّن ينفذ المقررات التي آمن بأنها من الحكم الخالدة، ويبدأ حركته نحو العالم الباقي متعالياً على الزمان، ومثل هذا الإنسان أرفع من أن يقيم بمنظار العلم البشري المحدود .





البعث بعد من أبعاد الحكمة الإلهية البالغة

لا ريب أن الحركات والمحاولات الإنسانية المختلفة توجد تبعاً للدوافع الباطنية ، فجهودنا في الأبعاد المتنوعة إنما هي تحقيق لنياتنا ورغباتنا واستجابة لها .

وحتى إذا تخيلنا أن بعض أعمالنا الإرادية والاختيارية قد وجدت خالية من الأغراض تماماً، فإنه لا ينبغي الغفلة عن أن كل واحد من هذه الأعمال لا يمكن أن يخلو من الأهداف الخفية؛ فهناك هدف غامض غير معروف يكمن وراء هذا العمل .

مثلاً: مهما كانت همتنا رفيعة بحيث نتصوّر أننا نحسن للآخرين بدافع الحب للإنسانية والأريحية فقط ، ولكن الواقع هو أن الذي يقوم بالدور الفعّال في هذا المجال هو ما نكسبه من وراء ذلك من اطمئنان وهدوء البال .

وكذا الدور الذي يقوم به أي عامل طبيعي في مجال الطبيعة فإنه أيضاً ليس خلواً من الغاية والهدف، مع فرق واحد، وهو أن ما يؤديه الإنسان في ظل العلم والمعرفة يولده العامل الطبيعي في نظام الوجود من دون ارتباط بالعلم والمعرفة ، ففي الحقيقة إذن يكون الأمر متساوياً في الموردين من حيث الغاية والهدف .

إن العقل الحر يدرك أن نظام الوجود مبني على تربية موجود عالم متكامل يتحكّم في مصيره ، ويخرج على الإطار الذي تحاول الغرائز أن

تحصره فيه ، ويرتفع إلى آفاق الهداية الاختيارية والحكمة العقلية ، فيختار بنفسه طريق الصعود أو سبيل الانحطاط .

ومن ناحية أخرى ، فإن العلم عندما يقدم صورة منظمة تماماً عن العالم مقرونة بالقوانين والسنن الدقيقة التي لا يمكننا الخروج عليها ، فهو يصوّر لنا عالماً ذا نظام خاص من جناح بعوضة صغيرة ، وحبة رمل ضئيلة وورقة شجر جميلة وذرّة متناهية في الصغر، إلى المجرّة الهائلة التي تضم عدّة شموس في باطنها إلى الفضاء ، الذي لا نهاية له والذي يضم ما لا عدّ له من مجرّات ، وبالتالي فإن هذا الوجود اللانهائي الذي يبدأ من أصغر ذرّة ويمتد إلى أعظم الأجرام السماوية يصوّره العلم بأنه يتحرّك حسب نظام دقيق ومحيّر ـ إذا كان العلم يصوّر لنا العالم وقوانينه بهذا الشكل فإن العقل الإنساني والعلم البشري لا يستطيع أن يقبل بأن هذه الجهود الجبّارة لا تتمتع برابطة بين الفعل والفاعل والهدف .

فمع فرض أن الخالق لهذا النظام المحيّر يتمتع بعلم لا نهائي وقدرة غير محدودة ، فإنه لا يمكن التصديق بأنه لا هدف له من وراء هذه القوانين الدقيقة الجميلة في الموجودات الحيّة والميتة؛ وما زودت به الأحياء لاستمرار حياتها .

والمجتمع التوحيدي الذي يصف الله بألوان الكمالات يؤكّد على أن لهذا النظام هدفاً واقعياً .

وكيف يمكن نفي الهدف الغائي عن أعماله تعالى مع الاعتراف بعلمه اللانهائي وقدرته غير المحدودة وحكمته الدائمة ؟ .

فهل يصدّق أحد إذا قلنا بأن لكل جهاز في بدننا هدفاً خاصّاً ، ولكن هذا الإنسان بأكمله لا هدف له ؟ بينما نحن نلاحظ أنه من لحظة انعقاد نطفته لا يعتبر موجوداً قد أطلق عنانه لنفسه حتى يقطع مراحل نضجه حسب

القوانين الطبيعية ، ولن يكفيه حينئذٍ أن يقتصر على توفير وسائل حياته الدنيوية .

وعلى أية حال فإن دعوة الشرائع السماوية قائمة على أساس المسؤولية والتكليف ، وأنبياء الله يعلنون باستمرار وبيقين يتميّزون به أن كل إنسان سوف يحاسب على أعماله في ذلك العالم الذي ينتظرنا جميعاً ، ويحذّرون أتباعهم من تلك المرحلة الجديدة والحياة الأخرى ليعدّوا أنفسهم لها ، ويستفيدوا ممّا زودوا به من إمكانيات تجعلهم قادرين على النضج والتكامل والفلاح في جميع أبعاد وجودهم ، وأن لا يعملوا شيئاً يؤدي بهم إلى الحياة المليئة بالشقاء ، وعندئذٍ يحترقون بنار الحسرة والندم .

وذلك لأن بذور تلك الحياة تزرع بيد الإنسان في هذه الحياة ، والمصير في تلك المرحلة يعينه الإنسان نفسه في هذه المرحلة ، ومن المؤكد أن الحياة الأبدية تتلون بما أعده لها الإنسان من قبل .

فلو أن رسّاماً ماهراً أنفق وقتاً طويلاً وأخرج لوحة فنية ممتازة ثم مزّقها ومحاها أيعدّ هذا سالماً من الناحية العقلية ؟ .

لا شك أن أي إنسان عاقل لا يقدم على مثل هذا العمل الذي لا فائدة منه . فهل يمكن إذن أن يكون الهدف من خلق هذه الكائنات العظيمة التي حيكت لحمتها وسداها بمهارة فائقة ولا سيما خلق الإنسان الممتلىء نشاطاً وحركة ـ هل يمكن أن يكون الهدف من هذا كله هو هذه الحياة المحدودة التي تعج بالمتضادات ؟ .

وهل حكم على الإنسان أن يغرق في الخيال والأهواء العمياء ويكون أسيراً لمعاييره الباطلة النابعة من ذاته، ثم تطوى صفحة حياته بالموت وتتبعثر ـ كذرات الغبار ـ في الفضاء اللانهائي ؟ ألا يشبه هذا عمل ذلك الرسّام العابث ؟ وهل ينسجم هذا مع علم وتدبير تلك الذات الواعية الخلّاقة التي

تتجلى أهدافها الحكيمة في أعماق وظاهر كل ذرّة من ذرّات هذا الوجود الهائل ؟ .

لا شك أن الحكمة ـ بهذا الشكل ـ لا يمكن أن تصبح نهراً عريضاً يشبع أرض الوجود .

إذن كل من يعتقد بحكمة الله البالغة فهو يعلم أنه في هذه الآفاق الواسعة ـ التي يخضع فيها كل الوجود للقوة الأزلية ـ لا يمكن أن يكون أي شيء فارغاً من المحتوى أو ملقى عنانه على غاربه ، بل هو يجد نظام هذا العالم نابعاً من العدالة والحكمة الكاملة ، وكل ظاهرة فهي تتغير تبعاً لنظام لا خلل فيه ، ولو كان الخروج على النظام والانحراف عن القانون هو السائد ، ولو كان وجود أي شيء قائماً على الخطأ لما وجدنا أثراً للانسجام ، ولهذا فإنه لا يبدي رأياً في هذا المجال يدين به وجود العالم .

وهو يعتبر ذاته هي العامل الذي يبني عالمه الباطني ، وتكون هذه العملية مستمرة لا انقطاع لها ، فهو يستطيع أن يبني مستقبله ويعمره ، ويستطيع أيضاً أن يهدمه ويضرم به النار .

وعلى هذا فالإنسان إذا كان له هذا التصوّر للوجود فإنه لا يحكم أبداً بالعدم على جميع أبعاد الوجود الإنساني بمجرّد انتهاء هذه الحياة الدنيا ، وبهذه الرؤية فقط يمكن أن يستمر نظام الوجود بشكل عميق ورائع ، وهي التي تطفىء ظمأ الإنسان إلى القيم والآمال الرفيعة ، والقرآن الكريم يعلن بصراحة :

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾[1] .

أجل إن ذات الله المقدسة كاملة من جميع الجهات ، والنقص والحاجة لا طريق لهما إلى ذلك الأفق الرفيع ، بل هذه الموجودات المخلوقة هي المحتاجة إليه في جميع شؤونها ، فالله الذي منح الإنسان نعمة الحياة ،

(١) سورة ص : الآية ٢٧ .

وكل القوى والمزايا ، لا بد أن تعود إليه نتيجة الخلق ويرجع إليه جميع المخلوقات ، يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾[1] .

والحكمة الإلهية تقتضي أن يأتي يوم يحاسب فيه الناس ، والقرآن الكريم يعد بهذا اليوم فيقول :

﴿ وإن ربّك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾[2] .

فالكمال الذي هو من شأن الإنسان لا يتيسر خلال النشاط في هذا العالم ، وإنما هو يواصل تكامله حتى يصل إلى غاية آماله في العالم الآخر وهو الانتهاء إلى الله تعالى ، يقول جل وعلا في كتابه الحكيم :

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه ﴾[3] .

﴿ وأن إلى ربّك المنتهى ﴾[4] .

والإنسان في الحقيقة هو الذي يتمتع بدوافع دينية وأخلاقية وإلهية رفيعة ، وهو الذي يكسر القيود المادية التي تحاول أن تكبله متأثراً بروحه الطالبة للحق ، ولهذا فهو يغض النظر عن الحياة المادية والظواهر الجذابة من أجل تحقيق أهدافه وآماله الكبيرة .

وقد حصل له هذا التحوّل والتغيّر الجذري لأنه تنبع من أعماقه فكرة الوجود الخالد؛ ويتميّز بغرائز رفيعة تنسجم مع الخلود وتقرّبه إليه حتى يقتحمه ، وهذا بنفسه علامة على أنه يتمتّع بقابليه واستعداد خاص يؤهله للحياة إلى الأبد .

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الانشقاق : الآية ٦ .

(٤) سورة النجم : الآية ٤٢ .

وأعمال الإنسان بذور لا يكون لهـا معنى صحيح إلا إذا أعقبتهـا حياة خائدة ، فالصالحون تنمو لهم أعمالهم الطيبة في حياة سعيدة ، والمفسدون أيضاً يلقون ببذورهم في هذه الدنيا فينالون حياة خالدة، ولكنهم يجنون ثمار إفسادهم هناك وهي ثمار مرة تتناسب مع ما قدموا من أعمال .

وفي هذا المضمار يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار »[1] .

والواقع أن الحياة الآخرة هي التي تعطي للحياة الدنيا معناها الواقعي .



(١) شرح نهج البلاغة ـ للدكتور صبحي الصالح ، ص ٣٢٠ ، الخطبة ٢٠٣ .

البعث واحد من أبعاد العدل الإلهي

تطرح ها هنا مسألة العدل الإلهي التي تمتد إلى أبعاد واسعة جداً .

فنحن نشاهد في هذا العالم أن الإنسان لا يحاسب ولا يجازى على أعماله سواء أكانت أعمالاً حسنة أم قبيحة ، فالمجرمون والحكّام الظالمون الذين يصادرون حريات الناس يتمتعون بحياة رغيدة حتى آخر أعمارهم ، وهم لا يقصرون في القيام بأي عمل تقتضيه أهواؤهم المنحرفة ، ومع ذلك فإنهم لا يقعون في قبضة القانون والعدالة ، ولا يلاقون رد الفعل الطبيعي لأعمالهم ، ولا توجد قوة أرضية تستطيع صدّ تجاوزهم وقطع الأيدي الممتدة إلى حقوق الآخرين وتحديد قدرتها في المجالات المختصة بهم .

وفي خاتمة المطاف يرحل عن هذا العالم الظالم والمظلوم ، المفسد والمصلح ، الملوث والنظيف الذي أجهد نفسه في سبيل التسلط على دوافعه النفسية والظفر بالفضائل حتى نال بسلوكه وعفته منزلة فياضة بالمعنويات .

وصحيح أن الدين يشدد في النهي عن أي لون من ألوان الاستسلام أمام الحكّام المستبدين الكافرين ، ويحرّم قبول الأحكام الجائرة المفروضة من قبل الحكومات الظالمة ، ويعد الصمود أزاء أي تجاوز من الواجبات الدينية والحيوية ، ولكنه صحيح أيضاً أن النضال ضد الظلم قد يثمر أحياناً وقد لا يثمر أحياناً أخرى ، وبالإضافة إلى هذا فإن بعض المناضلين يعانقون

الموت ويفقدون حياتهم بيد الظالمين والمتجبرين . ولو كانت ملفات أعمال جميع الصالحين والمنحرفين تغلق في هذه الحياة وتدفن في مقبرة النسيان فأين إذن عدل الله وحكمته ولطفه اللانهائي بجميع عباده ؟ .

إن الله عادل ويتجلّى عدله وحكمته في جميع مظاهر الوجود .

فإذا سلمنا بأن الخالق قد وفّر الظروف التي يستطيع فيها كثير من الظالمين والمسيئين أن يواصلوا حياتهم بالأسلوب الذي اختاروه لأنفسهم دون أن يعرفوا حداً لتصرفاتهم ، وبعد أن ظفروا بالقوة قاموا بكل ما سولت لهم أهواؤهم من دناءة وسقوط من دون أن يحاسبوا عليها ، والمظلومون من ناحية أخرى يعيشون حتى آخر لحظات حياتهم تحت ضربات الظالمين القاصمة ويعانون من الحرمان أقصاه ، أفلا يكون هذا ظلماً ؟ .

وإذا عرفنا أن أي إنسان يتمتع بشيء من الحنان والعدالة فهو يرفض مثل هذا الظلم ؛ أيمكن أن نرضى به الذات الإلهية المقدسة التي تفيض رأفة وحناناً وعدلاً لا نهاية له ؟ .

وماذا يحكم في هذا المجال الفكر الخلّاق الذي هو أرفع الظواهر المحققة لإنسانية الإنسان والمعبرة عن خصائص وجوده ؟ .

وصحيح أن الله لا دخل له بشكل مباشر في الظلم النازل بهؤلاء وحرمانهم من حقوقهم، ولكن نفس تركه الظالمين والمجرمين أحراراً ـ فهو الذي منحهم الاختيار والقوة ـ مخالف للعدالة إذا لم يجازهم في النهاية على ما ارتكبوا .

إذن الارتباط الوثيق بين عدالة الله ومحاسبة الناس الدقيقة على ما عملوا يؤكد ضرورة البعث وحتميته .

وعلاوة على هذا فإن بعض الجرائم والذنوب عظيمة جداً إلى درجة أنه لا يمكن العقاب عليها في هذا العالم ذي الزمان المحدود ، فالعقاب لا بد أن يكون متناسباً مع الذنب، وإذا كان الذنب هائلاً ومتعدداً فإن العقاب في هذه

الحياة لا يكافئه . مثل المجرم الذي لا هم لـه إلا امتصاص دمـاء الضعفاء فالدنيا بالنسبة إليه ليست إلّا جثة تملأ البطن وأمراً مؤهلاً للسلب والنهب، فهو يفترس ويزدرد ويداه ملطختان بدماء الآلاف من الأبرياء ، فهو يذبح أفواجـاً أفواجاً في مذبح رغباته ، وهو غارق في ماء آسن عفن بحيث لم يعتبر بدروس الماضين ولم يفكر في مستقبل أروع وأفضل ، فلو أنـه انتزع منـه العمر في مقابل كل هذه الجرائم كما يجري هذا مع كل واحد من ضحايـاه فإن هـذا الجزاء سيكون غير عادل ولا متكافىء ، لأنه جزاء جرم واحد مما ارتكبه مع ضحـاياه ، وتبقى سـائر الجـرائم والجنـايـات التي فعلهـا دون حسـاب ولا عقاب .

إذن كثير من الجرائم لا يمكن العقاب عليها في هذا العالم ،وإذا أردنا أن نوسّع مجالاً في عقولنا للتحليل المنطقي فلا بـد أن نصبح بعيـدي النظر ونفهم أنه لا توجد قوة في هذا العالم تستطيع عملياً أن تستعيد جميع الحقوق المهضومة للناس .

وكذا الثواب الكامل فإنه لا يمكن استيعابه في هذا العالم ، فإذا قسنا قيمة الجهود المتواصلة للعناصر المناضلة إلى ما في هذه الدنيا المليئة بالآلام والمشاكل عرفنا أن الجزاء الدنيوي مهما كان كبيراً فإنه ضئيل وغير متناسب مع تلك الأعمال الجليلة .

فالذي زود الملايين من كنوز علمه ومعرفتـه من دون أن يخالط عمله رياء ماذا يمكن إعطاؤه من جزاء هنا بحيث يعادل أعماله القيمة تلك ؟ .

وكذا الإنسان الذي ينفق كل عمره ويكرّس كـل جهوده في عبـادة الله وخـدمة خلق الله ، بحيث تمتـد خدمـاته إلى أبعـاد متنوعـة من مجتمعـات مختلفة ، ثم تكون النهاية حيث يضحي بـروحه في سبيـل تحقيق الأهداف الإلهية ، فمتى وفي أي مكان يظفر هذا بجزائـه ؟ في هذا العـالم ؟ إنه لن يمتد عمره حتى ينـال جزاء تضحيـاته وإيثـاره ، إذن كون زمـان هذا العـالم

محدوداً يمنع من إعطاء الصالحين المؤثرين ما يستحقون من ثواب .

إن مواصلة هذه الدراسة تلزمنا بالالتفات إلى أن النظام يتعلق ـ بالدرجة الأولى ـ بالنظام الإلهي الشامل لكل شيء ، فكل واحد من الموجودات الصغيرة والكبيرة في العالم بدءاً من الذرّة الضئيلة ونواتها وانتهاء بالأجرام السماوية التي لا عدد لها والتي تملأ صفحة الوجود ـ كل هذه وليدة العدالة السائدة في النظام الموجود ، وكل هذا الجهاز العظيم لا يشذ لحظة واحدة عن العدالة المنبثّة فيه ، ونستطيع بكل سهولة استنتاج هذه الحقيقة من مجموع ظواهر عالم الوجود .

ولو أن أعضاء هذا النظام قد شذّوا بأقل حركة وانحرفوا عن المدار المقرر لهم لتحطم نظام هذه الموجودات وانتهى هذا العالم إلى العدم .

وعلى هذا فإن الإنسان بكل ما يحتوي من ظرافة رائعة لما كان أحد أعضاء هذا النظام الكلي فهو لا يمكن تصوره بشكل ظاهرة استثنائية خارجة على هذا النظام الشامل الجامع .

نعم إنه يختلف عن سائر الموجودات حيث يتمتع بميزة الحرية التي تؤهله للابتكار والأعمال الخلاقة ، فيسلك السبيل الذي يحقق له أغراضه الأساسية فيصل إلى أهدافه المنتخبة .

إن هذه من خصائصه الباعثة على الإعجاب والفخر ، فهو من بين ظواهر العالم المنسجمة يستطيع الاستفادة من هذا الامتياز الخاص وتتوفر له إمكانيات معينة يستغلها في أعماله البناءة، ويمحو بها دوافعه الداخلية الهدّامة ، فالله سبحانه يخلق الإنسان حراً قد أظهر للعالم كل ما كان من خطط في نظام الخلقة ، وبالإضافة إليه التغيير الحاصل في كيان الإنسان حيث يستطيع العصيان .

ولو كان الإنسان مجبوراً على كسب ذخائره المعنوية والسير في الطريق المؤدي إلى سعادته،ومرغماً على التحرّك في الاتجاه الذي يؤدي إلى القيم

الرفيعة لما أصبح لهذا كله أية قيمة ، إذن لا بد من الاعتراف بأن الإنسان باكتسابه موهبة الحرية والإرادة من الله تعالى لا بدّ له من يوم يقف فيه أمام محكمة العدل الإلهي فيطبق عليه القانون العام لنظام الوجود « وهو العدالة » ، لأنه لا يمكن تصديق أن الإنسان مستثنى من عدالة الله الشاملة لكل عالم الوجود ، فيصبح شيئاً مخلاً بانسجام نظام الوجود .

إذن بالالتفات إلى هذا التيار العام المسمّى بأصل العدالة العامة الذي يشاهد في جميع أرجاء الوجود ، وبالأخذ بعين الاعتبار أن هذه الدنيا لا تصلح أرضية لكثير من ألوان الثواب والعقاب ، فمن الطبيعي أن يتحتم وجود عالم آخر يحاسب فيه الإنسان على ما قدّمت يداه في هذه الحياة الدنيا .

ودليل هذا الأمر استنباط خاص يمكن الظفر به في سر خلق الإنسان ، والنتيجة المباشرة لهذا الاستنباط هي تنمية جميع أبعاده وتحقيق جميع آماله وتأمين حاجاته الأساسية .

ومن هنا نعرف أيضاً أن الله الذي لا حاجة له في خلق الإنسان لا يمكن أن يجره إلى العدم قبل نيله كماله اللائق به ، وكل عاقل فهو يصل إلى هذه النتيجة ويرفض كل ما عداها .

ونحن نعلم أن الجزاء على الأعمال في هذه الدنيا لا يشمل جميع المذنبين والمجرمين ، ولكنه في بعض الحالات ينال فيها بعض المجرمين شيء ممّا يستحقون في هذا العالم ، فلا تنصب عليهم لعنة التاريخ فحسب وإنما هم بأنفسهم أحياناً يذوقون مرارة المصير ، ويتجرّعون العذاب في هذه الحياة ثم يعانقون الموت شر عناق ، بينما لم يكن أحد يتصوّر أو يتنبأ بمثل هذه الأيام السود لهؤلاء الطغاة المتجبرين العاتين .

وليس من الصحيح اعتبار العلاقة المحيّرة بين الفساد في العمل والمصير مصادفة دائماً ، وإنما تعتبر هذه بعداً يسيراً من أبعاد الجزاء الدنيوي .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[1] .

ويكون هذا التأديب أحياناً بمنزلة الإنذار وإعلان الخطر للمذنبين لعلهم يعودون إلى رشدهم قبل فوات الأوان، ويغيرون اتجاههم ويصلحون سلوكهم ، ويدركون أن لأعمالنا جميعاً معياراً يميز الحق من الباطل ، وأن أي عمل قبيح أو إفساد لن يمر من دون عقاب ، وكذا جميع أعمال الخير فإنها لا تكون من دون ثواب .

يقول الفيلسوف الشهير (إمرسن) :

« إن العالم بمثابة جدول ضرب أو معادلة رياضية ، فكلما حورناها أو أدرناها فإنها تستعيد اتزانها ، والجواب على ذلك واحد ، فنحن عندما نحل مسألة رياضية فأي طريق نختاره يؤدي بنا إلى أعداد لا تتغير ، فالطبيعة بسكوتها ولكن بشكل متقن ومؤكّد تفضح كل سر ، وتعاقب على كل جريمة ، وتثيب على كل فضيلة ، وتجبر كل ظلم .

فالذي نسميه عقاباً حاجة كونية ، تظهر بحسبها صورة الكل من أعماق جزئه ، فإذا شاهدنا دخاناً فإننا نعلم بيقين أنه يرتفع من نار ، وإذا شاهدنا يداً أو رجلاً فإننا نتأكد أن هناك جسماً تعود إليه هذه الأجزاء .

وكل عمل يلازمه جزاؤه ، أو بعبارة أخرى فإنه ـ حسب ذلك القانون الذي تحدثنا عنه ـ يكمل نفسه بطريقين :

أولاً ، من طريق الفعل والانفعال في الشيء نفسه ، في الطبيعة الواقعية ، وثانياً من طريق الكيفية العلنية ، في الطبيعة الظاهرية ، والكيفية العلنية هي التي تسمى بالعقاب ، والعقاب الذاتي يكون في الشيء نفسه ولا

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢٦ .

يـرى بالعين ، وإنمـا يعرف العقـاب الكيفي عن طـريق الفهم ، وهـو ليس منفصلاً عن الشيء نفسه ، ولا يظهر غالباً إلى مدة طويلة .

فالعواقب اللازمة للذنب قد تقع بعده بسنين عديدة ، ولكنها لا بد أن تقع بصورة مؤكدة لأنها من لوازمه وكأنها مربوطة إليه بالحبال ، إن الجـريمة والجزاء غصنان لشجرة واحدة ، والجزاء ثمرة تتفتح فجأة من داخل البراعم بعد أن كانت كامنة فيها »[1] .

إن بروز ردود الفعل للقبائح نموذج حي يبين لنا أن الله سبحـانه ليس راضياً بالفساد والظلم ، ولا بد من نيل جميع المفسدين جزاءهم العادل في عالم آخر .

ومن نـاحية أخـرى ، فإنـه لا ينبغي استصغار دور الجـزاء الفعّال في التربية والإرشاد ، في مجال التربية الفردية والتربية الاجتمـاعية ، ومن هـذه الزاوية يصبح تعزير العقوبة رحمة ولطفاً لأنه يكون للإيقاظ والإصلاح ، ويعد غرامة يدفعها الإنسان ولكن لها عائداً قيّماً .

يقول الله تعالى في محكم كتابه :

﴿ إنّـا عرضنـا الأمـانـة على السمــوات والأرض والجبـال فـأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾[2] .

فالله سبحانه من أجل أن يوصل عدالته إلى الكمال فقد أزال ظل الجبر عن الإنسان ، وعرض عليه أمانة العيش التي رفضتها الجبال فقبلها .

وذلك لأنه لا يمكن أن يـرتفع الإنسـان إلا من خلال الجهـد والعمل فيخرج مرفوع الرأس من بوتقة الاختبار .

يقول الله تعالى :

---

(١) الفلسفة الاجتماعية ص ٣٧٨ ، نقلاً عن الترجمة الفارسية .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢ .

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1] .

أي أن كل ما يظهر في هذا العالم بشكل تجاوز فإنه سوف يكون في ذلك العالم بصورة عقاب للمتجاوز وإجراء للعدالة ، فالإيمان بالمبدأ الأزلي وعدالته الشاملة هو الذي يدفع الإنسان إلى الالتزام والتحلي بالعدالة .

يقول العالم الإلهي (أوغسطين) :

« إن أفضل شيء للإنسان هو إنفاق عمره في سبيل خدمة الله من دون تردد ، وذلك لأن الروح الذي يكون في خدمة الله متسلّط على الجسم ، والعقل الذي يكون في خدمة الله مسيطر على المشاعر الإنسانية العاتية ، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل :

أي عدالة يمكن أن توجد عند الإنسان الذي لا يعرف شيئاً عن خدمة الله ؟ لأنه من الممكن بسهولة ملاحظة أن هذا الفرد لا روحه متسلّط على جسمه ولا عقله على مشاعره »[2] .

والحياة المثالية عند هؤلاء الناس هي الحياة بعد الموت التي يذكرها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[3] .

ولهذا نجد رجال الله ليس فقط لا يخافون الموت بل يتحرقون شوقاً منتظرين اللحظة التي يزمزم فيها ملك الموت بهذه النغمة في آذان أرواحهم :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضية ﴾[4] .

في ذلك العالم تكون السعادة مقصودة بالذات ، وهناك لذائذ تعجز

---

(١) سورة المدثر : الآية ٣٨ .

(٢) أرباب الفكر السياسي ج ١ ص ٣٥٤ ، نقلاً عن اللغة الفارسية .

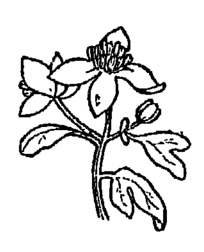
(٣) سورة العنكبوت : الآية ٦٤ .

(٤) سورة الفجر : الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ .

عقولنا حتى عن تصوّرها .

إذن هذه الحياة المليئة بالصخب والظلم ليست إلّا مرحلة قصيـرة من كل الحياة ، وفي هذه الأثناء تكون نتيجة أعمال فئة من النـاس هي مجاورة الـرحمة الإلهيـة بينما تكـون نتيجة أعمـال فئة أخـرى هي مجاورة إبليس أو العذاب الأبدي ، فهل يعتبر هذان المصيران متساويين ؟ .

أحد المصيرين هو جهنم وهو مصيـر تعس ، وثانيهمـا هو الجنـة وهو مصير سعيد ، والناس أحرار في اختيار أي واحد من هذين .



الفطرة أيضاً ملهمة لنا في ضرورة البعث

إذا نظرنا إلى الدين ـ من ناحية السير التكاملي لعلم الاجتماع ـ وجدنا أن الإنسان قد مر بمرحلة فكرية آمن فيها إيماناً راسخاً بالحياة بعد الموت ، ولا يقتصر هذا الإيمان على مرحلة ما بعد التأريخ في هذا العالم المليء بالتحوّلات وإنما يمتد أيضاً إلى المرحلة الباهتة لما قبل التاريخ .

ونستطيع أن نرجع في هذا المجال إلى الحفريات التي قام بها علماء الآثار ، وهي تدّل على أن الإنسان القديم كان يتمتع بخط فكري مبني على وجود حياة أخرى بعد الحياة الدنيوية . فالأدوات والوسائل التي كانوا يدفنونها مع موتاهم تشير إلى رؤيتهم الخاصة للبعث بعد العبور من بوابة الموت ، وتدل على أنهم لم يكونوا يعتقدون بأن الموت نهاية للحياة ، إلا أن تصورهم لم يكن صحيحاً تماماً فهم كانوا يظنون بأن الإنسان يعيش في ذلك العالم كما عاش في هذا العالم ، ولهذا فهو يحتاج إلى هذه الأدوات وسوف يستغل كل ما دفن معه لتسهيل شؤون حياته تلك .

فالإنسان في أي عصر عاش وفي أي أرض استقر فإنه كان مزوداً بإدراك خفي كالإلهام يجعله في انتظار « غد » بعد « اليوم » . ولا تعنينا كثيراً تلك التحليلات الذهنية التي قام بها بعض علماء الاجتماع الذين يهتمون ببعد واحد فقط ، ولهذا فإنهم يبتعدون عن الواقع ويبحثون الموضوع متأثرين

بمجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية فحسب، ومشيرين إلى التخرصات والخرافات التي جاءت بها بعض الأديان ، ومتناسين الأبعاد الإيجابية في هذا المضمار .

ومثل هذه العقائد العميقة الجذور لا يمكن اعتبارها ـ بهذه البساطة ـ ناتجة عن التلقين أو العادة ، لأن العادات والتلقينات لا يمكن أن تبقى ثابتة على مر العصور وتعاقب التحوّلات الاجتماعية .

والذين يغوصون في بحور من الخيال يحاولون تغطيه ما ينبع من أعماق فطرتهم بألوان من التصوّرات الأسطورية وحتى غير المفهومة .

وقد كان الإيمان بالمعاد موجوداً لدى الرومان والمصريين والبابليين والكلدانيين واليونانيين وغيرهم من الأمم ، وإن كان وجوده عند كثير منهم بشكل سطحي أقرب ما يكون إلى الخرافة، وأبعد ما يكون عن المنطق الإلهي التوحيدي .

مثلاً كان من الشائع بين طوائف الكونغو أنه متى ما توفّي ملكهم اجتمعت على قبره اثنتا عشرة فتاة ، ولكي يلتحقن به في أسرع وقت ممكن فإنّهن يتصارعن وَيتنازعن ، وقد يؤدّي هذا الصراع إلى قتل بعضهن .

وكان سكان جزائر الفيجي يعتقدون أن الأموات يقومون بكل النشاطات التي يؤديها الأحياء من تشكيل العائلة والزراعة والحروب .

يقول العالم الفلكي الفرنسي (كاميل فلاماريون) :

« من عادات سكان جزيرة « فيجي » أنهم يدفنون آباءهم وأمهاتهم أحياء عندما يصلون إلى سن الأربعين عاماً ، والسبب في اختيار هذه المرحلة من العمر هو أنها وسط العمر تقريباً وأكمل مراحل الحياة ، ويتخيّل هؤلاء أن المتوفى يبعث يوم النشور بنفس القوى الجسمية والكمالات البدنية التي توفي وهو يتمتع بها »[1] .

---

(١) مشاهدات علمية ص ٩٨ باللغة الفارسية .

يقول عالم الاجتماع الشهير (صاموئيل كينغ) :

« ليس الدين موجوداً في جميع أرجاء العالم اليوم فحسب وإنما الدراسات العميقة تدل على أن الفئات البشرية الأولى تتمتّع بلون من الدين ، كما أن لأسلاف إنسان اليوم « وهو الإنسان المسمى بالنياندرتال » نوعاً من الدين ، فقد كانوا يوارون موتاهم التراب بشكل خاص ويضعون إلى جنبهم وسائل عملهم ، وقد أثبتوا بهذا أنهم مؤمنون بوجود عالم آخر »[1] .

وقد كان سكان المكسيك يدفنون مع ملوكهم المهرجين الذين كانوا يضحكونهم أيام حياتهم ، وذلك لكي يؤنسوهم في قبورهم بأحاديثهم وسخرياتهم وحركاتهم اللطيفة ، ويزيلوا آثار الهم والغم من قلوبهم .

وكان اليونانيون يعتقدون قبل ثلاثة آلاف سنة أن الإنسان لا ينعدم بمجرّد موته ، وله هناك حياة خاصة مثل حياة هذا العالم ، وفيها حاجات كحاجات هذا العالم ، ولهذا فإنهم كانوا يضعون مع الموتى شيئاً من المواد الغذائية . . . »[2] .

ومع أن الإيمان بكيفية البعث كان مليئاً بالخرافات أو خليطاً من الحق والباطل ولكن استمرار هذا الخط الفكري على مر الزمن يؤكد أن لهذا الإيمان نواة مغروسة في أعماق الفطرة ، وهي تغذى عن طريق الإلهام والإدراك الباطني وقد تمّ غرسها في كيان كل إنسان خلال خلقته .

ولما كان من المسلم أن جميع العلوم والمعارف البشرية قائمة على أساس البديهيات الأولى ، ولو امتد الشك والترديد إلى البديهيات لانهارت جميع العلوم فلا يمكن الاعتماد عندئذٍ على شيء منها ، لذا كانت شهادة الفطرة أقوى برهان بحيث لا يساويها بل لا يدنو إليها أي منطق آخر .

ونحن نشعر من أعماقنا وبفطرتنا ـ من دون حاجة إلى استدلال ـ أن

---

(١) موسوعة معارف كينغ ص ١٩٢ باللغة الفارسية .

(٢) شعوب الشرق واليونان ص ١٦٧ باللغة الفارسية .

الوجود قائم على أساس العدل والمسؤولية ، ويوجد في هذا النظام الصواب والخطأ ، وكل ما ينبع من أعماق ذواتنا فهو جزء من وجودنا وجزء من نظام الوجود العام ، ولا سبيل للخطأ إليه ، وهذه الفطرة الإنسانية هي التي تمهد للإنسان طريق الوصول إلى الحقيقة .

فإذا كان ضميرنا يؤكّد لنا من الأعماق وجود المسؤولية والحساب فإننا سوف ندرك بكل وضوح حتمية البعث بدليل يقيني ، وذلك لأن فطرتناهي الحاكمة بذلك وهي أقوى من اليقين التجريبي .

ونحن ندرك بوضوح أن العبث واللامسؤولية في العالم الواقعي لا رصيد له ، فالقوانين المحكمة سائدة على جميع الموجودات ، بدءاً من أجزاء الذرّة الضئيلة وانتهاء بالأجرام السماوية الهائلة ، فالنجوم والكواكب تولد وتموت حسب قانون ، ومادة الشمس تتحوّل إلى طاقة ضوئية حسب معادلة ، وكل حركة تتم في مسارات ومدارات معينة ، وحتى الطاقة الكامنة في الذرّة لا تسلك طريق العبث والضياع ، وإجمالاً فإن كل موجود يتبع نظاماً حديدياً ، ويخضع الجميع لقوانين متقنة لا تتخلف .

وهنا نتساءل :

لماذا يشذ سلوك الإنسان من بين جميع الموجودات فهو ليس قائماً على أساس العدل ، ويشيع بين الناس الظلم وعدم الانضباط والهرج والمرج ؟ .

والجواب عنه واضح ، لأن اختلاف الإنسان الأصيل عن سائر الموجودات هو في كونه مزوداً بنعمة الوعي والإرادة .

فمجال نشاطنا واسع جداً ، ولو شاء الله أن يخلقنا مجبرين في الطاعة للقوانين الطبيعية لكنا كذلك ، ولكن حكمته البالغة قد اقتضت أن يجعل الإنسان خليفته في الأرض وأن يمنحه الاختيار ، إذن كل خطوة يخطوها الإنسان في الظلم والهرج والمرج فهي ناشئة من سوء استغلاله للحرية

الممنوحة له أو من سوء فهمه لها .

ولما كانت هذه الدنيا مكاناً للامتحان للاجتياز إلى المراحل اللاحقة ، لذا فإن هذه الحياة المليئة بالظلم واغتصاب الحقوق ليست هي كل الحياة ، وفي الحقيقة فإنها فصل قصير من قصة طويلة جداً تمتد إلى اللانهاية .

ومن هنا فإن الإحساس الفطري يقول لنا : إن الظالم الفار من وجه العدالة الأرضية ، والمتجاوز على حقوق الناس الذي لم يقع في قبضة القانون ، والمجرم الذي لم يؤخذ منه الحق بسبب عوامل معينة ـ كل هؤلاء سوف يخضعون للحساب الدقيق طبقاً لقانون الوجود « العدل » .

فضرورة وحتمية نظام العدل في الوجود يدفعان الإنسان للتفكير والمحاسبة بأن العدالة يوماً سوف تطبق بحقه بدقة .

ولو كانت العدالة الواقعية مثالاً متوهماً وأن ما نحسه في قلوبنا خال من الحقيقة فلماذا نحن نطلب العدالة بشكل فطري لأنفسنا وللآخرين ؟ .

ولماذا تشتعل أعماقنا إذا شاهدنا حقوقاً قد هضمت ؟ .

ولماذا نتنازل حتى عن حياتنا في سبيل تحقيق العدالة ؟ .

ولماذا يمتد حبها إلى أعماق أنفسنا ؟ .

وهل يمكن أن ننتظر شيئاً لا وجود له على الإطلاق ؟ .

أليس هذا الظمأ الداخلي في طلب العدالة دليلاً على وجودها كما يكون الظمأ في طلب الماء دليلاً على وجوده .

إن الأمل في حياة أبدية شيء أصيل مغروس في أعماق فطرة الإنسان ، والبقاء الأبدي ليس رغبة عارضة ولا أمراً اكتسابياً ، وهو ليس مختصاً بفئة معينة من الناس ، وإنما هو رغبة فطرية دالة على تمتعه باستعداد وقابلية للحياة الخالدة ، ومن ناحية أخرى فإن أي رغبة طبيعية في نظام الوجود فهي سوف تشبع في الموقع المناسب ، بينما الرغبة في حياة خالدة لا يمكن إشباعها في

هذه الدنيا الفانية .

إذن بالالتفات إلى أن كل رغبة مغروسة في أعماق الإنسان لا يمكن أن تكون لغواً لا فائدة منها نستنتج من ذلك أن أي إنسان يخطو نحو الموت ، ويودع هذه الحياة لا تزول بذلك حقيقة وجوده ، وفي ذلك العالم الآخر فقط يستطيع أن يحقق أمله في الحياة الخالدة ، وهذا بنفسه دليل على واقعية الحياة الخالدة للإنسان .

يقول المحقق الأوربي الدكتور (نورمان ونسان) :

«إن أي شك أو ترديد لم يزلزل يقيني في الحياة الخالدة، فأنا مؤمن بها وأعتقد أنها غير قابلة للرد .

وفي الواقع فإن الشعور الفطري بالحياة الخالدة هو بنفسه من أهم الأدلة الإيجابية التي تهدينا إلى هذه الحقيقة ، فإذا أراد الله للإنسان أن يظفر بحقيقة ما فإنه يبذر منذ البدء بذرتها في أعماق ضميره ، ومن الواضح أن ظمأ الإنسان إلى البقاء وأمله في الخلود شامل للإنسان في جميع أرجاء العالم ، ولهذا فإنه لا يمكن أن نصدق بأن هذا الأمل لا يتحقق أبداً .

والعقل الإنساني لم يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة بالدليل والبرهان الرياضي ، بل الإلهام الباطني هو الذي دفعه لهذا الاعتقاد ، وللإلهام أيضاً دور مهم في مجال الحقائق العلمية »[1] .

ويعد الإيمان بالحياة الخالدة أصلاً من أصول الأديان الكبيرة ،وجزءاً لا يتجزأ من الأديان الإلهية ، ويكون الاهتمام بهذا الموضوع في رسالات الأنبياء إلى حد أنه لم يبعث نبي إلا وقد أعدّ أتباعه للمستقبل الذي ينالون فيه الثواب أو العقاب ، ويظفرون فيه بالتكامل أو الانحطاط حسب ما قدّموا لأنفسهم من أعمال .

والله سبحانه هو المبدع والملهم للكائنات،وهو ينظر إلى عباده نظرة

(١) معارف دنيا العلم ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ باللغة الفارسية .

لطف ورحمة لا نهائية ، ولهذا فإنه إكمالاً لرحمته ـ وعلاوة على ما غرسه في أعماق عباده من دلالة فطرية واضحة ـ فقد أرسل الأنبياء بالكتاب والبيّنة ليهدوا الناس إلى واجباتهم ويؤكدوا لهم واقعية البعث ، وذلك لأن هوى النفس والعادات والرغبات المادية تخمد الشيء الكثير من شعاع الفطرة ، وعندئذٍ تصبح الدلالة الباطنية غير كافية لعروج الإنسان إلى الأفق الإنساني الرفيع ، وتحرره من القيود التي تحول دون نضجه وتعاليه .



العلم يفتح آفاقاً جديدة لفهم المعاد

إن إحدى الثمرات القيّمة التي حققها الإنسان خلال مراحل متعاقبة من التقدّم في العلوم التجريبية ، هي إثبات إمكانية تجديد الحياة الإنسانية عن طريق علمي ، وقد هيأت الثورة العلمية للبشرية مجالاً رائعاً للتحقيقات العلمية في هذا المضمار ، فراحوا يتناولون المسائل المتعلقة بالمعاد برؤية جديدة تماماً ، وبدأوا يبحثونها ـ لأول مرة ـ بعمق واهتمام ، وقد ساعد كل هذا في فهم الموضوع بشكل أفضل ، وكل ما يلوح في الأفق يبشر بأن هذه التحقيقات العلمية تسير نحو التكامل والإبداع .

ومن هنا فإنه من حيث المجموع كلما اتّسع ظل العلم وامتدت حياته فهو يزيل مقداراً أكبر من الغموض والإبهام .

أما العلماء الماديون السابقون فهم عندما كانوا يبحثون موضوع المعاد فإن تحليلهم قائم على فرض أنه بانتهاء حياة الإنسان فعودته إلى الحياة من جديد تصبح غير ممكنة ، ولهذا فهم لم يستطيعوا اعتبار موضوع المعاد مسألة علمية، ولم يتعاملوا معها بالأسلوب العلمي .

وأول تحوّل ظهر نتيجة الدراسات العلمية في هذا المجال هو ما نلاحظه في بحوث العالم الفرنسي الشهير (لافوازييه) مؤسس علم الكيمياء الحديث ، الذي وضع حداً للنظريات القديمة السائدة في هذا العلم وأسقط

قيمتها ، حيث إنه أنفق عمره في التجارب الواسعة التي أوصلته إلى هذه النتيجة القائلة : إن مجموع مقدار المادة والحجم في الكون ثابت ، فلا هو ينقص ولا هو يزيد .

وهذا القانون وإن فقد أصالته باكتشاف الإشعاعات الذرّية التي تثبت تبدل المادة إلى طاقة ، ولكنه بقي مقبولاً بعنوان أصل بقاء المادة والطاقة .

وبناء على هذا فإن أي فعل وانفعال كيميائيين في مواد هذا العالم فإنهما يغيران شكل تلك المواد ، ولا ينعدم خلال ذلك أي عنصر من عناصر وجودها ، فكل ما نراه ونحسه فهو مجموعة مركبة من ذرّات مختلفة ولها خواص متغيرة ، وبالتالي فقد حلت هذه النظرية القائلة : إن الوجود لا ينعدم محل النظرية السابقة ، وبهذا فقد أجابت على جميع التغيرات والتبدلات .

فقطرة الماء التي تسقط على الأرض وتمّحي ، ودخان السيجارة الذي يضيع في الهواء ، ومواد الاحتراق التي تبتلعها المصانع العظيمة ، وألسنة النيران المتوهجة من الأخشاب، والشمعة التي تحترق فتتناثر ذرّاتها في الفضاء ـ كل هذه لا تنعدم .

وإذا استطعنا ـ بوسائل متقدّمة ـ أن نجمع أجزاءها ونركبها فإن تلك المواد الأولى تعود دون أدنى نقص ، إلا أن النظرة السطحية والفكر المحدود الناقص هو الذي يجعلنا نتصوّر أنها قد انعدمت .

ومن المعلوم أن جسم الإنسان مخلوق من التراب ، وبعد أن يمر بفترة من التحوّل والتغيّر ، فإنه يعود إلى حالته الأولى فيتحوّل إلى تراب ، وذلك لأنه يحمل في باطنه استعداداً لألوان من التغيّر ، ولكنه خلال هذه التحوّلات لا يفقد وجوده ولا يتحوّل إلى عدم ، وإنما يفقد كيفية تركيبه مثل سائر الأجسام ، ولا ينقص شيء من ذاته .

وعلى هذا فإذا تحوّل الجسم الميت للإنسان إلى تراب تحت تأثير العوامل الداخلية والخارجية واختلط هنا وهناك ، وظهر في كل يوم بشكل

جديد ، فيوماً ينمو منه النبات ويتغذى به الحيوان فيصبح جزءاً من جسمه ، أو يذهب في مجال آخر فتتنوّع أشكاله ؛ ولكن جوهره ومحتواه ثابت لا ينعدم خلال كل هذه التحوّلات الحاصلة .

وحتى الأشكال المختلفة من الطاقة المنبعثة من أعمالنا الخيرة والشريرة فإنها تتلون بلون الأبدية وتحفظ في مخزن الكون ، وهي العامل المؤثر بشكل حاسم في مصيرنا ، من حيث السعادة والخير ، ومن حيث الشقاء والعذاب الدائم ، وبالتالي فنحن مجبورون على الاستسلام لتلك العواقب .

وقد كانت جهود العلماء والمحققين في الفنون التكنولوجية في عصرنا ناجحة إلى حدّ ما في استعادة الأمواج الصوتية للسابقين من بني الإنسان ، وقد نجحوا في حدود خاصة وبمساعدة الأجهزة المعقدة أن يعيدوا أصوات بعض الصانعين للأجهزة اليدوية التي انطبعت ارتعاشات أيديهم على صفحة تلك الأجهزة .

إن هذه الإنجازات العلمية هي بنفسها شاهد على أن البعث حق ، وهو طريق للنظر إلى المعاد نظرة مقرونة بالتفكير لمعرفته وإثباته بشكل علمي وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون الله قادراً على إعادة بناء جسم الإنسان من ذرّات التراب المبعثرة ؟ .

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة غير مرة قائلاً :

﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة تلفتنا لنفكر في القوة الخلاقة المبدعة لله سبحانه وتعالى ، وتعرض ببيان رائع ماضي الإنسان ومستقبله في الدنيا والآخرة بشكل يملأ نفس الإنسان المضطربة استقراراً ، وذلك لأنه لا يمكن تبرير انعدام الإنسان بالموت ، وتصبح عندئذٍ التغيرات الحاصلة في الخلق شيئاً لا

---

(١) سورة طه : الآية ٥٥ .

هدف له ، وعبثاً لا حكمة فيه .

ومن الواضح أن الحياة الدنيا أقل بكثير من أن تصبح مؤهلة لتكون الهدف الغائي للخلقة ، ولو أننا أخذنا بعين الاعتبار الوجود بأجمعه لوجدنا أن هذه النتيجة الضئيلة جداً لا يمكن أن تكون لها قيمة تلك المقدمة الرفيعة العظيمة .

والقرآن الكريم أيضاً يواجه الذين يظنون بأن جسم الإنسان قد تلاشى وتبعثر نتيجة للتأثيرات الكيميائية للأرض ، وقد ضاع فيها ولا يمكن إعادته إلى الحياة مرة أخرى بقوله تعالى :

﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب * إئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾[1] .

فهذه الآية تبين للذين لا يصدقون قصة بعث الموتى من جديد ، وتصرّح بأن نفس تلك العناصر المكونة للبدن التي تحلّلت شيئاً فشيئاً وعادت إلى مخازن الطبيعة نحن نعلم بمكانها أين هي ، وفي يوم القيامة نجمع أجزاءها المتفرقة ونعيد صياغة البدن الذي تظنون أنه أمر غير ممكن ، فهي صياغة في قالب جديد ولكن المحتوى يحتذي المثال السابق .

وعندما كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) يتناول مسألة المعاد في صدر الإسلام جاءه رجل أعرابي من الصحراء يسمى « أبي بن خلف » وهو يحمل قطعة عظم متآكلة ، ولكي لا يهزم أمام استدلال النبي (صلى الله عليه وآله) ومنطق القرآن فإنه قام بفت قطعة العظم تلك واعتبر ذلك دليلاً حياً ناطقاً ينفي المعاد ، فلما وصل إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) نثر ذلك العظم المطحون في الهواء قائلاً بألفاظ خشنة ناشئة من روحه المتمردة الجاهلة :

﴿ من يحيي العظام وهي رميم ؟ ﴾[2] .

(١) سورة (ق) : الايات ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) سورة يس : الايه ٧٨ .

وكان يظن أنه بهذه الوثيقة سوف يسقط منطق النبي (صلى الله عليه وآله) ويجر الآخرين أيضاً إلى الإنكار ، ويختم على فكرة إحياء الموتى بخاتم البطلان .

لقد كانت أفكاره الجاهلية ناقصة إلى حد أنه لا يملك فكرة واضحة عن خلق الموجودات، ولا يملك جواباً صحيحاً للمشكلة المعقدة التي تواجهه ، فهو يتخيل أن العظام النخرة التي تحوّلت إلى تراب وتناثرت ذرّاتها في الآفاق المتباعدة لا توجد أية إمكانية لإعادة هذا المعدوم .

وهو يصر على أن تبدل البدن تدريجياً إلى مجموعة من الذرّات المتناثرة يجعل إعادة تركيبها وصياغتها أمراً لا يقبله العقل ، فالذّرات المبعثرة لا يمكن أن تبدأ حياة جديدة .

ولكن القرآن يجيب على ذلك بأسلوب رائع واستدلال قوي :

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم ﴾[2] .

إن القرآن الكريم يدعو العقل الإنساني المزوّد بقوة الإدراك والمعرفة إلى التعمّق في دراسة بناء الوجود الهائل وما فيه من ظواهر وجزئيات دقيقة، وما يسيطر عليه من قوانين حكيمة وثابتة، حتى يستطيع الإنسان من طريق التفكير أن يفهم أن إعادة حياة الإنسان يوم القيامة ليست أصعب من خلقه الأول المتمثل في النظام الحالي ، حيث يتركب جسمه من مجموعة هائلة من المواد المتنوعة .

فالدقة في التفكير تنتج الأفكار السليمة ، ومن هنا فإنه على الإنسان أن يظفر بصورة واضحة عن هذه الدنيا التي يعيش فيها تعينه في الوصول إلى

(١) سورة يس : الآيات ٧٩ ـ ٨١ .

أعماق المسائل، وتضفي الشكل المنطقي عليها .

ويؤكّد القرآن الكريم على موضوع إعادة التركيب بقوله :

﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾[1] .

إن القرآن يريد أن ينبه الإنسان إلى أن إعادة الحياة التي تبدو غير ممكنة بالقياس إلى القدرة البشرية ليست بالشيء المعقد ولا أمراً مستحيلاً بالقياس إلى قدرة الله اللانهائية التي منحت الجسم الميت حياة .

ويستطيع هؤلاء أن يسألوا أنفسهم عن أجزاء أبدانهم الحالية التي كانت مبعثرة في أرجاء الأرض قبل ذلك كيف هب عليها نسيم الحياة وظهر موجود حي من مادة غير حية ، إذن تبعثر الذرّات وتباعدها عن بعضها لم يمنع من تركبها والتئامها .

إذن كما أن بعد عناصر البدن عن بعضها لم يؤدّ إلى انفصالها دائماً فالذهن البشري يستطيع أن يتصوّر هذا الموضوع بوضوح فلا يجد أي صعوبة بالنسبة لخلّاقيّة الله اللامحدودة أن تعيد تركيب هذه الأعداد الهائلة من الذرّات المتباعدة، ثم تنبعث منها الحياة فيظهر خلق جديد .

ويذكّر القرآن الكريم بقدرة الله اللانهائية القادرة بالنسبة لإعادة التركيب حتى على إعادة الخصائص والميزات الدقيقة لأعضاء الجسم الإنساني فيقول تعالى :

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾[2] .

ففي هذه الآية تأكيد على أن الله ليس قادراً على جمع العظام النخرة للأموات وإحيائها من جديد فحسب ، بل وحتى الذرّات المبعثرة في الآفاق

(١) سورة (ق) : الآية ١٥ .

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٣ ، ٤ .

تستطيع القوة الإلهية العظيمة أن تربطها ببعضها وتعيد إليها الحياة مرة أخرى .

فإذا أقدمت القوة الإلهية على إعادة الحياة للإنسان من أجل تحقيق الهدف النهائي من خلق العالم ، فإنها كما استطاعت إضفاء الحياة على سطح الكرة الميتة التي لا حركة فيها فهي تستطيع أيضاً أن تعيد صياغة الإنسان في يوم القيامة ، ولا يوجد أي عامل يحدد تلك القدرة اللانهائية ، إنها قادرة على أن تعيد له كل خصائصه الجسمانية .

وتوجد في هذه الآية ملاحظة ظريفة، فالله سبحانه يختار من بين جميع عجائب جسم الإنسان خطوط الأصابع فيذكرها على أساس أنها شاهد على قدرته ، وذلك لأن من المحتمل أنْ يتشابه الأفراد تشابهاً نسبياً في مورد سائر الأعضاء ، ولكنه لا يوجد في جميع العالم شخصان متشابهان تماماً في خطوط أصابعهما .

فالعلوم التجريبية الحسية قد أثبتت أنه خلال جميع مراحل العمر والتغييرات الطارئة على تركيب الجسم تبقى خطوط الأصابع ـ هذه الظاهرة الاستثنائية ـ ثابتة بشكل واحد ، وهذا مغاير تماماً للتغيرات المتعاقبة على الجسم الإنساني ، وإذا زال الجلد المغطي لليد أحياناً بسبب أمور عارضة فإن جلداً جديداً ينمو مكانه وهو يتمتع بنفس الخصائص الأولى ، ولهذا فإن المتخصصين في طبع الأصابع يعلمون جيداً أن أثر الأصابع هو أفضل وسيلة لتشخيص هوية الأفراد . ويعتبر أثر الأصابع وثيقة مهمة في عالمنا المعاصر يستخدمها شرطة الإجرام لاكتشاف الجرائم . ولم تكن هذه الظاهرة معروفة للإنسان قبل اثني عشر قرناً من اكتشاف العلم لها ، أي حين نزول القرآن الكريم ، فقد توصل إلى هذا السر العلماء الإنكليز عام ١٨٨٤ م . ومن هنا فإن عقل الإنسان الواقعي يدرك من دون شك ولا ريب أن ليد الله القادرة القوية دخلاً مباشراً في ظهور كل هذه العجائب ، وإلا فأي عاقل يستطيع أن يقبل بأن حركة ميكانيكية عمياء تستطيع أن تخلق مثل هذه الظاهرة الدقيقة الرائعة .

وهذا هو تجسم البعث في دنيانا

إننا نلاحظ في هذا العالم حركة لا تتوقف ومناظر رائعة من عودة الحياة إلى الأشياء الميتة ، فلو أننا في فصل الشتاء تجولنا في المزارع والبساتين لواجهنا خموداً وركوداً يمكن تشبيهه بمقبرة إنسانية هادئة لا حركة فيها .

إن هذا الجو الساكن الباعث على الانقباض لا يوجد فيه أثر للأوراق والأزهار والطراوة . ويستمر هذا حتى يبدأ فصل الربيع فتستعدّ البيئة لعودة الحياة إلى النباتات من جديد ، وتوجد الأرضية التي تعود فيها النباتات إلى نشاطها الحيوي ، وفي هذه المرحلة الزمنية يهب نسيم الحياة على أموات الأمس القريب فتتغير الأوضاع فجأة وتتحرك الأرض الهامدة وتحل فيها روح جديدة وتتفتح البراعم في أغصان الأشجار التي كانت قبل فترة قصيرة عارية جافة ، وتتحول الأرض التي كانت قبل قليل لا حياة فيها إلى بساتين غاصة بالورود والخضراوات . وهكذا تحل هذه اللوحة الطبيعية الآسرة للقلب محل البيئة الباردة الجافة التي لا روح فيها .

إن هذه المناظر من الموت وعودة الحياة التي تتكرر أمام أعيننا كل عام لا يلتفت إليها كثير من الناس ، وبدل أن يستثار فيهم حس البحث والتنقيب وبدل أن يستفيدوا من هذه المجالات المثيرة دروساً قيمة وأساليب للاستدلال والاستنباط صحيحة فإنهم يمرون بها غير عابئين ويتجاوزونها غير مبالين .

إن حالة الدقة في الإنسان ـ مثل قدرته على التفكير الواضح ـ تحتاج

إلى نضج وبذل جهد ، والدقة هي الأساس في فهم المسائل المعقدة ، ولكن عدم الاهتمام في الحياة اليومية بالواقعيات الخارجية يؤدي إلى خطر غربة الإنسان عن الحقائق المحيطة به إلى حد الملل، وينتهي به إلى عقم في التفكير ، بينما التأمل في الأشياء المختلفة والتعمق في كيفية تغير الظواهر الموجودة في هذا النظام والتحليل السليم لكل تحول بسيط أو معقد يؤدي بالإنسان إلى إدراك عميق للدنيا وكل ما يجد فيها، ويمنحه القدرة على تقييم مكتسباته والاستفادة منها إلى أقصى حد يستطيعه .

ومن جهة أخرى فإن هناك كثيراً من العلماء الذين استعانوا بعقولهم وذكرتهم هذه المناظر بحياة الناس وموتهم وجسمت أمام عقولهم مفهوم البعث و النشور .

ولا يوجد ما يدل على أن قدرة التأمل وتنظيم وتبويب المشاهدات العينية والربط بينها من أجل الاستنتاج منها مختصة بالعلماء ومقصورة على المتخصصين ، وإنما سبيل المعرفة والتفكير في المسائل مفتوحة تماماً للجميع على اختلاف درجاتهم في العلم والوعي، فكل واحد يستطيع أن يستفيد من الحوادث والظواهر المحيطة به بمقدار ما يتمتع به من استعداد وقدرة على ا لتفكير .

فإذا كانت الأرض اليابسة والأشجار العارية إلى حد الأمس القريب متوقفة ـ بشكل موقت ـ عن النشاط والحركة بسبب وجود ظروف غير مساعدة على الحياة ، فلا نلاحظ فيها أثراً للحياة فإنها اليوم غارقة في الحياة والطراوة والحركة نتيجة للعوامل الطبيعية وسقوط الأمطار . فلماذا نعد هذا القانون الطبيعي في الموت والحياة مقصوراً على عالم النباتات ؟

وهل يوجد دليل على نفي هذا البعث عن الإنسان وأنه غير ممكن بالنسبة إليه، فالنباتات أفضل نموذج على ظاهرتي الحياة والموت، ففي بذور النباتات الميتة التي لا حركة فيها توجد الخلية الحية هادئة مستقرة ، وقد

تبقى أحياناً بهذا الشكل سالمة قابلة للزراعة آلاف السنين .

وبعد زراعة هذه البذور تستيقظ الخلايا التي في أعماقها نتيجة للرطوبة والحرارة وتبدأ نموها فتخرج من باطن الأرض بشكل زهور وبراعم وشجيرات .

والناس أيضاً بعد موتهم يدفنون في باطن الأرض فيتحولون إلى تراب ، وعندما يحين أوان القيامة وتصبح الظروف مساعدة على عودة الحياة من جديد فإن ذرات الأجساد تتحرك وتنمو الأجسام منها كما تنمو النباتات من تلك البذور .

ونحن نسلم أن نشاط الأرض يتعطل أثناء فصل الشتاء بسبب ضغط العوامل الطبيعية ، ويعتبر هذا توقفاً في النشاط الحيوي وليس موتاً حقيقياً ولا قطعاً كاملاً لحبل الحياة ، ولكنه ينبغي الالتفات إلى أنه في بدء الخلق كانت الأرض خالية من أي موجود حي ، ثم بعد أن وفرت الظروف المناسبة للحياة انطلقت أول شرارة للحياة من هذه الأرض الميتة .

أجل إن الحياة حقيقة غامضة ، وقد يبقى هذا العنصر المجهول محفوظاً داخل أجزاء الجينات والذرات آلاف السنين بشكل خفي لا حركة فيه ، وبمجرد أن تساعد الظروف وتتهيأ الشروط فإن الحياة تنطلق من أعماق الذرات والخلايا المدفونة في التراب وتبدأ نموها ، ولا يوجد أي دليل علمي يرد هذه النظرية ، وذلك لأن المحققين من العلماء قد اكتشفوا «الفيروسات» التي لا يمكن رؤيتها حتى بوساطة المجهر الإلكتروني الذي يكبر الأشياء الواقعة تحت عدساته ملايين المرات ، فهي موجودات ضئيلة الحجم جداً ولا يستطاع رؤيتها حتى إذا كبرناها ملايين المرّات ، وفي الوقت نفسه فهي تتمتّع بالحياة والحركة وتنتج المثل .

فالإنسان كلما نقب عن الحياة في العوالم اللانهائية في الصغر فإنه لا يصل إلى النهاية ، وهو لم يستطع حتى تعيين أبعاد الجينات والكروموسومات

الناقلة للصفات الموروثة وخصائص الوالدين والأجداد ، فحتى في هذه المراحل البسيطة جداً التي تصل إلى حدود الذرات تتفجر الحياة وتنبع الحركة .

فإذا كانت الحياة كامنة في أعماق هذه الأجزاء غير المرئية بعيداً عن متناول الأيدي ، ولايستطيع أي عامل للتغيير والتبديل أن يخرجها من مكمنها وأن يؤثر فيها، فأي دليل في أيدينا يثبت أنه لا يمكن أن تبقى الحياة محفوظة بشكل خفي في أعماق الخلايا المتحللة من بدن الإنسان في الأرض ولو كان ذلك مستمراً لمدة طويلة ؟ أو لماذا لا يمكن أن تكون كالحشرات الغاطة في سبات الشتاء ثم عندما ينتهي هذا الفصل فإنها تبدأ حركتها ونشاطها ، وبالتالي فأي عقبة تقف في الطريق بحيث تمنع الحياة أن تعود من جديد بعد الموت ؟

والقرآن المجيد الذي يمد نظره إلى جميع أرجاء الوجود الواسعة المليئة بالنشاط والحركة يقارن بين عودة الحياة إلى بني الإنسان وعودة الحياة إلى النباتات لكي يوضح مسألة البعث فيقول :

﴿ ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾[1] .

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾[2] .

فهذه الآيات الكريمة تذكر أدلة للذين لا يصدقون بالحياة بعد الموت وهي أدلة مأخوذة من الحياة الدنيوية المحسوسة التي يؤمنون بها ، وذلك بقصد هدايتهم إلى هذا المستقبل الخطر ، وهي تجيب المكذبين ببرهان

(١) سورة ق : الآيات ٩ـ١٠ ـ١١ .

(٢) سورة نوح : الآيتان ١٧ـ١٨ .

قاطع وعلامات عجيبة من كتاب الطبيعة ،ومع هذا فإن فئة معاندة لجوجة لا تستخدم عقلها وهي تمر على هذه البراهين الحية معصوبة العينين وتقابل هذه الحقائق الصارخة مغلقة نوافذ القلب . ولننصت مرة أخرى إلى القرآن الكريم :

﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾[1]

فالتعبيرالوارد في هذه الآية ملفت للنظر حيث وصفت الأرض بأنها ميتة لا الأشجار ، وكأنه إشارة إلى أن نواة الشجرة الضخمة أو بذرة النباتات ذوات الأوراق والغصون والزهور تحتوي خلية حية تملك استعداداً للحركة والنشاط في المستقبل حسب ما يحدث من تغييرات في بيئتها .

إن هذه الخلية التي تعتبر الركن الأساسي تتمتع بإمكانيات موجودة فيها بالقوة وهي الآن تمر بمرحلة غير فعالة بسبب ما يحيطها من ظروف خاصة ، ثم إنها تبدأ نموها بصورة مستمرة ومنظمة بعد سقيها وتوفير سائر العوامل الطبيعية لها وذلك ضمن محاولتها تكييف نفسها مع الظروف المحيطة بها .

وذلك التراب الميت نفسه يتميز بهذه الخاصة وهي أن يصبح جزءاً من الجذور والساق والأوراق ويتغير شكله في جسم النبات والأشجار ويتحول إلى أعداد غفيرة من الخلايا الحية ،ونحن نشاهد هذه الصور المتحركة من التراب بأشكال مختلفة .

إذن قد تحولت الأرض المحرومة من الحياة هنا إلى موجودات حية ، وهو تعبير رائع وبليغ .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي (ع) :

---

(١) سورة الحج : الآيتان ٥ ، ٦ .

« عجبت لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى »[1] .

ففي هـذه الجملة يبدي الإمـام (ع) حيرتـه من هؤلاء المغفلين الذين يمـرون بسرعـة على المواضيـع المهمة المليئـة بـالعبـر والـدروس دون أن يستفيدوا منها .

والقرآن الكريم ـ المزود بتأثير غير محدود والذي لا بـد من استغلالـه مفتاحاً في حل أسرار العالم ـ يلفت أنظار الناس إلى المعاد عن طريق التنبيه على خلق الجنين أيضاً فيقول :

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقـة لنبيّن لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾[2] .

﴿ فلينـظر الإنسـان ممّ خلق * خلق من مـاء دافق * يخـرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر ﴾[3] .

ونحن نعلم أن تغذية الإنسان تتم عن طريق تناوله الأطعمة المختلفة وعصارة المواد الترابية وهي النباتات واللحوم والألبان ، فهـذه المواد تنهض بالدور الأساسي في تأمين احتياجات جسمه .

وعلى هذا تكون النطفة ـ التي تقطع مراحل معينة ثم تتحول إلى إنسان يوجد في الخارج ـ شكلاً متحولاً عن التراب ، وهو نفس ذلك المولود الذي يتميز بمكانة خاصة وممتـازة من بين سائر الظواهر ، وقد نال هـذه المنزلـة بفضل ما زود به من قوة رفيعة و نظيفة .

فرؤية تحول التراب الميت إلى نطفة ثم إلى إنسان توضح لنا مسألـة

---

(١) غرر الحكم : ج ١ ص ٤٩٣ .

(٢) سوره الحج : الآية٥ .

(٣) سورة الطارق : الآيات من ٥ إلى ٨ .

خروج الحي من الميت وموضوع البعث والنشور ، وهكذا ندرك بوضوح حقيقة كلام الله حيث يقول :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[1] .

إن التحولات المتعاقبة للجنين في عالم الرحم وقطعه لمراحل شديدة الغرابة وقفزاته إلى الأمام ـ كل هذه تعد من الحوادث المحيرة التي تقع في عالم الخلق .

ويقطع الجنين هذه المراحل بنجاح فائق خاضعاً للقوى الداخلية للبدن ومزيلاً جميع الموانع التي تقف في طريقه فيواصل مسيرة بعيداً عن تدخل الإنسان وسيطرته .

ومع أن خلايا الجنين في مراحله المختلفة متشابهة ، ولا تلاحظ أي علامة تشير إلى أن هذه الأكداس من الخلايا إلى أي عضو من الأعضاء الإنسانية تعود ، ولكن تغييرات مفاجئة تحدث في الخلايا المتشابهة تجعلها مؤهلة لإيجاد الأعضاء ، ولسنا نعلم لحد الآن كيفية حدوث هذه الظاهرة وظروفها .

فالخلايا المجتمعة والمختلطة المستقرة في مكانها تنفصل عن بعضها ، وكل خلية تتعلق بعضو معين فإنها تتجه إلى مكانها ، وبوساطة هذه الخلايا يبدأ جسم الجنين في التعين إلى أعضائه وأجهزته ، عندئذٍ تمتد يد الله القديرة فتنفخ الروح في هذا الجسم الذي لا روح فيه حتى يضاف إلى ساحة الوجود عنصر قيم آخر .

يتناول المفكر الفرنسي المعروف الدكتور (الكسيس كارل) عجائب الخلية الجنينية فيقول :

« نحن نعلم أن جسم الإنسان قد تكون في البدء من خلية واحدة

---

(١) سورة طه : الآية ٥٥ .

فانقسمت خلال نموها إلى خليتين ، وكل واحدة من هاتين انقسمت بدورها إلى خليتين ، ويستمر هذا الانقسام حتى يتحقق للإنسان نموه المطلوب .

ومع أن الجنين يسير في كل لحظة نحو التعقيد من حيث تركيبه أثناء نموه ولكنه يحتفظ ببساطة العمل في البذرة الأساسية ، فالخلايا الواقعة بين الأعداد الهائلة من الخلايا المكونة للنسيج أو العضو لاتنسى أبداً وحدتها الأصلية ، وهي تعرف بشكل مسبق وظائفها التي سوف تتولاها فيما بعد في مجموعة الجسم .

ويتم بناء كل عضو بطرق خاصة تحمل الإنسان على العجب ، والحقيقة أن « المواد الإنشائية » في بناء الخلايا لا تشبه المواد الإنشائية المستعملة في بناء البيوت ، بل في الواقع لا يوجد بناء ، ولو أنه كما ترتفع البيوت من اللبنات فإن الجسم ايضاً يبنى من الخلايا ، ولكننا لتشبيه هذين ببعضهما نحتاج إلى فرض بيت يبنى من لبنة واحدة فقط ، تلك اللبنة استطاعت بمفردها أن تبني لبنات عديدة من ماء النهر وأملاحه المعدنية والغازات المنتشرة في جوه ، ثم إنها وضعتها فوق بعضها من دون تخطيط معمار ولا حضور بناء ، ورفعت بها الجدران ، وأخرجتها بشكل زجاج للنوافذ وغطاء للسقف وفحم للمطبخ وماء للمغاسل ، وخلاصة الحديث فإن التركيب العضوي يشبه الأساطير الخرافية التي تنقل للأطفال »[1] .

إنه لشيء عجيب أن يصنع الخالق القدير خلال هذه التحولات السريعة من هذه الخلية الحية الملقاة في الرحم إنساناً مزوداً بأعضاء متناسبة جداً ومتوازنة ، وفي جسمه توجد أجهزة عديدة تعمل بشكل ذاتي ، وهي نشطة منذ يخلق في الرحم وحتى يحين موته .

فهل مع هذا كله يكون الله عاجزاً عن إعادة هذه الذرّات المبعثرة في كل ناحية بعد الموت إلى حالتها الأولى مع أنها متحولة من شيء واحد ولها منبع واحد ؟ .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٠٢ ـ ١٠٣ نقلاً عن الفارسية .

وهل يستطيع أحد يرى أمامه الخلق المحير للجنين أن ينكر إمكانية عودة الحياة من جديد إلى الأموات ؟

وهل بعث الأموات شيء أعقد من هذا ؟ .

ففي إدراك الواقعيات لا ينبغي دراسة المسائل بنظرة قصيرة وجهد متواضع ، بل لا بد من التفكير في الحقائق المدهشة المسيطرة على العالم ، ولا بد أيضاً من دراسة المشاكل بفكر مفتوح وعقل قدير وعمق ليس باليسير .

وفي عالم الحيوانات تتم عملية إكمال النواقص لأجزاء وجودها مرات عديدة فبعض الزواحف إذا فقدت جزءاً من عضو أو عضواً من أعضائها فإنها تستطيع تعويضه ، وهناك نوع من الدود إذا قطع إلى قطع متعددة فإن كل قطعة منها سوف تنمو إلى دودة كاملة[1] .

وصحيح أن هذا اللون من الترميم لا يحصل في مورد الإنسان ولكنه عندما تتوفر الظروف والبيئة المناسبة فإنه لا يجوز أن نعتبر نمو البدن الإنساني من ذرة غير ممكن كما تنمو الشجرة من جزء صغير ، فنحن نلاحظ أن ظروف الرحم تؤدي هذا العمل بأفضل صورة ، فهي تنمي الخلية الواحدة لتصنع منها إنساناً وتوصله إلى الكمال .

فإذا كانت بذرة الوردة ـ التي تكمن فيها كل أسرار الوردة ـ تتحول من خلال ظروف نموها إلى مزهرية جميلة يفوح أريجها فإن الخلية الحية أيضاً يمكن أن تحمل في أعماقها الخصائص الإنسانية الكاملة ، ثم هي تعيد صياغتها في ظروف مناسبة .

سئل الإمام الصادق (ع) :

« عن الميت يبلى جسده ؟ قال : نعم حتى لا يبقى له لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى ، تبقى في القبر مستديرة حتى يخلق

---

(١) العلم والحياة ص ٤١٠ نقلاً عن الفارسية .

منها كما خلق أول مرة »[1] .

والقرآن الكريم أيضاً يؤكد بصراحة تامّة على قدرة الله اللانهائية ، ويدعو المنكرين للتفكير بشكل أعمق في نظام الوجود ، وهو يعتبر الذين ينظرون إلى الأمور بنظرة التعقل مؤهلين لإدراك موضوع البعث. فيقول تعالى :

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منيّ يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ﴾[2] .

فالنظرة العلمية العميقة إلى كل العالم ودراسة ما فيه من أسرار دراسة مستفيضة ، والإيمان بلانهائية القدرة الإلهية ـ كل هذه تؤدي بنا إلى الإيمان القوي بموضوع المعاد وعودة الحياة من جديد فتستقر عقولنا . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن العلم البشري محدود ، ولا سيما فيما يتعلق بمعرفة الأبعاد المختلفة للوجود حيث يبدو بوضوح ضآلة العلم الإنساني في هذه المجالات ؛ عندئذٍ ندرك أن منجزات العلم ـ بكل ما تحتوي من عظمة وجلال ـ لا تستطيع حل جميع المشكلات .

ولكن سمع وبصر وعقل الإنسان السطحي المحدود التفكير قاصر عن إدراك الواقعيات وخاصة عندما تتحرك في نفسه روح العناد .

فنحن نعلم إلى أي حد تتنوع صور الحياة في كرتنا الأرضية الصغيرة التي لا تعتبر شيئاً إزاء الأبعاد المحيّرة لعالم الوجود، وحتى كيفية الحياة فيها وخصائص أجهزتها الحيوية مجهولة بالنسبة إلينا ، ولهذا فلا ينبغي لمنكري المعاد أن يقدموا على نفيه بشكل أعمى ، وعلى الأقل فليكن حكمهم محتاطاً خالياً من القطع .

---

(١) الفروع من الكافي الجزء الثالث ص٢٥١ .

(٢) سورة القيامة : الآيات من ٣٦ إلى ٤٠ .

والتعمق فيما حولنا من واقعيات يقودنا إلى معرفة شيء ما عن القدرة الإلهية ، وعندئذ ندرك أن موضوع البعث وإحياء الموتى ليس شيئاً أهم من هذا النظام العجيب بكل ما يضمه من تعقيد في التركيب وأجهزة مختلفة منسجمة ومتناغمة بشكل رائع .

إن الذي يتمتع بعقل منفتح ينظر إلى الأمور بهذا الشكل .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾(١) .

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾(٢) .

إذن ذلك الذي خلق الوجود بكل عجائبه وأخضع كل ما فيه من كبير وصغير لعدالته الدائمة ومنح بعض الموجودات الحياة أيضاً لقادر قطعاً على إعادة الحياة للموتى ، وذلك لأن إحياءهم سوف يكون عندئذ أسهل من إبداع كل الوجود ، والعقل الإنساني يحكم بأن جمع وربط الأجزاء المتفرقة لموجود ما أسهل بكثير من إيجاده وخلقه .

وبالنسبة للأجهزة الصناعية أيكون تجميع أجزائها أصعب أم صناعتها ؟ .

من المؤكد أنه بالنسبة لصانع الجهاز لا يعدّ تفكيك أجزائه وإعادة تركيبها أمراً صعباً .

ومن هنا نعلم أن الله الذي هو مبدع الإنسان وخالقه من تراب في البدء ثم يمنح الحُياة لنسله بوساطة خلية حية لقادر من دون شك بعد موته وتفرق

---

(١) سورةالشورى : الآية ٢٩ .

(٢)سورة الأحقاف : الآية٣٣ .

أجزائه على إعادة تركيبها ، فلا يطرأ أي نقص على قدرته .

فكما أنه حول خلية لا ترى بالعين المجردة إلى ملايين الخلايا وإلى عظام وجلد ولحم بخطة رائعة ودقة عظيمة فأوجد منها إنساناً كاملاً، كذلك هو قادر على أن يبدأ هذا العمل من جديد فينمي ذراته المتحولة ويمنحها الحياة .

ونحن لا نعلم شيئاً عن خلقة الإنسان سوى أن فرداً يولد من فرد آخر، أما الله سبحانه فهو العالم بجميع تفاصيل الخلقة كما يصرح بذلك القرآن الكريم :

﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾[1] .

وهي نفس تلك القدرة اللانهائية التي أبدعت الموجود الحي الأول من غير طريق الولادة ، أي من طين .

ويفصّل القرآن هذه الحقائق فيقول :

﴿ أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾[2] .

فهذه الآيات تذكر بالإرادة والمشيئة الإلهية التي تنقل الإنسان عبر مراحل متنوعة حتى توصله إلى حد الكمال ، وتشير إلى أن هذه المراحل بأجمعها تتم بإرادة الله من دون أن يكون للإنسان أي دخل في هذا المضمار ، وذلك لأنه سبحانه هو وحده الذي يأتي بنا ويدير شؤوننا ثم يذهب بنا من دون أن يستشير في ذلك أحداً منا أو يطلب منه أقل عون .

إذن تلك الإرادة والقوة اللانهائية التي يخضع لها الإنسان مجبراً في

---

(١) سورة يس : الآية ٧٩ .

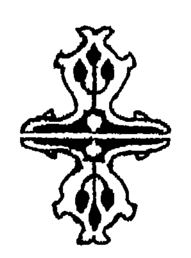
(٢)سورة الواقعة : الآيات من ٥٨ إلى ٦٢ .

نموه وكماله قادرة تماماً على تكرار هذا المشهد الرائع .

ويعلن القرآن ايضاً :

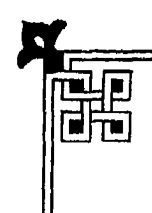
﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[1] .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .



(1) سورة الروم : الآية ٢٧ .

(2) سورة المؤمن : الآية ٥٧ .



لهذه الأسباب لم يكن الموت نهاية الحياة

يمكن الاعتماد على وجود الروح واستقلاله بعنوان أنه دليل حاسم على موضوع المعاد وعالم ما بعد الموت .

وقد أبدى العلماء ذوو الخبرة في مجالات الروح الغامضة آراء عديدة ، ولكنه كلما اتسع نطاق البحوث الفلسفية وانتشرت العلوم وازدادت الثقافة كانت هناك علامات أوضح على إثبات الروح وتجرده ، ولو أننا لا نحقق النجاح التام في توضيح ماهيته ونظل عاجزين عن إزاحة الستار عن جميع الأسرار المعقدة لهذا العنصر الخالد .

ولهذا فإن القرآن الكريم يعتبر ماهية الروح حقيقة غير معروفة ، بحيث تكون يد الإنسان قاصرة عن معرفتها بشكل دقيق ، وعندما يسأل رسول الإسلام (ص) عن حقيقة الروح فإن القرآن يجيب :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[1] .

وتمر الآن على جواب القرآن هذا أربعة عشر قرناً اتسع فيها مجال العلم البشري كثيراً عما كان عليه في أيام رسول الله (ص) ولكنه لم يضف

(١)سورة الإسراء : الآية٨٥ .

إليه شيء أساسي في هذا المضمار ، ولا تزال ماهية الروح مجهولة بالنسبة للعقل البشري ولم يستطع أحد من الناس أن يتبينها بوضوح ، وكما صرح القرآن فإنها مغلفة بهالة من الإبهام والغموض ، ولا يوجد احتمال أيضاً بأنه سوف يأتي يوم يزول فيه فتصبح مؤهلة للفهم والتوضيح .

يقول العالم المعروف (هنري برجسون) :

« قد نضع قبلياً ، كما فعل أفلاطون ، تعريفاً للنفس ، فنقول إنها لا تحلل لأنها بسيطة ، ولا تفسد لأنها غير منقسمة ، وإنها بطبيعتها خالدة ، ثم ننتقل من ذلك عن طريق الاستنتاج إلى فكرة هبوط النفوس في الزمن ، ففكرة العود إلى الأبدية . ولكن ماذا تقولون لامرىء ينكر وجود النفس المعرفة على هذا النحو ، وكيف تستطيعون أن تحلوا المسائل المتصلة بالنفس الواقعية ، وأصلها الواقعي ، ومصيرها الواقعي ، حلاً واقعياً ، بل كيف تستطيعون أن تطرحوها في تعابير واقعية ، وكل ما فعلتم أنكم تتأملون تأملاً نظرياً في مفهوم فكري قد يكون فارغاً ، أو وضحتم اتفاقياً معنى كلمة وضعها المجتمع لجزء من الواقع اقتطعه لسهولة التخاطب ؟ إن التقرير يظل عقيماً ما دام التعريف اتفاقياً . والمفهوم الأفلاطوني لم يتقدم بمعرفتنا عن النفس قيد شعرة ، رغم ألفي سنة انقضت في التأمل على أساسه »[1] .

ويقول المحقق الإنجليزي (دكتر جسر) :

« قال البعض إن مجموعة الأعمال الميكانيكية للمخ هي التي تشكل « الأنا أو الذات » ، وادعى البعض الآخر أنها عبارة عن المخ مضافاً إليه شرارة غامضة هي التي تخرج من البدن عند الموت . وأنتم تعلمون أن الفلاسفة قد أطالوا التفكير في الروح وماهيته ومكانه في البدن وهل أنه ينعدم أم هو مخلد ، ولكن هذه المسألة لم يكتب لها حل نهائي لحدّ الآن ، ولا يزال العلماء يبحثون لها عن حل .

---

(١) منبعا الأخلاق والدين : ترجمة د. سامي الدروبي ود. عبد الله عبد الدائم ٢٨٠ .

وقد قرر كثير من المفكرين في الفترة الأخيرة أن يدرسوا الموضوع من زاوية أخرى ، أي أنهم أخذوا على أنفسهم أن يتركوا جانباً موضوع الروح المعقد والغامض جداً ، وأن يدرسوا فقط الذهن أو النفس ، أي مجموعة العواطف والعقائد والأفكار »[1] .

حقاً إن الإنسان إذا التفت إلى فشل جهوده في مجال معرفة الروح فكيف يستطيع أن يكف نفسه عن التصديق بأن هناك سراً كامناً يحملنا على التسليم والتعظيم ؟

ولا يوجد أحد من الماديين ـ الذين يختلفون اختلافات جذرية من حيث العقائد والآراء مع أتباع الأديان ـ قد اندفع إلى هذا الحد من الإنكار فرفض قبول هذه الحقيقة ، وإنما هم يعترفون بعلوم من أمثال علم النفس والطب النفسي ، إلا أن التفاوت الأساسي بينهم هو أن العلماء الإلهيين والفلاسفة الميتافيزيقيين يعتقدون بأن هناك حقيقة أخرى تشمل الوجود الإنساني وهي تختلف عن الجسم المادي ومن الحقائق المجردة ، ولها ماهية مختصة بها وتكون منشأ التدبر والتفكير في الإنسان .

ولا يعني هذا أن الجسم والروح منفصلان في الواقع بحيث يوجد كل منهما مستقلاً استقلالاً كاملاً ، وإنما هما حقيقتان مترابطتان ، وفي نفس الوقت لهما ماهيتان مختلفتان .

أما التفكير الفلسفي للماديين فهو يدور حول هذا المحور القائل إنه لا يوجد جوهر مستقل عن المادة يسمى الروح ، وهم يصرون على هذه الفكرة مدعين أن جميع نشاطات المخ وأجهزته خاضعة للقوانين االمادية ، وأنها آثار فيزيائية وأفعال وانفعالات كيميائية لخلايا المخ والخلايا العصبية .

أي أن مجموعتنا العصبية توصل إدراكاتنا دائماً إلى العضو المركزي وهو « المخ » ، وتشكل هذه الإدراكات مجموعة واحدة لا يمكن تشخيص

---

(١) النمو والحياةص ١٣٤ نقلاً عن الفارسية .

بعض أجزائها عن البعض الآخر ، وليست الظواهر الروحية سوى تلك النشاطات الفيزيائية الكيميائية ، وعندما تتحلل خلايا المخ وتتبعثر ، وتنعدم التأثيرات المتبادلة بين أجزاء البدن ، وتتوقف خلاياه عن الحركة والتوالد فإنه لا يبقى من حقيقة الإنسان شيء سوى الجسد المادي ، ولهذا فلا يمكن التصديق بلون من البقاء الروحي والوجود الجوهري الأصيل المستقل المتميز بخاصة غير طبيعية ، وذلك لأن كيفية ظهور الموجودات وبقائها معلولة لارتباطات المادة الزمانية والمكانية .

ومن هنا ينفصل المذهب الإلهي عن المذهب المادي فيسلك كل منهما سبيلاً تختص به .

ولكننا لو صدقنا حديث الماديين لأصبح الإنسان بمثابة جهاز عمل مركب من آلات ووسائل مختلفة ، وعندما تتلاشى التأثيرات المتبادلة بين أجزاء مادة جسمه فإن آثار التفكير والحياة فيه تنعدم تماماً .

ولا يستطيع هذا الكلام أن يفسر لنا حقيقة الروح البشرية ولا حقيقة الإنسان نفسه .

وصحيح أن الجسم خاضع للقوانين الفسيولوجية ، ولكن هذه الحقيقة لا تعني أن الإنسان بأكمله مربوط بالقوانين المادية ، أجل هناك علاقة بين الظواهر الروحية وخلايا المخ بحيث لا تكون الروح في هذا العالم قادرة على أي نشاط من دون مجموعة من الوسائل والأسباب ، فخلايا المخ والأعصاب والأفعال والانفعالات الكيميائية للمخ ـ كل هذه وسائل للروح ، والروح يمارس نشاطاته من خلال هذه الوسائل .

وعندئذ نتساءل : هل الروح ونشاطاته ـ من قبيل الإرادة والتصميم والإدراك ـ واقعيات مستقلة عن المادة أم هي حقائق مادية خالصة تابعة للقوانين المادية في كل الظروف وجميع الحالات ؟ .

فإذا تحدثنا مع شخص عن بعد بوساطة التلفون (الهاتف) فهل

المستمع الأصيل هو جهاز التلفون أم نحن ؟ .

وهل التلفون وسيلة لفعلنا وبوساطته تنتقل إلينا الأمواج الصوتية ، أم هو الفاعل الحقيقي والمستمع الواقعي ؟

ومثل هذا يجري بالنسبة إلى المخ ، فخلايا المخ إنما هي وسائل لعمل الروح وليست هي خالقة للروح ، وكل الأدلة التي يذكرها الماديون لإثبات وجهات نظرهم تثبت فقط أن هناك علاقة بين إدراكات الإنسان وخلايا المخ ، ولا تثبت أن المخ يؤدّي عمل الإدراكات ، ولا يدعي أحد من الإلهيين أن التفكير يتمّ بعيداً عن تأثير خلايا المخ .

ومهما اعتمد العلماء الماديون على العلوم التجريبية والتجارب المختبرية لإثبات العلاقة بين الإدراك أو الشعور والأفعال والانفعالات الكيمياوية التي تتم في المخ فإن هذا لا ينتج سوى أن للأعصاب والمخ دوراً حاسماً ومؤثراً في تحقق الإدراك والحالات النفسية ، ولكن هذه التجارب لا يستنتج منها بأي حال من الأحوال أن حقيقة الروح والنفس ليسا سوى هذه الوسائل والآثار الكيميائية والفيزيائية ، وأخيراً فإن إثبات مثل هذه العلاقة ليس كافياً لتوضيح خصائص الإدراك والشعور .

وإذا أردنا أن نضرب مثالاً للتوضيح لشبهنا الروح بالقوة الكهربائية المستعملة في تحريك أحد الأجهزة ، فكلما انقطع التيار الكهربائي عن هذا الجهاز فإنه يواجه الموت الظاهري مع أن جميع أجزائه سالمة لا عيب فيها . إذن عندما يتوقف التيار الكهربائي ـ الذي هو أحد شؤون هذا الجهاز والعامل الأساسي فيه ـ فإن الموت يجثم على الجهاز بأجمعه .

وعلى هذا فإن علاقة الروح بالبدن تنقطع عند موت الإنسان ولكن انقطاع هذه العلاقةلا يعني فناءالروح وانعدامه ،وهذا يشبه الحالة التي يصاب فيها جهاز التلفون أو المذياع أو التلفزيون بالعطب فلا نسمع صوتاً ولا نرى صورة لأن وسيلة الارتباط قد توقفت عن العمل ، بينما يوجد الصوت

والصورة في كل مكان ولكننا نحن لا نحس بهما ، ونشعر بهما فقط عندما يتصلان بالتلفون والمذياع والتلفزيون .

إذاً كما أنه في حالة اختلال جهاز التلفون والراديو والتلفزيون يبقى الصوت والصورة في مكانهما مستقلّين ومنفصلين عن الجهاز ، فإن الروح الإنساني أيضاً يتمتّع باستقلاله في نفس الوقت الذي يرتبط فيه بالبدن ، ولا يفنى عندما يصاب البدن بالموت .

ونحن نعلم أن عمل الجوانب المختلفة في البدن والمتشابهة تقريباً يتفاوت بشكل أساسي عن عمل المخ ، فمثلاً عمل الكليتين وسائر الأعضاء يتكون من نشاطات فيزيائية وكيميائية ، ويرتبط عملها بالجهاز الداخلي ، بينما ترتبط الظواهر الروحية بالعالم الخارج والمنفصل عن وجودنا ، ومن المؤكد أن العالم الخارجي لا يأتي بنفسه إلى أعماق وجودنا ، بل لا بد من الإحاطة بالموجودات الخارجية في حالة العلم بها ، وخلايا المخ عاجزة عن القيام بمثل هذه المهمة .

ومهما تأثرت هذه الخلايا بالخارج مثل سائر أنحاء البدن إلا أنها لا تستطيع معرفة الأمور الخارجية ، ولو كان ذلك ممكناً لاستطعنا أن ندرك بالمعدة أو الرئة الأشياء الخارجية ، ولهذا فإن خصائص إدراكاتنا تثبت لنا سيطرة حقيقة أخرى على وجودنا .

فنحن عندما نميز الحق من الباطل ، وندرك الجمال فنفصله عن القبح فإننا في الواقع نتحدث عن الخارج ونقيسه بمعايير ، إذن هناك قوة تميز بين الحق والباطل والصحيح والخطأ ، وهي التي تستطيع أن تفسر لنا حقيقة الروح الغامضة ، لأن الحكم والتمييز خارج عن نطاق الجهاز ا لعصبي ، وهو ينبع من التفكير والنشاط الذهني ، ولا يمكن تفسيره بالحس والتجربة .

إن هذا النور اللامرئي الذي يملأ أعماقنا فنميز بفضله بين الخير والشر ، الحق والباطل ، الجمال والقبح ، ليس هو إلا ذلك الواقع المطلق

والروح الأبدي الذي تدور حوله جميع الحوادث الزمانية ، بينما هو محور ثابت يرفض أي انقسام .

وتوجد حقيقة أخرى تثبت لنا استقلال الروح ، وهي وحدة الشخصية التي تشمل العمر بأجمعه .

فلا شك أن علم الإنسان بوجوده غير علمه بالموجودات الخارجية ، وذلك لأن العلم بالأشياء الخارجية يتم عن طريق الصور الذهنية لتلك الأشياء ، إذن علمنا بالأشياء الخارجية من قبيل « العلم الحصولي » ، بينما علم الإنسان بوجود ذاته لا يحصل عن طريق الصور الذهنية ، وهو علم حاضر لديه دائماً ولا ينفصل عنه ويسمى بـ « العلم الحضوري » .

فهو حضور مستمر، لا يجد إليه التحول والعدم سبيلاً ، وهو في الوعي والإحساس والتشخيص يتمتع بالدوام والثبات ، ويعتبر هذا العلم أوضح معلومات أي إنسان .

إن هذه الحقيقة البعيدة عن حالتي التغيير والزوال اللتين هما صفتا الواقع الخارجي ، والمسيطرة على البدن الترابي والمسيرة له ، والتي لا تخضع لأي جبر بيولوجي ، ونحن نطلق عليها اسم « الأنا » إنما هي شيء واحد منذ بدء المراحل الأولى من الحياة ، وحتى آخر لحظات العمر ، وهي التي بوساطة خلودها يتحقق الخلود للإنسان ، وهي تقع من حيث مراتب الوجود في أفق لا يتساوى أبداً مع أفق الماديات ، فكل إنسان يحتفظ بـ « وحدة شخصيته » خلال جميع المراحل التي تتعاقب عليه أثناء حياته .

والآن لننظر : هل أن هذه الحقيقة الخاصة هي هذه المجموعة من خلايا المخ أم لا ؟

نحن نعلم أن جميع خلايا المخ تتبدل تماماً خلال سبع سنوات تقريباً وذلك من خلال المواد الغذائية الواردة إلى الجسم من الخارج وتحول بعضها إلى طاقة فتتكون خلايا جديدة تحل محل الخلايا القديمة المتحللة . وكل

موجود حي فإنه خلال حياته قد يصاغ من جديد عدّة مرّات بالتغيير والتحوّل الدائميين اللذين يحدثان في ذرّات وجزيئات البدن .

فلو أن وجودنا ينحصر في هذه الأجزاء المادية فقط ، ولا وجود لقوة غير مرئية تسيطر على هذه الأمة من الخلايا وعلى النظام السائد في البدن للزم من ذلك أن تتصف ذاتنا بالصفات المادية ، ولما شعر أي واحد منا بأنه هو نفس ذلك الشخص الذي كان قبل عشر سنوات ، لأن الجهاز العصبي والمخ قد تغيرت خلاياه خلال هذه المدة كما تغيرت خلايا سائر أنحاء الجسم ، بينما كل واحد منا يشعر أنه يتمتع بحقيقة ثابتة لا تتحول طيلة فترة العمر وهي التي تشكل الشخصية الإنسانية وهي سر وحدة شخصيتنا .

إن كل إنسان يستطيع التأمل في باطنه فيدرك وجود روح مجرد فيه ، وهو يختلف في نوعيته عن وجوده الفيزيائي ، فكل منا يحس في داخله لونا من الاستقلال والتشخيص والاستمرارية والحضور الدائم ، وهذه أمور لا تنسجم مع الوجود المادي المتحول الذي يظهر كل يوم بشكل جديد .

إن شيئاً يسيطر على الجسم ، وهو لا يشبهه ، حيث إن العدم لا سبيل له إليه ، لا يمكن أن يعد من نتائج المادة ولا تابعاً لقوانينها ، ومثل هذه الفرضيات عاجزة عن تفسير حقيقة الإنسان .

يقول (كرسي موريسون) :

« من المسلم أن إيجاد وتكوين هذا العالم لم يكن صدفة ، وذلك لأن نظام العالم يدور طبق قوانين معينة .

وظهور الإنسان العاقل من بين الحيوانات لهو أمر أخطر وأغمض مما نتصور . وليس ظهوره معلولاً للتحولات المادية وإنما لا بد من تدخل يد الخالق ، وفي هذه الصورة يصبح الإنسان آلة ميكانيكية تعمل وتدار بوساطة يد أخرى .

وهنا نتساءل : من الذي يدير هذا الجهاز ؟ وما هي اليد التي تحركه ؟

إن العلم لحد الآن لم يستطع معرفة هذا المدير ، ولكنه من المسلم لدى العالم أن وجود هذا المدير ليس مركباً من مادة .

وكل تقدمنا لحد الآن يتلخص في أننا نتصور أن الله قد نفخ في وجودنا بارقة من معرفته . فالإنسان يقطع الآن مرحلة الصبا في عالم الخلقة ، وهو الآن قد بدأ يدرك وجود الروح وسوف يستغل بالتدريج هذه المزية السماوية فيتعرف على ناحية الخلود والأبدية في ذاته »[1] .

فلو كانت تجليات الروح ومظاهره من آثار وخواص الجسم ووليدة نشاطات المخ ومن وظائف الجهاز العصبي فكيف نحلل ونفسر بقاء الشخصية وثباتها ؟

إن تلك الحقيقة التي لا تخضع للقوانين المادية لا يكون تصور بقائها الأبدي إلا أمراً طبيعياً جداً .

أما تفسير بعض الماديين ـ المبني على أساس نسبية « الأنا » وأن الذات في نفس الوقت الذي تكون فيه ثابتة فإنها معرضة للتغيير والتحول ـ فهو تفسير شاعري أبعد ما يكون عن التفسير العلمي ، وهو عاجز عن تفسير وحدة الشخصية الإنسانية التي يشعر بها الإنسان طيلة حياته .

وذلك لأن هذا التفسير المخطىء النابع من رؤية غير صحيحة للإنسان يؤدي هذا المعنى : وهو أنني لست الإنسان السابق وإنما أنا فرد قد حللت محله ولكني حسب تصوري أحس أنني هو نفسه .

وعلاوة على هذا فإن التصورات من فعلي وأنا مبدأها ، لا أن « الأنا » مجموعة من التصورات المختلفة والمتعاقبة التي توجد في الذهن .

ونحن ندرك في وجودنا حقيقتين ، إحداهما التركيب الظاهري للجسم وهو ضمن إطار العلوم التجريبية ، والأخرى أمور ليست حسية ولا انعكاساً

---

(١) سر خلق الإنسان ص ١٨٠ ـ ١٨١ . بالفارسية .

للجسم ، كالتفكير والإدراك والعشق والحب والبغض والضمير ، وهي خارجة عن مجال نشاط العلوم التجريبية ولا يمكن قياسها بالمعايير المادية .

إنها واقعيات أخرى أرفع من الجسم ومسيطرة عليه ، فالإنسان مستعد للموت ولا يرى الحياة الذليلة ، فهو يكسر الجبر البيولوجي لبدنه ولا يتناول الغذاء ويبقى جائعاً ، أو أنه يصمم على أن لا يلغي إضرابه حتى الموت .

فنحن نواجه موضوعاً عينياً تجريبياً ، فبأي منطق مادي نستطيع تحليل هذه الإرادة الفولاذية التي تضحي بالبدن من أجل المثل والآمال الذهنية ؟

والذي يدعي أن الإنسان ليس إلا مجموعة من الوظائف الفسيولوجية المادية لا بد له من توضيح هذه الأمور بشكل جدي ومنطقي . ولو كنت أنا فقط هذا الجسم المادي فكيف أستطيع أن أكون آمراً ومأموراً في نفس الوقت ؟

إذن لا بد أن تكون هناك حقيقة منفصلة وأرفع هي المسيطرة على البدن ، وهذه الأوامر الإرادية والتسلط الداخلي على الغرائز المختلفة وجميع عناصر البدن دليل واضح على وجود عنصر رفيع يختلف عن المادة ، وتنبع منه الإرادة الإنسانية ، ويهدينا هذا التفاضل بين هذين اللونين من الوجود ، بحيث يكون أحدهما مسيطراً على الآخر وآمراً ، إلى حقيقة أرفع من الجسم المادي .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[1] .

فمن وجهة نظر القرآن الكريم يكون الإنسان مزيناً بجوهر يتميز بالإدراك والتحرك ، له إدراك لأنه قابل للإلهام ، وله تحرك لأنه مبدأ مجموعة من الأعمال التي هي أساس التقوى أو الفساد .

---

(1) سورة الشمس : الآيتان ٧ ـ ٨ .

فما هو هذا الجوهر الذي يوصف بالوعي والمقدرة ؟

إن جميع أعضاء البدن الترابي لا تتصف بمثل هذه الميزات .

إذن لا بد أن يقارن البدن جوهر مستقل وأصيل حتى تنطبق عليه الأوصاف السابقة الذكر .

والمادة تظهر رد فعل يمكن التنبؤ به إزاء المؤثرات وهو واحد في الحالات المتشابهة ، فالماء يتجمد في البرودة ، والفلزات تنبسط في الحرارة ، وهذه ردود فعل طبيعية وليست قابلة للتغيير ، أما الإنسان فله القدرة على إظهار ردود فعل متفاوتة تماماً وحتى متناقضة إزاء المؤثر الواحد ، وهذا يوضح لنا أن الروح والإرادة المنبعثة منه شيء غير مادي وهو خارج عن إطار خواص المادة .

إن عملية الإدراك تبين أن في نشاط الإدراك شيئين : وسيلة الإدراك كالعين مثلاً ، والقوة المدركة . وهناك قانون فيزيائي يقول إن أي شيء لا يستطيع أن يدرك حركة إذا كان موجوداً في داخل ذلك النظام المتحرّك ، وإذا أراد أن يدركها فعليه أن يراقبها من الخارج ، فيقف خارج النظام المتحرك ليشاهد مرور الأشياء ويحس حركة الزمان ، فالإنسان مثلاً لا يستطيع أن يرصد حركة الأرض وهو مستقر عليها ، ويعجز عن رصد القمر وهو واقف عليه ، بل لا بدّ له أن ينظر إلى النظام الحركي وهو خارج عنه .

وعلى هذا فلو لم تكن قوانا المدركة خارجة عن حركة الزمان المستمرة لما استطعنا إدراك حركة الزمان ومروره ، إذن إدراك مرور الزمان دليل واضح على أن قوانا المدركة خارجة عن إطار الزمان .

ولو فرضنا أن إدراكنا يتغير لحظة فلحظة ويتحرك بحركة الزمان المستمرة لما كنا قادرين على إدراك مرور الزمان ، وذلك لأن إدراكنا عندئذ يأتي جزءاً بعد جزء وكل جزء مستقل عن الآخر .

إذن عندما ندرك الزمان فلا بدّ أن تكون قوانا المدركة خارجة عن مجال

الزمان ومرتفعة عليه ، وبهذا يثبت لدينا وجود قوة مدركة لنا وهي حقيقة ثابتة وفوق الزمان ومستقلة .

إذن نصف من حقيقة الإنسان يشيخ ويستهلك في الزمـان ، والنصف الآخر لا تجرفه أمواج الزمان ولا يتحلل ولا يطرأ عليه الفناء ، بل هو يغالب الزمن ويواصل حياته الخاصة .

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) :

« أيها الناس إنـا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء ولكنكم من دار تنقلون فتزودوا لما أنتم صايرون إليه وخالدون فيه »[1] .

ومن خصائص المادة أن لوجودها نسبة خاصة بين الظرف والمظروف، وعلى هذا فإن الموجود الأكبر لا يمكن أن ينطبق بتمام معناه على المـوجود الأصغر .

مثلاً لو وقفنا على مرتفعات شاهقة وشاهدنا أمـامنا منخفضـات واسعة وهضاباً متعددة وشاهدنا فيها الأشجار والشجيرات وأنواع الـطيور والصخـور الضخمة المرصوفة على بعضها ، وقد تجسمت كل هذه الأشياء في أذهاننـا بكل تفاصيلها مثل صفحة كبيرة أمـام روحنا وبصيـرتنا البـاطنية ، فهـل هذه الصور المتنوعة بسعتها الخـارجية حـالة في مخنـا وخلايـاه الدقيقـة الضئيلة وبجميع مالها من خصائص ؟

وهل تستطيع هذه المادة المحدودة أن تستوعب في أعماقها مثل هـذه الأشياء الضخمة من دون أن تنقص منها شيئاً ؟

لا شك أن العقل والمنطق يجيبان بالنفي على هذا السؤال ، لأن كل واحد منا يدرك عدم إمكانية انطباق موجود أكبر بنفس كميته على موجود أصغر منـه ، أليس من الواجب أن يكـون الظرف أكبـر من مظروفـه أو على الأقل مساوياً له ؟ فنحن مثلاً لا يمكننـا صف حروف كتـاب ذي ألف صفحة على

---

(١) البحار ج ١٥ من الطبعة القديمة القسم الثاني ص ١٨٢ .

ورقة صغيرة.

ونحن نستطيع بسهولة أن نجسم في أفكارنا مدينة كبيرة بعمارتها وشوارعها وحدائقها وحافلاتها وسكانها ، وعلى أساس القانون القائل « بعدم إمكانية انطباق الكبير على الصغير » يبدو أنه من المسلم كون الصور الذهنية كبيرة جداً وهي غير قابلة لأن تستوعبها خلايا المخ الضئيلة الحجم ، وذلك لأن من البديهيات التي لا تقبل النقاش أن الانطباق لا يحصل إلا إذا كان مساوياً أو كان المظروف أصغر من ظرفه ، بينما قوتنا المدركة لها خصوصيات وصفات معينة لا يمكن أن تنطبق على خصائص المادة ، ولهذا فهي لا يمكن أن تكون متعلقة فقط بمجموعة من العلاقات الفيزيائية المرافقة لها والتي تعمل معها .

إذن لا يمكن التصديق إلا بأنه في حالة تحقق الصور الذهنية نحن نتمتع بلون آخر من الوجود ـ علاوة على دخالة مجموعة من المقدمات الفيزيائية والكيميائية ـ وله ميزات خاصة تعلو على آفاق الجسم المادي ، ومن خصائص ذلك اللون من الوجود أنه يستطيع استيعاب مجالات عظيمة ، ويستطيع أن يحتفظ في أعماقه بالصور المدركة ولا يسمح لها بالضياع .

يقول الماديون : إن حلول هذه الصور في المخ يشبه حلول كتاب كبير الحجم في « ميكروفلم » صغير وعند الحاجة يبين الأشياء بمقياس صغير ، وإذا أراد الإنسان معرفة المقياس الواقعي فإنه يقوم بتكبيرها بنفس النسبة ، ومكان هذه الصور الصغيرة هو خلايا المخ .

وهنا نتساءل :

أين مكان هذه الصور في المخ والأعصاب ؟

فإما أن ننكر وجود مثل هذه الصور الكبيرة في الذهن ، وإما أن نجد لها مكاناً مناسباً ، ولا يستطيع أحد إنكار وجود الصور الكبيرة في الذهن ، ولو كانت الروح مادية وكان الإدراك هو نشاط المخ والمجموعة العصبية لما أمكن

انطباق الصور الكبيرة على الخلايا الصغيرة لأنها تحتاج إلى محل بسعتها ، بينما في مورد « الميكروفلم » لا يوجد في الخارج سوى تلك الخطوط والأفلام الصغيرة جداً .

إذن لتفسير ذلك لا بد من الاعتراف بتدخل عنصر غير قابل للرؤية وهو الروح ، وهو حقيقة مجردة تتمكن من خلق الصور الكبيرة بعد مجموعة من النشاطات المخية والعصبية التي ليست هي إلا مقدمات وممهدات ، ثم تشاهدها على هذا الوضع ، وبهذا الشكل ينحل الإشكال بذاته ويغنينا عن التفسيرات الناقصة الفجة .

ومن ناحية أخرى فإنه لا بد من التمييز والفصل بين الظواهر الذهنية والظواهر المادية ، فهاتان الفئتان من الظواهر ليستا متشابهتين من حيث الخواص والكيفيات .

فالمادة مقرونة بمجموعة من الخواص العامة مثل قبول الصور المتفاوتة ، بينما الظواهر الذهنية لا تتصف بتلك الخواص ، ومن هنا فإن وجود هذه الثنائية وعدم التشابه يقودنا إلى استقلال الروح وتجرّده .

ومن الآثار الأخرى للموجودات المادية هو احتياجها إلى السير التدريجي والزمان والمكان ، وكل شيء يشمله التحول والتبدل التدريجي لا بد أن يكون له مكان، والحركة بنفسها صانعة لزمانها، وعلاوة على هذا فإن مصير الموجودات المادية المحتوم على امتداد الزمان هو الموت واختفاؤها في ظلمات العدم .

وكذا لا يوجد أي موجود مادي أو ظاهرة مادية لا يمكن فرض تقسيمها إلى أجزاء أخرى ، سواء أكان تقسيمها بوساطة الوسائل والآلات الخاصة أم كان تقسيمها في العقل والخيال لضآلتها وصغر حجمها ، بينما الظواهر الروحية بعيدة عن هذه الخصائص .

فنحن نصور في أذهاننا عمارة عظيمة من دون أن نحتاج في ذلك إلى

زمان . وتتراكم في مخزن الذهن ألوان من الوجوه والأشكال والألوان والأسماء والأعداد والأرقام والكلمات والعناوين ، وهي لا تختلط فيما بينها ولا يمحو بعضها بعضاً .

ويدرك الذهن مختلف المناظر والصور وكل حادثة صغيرة أو كبيرة فيسجلها ويحتفظ بها، وحتى إذا تصورنا أحياناً أننا قد نسينا شيئاً فإنه لا يزول من صفحة الذهن بل هو مغروس فيها ، وفي بعض الأحيان وتحت تأثير بعض العوامل يحضر لدى الذهن .

ففي أي شفرة وفي أي مكان من تلافيف المخ توجد كل هذه الأعداد والأرقام والصور من دون أن تختلط ببعضها ، ثم تقفز إلى الذهن كسرعة البرق ؟

وأين مكان هذه الصور الذهنية التي تعتبر سراً محيراً ؟

وهل تفسير الماديين للموضوع هو تفسير واقعي ؟ وهل ينهض بتوضيح الحقيقة الموجودة ؟

وهل يمكن أن تكون الخواطر من الأعراض المادية والخطوط المرتسمة على خلايا المخ ؟ وهل تستطيع الخلايا وتلافيف المخ أن تسجل الحوادث والوقائع ثم تستعيدها حال التذكر فيعود إلى الذهن ما كنا قد ادخرناه بدقة وأمانة ؟

أليس هذا التفسير متعارضاً مع واقع الأمر ؟

لو كان المخ هو المكان الواقعي للخواطر للزم عند تحلل خلايا المخ وزوالها زوال الخواطر المرتبطة بتلك الخلايا .

إن خلايا المخ فينا تتغير عدة مرات خلال عمرنا ، ولكن صور أصدقائنا وإخواننا تبقى سالمة لا تمتد إليها يد التغيير وثابتة في أذهاننا منذ عهد الطفولة .

فإذا كان مخنا يتغير بجميع محتوياته ومن جملتها معلوماتنا السابقـة ، وتحل محل خلايا المخ السابقـة خلايـا جديـدة فإنـه يعود من غيـر الممكن الالتفات إلى العلم الماضي ، ولا بد عندئذ أن تصبح جميع إدراكاتنا اللاحقة مشـابهة لـلإدراكـات السـابقـة لا عينهـا ، بينمـا نحن نعلم أن التفـاتنـا إلى المواضيع الماضية إنما هو بشكل تجديد للخواطر لا بصورة تجديد للعلم ، بل لو كانت مفاهيمنا الذهنية مادية لعاد من غيـر الممكن تذكـر المعلومات السابقة .

يقول المحقق الشهير (هنري برجسون) :

« ولكننا نذكر فقط أن ملاحـظة الحوادث ـ السليم منهـا والمرضي ـ بالحواس والشعور ، تبين لنا نقص التفسيرات الفيزيولوجيـة للذاكرة ، وأنـه يستحيـل أن ننسب حفظ الـذكـريـات للدمـاغ ، وإنمـا نستـطيـع أن نتـابـع الانبساطات المتعـاقبة للذاكـرة منذ تضيق فمـا تنفرج إلا عمـا هو ضـروري للعمل الحاضر ضرورة ماسة ، حتى آخر مرتبة لها حين تنفض الماضي الذي لا يندثر كله . وقد قلنا على سبيل التشبيه إننا نصعد بهذا من قمة المخروط إلى قاعدته . إن المخروط يتصل ، في قمته فقط ، بالمادة . ولكننا ما نكاد نجوز القمة حتى نـدخل في ميـدان جديـد . فما هـو هذا الميـدان ؟ سموه روحاً ، أو سموه إن شئتم نفساً ، على أن نصلح الاستعمال اللغوي ، فندرج تحت هذه الكلمة مجموعة من التجارب ، لا تعريفاً اتفاقياً ، ومن هذا البحث التجريبي نخلص إلى إمكان أو احتمال بقـاء النفس بعد الجسـد لأننا نكـون لاحظنا ، وكأننا لمسنا باليد ، منذ الآن ، في هذه الحياة الـدنيا ، شيئـاً من استقلال النفس عن الجسد . ولن يكون هذا الخلود إلا وجهاً من وجوه هذا الاستقلال . نعم ، إن معرفتنا بظروف البقاء بعد الموت ، ولا سيما بمـدته ستكون ناقصة جداً : أهو بقاء إلى حين أم بقاء أبدي؟ على أننا نكون على الأقلّ اهتدينا إلى نقطة يمكن أن تتناولهـا التجربـة ، فيصبح في الإمكـان أن تقرر الحقيقة تقريراً لا رد عليه ، ويغـدو من الممكن أن تسير معـرفتنا في طـريق

التقدم . ذلكم ما أسميناه بتجربة العالم الأدنى ، فإذا انتقلنا الآن إلى العالم الأعلى وجدنا تجربة من نوع آخر هي الحدس الصوفي ، وهو مشاركة في الجوهر الإلهي . فهل تلتقي هاتان التجربتان ؟ هذا البقاء بعد الحياة الذي يبدو مضموناً لكل النفوس ، لمجرد أن قسماً من نشاطها مستقل عن الجسد منذ اليوم ، هل يكون كالبقاء الذي تناله النفوس الممتازة منذ هذا العالم الأدنى ؟ لا شيء يفيدنا في ذلك علماً غير أمرين هما تمديد هاتين التجربتين وتعمقهما »[1] .

ولا يلاحظ تعادل بين الأضرار والعطب الذي يصيب المخ ونسيان الحوادث ، بينما أي نقص يحدث في خاطرة معينة فإنه لا بد من حدوث نقص في الخلايا المتعلقة بتلك الخاطرة .

فإذا أصاب عطب بعض خلايا المخ ، فالإنسان يصاب بالخلل في التحدث ، أما خواطره فتبقى محفوظة في مكانها دون أن تمسها يد التغيير . وفي حالة الاختلالات المخية الشديدة عند ما يصاب المخ بالتهاب شديد أو تحطم في بعض الجوانب تضطرب المعادلة بين الخواطر والمخ ، وذلك لأن النسيان يتم دائماً حسب نظام خاص ومعين ، فالمريض خلال هذا التسلسل المنظم للنسيان ينسى أولاً أسماء أصدقائه والمحيطين به ثم بالتالي ينسى الكلمات المتعلقة بالأفعال .

فها هنا لا نلاحظ أي علاقة بين العطب الذي أصاب الدماغ ونسيان الخواطر من ناحية النظام والكمية والمراحل الزمانية ، بينما على أساس منطق الماديين وتفسيرهم لا بد من وجود علاقة مباشرة وتناسب خاص بين الضرر الذي أصاب الخواطر والضرر المادي الذي لحق الدماغ .

إن هذه الواقعيات تبين لنا أن الدماغ ليس إلا وسيلة لضبط الخواطر ، وليس للمخ من دور في عملية التذكر إلا دور الواسطة لنقل الصور الذهنية إلى

---

(١) منبعا الأخلاق والدين ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

كلمات فقط ، وكل مهمته تنحصر في إيجاد الاتصال بين الروح وعالم المادة .

إذن نحن في مجال الخواطر والصور الذهنية محتاجون إلى ظاهرة أرفع من الخلية الدماغية ، وتلك هي الروح المجردة المستقلة عن المادة ، والتي تكون الأفكار والصور والخواطر خاضعة لقوانينها الخاصة بها .

يقول البروفسور (غايتون) في كتابه الفسيولوجيا الذي يعد من المصادر الموثوق بها في هذا المضمار :

« إن أعسر المشاكل في دراسة الوعي والأفكار والحافظة والتعلم هو أننا لا نعرف التركيب العصبي لفكر ما » .

والأحكام والتصديقات أيضاً ليست قابلة للانقسام ، وليست خلايا الدماغ مكاناً لها ، وهي ترفض التقسيم بشكل مستقل أو تبعاً لغيرها ، بل هذه الإدراكات والتصديقات مرتبطة بموجود غير مادي .

مثلاً عندما نقول : « إن هذا الطير لونه أخضر » ، فلا شك أن الطير يقبل الانقسام ، واللون الأخضر أيضاً يمكن تقسيمه باعتبار محله ، ولكن التصديق بلون الطير هذا لا يقبل الانقسام بأي نحو من الأنحاء .

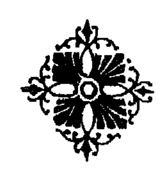
ولو اعتبرنا التفكير من نتائج المادة للزم أن يجد الانقسام طريقه إلى التصديق الذي هو فعل من أفعال الروح ، ولكننا لا نجد مثل هذه الصفة في التصديق ، إذن عندما يكون أحد أفعال الروح الذي هو التفكير فاقداً لأثر مادّي (وهو الانقسام) فإننا نستنتج من ذلك أنه يتصف بالتجرّد ، ولا بد أن يكون عندئذٍ صاحب التفكير الذي هو الروح متمتّعاً بخاصة التجرّد ، فنحن هنا قد توصلنا إلى تجرّد الروح من تجرّد التفكير .

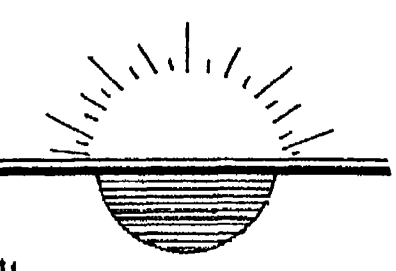
وبناء على ما مضى فإن الأدلة الوهمية الباردة التي يتمسك بها الماديون في إنكار ما وراء الطبيعة ، علاوة على أنها مبنية على فرضيات غير ثابتة من قبيل كون الظواهر الحيوية كالفكر والوعي والإدراك ظواهر مادية ، فهي قابلة

للنقض بأدلة محكمة ومنطقية .

ومثل هذه النظريات لا يستطيع كشف الستار عن الأسرار ويعجز عن حل عقدة الواقعيات ، وذلك لأن العلوم التجريبية تعلن عدم قدرتها على معرفة ماهية وطريقة عمل مثل هذه الظواهر .

فإذا لم يستطع النظام الفلسفي للماديين الجواب عن هذه الأمور فإنه سوف يهمل مثل النقود التي انتهى زمان رواجها ، وبالتالي فإنه عندما تنضج الفلسفة وتنمو الأفكار ويزداد الوعي ويخرج الإنسان من ضيق الأفق الذي يجعله موجوداً ذا بعد واحد فإن فلسفة الماديين سوف تلقى في سلة المهملات كما كان مصير العقائد الضحلة للماضين .





والتجارب أيضاً تنير الطريق

إذا استطعنا أن نضفي الصفة التجريبية على ظاهرة الروح التي تتمتع بالتجرّد من بين الواقعيات ، وتمكّنا من إثبات استقلالها عن هذا الطريق لكان لذلك تأثير عميق في تصديق الناس ، بسبب ما للمعرفة الحسية من سيطرة على الإنسان ولا سيما على الذين لا يستطيعون إدراك المسائل الدقيقة والمعقدة أو الذين يبدون اهتماماً بالاتجاهات التجريبية أكثر من اهتمامهم بالمسائل العلمية والفلسفية .

(١)

ومن الشواهد الحية على استقلال الروح وبقائه بعد الموت موضوع الارتباط بالأرواح الذي شاع أمره في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد صبغ اليوم في قالب علمي ، وقد شاهد هذا الأمر شخصيات عالمية عديدة وفي المجتمعات المختلفة .

وقد قام كثير من العلماء بدراسات عارية عن التعصب الأعمى والأحكام السطحية المسبقة ، باشتياق علمي شديد لمعرفة الحقيقة فدققوا وجربوا ثم عرضوا النتائج التي توصلوا إليها على الناس مدعين فيها أن الموضوع قد تجاوز المجالات النظرية وهو يتمتع بوجود حقيقي .

والتجارب الدقيقة العميقة تشير إلى تحقق ارتباط الإنسان بأرواح

السابقين ، وفي هذه المرحلة من الاتصال استطاع الإنسان أن يتحدث مع أرواح الموتى وأن يستعين بهم في حل ما يجهله ، وكثيراً ما وجدت مسائل معقدة وخاصة تم حلها عن هذا الطريق بواسطة أشخاص ليسوا مؤهلين لحل مثل هذه الأمور .

فالأرواح كانت قادرة بنشاط غريب على رفع أجسام من على الأرض من دون أن يتدخل في حركتها أي عامل مادي ولا أي قوة جسمانية .

ومن الميزات البارزة للأشخاص الذين يستغرقون في حالة شبيهة بالإغماء للارتباط بالأرواح أنهم يقومون بدور المرسل والمستقبل ، ويصادف كثيراً أنهم في تلك الحال الخاصة يتحدثون بلغة غريبة عنهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت من المطلعين عليها .

ومن الوقائع الغريبة في هذا الارتباط التحدّث ببعض الأسرار وإفشاؤها .

والشيء المحيّر أن بعض الذين يكونون واسطة في تحضير الأرواح وهم في حالة الإغماء استطاعوا أن يكتبوا خطوطاً أو يقرأوا أشياء موجودة في صناديق مختومة بالشمع مع أنهم أميون محرومون من نعمة القراءة والكتابة ، وبالتالي فإنهم يقومون بأعمال لا يمكن الجواب عنها بشكل مقنع إلا إذا لجأنا إلى عامل غير مرئي وهو الأرواح .

إن هذه مسائل مجرّبة ، والذي يستنتج منها هو رد ما يدعيه الماديون ، لأنه لو كانت الروح من الآثار الطبيعية للمادة ومن الخواص الفيزيائية الكيميائية للدماغ فقط لما كان من الممكن تفسير مثل هذه الوقائع التجريبية المتنوعة .

ولا يمكن التخلّص من الطريق المسدود إلاّ إذا اعترفنا بوجود قوة فوق المادة هي التي تخلق هذا التحرّك ، وليس من المستطاع إرجاع جميع ما يتحقق في هذا المجال إلى عامل مادي .

وصحيح أن موضوع السن ليس مهماً بالنسبة للعاملين في حقل تحضير الأرواح ولكنهم يختارون وسائطهم عادة من بين الأطفال ويتلقون عن طريقهم حديث الأرواح لئلا يبقى أي احتمال للتزوير والخداع ، وليضعوا حداً للإشكالات أيضاً .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المحققين المتضلعين يساهمون في جلسات تحضير الأرواح ويعيدون التجارب الدقيقة حتى يزول أي ترديد ويرتفع كل إبهام وينتفي أي احتمال للتلقين أو الإغفال .

ومع أن هذا الموضوع يمكن قبوله على أساس أنه تيار واقعي إلا أنه مثل كثير من حقائق العالم قد أسيء استغلاله من قبل بعض المخادعين والمتلاعبين ، وسحبوه إلى مجالات مبتذلة ، ولهذا فإنه لا يمكن الاعتماد على أحاديث جميع المدّعين لتحضير الأرواح ، ولا ينبغي أيضاً تكذيبها من الأساس لأن ذلك يغاير المنطق السليم ، إذن لا يتيسر إدراك الحقيقة إلا بالتعمّق وبذلك نستطيع معرفة منبع الخداع والوهم وتمييزهما من الحقيقة .

ويذكر المحقق الشهير (فريد وجدي) صاحب دائرة معارف القرن العشرين أسماء فئة من علماء أوربا وأمريكا وقد اختارهم من بين آلاف من المتخصصين والمحققين في هذا المجال ، وينقل عنهم تصديقهم الصريح ومشاهداتهم العينية في تأييد هذا العلم بعنوان كونه واقعاً غير قابل للإنكار ، ولا سيما أن كثيراً من هؤلاء قد واجه الموضوع ـ قبل ثبوته ـ بالإنكار والاعتقاد بسخافته وقابل المعتقدين به بالسخرية ، وقد دخل مجال البحث فيه ليتمكن من إبطال مثل هذا التفكير .

ولو أن أحداً أصر في ذلك الحين على أنه يستطيع إثبات تحضير الأرواح عن طريق علمي لاتّهم من قبل هؤلاء العلماء بالاشتباه والسخف .

ولكنهم على الرغم من إصرارهم على نفي الموضوع فكلما جرت التجارب كانت لصالح المدعين لتحضير الأرواح ، وبالتالي فإنهم اضطروا

للإذعان للواقع .

بينما لم يكلف العلماء السابقون أنفسهم عناء البحث ليختبروا صحة أقوال المعتقدين بهذا الأمر ، ولعلهم كانوا يعتبرون إجراء التجارب في هذا المجال أمراً لا عائد منه .

ويضيف فريد وجدي أن المتخصصين في هذا الفن قد قبلوا هذا الأصل القائل إن الروح لا تفنى أبداً بموت الجسم ، ولم يستطع هؤلاء تفسير المشاهدات غير العادية في جلساتهم إلا بأنها من نشاط الأرواح ، وذلك لأن وجود هذه الأمور المحيّرة لا يمكن أن يتحقق من الناحية العلمية إلا بجهود الأرواح .

أما الذين لم ينالوا نضجاً في مجال الاستدلال فقد حاولوا تفسير هذه الأمور المجربة باللاشعور أو اللاوعي .

فهل من المستساغ اتهام جميع العلماء والمتخصصين بالاستسلام بلا قيد ولا شرط لخداع الكذابين بحيث يضفون الصفة العلمية على تجاربهم غير الواقعية وهم معصوبو العيون ؟ أو أنهم يؤيدون صحة هذه المواضيع من دون احتياط في الحكم أو متأثرين بتلقين الوسائط من دون تثبت في الرأي ؟ .

يبدو أن نسبة الخطأ إلى جميع المتخصصين المتضلعين أمر غير معقول ، إذن من الأفضل أن نتخذ أسلوباً منطقياً محققاً في معالجة الموضوع .

وقد قام (آلفرد روسل دالاس) ـ شريك دارون في اكتشاف قانون الانتخاب الطبيعي ـ بمجموعة من المطالعات في هذا المضمار وهو يعلن رأيه بهذا الشكل :

« عندما بدأت في اكتشاف موضوع الارتباط بالأرواح كنت شخصاً مادياً صرفاً ومنكراً للروح ، ولم يكن في فكري على الإطلاق أثر من المجردات

وعالم ما وراء الطبيعة ، وكنت أهدف في البداية إلى إثبات عدم صحة هذا الموضوع عن طريق العلم ، ولكني واجهت تجارب وواقعيات جعلتني شيئاً فشيئاً أؤمن بصحته ، وقد أثرت فيّ مسألة ظهور الروح وغارت في أعماقي بحيث إنني آمنت بصحتها واعتقدت بها عقيدة راسخة قبل أن أفهمها وأدركها وقبل أن أجد لها توضيحاً في ضميري ، فأنا لا أستطيع أن أشيح بوجهي عنها ولا أستطيع أن أجد لها علة وسبباً مادياً »[1] .

ويقول الأستاذ (كروكس) رئيس المجمع العلمي الملكي في انجلترا في كتابه المسمى (الظواهر الروحية) :

« لما كنت مؤمناً بوجود هذه الظواهر ، إذن يعتبر من الخوف والجبن الأدبي أن أكتم شهادتي في مورد آثار الروح تجنباً لانتقادات المستهزئين وأمثالهم ممن لا علم لهم في هذا المجال ولا يستطيعون الخروج على الأوهام المتمسكين بها ، ولهذا فإنني أفصل في هذا الكتاب بكل صراحة ما شاهدته بعيني واختبرت صحته في تجارب عديدة » .

ونستنتج من مجموع التجارب والمعلومات الحاصلة من جلسات تحضير الأرواح التي أدارها العلماء المحققون أن للإنسان قوة وشخصية مستقلة لا تفنى بموته ، وتستطيع تلك القوة التحرك والنشاط مستقلة من دون أن تحتاج إلى الجسم الترابي ، وبالنسبة لسكان هذا العالم لا بد من توفّر بعض الإمكانيات وفي ظروف خاصة لكي يستطيعوا الاتصال بأرواح الماضين .

(٢)

وقد حصل تقدم آخر في الدراسات أعان على إدراك استقلال الروح وبقائه ، وذلك ما يسمى بـ « علم التنويم المغناطيسي » فنتيجة لالتفات خاص لمكان واحد أو لتركيز النظر طويلاً على نقطة مضيئة ، مع تلقينات

(١) العالم بعد الموت ص ٧٥ . (بالفارسية) .

مستمرة فإنه يعرض للإنسان نوم صناعي يختلف كثيراً عن النوم الطبيعي .

وبعد أن يغط الشخص في هذا النوم فإنه يسمع صوت منومه فقط من بين الأصوات التي تحيط به ويتأثر بأفكاره بشدة ويطيع أوامره .

وقد استطاع العالم الانجليزي (جيمس بريد) أن يواصل دراسات الآخرين ويحقق أول انتصار كبير في مجال علم التنويم المغناطيسي ، وقد صاغ دراساته في قالب علمي ، وأوضح علل تحقق هذه الظاهرة حسب أسسه الخاصة ، وقد قوبلت جهوده بالثناء الحار .

وبعده ظهر علماء آخرون في أمريكا وأوربا بذلوا كل جهودهم لتنمية وتوسعة هذا العلم ، من قبيل المفكرين الآتية اسماؤهم : (ريشه) (داميل كوئه) (ونولز) (شاركو) . وأهم ما أنجزه العالم الأخير هو تبويبه الخاص لدرجات ومراحل النوم المغناطيسي :

« في النوم الصناعي يستطيع المنوّم أن يجعل المنوم مستسلماً لإرادته ، بحيث ينفذ أوامره من دون ترديد ، وخلال هذا النوم تتوقف عن العمل حواس النائم ، فلا حس السمع ولا حس البصر يبديان نشاطاً ، ولا اللمس ولا الذوق يتمتعان بقدرة كافية . وبالتالي فإن النائم صناعياً يصاب بلون من الارتخاء بحيث إنه لا يحس بأي ثقل أو ألم مهما ضغط على جسمه »[1] .

وقد كتب أحد أساتذة « علم التنويم المغناطيسي » وهو الدكتور (فليب كارت) من متخصصي التخدير في انجلترا ، في مجلة الوقاية العامة الإنكليزية يقول :

« هناك كثير من المرضى الذين كانوا بحاجة إلى عمليات جراحية قد خدروا بواسطة التنويم المغناطيسي ، ثم أجريت لهم تلك العمليات الجراحية ، ونريد أن نؤكّد هنا على أن إجراء العمليات الجراحية للمرضى

(١) أسس التحليل النفسي لفرويد (بالفارسية) .

يتم بواسطة التنويم المغناطيسي بشكل أفضل ، ويعد هذا العمل أسهل وأقل خطراً من تخدير المرضى بواسطة الأدوية الخاصة ، وعلاوة على هذا فإن من ميزات التنويم المغناطيسي إمكانية الاحتفاظ بالشخص على تلك الحال لساعات طويلة ، ويمكن أيضاً إزالة الألم والعذاب اللذين يعاني منهما المريض في تلك الحال »[1] .

وهناك عامل آخر لمعرفة استقلال الروح وهو ما يسمى بالقوة المغناطيسية « مانيتيسم » في الإنسان ، وهي قوّة غامضة موجودة في جميع أفراد الإنسان على درجات متفاوتة وتختلف هذه عن التنويم المغناطيسي في أن الإنسان إذا انصرف لتنمية هذه القوة « مانيتيسم » في وجوده فهو سيصبح قادراً ليس فقط على تسخير الناس ، بل والحيوانات أيضاً وجعلها تحت تأثيره ونفوذه ، وعلاوة على هذا فإنه يمكن استغلالها بشكل طبيعي أيضاً ، بينما التنويم المغناطيسي لا يمكن الاستفادة منه إلا بوساطة عوامل خاصة .

وهذه القوة المغناطيسية في الإنسان فعّالة إلى حدّ أنها تستطيع أن تشل حركة العدو أو الصيد .

ولا يقتصر هذا الأمر على المجتمعات المعاصرة ، وإنما الماضون أيضاً ومنذ أزمان غارقة في القدم قد عرفوا شيئاً عن تأثير هذه القوة الغامضة ، ولكنه منذ أواخر القرن الثامن عشر قد طرحت هذه المسألة بعنوان أنها أحد المكتشفات العلمية ، وقد استغل المتخصصون الأمواج المغناطيسية لعلاج المرضى ، وباستمرار هذه الدراسات فقد أثبتوا أنه يمكن الانتقال عن طريق القوة المغناطيسية « مانيتيسم » إلى التنويم المغناطيسي « هيبنوتيسم » ، وتتحقق في الأثناء أشياء غريبة .

ويتوسّل الأطباء النفسيون لكشف أسباب بعض الأمراض النفسية بالتنويم الصناعي ، والبحث في أعماق ذهن المريض ليتعرفوا على ضميره

---

(١) صحيفة اطلاعات ليوم ١٣٤٣/٦/٢٣هـ ش .

وأفكاره الواقعية ، تلك الأفكار التي يمتنع من ذكرها في حالة يقظته حفظاً لمصالحه الشخصية أو خجلاً من فضحها ، وبالتالي فإنهم يحملون المريض ـ وهو في حالة النوم ـ على الإقرار بأمور وكشف الستار عن أسرار لم يكن مستعداً لإفشائها في حالة اليقظة بأي حال من الأحوال .

ويستغرق المريض في نوم عميق بحيث تسيطر عليه القوة المغناطيسية ، فكل ما يريده المنوم فهو ينفذه من دون أن يكون لإرادته أي تأثير فيما يقرره .

وحتى أنه في الحالات الشديدة يصاب بدن النائم بعدم الإحساس ، وإذا دلك عضو من أعضائه فإنه لا يتحرك ، ويبدو جسماً خالياً من الحركة تماماً ، وهو لا يسمع الأصوات التي ترتفع حوله ، ولا يرى أي شيء مما يحيط به سوى المنوم فإنه يراه وينفذ كل أوامره .

ويمتد تقبل التأثير هذا إلى حد أنه إذا غرست إبرة في جسم المنوِّم فالنائم سوف يحس بها ، ولعلكم تستغربون إذا قلنا لكم بمجرد أن تعرض للمنوم حالة الفرح والسعادة فإنها تنتقل إلى النائم ، وكذا إذا أصابه غم أو حزن أو غضب فإن النائم يصبح غضبان هائجاً .

وتكلم الإنسان في التنويم المغناطيسي بلغات لا يعرفها ، وعلمه بأشياء ليس محيطاً بها وانتقال روحه إلى مناطق بعيدة ـ كل هذه الأمور لا تنسجم مع تفسير الماديين لهذه الظاهرة بأنها تحدث نتيجة للتلقين وفقدان النائم إرادته ، بل هناك حقيقة أخرى تختلف عما تبينه العلوم المادية ، وهي حقيقة كامنة في وجود الإنسان ولها آثار لا يمكن قياسها بالموازين والقوانين المادية . وكل إنسان يبحث عن الواقع ويتعمق في دراسته فإنه ينساق إلى هذا الرأي شيئاً فشيئاً .

فما هي هذه القوة التي تستطيع أن تسخر إرادة إنسان آخر لها وأن تشل أعضاءه عن الإحساس والحركة ؟ .

وإذا أطال الإنسان التفكير ألا يقتنع بأنه يتميز بروح مغلفة بالأسرار ومستعصية على الفناء ؟ .

ثم أليس وضع قانون كلي على أساس الشواهد العينية نموذجاً من نماذج الأسلوب العلمي ، وألا يفتح السبيل على عكس ما يتصوره الذين يتعاملون مع العالم بالظنون ؟ .

لا شك أن أي كشف جديد في هذه المجالات سوف يذهب بشيء من رونق أفكار الذين يدّعون تفسير الواقع ، ويضيق الأفق على الذين يحلو لهم التفكير في الظلام .

(٣)

صحيح أن الإنسان كانت له معرفة ما بموضوع انتقال الأفكار من بعد « ظاهرة التليباثي » ، ولكنه لم تتم دراسة هذا الموضوع علمياً قبل عام ١٨٨٢ م ، ومنذ هذا التاريخ بدأت جمعية الدراسات النفسية في انجلترا تجاربها الدقيقة والمنظمة على هذا الموضوع وأثبتت واقعيته .

فالارتباط الفكري بين شخصين ممكن سواء أكانا بعيدين عن بعضهما أم قريبين ، وكيفية الارتباط إذا كانا قريبين هي في أن يتقابل الشخصان وجهاً لوجه من دون أن يتكلم أي منهما بأية كلمة ومن دون أن يوضح شيئاً بالإشارة ، ثم ينقل كل منهما أفكاره إلى الآخر .

أما كيفية الارتباط من بعد ـ ولا يختلف الأمر باختلاف المسافة الفاصلة بينهما ـ فهي في أن يركزا أفكارهما على نقطة معينة في الوقت المحدد ، ويبدآن بإرسال التيارات الفكرية فتنتقل أفكارهما .

وهذه الظواهر ـ التي جربها المتخصصون في هذا الفن في أرجاء مختلفة من العالم ثم اعترفوا بصحتها ـ تعتبر من التجليات العجيبة للروح حيث تبدأ نشاطها بشكل مستقل .

ومع كل هذه الشواهد ألا نصدق بأن القوة المسيطرة على نشاط بدننا إنما هي قوة تختلف بشكل جذري عن القوى المادية والظواهر المنبعثة منها ؟ .

وحسب قول العالم النفسي (كانيغتن) :

« إن وجود وعمل المخ خارج البدن ولو على مسافة عدة سنتمترات غير ممكن كما لو أردنا لجهاز الهضم أو للدورة الدموية أن تؤدي عملها خارج الجسم » .

ويقول المفكر الشهير (هنري برجسون) :

« فإذا سلمنا بهذا الفرض رأينا أن الحوادث التي يذكرها « العلم الروحي » أو بعضها على الأقل ، معقولة الوقوع جداً ، حتى لتعجب كيف لبثنا هذه المدة الطويلة لا نشرع بدراسته . ولن نعود هنا إلى نقطة بحثناها في غير هذا الموضع . ولكننا نقول ، مقتصرين على ما يبدو أمتن أساساً من غيره ، إننا إذا ارتبنا في حقيقة الظاهرات التخاطرية (التيليباثيك) مثلاً ، بعد ألوف الشهادات المتوافقة عنها ، كنا نعلن أن الشهادة الإنسانية عامة ليست مقبولة في نظر العلم . وعندئذٍ فماذا يصبح التاريخ ؟ نعم إنه لا بد من عملية اصطفاء نميّز بها بين النتائج التي يقدمها إلينا « العلم الروحي » . و« العلم الروحي » ذاته لا يضعها جميعاً في مرتبة واحدة ، فهو يميّز فيها بين ما يرى أنه محقق ، وبين ما يرى أنه محتمل أو ممكن على الأكثر . ولكننا ، حتى حين لا نأخذ إلا بجزء يسير مما يقدمه إلينا على أنه يقيني ، فإنه يبقى لدينا مقدار كاف لأن يجعلنا نقدّر مدى اتّساع هذه الأرض المجهولة التي نبدأ الآن في ريادها »[1] .

(٤)

إن النشاط العلمي المتزايد للإنسان قد بدأ يوماً بما يبدو أنه بعيد عنه

(١) منبعا الأخلاق والدين ص ٣٤٠ .

وهو النجوم، وقد تبدل اليوم إلى دراسة حالاته الطبيعية وأعراضه العادية، فهو يحاول أن يفهم الخصائص المسيطرة على وجوده ويعينها .

ومن الحالات العامة للإنسان والتي تتجه فيها أفكاره إلى ذاتها هي مسألة الرؤيا والأحلام ، ولما كان الإنسان يقضي شطراً عظيماً من عمره في النوم ، لذا فهو يرغب في معرفة حقيقة هذه الظواهر .

والآراء المختلفة الموجودة في هذا المجال تدل على كون المسألة معقدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهي تدل على الدراسات العريضة للمحققين في هذا المضمار .

فكل موجود حي فإنه يتميّز بهذه الخاصية وهي أنه بعد بذل الجهد والمحاولة يصاب بالتعب ويغشاه النوم ، وفي هذه الحالة يتعطل جانب من نشاطاته الحيوية ، وتميل جهوده البدنية نحو البطء .

أما ما هي حقيقة النوم؟ فإنه سؤال مثير؛ ومع جميع الدراسات التي قام بها العلماء في هذا النطاق لم نظفر لحد الآن بجواب يقيني واضح ، وبقي الموضوع غامضاً مدفوناً تحت آراء مختلفة أكثرها غير صحيح وناشىء من استنتاجات متسرعة ، وكل ما يعرفه العلم في هذا المجال هو بعض النشاطات الجسمية التي تجري في إطار البدن .

ومع أنه لا يوجد ما يشير إلى الأمل في كشف هذا السر أو الظفر بجواب جامع لهذا الموضوع الغامض ، ومن التسرع أيضاً التنبؤ بأن آراء المستقبل الدقيقة والواقعية سوف تنهض بالمهمة ، إلا أنه من المحتمل أن يتسع النشاط العلمي للإنسان فتزداد مكتشفاته بمرور الأيام ويظفر بالتالي بجانب من الأسرار التي تحيط به مع أنها كثيرة .

وهناك أسرار أخفى من هذه « الرؤيا » وهي تجسم الحوادث المختلفة والصور المتنوعة أمام الإنسان الغارق في النوم ، وكل هذه الأمور تجعلنا مواجهين لمجموعة من المسائل المعقدة والغامضة .

وتستمر ـ أثناء النوم ـ جميع النشاطات الفسيولوجية والأمور اللاإرادية والانعكاسية في عملها بشكل منتظم ، فكل الأعصاب والغدد والشرايين والأمعاء والأنسجة نشطة وفعّالة ، ولكن الإنسان في هذه الحال لا يستطيع أن يفكر ولا يقرر ولا يريد ، وحياته عندئذٍ تشبه حياة الموجودات ذوات الخلية الواحدة .

ويبدو في الظاهر أنه جسم ممدد لا حياة فيه ، ولكن هذا الميت الممدود يستيقظ فجأة فإذا هو حي . وهاتان الحالتان نموذج صغير للموت والبعث .

ويتناول القرآن الكريم بيان وجه الشبه بين النوم والموت من جهة ، وبين اليقظة والبعث من جهة أخرى فيقول تعالى :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

فمن وجهة نظر القرآن الكريم مهما كان النوم في الظاهر تعطيلاً للقوى الطبيعية ولكنه من الناحية الروحية يعتبر رجوعاً إلى الباطن . فالنوم موت قصير ، والموت نوم طويل ، والروح في كلتا الصورتين تنتقل من عالم إلى عالم آخر ، وأقصى ما يوجد بينهما من اختلاف هو أن الإنسان في حالة النوم وبعد اليقظة لا يلتفت غالباً إلى أنه قد عاد من سفر ، بينما الأمر ليس بهذا الشكل عند الموت فكل شيء في تلك الحال واضح أمامه .

وقد قام الفلاسفة الروحيون بتبويب الأحلام والرؤى فجعلوا قسماً كبيراً منها يدور حول آمال الإنسان ورغباته أو حول الحوادث التي مرت عليه .

وقسم آخر مشوش مبعثر ناشىء من أوهامه وتخيلاته .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

وهناك قسم ثالث يشكل الإلهام نواته الأساسية ، وهو يتنبأ على أساسه بالحوادث التي يخفيها المستقبل .

ومثل هذه الأحلام قد تظهر أحياناً الواقعيات المخفية بشكلها الحقيقي ، وقد تصوغها أحياناً أخرى في قوالب رمزية يستطيع المتضلعون في تفسير الأحلام أن يكشفوا حقيقتها .

ولما كانت الروح الإنسانية مسانخة لعالم ما وراء الطبيعة فإنها في حالة النوم ـ أي عندما لا تكون مشغولة بالإدراكات الحسية ـ تسافر إلى عالم أوسع يسانخها ، وهي تشاهد بعض الحقائق في ذلك العالم بمقدار ما يسمح لها استعدادها وظرفيتها ، وتستطيع أيضاً أن تخزن هذه المعلومات في الذهن بحيث تتذكرها بعد اليقظة .

ولا شك أنه لا قيمة ولا اعتبار لتلك الأحلام المبعثرة المشوشة التي ترتبط بحالات الجسم والروح ، وهي ليست سوى أوهام وخيالات أو تجسم لحوادث قد مضت ، وهي لا تعكس أي شيء من حوادث المستقبل . أما تلك الرؤى التي على أساس تفسيرها يمكن التنبؤ بحقيقة هي في حالة المخاض وسوف تولد ، أو أنها كانت صريحة وواضحة بحيث لم تكن بحاجة إلى تفسير ، وهي تتحدث في عالم المثال عن علل الأشياء وأسبابها وتعكس صورتها الواقعية التي سوف تتحقق بها في المستقبل القريب أو البعيد ـ إن هذه الرؤى قد ذكرت كثيراً في المصادر التاريخية ، وقد حدثت في الحياة الخاصة للأفراد كثيراً ، بحيث لا يمكن أن تعد هذه جميعاً من الأمور التي تحدث صدفة .

ومثل هذه الرؤى ليست من ألوان التذكّر ولا من تحليلات الجهاز العصبي التي تحدث لنا يومياً ، ولا من الغرائز المكبوتة ، فالرغبات والآمال لا دور لها في ظهور مثل هذه الأحلام .

ويقدم (فرويد) تفسيراً للأحلام فيقول :

« إن كل ما يتجسم أمامنا في الرؤيا إنما هي رغباتنا وإحساساتنا التي شعرنا بها أثناء النهار ، ولكنها لسبب ما لم يتم إشباعها أو أننا امتنعنا بالإجبار عن تنفيذها ، فالرجل الذي لم تصل يده أثناء النهار إلى المرأة الفلانية فإنها تتسلط عليه في عالم الرؤيا ، والشحاذ الجائع يرى نفسه في عالم الأحلام إنساناً ثرياً يملك قصراً منيفاً ، والقبيح يرى نفسه في النوم لا نظير له في الجمال ، والشيخ العجوز يتغير إلى شاب ينضح قوة ونضارة ، والإنسان اليائس يرى نفسه في عالم الرؤيا وقد قضيت حوائجه ، وملخص الحديث فإن كل الرغبات التي لا يتم إشباعها أثناء النهار ، وجميع المشاعر التي لا بد من إخفائها لسبب من الأسباب تظهر في عالم الرؤيا ويتم إشباعها بشكل حر »[1] .

وسوف أحجم هنا عن ذكر كثير من الأحلام التي تحدثت عن حوادث المستقبل ، سواء مما ذكر في المصادر التاريخية أو ما نقل عن أشخاص أو ما سمعته من أفواه أناس يوثق بكلامهم ، وأقتصر فقط على ذكر حلم شخصي لي :

في يوم الأحد المصادف للرابع من شهر اردیبهشت عام ١٣٣٩ هـ.ش . هزت زلزلة قوية مدينة « لار » فتسببت في خسارات كبيرة .

وقبل حدوث هذه الزلزلة بما يقرب من أسبوع رأيت ليلة في النوم أن زلزلة عظيمة قد هزت مدينة « لار » فهدمت الأبنية ونهض الناس من على الأرض متربين وأثارت غباراً شديداً بحيث حجب السماء .

وفي تلك اللحظات التي كان فيها ذلك المنظر المهول يضغط على أعصابي استيقظت من النوم مرعوباً ، وبدا لي أن الوقت حينذاك كان بعد منتصف الليل .

---

(١) فرويد ص ٢٣ .

وفي اليوم التالي نقلت رؤياي لعدد من الشخصيات المحترمة ولبعض الأصدقاء المقربين ، وهم يتذكرون الموضوع لحد الآن . وفي تلك الحال فسروا الحلم بتفسيرات أخرى ، وبعد مرور ليلتين أو ثلاث ليال حدثت زلزلة شديدة نسبياً لم تحدث أية خسائر ، وفي صباح تلك الليلة جاءني أحد العلماء الذين نقلت لهم حلمي وقال :

« إن الزلزلة التي حدثت البارحة هي التي رأيتها في الحلم » . فقلت له : إن الزلزلة التي رأيتها في الرؤيا كانت محطمة هائلة لا تشبه هذه الزلزلة القصيرة ، التي مرت من دون أن تترك خلفها خسائر . ولا يزال هذا الرجل يذكر الموضوع لحد الآن .

حتى وصل يوم الحادث أي يوم الأحد الرابع من ارديبهشت ١٣٣٩ ، وفي الساعات الأخيرة من ذلك اليوم ألمت زلزلة محطمة بمدينة «لار» فهزت البلد بقوة وهدمت أبنيته وثار غبار كثيف غطى الأفق ، وعانق كثير من الناس صغاراً وكباراً ، نساء ورجالاً الموت الرهيب .

والذين سلموا من آثار هذه الزلزلة خفوا نحو الخرائب لمساعدة المجروحين والمصابين ، وقد شوهدت في تلك اللحظات الحزينة مناظر تؤثر تأثيراً عميقاً في نفس الإنسان وقد تؤدي به إلى التحول .

والأغرب من هذا أنني شاهدت في تلك الرؤيا طفلاً من أقاربنا وكان يسكن في بيت مجاور لنا ـ رأيته وهو يمر من تحت بيت يتهدم تدريجياً ، فصحت به وطلبت منه الفرار وقد ابتعد هو أيضاً من منطقة الخطر .

وعندما حدثت الزلزلة تهدم من ذلك البيت الذي رأيته في الحلم ذلك الجانب الذي رأيته في حالة انهدام فقط ، أما سائر البناء فقد بقي سالماً ، ولم يلحق أي أذى بذلك الطفل السابق ذكره ، وقد سألته فذكر لي أنه عندما بدأت الزلزلة كان يركض مدهوشاً من هذا الجانب في البيت إلى ذلك الجانب، وفي تلك اللحظة التي تهدم فيها ذلك الجانب كان هو قد ابتعد عنه.

فهل من المنطقي في تحليل مثل هذه الأحلام التي تتحدث عن الواقع ، وتكشف الستار عن حقائق المستقبل أن نلجأ إلى تفسير الماديين فنعتبر الرؤى والأحلام بأجمعها ناشئة من تجسم الأعمال اليومية في الحياة العادية أو أن سببها الخوف من بعض الأمور ؟

وهل صحيح أن مثل هذه الأحلام ناشئة ـ كما يدّعي أتباع المذهب الفرويدي ـ من رغبات مكبوتة ، ولخداع « الأنا » فإنها تجلّت للشعور ؟

فكيف يستطيع جهاز الإدراك عندنا أن يدرك الحوادث الخارجة عن مجال الموجودات المادية ، وأن يتعرّف على الوقائع التي ستحدث بعد مدة من الزمن ؟

ألا يكون هذا العلم دليلاً على ارتباط النفس الإنسانية بعالم المجردات ؟

وهل يوجد لهذا تفسير آخر ؟

إذن لا بد أن يكتسب الإنسان أنباءه بطريقة ما من عالم الغيب ومن منبع مطلع على المستقبل ، وبهذا يظفر ببعض الواقعيات . وكما أن الإنسان يضبط الأمواج المنبعثة من المجرّات بواسطة المراصد ، ويظفر بمعرفة بعض المجهولات فأي مانع يمنعه من استقبال أمواج عالم الغيب بواسطة الروح الإنسانية التي تقوم بدور الوساطة ، فيتّضح بواسطة الرؤيا ما كان مجهولاً لديه بشكل طبيعي .

ولننظر الآن ماذا يقول زعماء المذهب المادي في تفسير الحلم بشكل عام :

« على العكس مما كان متصوّراً في القرون الماضية فإن الحلم لا يخبر عن المستقبل ولا يكشف لنا أي سر ، بل هو أساساً لا تفسير له ، وإذا كنا معتقدين بالمذهب الفرويدي فإن الأمر يصبح على العكس تماماً ، لأنه عندئذٍ يعكس مواضيع سابقة ، فالحلم نتيجة لقضايا قد سبقت وليس هو علامة على

قضايا سوف تأتي .

وبالتالي فإن الدراسات العميقة في موضوع الأحلام قد أوضحت أن الحلم ـ مثل جميع القضايا الروحية ـ شيء مادي خالص ، ولا تؤثر فيه أي قوة مما وراء الطبيعة »[1] .

فهل من الواقع الادّعاء بأن أحلامنا لا تخبرنا عن المستقبل ولا عن الأمور الخفية على الإطلاق ؟

إن هؤلاء أحرار فيما إذا أرادوا التنكر للواقعيات وتفسير الأحلام ـ التي لا ترتبط بالأفكار اليومية بأي شكل من الأشكال ـ تفسيراً غير واقعي .

إن هذه الفئة التي تعلن أن آراءها قد ارتفعت إلى مستوى الكمال ، وتتخيل أنها قد نفذت إلى أعمق أسرار الوجود وأحاطت بالقوانين المسيطرة على ظاهر وباطن الإنسان ، ولم يبق أي سر خفي ـ بالنسبة إليها ـ في كل أرجاء العالم ، وتتصوّر أن جميع القضايا التي تعرضها منطقية ولا بد من اتباعها ـ إن هذه الفئة مستغنية عن كل شيء ولا يوجد أي سر بالنسبة إليها حتى يكشف عنه ؟! .

ولكن هؤلاء يجب أن يعلموا أن مواجهة الحقائق بهذا الشكل تدل على روح متمردة على البديهيات ، وعلى النفور من الحقيقة التي قد فرغ من إثباتها .

أجل إن عادة أتباع المذهب المادي قد جرت على تهديم الأسس الفكرية للآخرين ، وكل الأحداث التي لا تنسجم مع منطقهم فإنهم يتسرعون في تحليلها من وجهة نظرهم الضيقة متخيلين أن مذهبهم قادر على تفسير أدق المسائل وأعقدها .

بينما التأمل في الدراسة والتأني في التفكير والإلمام ولو كان مختصراً

---

(١) النوم والحلم ، للدكتور اراني ص ١٥ ـ ١٦ . (بالفارسية) .

بالأمور اللامحسوسة واقعاً يؤدي إلى تضييق دائرة التصديقات ذات البعد الواحد ، ويعين على اتساع رؤية الإنسان .

ولا ينبغي أن نغفل عن الإشارة إلى أن المفكرين الإلهيين لا ينكرون تأثير الإدراكات والأفكار الماضية والرغبات والآمال وسائر العوامل الخارجية والباطنية في إيجاد الرؤيا ، فالأمراض المختلفة ، واختلال المزاج تلقي بظلالها على كثير من الأحلام ، ولكنه ليس من الصحيح اعتبار الأحلام انعكاسات فقط للنشاطات العصبية والدماغية والرغبات المكبوتة . أجل إن كثيراً من الأحلام تعتبر انعكاسات للعوامل المذكورة ، ولكن ماذا يقولون بالنسبة للأحلام المتنبئة بالمستقبل ؟ عندئذٍ لا يكون الموضوع بهذه البساطة . وكما لاحظنا فإن كثيراً من الأحلام تبين الحوادث الخفية والأمور المستقبلية ، ولو اقتصرنا على العامل المادي في تفسير ظهورها لما كان جواباً مقنعاً ، وذلك لأن جوهر وماهية بعض منها هي كونها عصارة حقيقة أخرى ، والنظرة ذات البعد الواحد عاجزة عن تفسيرها وتوضيحها .

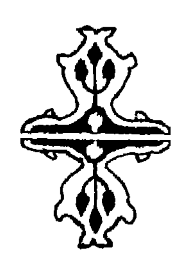
ولا ينبغي أيضاً النظر بسطحية إلى الأعمال المحيِّرة للمرتاضين ولا ينبغي المرور عليها مرور الكرام ، ولهم أعمال غريبة قد شاهدها كثير من الناس بأم أعينهم أو قرأوها في كتب الماضين .

ولو اعتبرنا الروح ظاهرة مادية لغاصت هذه الحوادث ـ التي تنبع من القوى الباطنية الخفية ـ في بحر من الضباب .

إذن كل المسائل التي طرحناها للبحث تشير إلى وجود حقيقة مستقلة ، من صفاتها المميزة أنها خالدة وترفض الموت ، ومن هنا ندرك أن معرفة الحقائق لا تتيسر إلا بالتعمّق في التفكير ، وتعتبر هذه أفضل السبل للبحث عن الحقيقة .

وإذا شبهنا الإنسان بطائرة مصنوعة من أجزاء مختلفة ، وكل جزء فيها يقوم بدور معين ويتحمّل مسؤولية خاصة ، فإنه لا بد أن نعترف بأن هذه

الـطائرة محتـاجة بشكـل أساسي إلى طيـار مدرّب حتى يتمكن من قيـادتهـا بمعرفته وفنه ، والطيار ليس من جنس أجزاء الـطائرة ولا من أجهـزتها ولكن وجوده ضروري لا يمكن الاستغناء عنه في أداء دور قيادة الطائرة والوصول بها إلى شاطىء الأمان .



وتصل أخيراً لحظات نهاية كل شيء

لا شك أن نظام العالم الموجود سوف يشهد حوادث غريبة في يوم ما ، إن هذا العالم الذي كان طيلة عمر الإنسان ساحة لجهوده المستمرة ، وكان ينتقل فيه الإنسان من نصر على الطبيعة إلى نصر أكبر ، ولا يقتصر هذا على الأرض وإنما يمتد لاستغلال ثروات أعظم ، ولهذا فقد وسع ساحات جولاته لتشمل أعماق البحار ونقاط الفضاء البعيدة ـ إن هذا العالم سوف يواجه في النهاية مصيراً مخيفاً وسوف يتلاشى بوقوع فاجعة عظيمة .

في ذلك الحين سوف تتبعثر جميع كواكب السماء وتتناثر ، وينطفىء ضياء النجوم ولمعانها ، وتقتلع الجبال الشاهقة من أماكنها ، وكأن شرارة قد ألمّت بأكداس من القطن قد جمعت خلال قرون عديدة ، والبحار هائجة ، والقبور تبعثر وتقلب رأساً على عقب ، والأرض تطيع في هذا التغير أمر ربها ، وهي تعيد وتسلم الأمانات التي احتفظت بها طيلة مرحلة ممتدة من الزمن فتتخفّف من هذا الحمل الثقيل ،وأخيراً يظهر العالم في تلك اللحظات بشكل مجموعات هائلة من الغبار ، وكأن جميع الكائنات قد طحنت بمطرقة هائلة .

إن هذا التبعثر والتناثر والاختلاط للعناصر ، الذي لا يمكن فيه تشخيص أية ظاهرة ، هو مصير عالمنا ، وهو مصير مدروس منسجم

ومحسوب حسابه .

ويذكر القرآن الكريم الإنسان بأن النظام الموجود ذو مدة معينة ، وهو لا يدوم إلى الأبد ، وهذا هو الكلام الإلهي :

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾[1] .

وهو يعلن من ناحية أخرى أن وقوع هذه الأحداث حتمي ، وفي ذلك اليوم الذي ينتزع فيه لباس الحياة من جسم أي موجود لا يبقى أي أحد وأي شيء سوى الذات المقدسة .

ومن الأفضل أن نستمع إلى القرآن الكريم في تجسيمه لهذا المنظر المهول والمستقبل المحتوم لهذا العالم الذي يتغير فيه كل شيء ويزول :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربّكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[2] .

﴿ إذا رجّت الأرض رجّاً * وبسّت الجبال بسّاً * فكانت هباءً منبثاً ﴾[3] .

﴿ يسأل أيان يوم القيامة * فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ ﴾[4] .

﴿ فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت ﴾[5] .

---

(١) سورة الروم : الآية ٨ .

(٢) سورة الحج : الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٤ ـ ٦ .

(٤) سورة القيامة : الآيات ٦ ـ ١٠ .

(٥) سورة المرسلات : الآيات ٨ ـ ١٠ .

﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجّرت * وإذا القبور بعثرت ﴾[1] .

ويقول العالم الفلكي (فلاماريون) في كتاب (نهاية الدنيا) :

« إن ظهور الحياة بجلالها وهيبتها كان نتيجة تبعية المنظومة الشمسية لقوة الجاذبية العامة والقوة المركزية الطاردة ، ذلك أن قوة الجاذبية العامّة تربط جميع أجزاء هذا العالم - بدءاً من الذرات وانتهاء بالنجوم - ببعضها ، أما القوة المركزية الطاردة فهي التي تنظّم وتضبط حركاتها ، وبالتالي فهي تبث في جميع أرجاء العالم نظاماً عاماً ، ولكن هذا النظام سوف يتبعثر شئنا ذلك أم أبينا ، وسوف تنتهي الكواكب إلى الموت ، وسوف تنتشر النجوم كحبات العقد الذي انقطع حبله فتذهب هنا وهناك » .

وما يستفاد من الآيات والروايات يدل على أن هذا النظام السائد في العالم سوف يتبعثر فجأة في أثر حادث نجهل نحن كيفيته ، وينتهي عمر الشمس والنجوم والنظام التكويني دفعة واحدة .

يقول العالم الفلكي الإنكليزي (ريل) :

« لقد وجد العالم قبل عشرة آلاف مليون أو خمسة عشر ألف مليون عام بانفجار عظيم ، وأنفق نصفاً من طاقته أو مادته لدفع النجوم إلى أعماق الفضاء ، وتجمع المجرة النصف الآخر وتعده للانفجار النهائي » .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾[2] .

﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾[3] .

---

(١) سورة الانفطار : الآيات ١ - ٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٣) سورة التكوير : الآية ٦ .

﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾[1] .

أي كالنحاس الذائب .

فهاتان الآيتان تخالفان نظرية العلماء السابقين الذين كانوا يرون أن عمر العالم سوف ينتهي بسبب انخفاض درجة حرارة الشمس وانجماد الموجودات ، أما الآيتان فهما تخبران عن شدة الحرارة المحرقة للشمس أثناء قيام البعث ، بحيث لا يستطيع أي موجود حي أن يواصل حياته .

والمتخصصون في عصر تفتح العلم البشري يتنبأون ـ في حدود معرفتهم النسبية ـ بمثل هذا اليوم بهذه الصورة : يقول المحقق الشهير (جورج غاموف) :

« إن إشعاع الشمس يزداد بمرور الزمان ، وعندما يقترب الهيدروجين الموجود في الشمس من الانتهاء فإن الطاقة الإشعاعية سوف تتضاعف مائة مرة تقريباً ، ومن هنا يتبين لنا أن دراسة موضوع إنتاج الطاقة في الشمس قد أوصلتنا إلى نتائج تخالف تماماً ما هو موجود في النظرية الكلاسيكية الرسمية .

وبدل أن نقول:بسبب النقص في الأفعال والانفعالات التي تحدث في الشمس فإنه سيأتي يوم يتجمد فيه كل شيء ؛ لا بدّ أن نقول : بسبب شدّة حرارة الشمس في آخر مراحل تحوّلها فإن الحياة يحكم عليها بالفناء .

وبهذا فإن درجة حرارة سطح الأرض ترتفع على درجة حرارة فوران الماء ، ولو أن الصخور وقشرة الأرض الجامدة لن تذوب في مثل هذه الحرارة ، ولكنه من المقطوع به أن مياه البحار والمحيطات سوف تغلي ، ولما كانت جميع الموجودات الحية الراقية لا تستطيع أن تعيش في الماء المغلي ، إذن كلما ارتفعت درجة الحرارة فإن الأنواع الحية سوف تصاب

---

(١) سورة المعارج : الآية ٨ .

بالانحطاط ، وعليه فالاحتمال القوي قائم على فناء الأنواع الحيّة الراقية قبل وصول الحرارة إلى درجات لا يمكن تحملها »[1] .

وهو يقول في مجال آخر :

« ينتظر خلال مدة تناهز عدة مئات من ملايين الأعوام قبل تشكيل المنبع الغلافي في أن يصبح قطر الشمس أكبر من مدار الزهرة ، ويزداد ضياؤها من عشرة إلى ثلاثين مليون مرة ، وعندئذٍ تغلي المحيطات التي على سطح الأرض بشدة »[2] .

ويصف القرآن المجيد كيفية وقوع البعث والنشور فيقول :

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[3] .

إذن هناك نفختان ، الأولى تطوي سجل الدنيا وتصعق سكان الأرض المشغولين بالجدال في شؤون حياتهم ، وفي هذه النفخة الأولى يضم الموت بين ذراعيه جميع أحياء الأرض والسماء وحتى الملائكة ، أمّا النفخة الثانية فهي نداء مرعب لإحياء الموتى وبها تبدأ القيامة فينهض الناس من قبورهم وعندئذٍ يسألون وكل وجودهم يفيض خوفاً ورعباً :

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ ﴾[4] .

ثم يفتحون عيونهم جيداً ويقولن :

﴿ هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون ﴾[5] .

إن موضوع الصور والنفخ فيه بمثابة ذلك البوق الذي تستعمله الجيوش

---

(١) ظهور الشمس وموتها ، ص ١٣١ بالفارسية .

(٢) مادة الأرض والسماء ، ص ٥٣٣ بالفارسية .

(٣) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٤ ، ٥) سورة يس : الآية ٥٢ .

لإعلان بدء القتال ، فالمرة الأولى ينفخ فيه لإعلان التهيؤ والاستعداد ، وينفخ فيه للمرة الثانية لإعلان التحرّك وبدء الهجوم . إذن الصور حقيقة موجودة لها نفختان ، نفخة الموت الشامل ، ونفخة التجديد العام للحياة .

ففي الآيات التي تتحدث عن التغيّر والتحوّل في الطبيعة نرى كيف يشمل الرعب والضوضاء أرجاء الوجود كافة ، فالأرض والسماء ، الصغير والكبير ، الإنسان والحيوان ، وكل المخلوقات غارقة في الحيرة مبهوتة ، ويجرف الخوفُ جميع العلاقات ، فكل إنسان مشغول بنفسه ، هذه هي الحالة العامة للناس .

أما العاصون المفسدون فماذا يعملون ؟

من هنا تبدأ قصة المنحرفين المرعبة ، ففي ذلك اليوم يتمنى ذوو القلوب المسودة أن يعودوا إلى الأرض مرة أخرى ليجبروا ماضيهم المخجل الذي عصوا فيه الله ،ولم يسيروا على خط أنبيائه،ويعدون في هذه المرة أنهم سوف يتمسكون بالحق .

ولكن الفرصة قد فاتت والوقت قد مضى ، ففي ذلك الجو الذي يخيم فيه السكون الرهيب مع عظمة الله الجبارة الخالدة على كل شيء تكون القدرة على العصيان والتمرّد قد سلبت من كل فرد من أفراد الإنسان ، والكل يتحرك خلف النداء الذي يدعوهم إلى محضر الله العلي القدير .

والله سبحانه يوقظ ضمير الناس لئلا ينالهم المصير المحزن فيخاطبهم بحديث يهز القلوب :

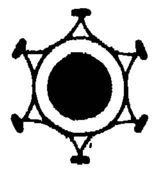
﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم ؟** ﴾[1] .

وعندئذٍ يحذّر الناس :

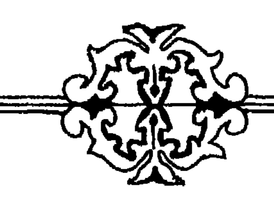
---

(١) سورة الانفطار : الآية ٦ .

﴿ استجيبوا لربّكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ لـه من الله ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير ﴾[1] .



(1) سورة الشورى : الآية ٤٧ .



ويخف الإنسان إلى ساحة البعث ببعديه

والآن لننظر كيف تكون الحياة في العالم الآخر ، أيكون النشور جسمانياً فقط فتعود الحياة إلى الإنسان وهي الحياة المادية التي من آثار هذا الجسم ؟ أم تكون الحياة الخالدة في إطار الروح المجرّد الخالص فحسب بعيداً عن أي تعلّق بالجسم المادي ، مع العلم أن الفناء والعدم لا سبيل لهما إلى الروح ؟ .

أم أن للمعاد ناحيتين : ناحية روحية وناحية نصف جسمانية ، ونقول نصف جسمانية للإشارة إلى أن العودة ستكون بجسم لطيف يعتبر عصارة هذا الجسم الحالي ؟ .

أم هناك احتمال ثالث: وهو لما كانت حقيقة الإنسان تتركب من جسم وروح فإن الحياة الأخرى أيضاً تشمل ناحيتي واقع الذات الإنسانية بمعنى أنه لا البدن المادي ـ الذي هو منشأ مجموعة من الأفعال والانفعالات الفيزيائية والكيميائية ـ يؤول إلى العدم ، ولا الروح ينفصل عن هذا الجسم حين البعث ؟ .

إن هذه آراء متنوعة طرحت في مجال كيفية البعث في الحياة الأخرى ، ولكل واحد منها مؤيدون بين المفكرين وأصحاب النظر ، ونحن نتناول كلاً منها بالشرح والتوضيح .

لقد تبنت مجموعة من العلماء النظرية الأولى ودافعت عنها بحرارة قائلة : عندما يحين أوان الموت وتنتهي أفعال البدن وانفعالاته الفيزيائية والكيميائية ، فإن كل شيء يصل إلى نهايته ، ولكنه في البعث تتجمع أجزاء البدن المتلاشي والمبعثر من بين التراب وذرّات الهواء وأمواج البحار وتتصل ببعضها ، وعندئذٍ يبدأ الإنسان حياة جديدة ، وتكون عودة الروح ـ الذي هو من خواص البدن وآثاره ـ أمراً لا مفر منه .

أما الرأي الثاني فقد اختاره كثير من الفلاسفة السابقين ، وهؤلاء يعتقدون بأن الروح هو المنبع والأساس للوجود الإنساني ، وكيفية تكوينه تساعد على استمرار بقائه ، وعند الموت فإن ذلك العنصر الأصيل (الروح) يودّع إلى الأبد جسمه المادي الذي يتميّز تركيبه بخاصية كونه مؤهلاً للفناء ، وينتهي دور الجسم الذي استمر لمدة قصيرة والذي اكتسب قيمته الحيوية في ظل الروح ، وذلك لأن البدن يستطيع أن يحتفظ بذلك العنصر المجرّد لفترة محددة فقط ، وبالتالي فإنه يؤول إلى التحلل والزوال نتيجة لتأثير العوامل المادية عليه ، بينما الروح ـ الذي هو موجود مجرّد عن المادة ولا سبيل للفناء إليه ـ سوف يبقى خالداً ثابتاً ، وهو وحده الذي يستطيع اقتحام ساحة البعث ، وإلا فإنه لا معنى ولا مفهوم لأي معاد آخر ، وبناء على هذا فإن أي ثواب أو عقاب فهو سيكون روحانياً فحسب .

ومع أنه لا يوجد أي دليل محكم على صحة هذاالرأي فإنه كان شائعاً في الماضي ، ولكنه اليوم فقد مؤيديه واتضحت إلى حد بعيد نقاط الضعف فيه بسبب انتشار النظرية الأصيلة الواقعية من قبل العلماء المحققين .

ويناصر الرأي الثالث بعض القدماء من الفلاسفة حيث كانوا يعتقدون أننا عندما نقع في قبضة الموت فإن أجسامنا في الواقع تفنى وتزوَل ، ولا تعود أجزاء هذا البدن المادي ولا العناصر المبعثرة المشتتة ، أما الروح فتبقى على وجودها ، ولكن ليس في حالة تجرد خالص بل تحل في جسم لطيف ، وصحيح أنه ليس له قابلية الفعل والانفعال الكيميائيين والفيزيائيين ، ولكنه

من بعض الجهات يشبه هذا الجسم ، ويعبر عنه بـ « الجسم المثالي » ، وهو جسم فعّال للغاية ويتميّز بالقدرة على اختراق الموانع ويستطيع أن يواصل حياة أبدية في قالب موجود ثابت وأبدي .

والرأي الرابع يتعلق بكثير من الفلاسفة والمتكلمين منهم من عاش في العصور الغابرة ومنهم من يعيش في عصرنا الراهن .

ويعتمد هذا الرأي على الأصل القائل إن المعاد عودة كاملة بكل معنى الكلمة ، وذلك لأن كل ما يتعلق بالإنسان فإنه لا يسلك سبيل الفناء ، وسوف يبدأ حياته من جديد في عالم آخر بكل أبعاده وجميع خصائصه ، إلا أنها حياة في عالم أرفع وبشكل أفضل ، ونصل في تلك المرحلة إلى وضع يبدو فيه الروح والمادة بشكل موجود واحد مع كونهما ماهيتين مختلفتين، وذلك بسبب الصلة القريبة التي تربط بينهما .

إذن حقيقة الحياة الأخرى هي أنها تشتمل على الناحيتين ، كما هي عليه في الحياة الدنيا .

وصحيح أننا لا نستطيع إقامة برهان عقلي على كيفية الحياة بعد الموت ، ولكن الشيء الذي يمكن تناوله بالبحث والتحليل العقلي والفلسفي إنما هو ضرورة أصل البعث والمعاد ، أما أي الصور الممكنة يكون حتمي الوقوع فإن العقل والفلسفة لا يعطيان مفتاح حل هذا السر . ومع هذا فإن الرأي الأخير عندما يتناول بيان حقيقة الأمر فإننا نلمح من ورائه لهجة الصدق ، وذلك لأنه يتحدث عن أمور تتفق مع النصوص الإسلامية الصريحة .

فالقرآن الكريم ـ الذي هو أهم مصدر للمسائل الإسلامية ـ يتحدث كثيراً عن جسمانية المعاد ، ويعلن بصراحة أن الإنسان سوف يحشر في يوم القيامة بهذا الجسم الدنيوي ، وتصل صراحة هذه الآيات إلى الحد الذي لا يمكن معه أي تأويل ، وهذه آيات الكتاب العزيز :

﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾[1] .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾[2] .

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الذين يظنون بأن البدن المتلاشي والأجزاء المبعثرة ليست مؤهلة للحياة من جديد لا يعرفون حق المعرفة قدرة الله اللانهائية ، ولا يفهمون أن إعادة الحياة للإنسان بهذه الذرّات المبعثرة ، وحتى إعادة صياغة الخطوط الدقيقة التي تنتشر في أصابعه ، ليست إلّا أمراً بسيطاً وتافهاً للغاية بالنسبة لذات الله اللامحدودة .

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[3] .

ويتناول القرآن الكريم ذكر ما جرى للنبي عزير ويفصّل أيضاً قصة خليل الله إبراهيم (عليه السلام) ، وكل حادثة من هاتين نموذج حي للمعاد الجسماني ، وقد أوضح الله سبحانه المسألة لهذين النبيين العظيمين بشكل عيني ، وقد جعلهما ينظران بأبصارهما إلى نموذج للبعث والنشور وأراهما كيف تتجلى الروح في البدن ـ المبعثر ـ من جديد بإذن الله بعد توفر الظروف اللازمة فتبدأ الحياة مرة أخرى .

فنحن نقرأ في قصة عزير أنه كان يوماً راكباً دابته وقد مر خلال سفره بمكان خرب فوقع بصره على منظر موحش في تلك الخربة ، ورأى عظاماً نخرة لأناس قد مرّ على موتهم زمن طويل ، فحمله هذا على التأمل طويلاً ، وتساءل : كيف يحيي الله هذه الأجساد المتحللة مرة أخرى ؟ .

وفي تلك اللحظة قبض الله روحه وبعد مائة عام منحه الحياة من جديد

---

(١) سورة الروم : الآية ١١ .

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٣ ، ٤ .

(٣) سورة يس : الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

وسأله عندئذٍ : كم هي الفترة التي أمضيتها هنا ؟ فأجاب : يوماً أو بعض يوم ، فقيل له لقد أمضيت في هذا المكان مائة عام كان خلالها جسدك ملقى على الأرض ، وانظر إلى حمارك هذا الذي جسده مفرّق ومتلاش ولكننا نحييه الآن ..

ولكي يريه الله قدرته اللانهائية فقد احتفظ بمائه وغذائه سالماً لم تمسه يد التغيير مع أننا نعلم أن الماء والغذاء يسرع إليهما الفساد أو التبخير نتيجة لتأثير العوامل الطبيعية كالضوء والحرارة والغبار ، ولكنهما بقيا بعد مرور قرن كامل على ما كانا عليه ، وهذا هو حديث القرآن الكريم :

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾[١] .

وبالإضافة إلى هذا توجد آيات عديدة أخرى تتناول بصراحة بيان كيفية المعاد وتنفي اقتصار البعث على المعاد الروحاني ، يقول الله تعالى :

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[٢] .

﴿ وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾[٣] .

فهذه الآية الكريمة تلفت الإنسان بجملة قصيرة بليغة إلى بدء خلقه ، كيف تركب بناء جسمه من عناصر الأرض الجامدة ومن الماء ، بينما كانت هذه العناصر في يوم ما بشكل مواد غذائية ، فواكه وخضروات موزعة في نقاط مختلفة من الأرض ، أو بصورة قطرات ماء ضائعة في المحيطات حيث

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

تبخّرت وتحوّلت إلى سحاب ثم إلى مطر يسقط على الأرض .

فلماذا لا يصدق الإنسان بأن هذه المواد المبعثرة التي يجرفها الهواء والماء وينثرها في جوانب مختلفة من الأرض سوف تلتئم مرة أخرى وتعود إلى شكلها الأول ؟

ولو كان تجديد الحياة غير ممكن فلماذا تحقق هذا الأمر بالكيفية المذكورة في بدء الخلق ؟

ويطرح القرآن الكريم موضوعاً آخر يتعلق بالمعاد الجسماني فيقول :

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾[1] .

إنه لموقف مرعب ومحيّر ، ففي هذا الموقف الذي لا يتوقع فيه أحد أن تنهض أجزاء بدنه تشهد ضده في حالة الاستنطاق ، اختير الجلد ـ الذي هو ألصق بالإنسان من أي شيء آخر ـ للشهادة .

فهؤلاء الذين يقصر تفكيرهم فلا يعرفون إحاطة علم الله الكاملة بأعمال المخلوقين يقدمون في الخفاء على الفساد والذنوب ويحاولون إخفاء قبائحهم عن الأنظار ، ولكنهم يفاجأون اليوم بسمعهم وأبصارهم وجلودهم وقد أصبحت منبعاً للعلم فهي تنهض في وجوههم وتشهد ضدهم ، ولهذا يخاطب الإنسان مبهوتاً أعضاء بدنه قائلاً :

﴿ لم شهدتم علينا ؟ ﴾ .

ويأتي الجواب الحاسم بتقريع من أجزاء البدن مؤكّدة على أن الله هو الذي منحها القدرة على النطق :

---

(١) سورة فصلت : الآيات ١٩ ـ ٢١ .

﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

« حتى إذا تصرمت الأمور ، وتقضت الدهور ، وأزف النشور ، أخرجهم من ضرائح القبور ، وأوكار الطيور ، وأوجرة السباع ، ومطارح المهالك ، سراعاً إلى أمره ، مهطعين إلى معاده ، رعيلاً صموتاً ، قياماً صفوفاً ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي ، عليهم لبوس الاستكانة ، وضرع الاستسلام والذلة . قد ضلت الحيل وانقطع الأمل ، وهوت الأفئدة كاظمة ، وخشعت الأصوات مهيمنة . . . »[1] .

وفي بعض الآيات الكريمة أن البدن في البعث مثل البدن الدنيوي ، مثلاً هذه الآية :

﴿ كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾[2] .

فها هنا تصوير لمشهد مرعب جداً وهو يجسم عذاباً حسيّاً ويبين أن العذاب المؤلم للمفسدين يتكرر باستمرار .

ولا تتضارب مثل هذه الآيات مع الآيات الأولى ، لأن الجلد الجديد لا يبنى من شيء سوى من ذاته ، ولا يحصل أي تغير في وجوده سواء أكان نقصاً أم زيادة .

ويحسن أن نستمع إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وهو يوضح عدم التضارب بين هذين الموضوعين :

« عن حفص بن غياث قال : شهدت المسجد الحرام وابن أبي

---

(١) نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٦ .

العوجاء يسأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ ما ذنب الغير ؟ قال : ويحك هي هي وهي غيرها ، فقال : فمثل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا ، قال : نعم أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها هي وهي غيرها »[1] .

وعندما كان النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يتحدث عن المعاد الجسماني فإن حديثه كان غريباً على المشركين لا يفهمونه ولا يقبلونه ولهذا فإنهم يعارضونه ببلاهة ويعاكسونه بغباء .

ويحاول القرآن الكريم أن يحول ذلك الجو المليء بالأفكار المريضة والذي تشيع فيه المعايير الظالمة والأوهام والعقائد المنحرفة وينتشر فيه الانحطاط نافذاً إلى لحمة المجتمع وسداه ـ يحاول أن يحوّله إلى جو التفكير الحر وطلب الحقيقة ، ولهذا فهو يذكر حديث السفهاء :

﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * افترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد** ﴾[2] .

فهذه الآيات الصريحة بأجمعها تؤكّد المعاد الجسماني ولا يمكن تأويلها بشكل يخالف هذا المعنى .

ومن ناحية ثانية فإذا تناولنا الموضوع من زاوية أخرى فإنه يستلزم استنتاجات تؤدي بنا إلى هذه الحقيقة وهي أن الجسم والروح حقيقتان مترابطتان ، والارتباط بين الجانبين هو الذي يؤدي إلى تكوّن الوجود الإنساني ، وكل ما يظهر منه من حركة أو محاولات في ساحة الوجود فهو ثمرة للجانبين .

---

(١) البحار ـ ج ٧ ، ص ٣٨ .

(٢) سورة سبأ : الآيتان ٧ ، ٨ .

وبهـذه الـرؤيـة ليس فقط لا نضـطر للقـول بـالانفصــال بين الجسم والروح ، وإنما تبرز أدلة من وجهـة نظر الإنسـان الواقعي تشيـر إلى ضرورة التركيب بين هذين لتجديد الحياة الإنسانية .

ونحن نعلم أن كـل واحـد من الجسم والـروح ليس كـامـلاً من دون الآخـر ، فالجسم وسيلة لأفعـال الروح ، وأهميتـه ودوره حاسم ومؤثـر جداً بعنوان أنه عنصر أساسي لاستمرار محاولات الروح وجهوده .

وقد يخطر إشكال في أذهان البعض فيقولون : كيف تسع هذه الكـرة الأرضية ـ يوم البعث ـ جميع أفراد الإنسان الذين تعاقبوا في الأرض على مرّ التاريخ البشري ؟ ولكن هذا الإشكال لا أساس له على الاطلاق ، لأن القرآن الكريم يخبر أنه في نهايـة عمر هـذا العالم يتـداعى نظام هـذا الفلك الذي يتحرّك بشكل دائري ، وتحوّل قوة عظيمة الجبال إلى ذرّات غبـار تطيـر هنا وهناك ، والشمس والقمر يفقدان تلألؤهمـا وضياءهمـا الساحـر فينطفئـان ، وأخيراً يتحطم الانضباط والارتباط المنبث في كل أرجاء العالم بدءاً من أبسط الأمور وانتهـاء بأعقدها وأضخمها ، ثم ينشأ نظام جـديد للوجـود يبنى على ذلك الحطام وتلك الخرائب وذلك السكون الميت .

عندئذٍ ندرك بوضوح مدى سخف وضحالة الإشكال بضيق المكان في الكرة الأرضية حينذاك .

ويشكـل الـذين يقفـون مـوقفـاً مخـالفـاً لـلإلهيين ـ وقـد ألفـوا عـادة الإشكالات ـ بأن خلايا جسم كل إنسان تتبدّل مرّة كل عدّة أعوام ، فالإنسان في طول عمره يبدّل قالبه بصورة تدريجية وبشكل غير محسوس عدّة مرّات ، ومن الواضح أن أي جسم فهو يؤدّي أعمالاً خلال حياته وهي تستحق ثواباً أو عقاباً ، وعندئذٍ يأتي هذا السؤال : أي بدن يتحمل مسؤولية الأعمال الماضية في يوم القيامة ؟ .

والجواب واضح على هذا الإشكال لأنـه إذا كانت الخـلايا الجـديدة

وارثة لجميع خصائص ومشخصات الخلايا القديمة ، حتى أن الشكل الظاهري للبدن لا يمكن تشخيصه من البدن السابق ، إذن من الطبيعي أن يكون الجسم الأخير عصارة لجميع خصائص الأجسام السابقة .

وبناء على هذا يصبح بعث آخر جسم ـ وهو الجسم الذي يختتم به الإنسان حياته ويدلف به إلى الموت ـ بمثابة بعث جميع الأجسام التي أخلت مكانها واختارت خليفتها .

ويثيرون سؤالاً آخر يتعلّق بنقص المواد الترابية للأرض بحيث تكفي الأعداد غير القابلة للعد من الناس المتحوّلين إلى تراب ، فيقولون إن هذا التراب المتوفّر في الأرض غير كاف لبناء المواد الأساسية للجسم البشري ، والنقص في هذا المجال ليس خافياً على أحد .

ولكننا سوف ندرك خطأ هذا الاستنباط الذي لم يأت من دراسة دقيقة إذا جلسنا للحساب ودققنا في النتائج :

فكل كيلو متر مكعب من التراب يكفي لبناء أجسام مائة ألف مليون إنسان ، أي أن هذا المقدار الضئيل جداً بالنسبة إلى سطح الكرة الأرضية يكفي لإعادة بناء أجسام ما يفوق سكان الأرض الحاليين عشرين ضعفاً .

وعلى هذا فنحن لا نحتاج في إعادة بناء أجسام آلاف آلاف الملايين من الناس إلا إلى قطعة صغيرة من الأرض ، فهذا المقدار الطفيف من تراب الأرض سوف يؤمن المواد الجسمية لأعداد هائلة من أبناء البشر ، ومن هنا ندرك أن مسألة النقص في المواد الأساسية لإعادة بناء الجسم الإنساني ليست مطروحة للبحث من أساسها .

وها هنا يوجد إشكال قديم جداً يلفت النظر ولا يمكن غض الطرف عنه أو تناسيه ، وملخصه أن الأجسام تختلط أجزاؤها ، فأجزاء الأبدان السابقة تتحوّل بواسطة التغذية أو عن طريق التحوّل إلى تراب ثم إلى مواد غذائية وتختلط بأبدان الناس الذين يعقبونهم .

وصحيح أنه لا يوجد أي جسم إنساني قد ابتعد تماماً عن الاختلاط بالعناصر الأخرى ، إلّا أن هذا التركيب للمواد والامتزاج الكامل لا يمكن تمييزه من الناحية الكمية والكيفية في ظروف هذا العالم ، أما في إعادة البناء عند البعث فإنه يحدث الصراع والاختلاف بالنسبة لتقارن وترافق أجزاء معينة مع بعضها .

وقد لا يقتصر الاختلاف على فردين ، فلعل هناك مدعين كثيرين يزعمون تعلّق ذلك الجزء بهم ، وكل واحد منهم يعتبر نفسه صاحبه الواقعي ، وفي هذه الحال أي واحد منهم يملك ذلك الجزء المعين ؟ .

هذا هو ملخص الإشكال .

ولكننا عندما نعود إلى نشأة حياتنا الأولى نجدها قد بدأت من موجود ذي خلية واحدة ثم تكون جسمنا عن طريق تكاثر هذه الخلية والنمو التدريجي لأعضائنا وأجهزتنا المختلفة ، والواقع أن شخصيتنا وجميع خصائصنا الجسمية ـ على خلاف ما كان يتصور في الماضي من أنها تتلخص في مجموعة من الخلايا الجنسية المتشابهة ـ معبّأة في أعماق كل خلية من خلايانا ، وكل خلية منها بمفردها يمكن أن تكون مرآة عاكسة لشخصية الإنسان الواقعية ، ولا ينطبق هذا القانون على الإنسان فحسب ، وإنما هو واقع شامل لكل موجود حي .

فإذا كانت كل خلية من خلايا الجسم عاكسة لشخصية ذلك الحي ، فإنها إذا تعرضت لظروف مناسبة فهي بمفردها تكون مستعدة ـ عن طريق الانقسام وتكوين خلايا جديدة ـ لبناء جسم جديد بكل جوانبه .

والآن إذا حلت أجزاء جسم ما في جسم آخر وأصبحت جزءاً منه فإن تلك الأجزاء المتعلقة بذلك الشخص سوف تعود إلى مكانها الأصيل ، وسيحتفظ الجسم الثاني أيضاً بوجوده الأصيل عندما يعيد تلك الأجزاء المستعارة من الغير .

ولا بد أن نشير أيضاً إلى أنه عندما تحفظ الميزات بين الجسمين فإن عناصرهما مهما اختلطت لا توجد أي إشكال ، والأجزاء المتبقية من كل بدن ـ ولو كانت ضئيلة جداً بمقدار خلية واحدة مثلاً ـ لا تفقد قابليتها على النمو وإعادة البناء ، ولا يستطيع أي عامل أن يحول دون هذا التجديد .

وعلى أي حال فإن القابلية للترميم ـ سواء أكان يتم بسرعة أم ببطء ـ تعتبر ميزة محفوظة لكل جزء ، وهو ـ كالنطفة الأولى بعد اكتسابها الحياة ـ يعيد بناء الجسم مرة أخرى .

ويمكننا من ناحية أخرى أن نحل المسألة بهذا الشكل :

نحن نعلم أن لجسم الإنسان خاصية التحلل والإبدال ، فكل عدة أعوام يتبدّل جميع الجسم بشكل تدريجي ، فإذا انتقل شيء من إنسان ـ بشكل مباشر أم غير مباشر ـ وحل في وجود إنسان آخر ، عن طريق التغذية مثلاً فمن الواضح أن جانباً من جسم هذا الغريب يختلط مع جسم المتغذي الذي هو إنسان كامل أيضاً ، وليس كله ، وذلك لأن جسم الإنسان المتغذي لا يمتص من مجموع الغذاء إلا بنسبة ثلاثة في المائة ، إذن أي إشكال يوجد في أن تبعث البقايا التي لم يتم امتصاصها وهي تزيد على التسعين في المائة من عناصر الجسم الإنساني ؟ .

وبقطع النظر عن كل هذه الأمور فإن أي طاقة في العالم ـ حسب القوانين الفيزيائية ـ قابلة للتبديل إلى الألوان الأخرى من الطاقة في ظل ظروف معينة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإنسان هو أحد منابع إنتاج الطاقة ، وحتى بعد الموت فإن جسمه يتغيّر من أحد أشكال الطاقة إلى شكل آخر ، وفي القيامة توجد جميع الطاقات بشكل حر ، فإنها جميعاً تستطيع العودة إلى شكلها الأول بإجراء فعل وانفعال معكوسين ، وأما عدم علمنا بكيفية حدوث هذا التغيير فإنه لا يستطيع أن يجعل المسألة غير قابلة للحل ، ولا يبرر ادعاء استحالة ذلك .

أما في مورد العذاب فلا بد أن نعلم أن ما يسبب العذاب والألم فهو له علاقة بالروح ، فإذا انتقل جزء من جسم الإنسان المؤمن إلى جسم كافر ، فإن ذلك الكافر هو الذي يتحمل العذاب ، وليس المؤمن .

ومع هذا كله فإنه لا يوجد أي إشكال في أن يقوم الله بإعادة الحياة لأحد الأجسام السابقة ، التي تبدّلت بشكل هادىء وتدريجي عدّة مرات حتى أوان الموت ، وذلك بإحلال الخلايا والمواد الجديدة مكان الخلايا الدماغية والعظمية والعصبية القديمة ، فمن الواضح أن إنسان اليوم غيره قبل عشرة أعوام ، والروح إذا تعلقت بأي بدن من الأبدان السابقة فإنه يكون كافياً ، لأن الشيء الذي تتوقف عليه إنسانية الإنسان ولا يتغير بمرور الزمان والحافظ لوحدة شخصيته بحيث لا تختلط ميزات أي إنسان بإنسان آخر إنما هو الروح المجرّد الذي يأخذ على عاتقه تدبير شؤون الجسم وإدارته منذ ولادته وحتى موته .

ولو أننا قمنا بجمع آلاف الملايين من البشر منذ بدء الوجود وحتى اليوم فإن المشخصات الروحية لكل واحد منهم لا تنطبق على أي شخص آخر ، وإذا ارتكب شخص ما جريمة قبل عشرة أعوام فلا يمكن القول بأنه قد تغيّر الآن ولا ينبغي محاكمته مكان ذلك الشخص الذي أجرم قبل عشر سنين .

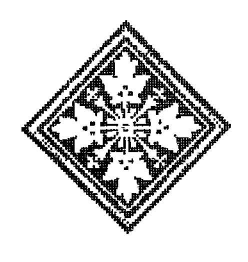
ونحن إذا جددنا طبع كتاب بواسطة « الأفست » فإن الطبعة الثانية عين الأولى وإن كان الغلاف والأوراق قد تغيّرت . وبعث الروح أيضاً من هذا القبيل ، وهي بأصالتها محققة لماهية الإنسان .

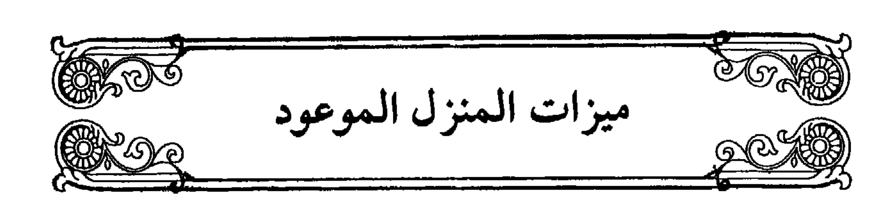
إذن لما كان الإنسان محتاجاً إلى وسيلة ومادة يتجلّى بها فإنه لا بد أن يحشر بجسم دنيوي ، ولكنه لا توجد أية ضرورة توجب إحياء كل فرد في البعث بكل ما طرأ عليه منذ بدء وجوده وحتى موته ، لأنه عندئذٍ سوف يكون جسمه شيئاً مهولاً جداً .

وبهذا الفرض يرتفع الإشكال الحاصل من انتقال أجزاء لفرد إلى

شخص آخر فيلزم منه أن يحشر شيء واحد في زمـان واحد ضمن شخصين مختلفين .

وأخيراً لا بدّ أن نلتفت إلى أن هذه الوجوه والاحتمالات المـذكورة لا ينبغي عدّها وجوهاً يقينية في كيفية إعادة حياة الناس ، وإنما كل ما ذكر هي سبل توصّـل إليها علمنـا ، ولهذا فليس صحيحـاً أن نحدّد ونحصـر الأفكار الدائرة حول بعث الأموات بهذه الصورة المذكورة ، وهدفنا من هذا البحث هو أن لا تؤثر الشبهات والإشكالات على أسس عقيدتنا بـالمعاد الجسمـاني الذي تعتمد عليه جميع الأديـان الإلهية ولا سيمـا الدين الإسـلامي الحنيف الممثل في القرآن الكريم .





ميزات المنزل الموعود

إن المناظر التي نرسمها في أذهاننا للناس والمدن والحدائق والبساتين عندما نسمع أوصافها ومشخصاتها تختلف تماماً عما نجده عن كثب فيما بعد عندما نراها بأعيننا ، وتتعلق هذه الملاحظة بالأمور التي يجدها الإنسان كثيراً في حياته .

ولكننا كلما حاولنا تصوير سعادة الآخرة ونعمها أو عذاب البعث وآلامه فإن كلمات القاموس الدنيوي لتعجز عن بيان ذلك الحدث المهيب ، ولا تنطبق استنباطاتنا الذهنية على واقع الأمر بأي وجه من الوجوه .

وليس من اليسير إدراك آلام العذاب النازل على المذنبين بالحق والعدل ، ولا إدراك النعم التي لا تعد في الآخرة ، من قبل إنسان لم يرها في حياته ولم يلمسها ، وذلك لأن هذه المفاهيم من الأمور الغيبية ، وبسبب عدم إمكانية مواجهتنا لها فإننا لا نستطيع تجربتها ، ولهذا فإن عقولنا تضيق عن إدراك مفاهيمها الحقيقية ، ولا يمكننا تعميم صور الأشياء العينية على الواقعيات البعيدة عن متناول أيدينا والتي لم نجربها بعد .

وكل الألفاظ والجمل التي نجدها في ثقافتنا إنما هي موضوعة لمسائل هذه الحياة المحدودة ، ولا وجود لكلمات غير هذه في قاموس تجاربنا ، ولهذا السبب فإن هذه الكلمات لا تتسع لبيان الحقائق الخارجة عن إطار هذا العالم .

إذن لا بد من كلمات ورؤية أخرى حتى نستطيع بها إدراك ومعرفة الأمور الخارجة عن نطاق هذا العالم المحدود .

وصحيح أن هناك وجوهاً مشتركة بين الحياة الدنيا والآخرة فكلتاهما واقعيتان ، وتسيطر عليهما معاً اللذة والألم ، الفرح والحزن ، ولكن هناك أيضاً اختلافات بأبعاد واسعة وفواصل عميقة بينهما .

فها هنا يبدأ العمر من الطفولة وينتهي بالشيخوخة ، أما هناك فلا أثر لهذا التحول والتغير . ولا بد من العمل وبذر البذور في هذه الحياة ، أما في تلك الحياة فلا يوجد سوى جني الثمار وجمع المحاصيل . قال أمير المؤمنين علي (ع) :

« وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل »[1] .

وفي هذه الدنيا تستطيع معرفة الإنسان أن تشع خلال منطقة محدودة فتنيرها ، بينما يصل إدراكه في الآخرة إلى مستوى من التفتح لا يمكن وصفه .

وتعذب الإنسان في هذه الدنيا النقائص والأمراض دائماً ، ولكن هذه المفاهيم لا مكان لها في إطار الحياة الأخروية ، لأنه عندئذ يتحقق المثل الأعلى للكمال والسعادة والحياة الطاهرة . والإنسان في الحياة الدنيا يبحث ليظفر بالأشياء التي ليست لديه ، وهو لا يشبع مما يناله ، ولكنه في الآخرة لا يشعر بنقص حتى يتعذب ، وذلك لأنه بإرادة الله ينال كل ما يريد ويرغب .

وبغض النظر عن كل هذا فإنه قد وجد محبوبه الحقيقي وقد نال وصال ما كان يأمل وما كان يقضي الحياة في الحزن لفراقه ، إذن لا يوجد شيء هناك يأمله ، ولهذا السبب فإن أهل الجنة لا يرغبون في تغيير وضعهم الموجود .

ويذكر القرآن الكريم مزايا نعم الجنة المنحصرة بها بما تضمه من

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ الدكتور صبحي الصالح : ص ٨٤ .

سعادة لا يمكن وصفها والتي لا يمكن أن تقاس إليها متع الدنيا فيقول :

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ﴾[1] .

ولما لم يكن من الممكن لسكان هذه الدنيا المحدودة إلاّ تصوير شبح ناقص باهت لنعم الجنة ، فلهذا جاءت الآية الكريمة بوصف للجنة من باب المثال-والتقريب للذهن،وإلا فإن ما يجري هناك أرفع بكثير من حدائق الدنيا ومتنزهاتها التي يحرص الإنسان على السير بين أشجارها والتنفس من هوائها الطلق عند الصباح .

ليست فواكهها فصليّة ولا موسمية ، ولا تمتد إليها آفة من آفات الزرع عندنا ، بل هي دائماً تحت تصرف الطاهرين السعداء ، ولا تشبه ظلالها ما لأشجارنا من ظلال حيث توجد هذه من حركة الشمس تدريجياً ، أو أنها تتعرى من أوراقها في فصل سقوط الأوراق فلا يكون لها عندئذ ظل ، وبالتالي فإن ظل الجنة ـ مثل سائر نعمها ـ يتميز بالخلود وهو دائماً يمنح ساكنيها النشاط والحبور .

والقرآن الكريم يعد الإنسان عاجزاً عن إدراك خصائص البعث والنشور فيقول تعالى :

﴿ فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[2] .

وبركات الجنة أيضاً ليست محدودة ، لا من حيث النوع ولا من حيث الجنس ، يقول تعالى :

﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾[3] .

---

(١)سورة الرعد : الآية ٣٥ .

(٢)سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٣)سورة الزخرف : الآية ٧١ .

ونحن نعلم أن أفعال الله سبحانه تتم عن طريق إرادته وقدرة ذاته الأبدية ، فهو بمجرّد أن يريد شيئاً فإن وجوده يتحقق في الخارج ، يقول الله في كتابه الحكيم :

﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[1] .

ومن خصائص نظام الآخرة أن أصحاب الجنة يصلون إلى منزلة تصطبغ فيها أعمالهم بالصبغة الإلهية ، فهم يعتمدون في القيام بأعمالهم على إرادتهم من دون أن يحتاجوا إلى القوى الجسمية أو الوسائل الدنيوية .

يقول القرآن الكريم مبيناً منزلة الفائزين في الحياة الأخرى :

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾[2] .

﴿ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين ﴾[3] .

ويقول الإمام أمير المؤمنين علي (ع) :

« وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها تجنى من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها »[4] .

ومن ناحية أخرى فإن وصف عذاب الآخرة لا يستوعبه العقل الإنساني ، فاللسان عاجز عن تصوير عقاب الله سبحانه .

ويصور القرآن الكريم حال أصحاب جهنم والعذاب المهلك الذي يكتنفهم فيقول :

---

(١)سورة النحل : الآية ٤٠ .

(٢)سورة الزمر : الآية ٣٤ .

(٣)سورة النحل : الآية ٣١ .

(٤)شرح نهج البلاغة للفيض : الخطبة ١٦٤ ص ٥٣٧ .

﴿ وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطّلع على الأفئدة ﴾[1] .

إنه حقاً لأمر مخيف فهذه النار وقودها الناس المجرمون والصخور الجهنمية ، ولننصت للقرآن الكريم مرة أخرى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[2] .

وما أعظم الموقف حيث لا مفر من هذا العذاب فلا موت يعقبه ولا خلاص :

﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾[3] .

ويصور الإمام أمير المؤمنين علي(ع) في جانب من دعاء كميل جزاء الخالق القهار وهيبة وعظمة العقاب الأخروي بهذا الشكل :

« يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها وما يجري فيها من المكاره على أهلها؛ على أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه يسير بقاؤه قصير مدته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها وهو بلاء تطول مدته ويدوم مقامه ولا يخفف عن أهله لأنه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض . يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين »[4] .

ولكي يتحقق الخلود يكفي أن يعفي الله سبحانه مواد العالم من أصل

---

(١)سورة الهمزة : الآيات ٥،٦،٧ .

(٢)سورة التحريم : الآية ٦ .

(٣)سورة إبراهيم : الآيتان ١٦، ١٧ .

(٤)دعاء كميل .

الكهولة والشيخوخة « انتروبي » ، وعندئذ تتضح خصائص الآخرة ، ويصطبغ كل شيء من الموجودات ، عذاباً كان أم نعمة ، بصبغة الخلود ، وذلك لأن هذا الأصل لو لم يكن مسيطراً على العالم الدنيوي لم ينزل به الموت والفناء ولأصبحنا مخلدين في الدنيا ، إذن علة الفناء والموت هو الذي ذكرناه ولهذا فلا بد أن نتجه لله خاشعين ونطلب منه ملحين :

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾[1] .

وصحيح أن رحمة الله ولطفه عام وشامل ، ولكن هذا لا يعني نفي مطلق العقوبة والعذاب ،فرحمة الله وعطفه اللانهائي لا يمكن تفسيره بأنه يحب الظلم والتجاوز والباطل ، وعنده الظالم والمظلوم سيان .

كلا ، فعدالته تقتضي أن يمنح كل مخلوق ما يستحقه ، وهذه الحكمة والانضباط العام والتدبير في شؤون العالم وقانون عدل الله العام هو الذي يظهر العالم بمظهر متقن .

فعندما يخطو الإنسان نحو هذا العالم بإرادة قوة أرفع وأعلى فإنه سيكون بالتأكيد محتاجاً إلى تلك القدرة اللانهائية ، وهو ايضاً أمام ذلك المالك المطلق ذليل ضئيل ، ولو أن ذلك الوجود الرفيع المتسلط على جميع المتمردين والظالمين وحكام الجور لم يعاقب هؤلاء على أعمالهم ولم يمرغ أنوفهم بالتراب فإن العدل والحكمة لن يكون لهما أي مفهوم وأي معنى .

فهل ينبغي لله سبحانه أن يعامل بعطف ورحمة أولئك الجبارين مصّاصي دماء الناس الذين سودوا وجه التاريخ البشري بجرائمهم القبيحة ؟ وهل ينبغي له تعالى أن يعدّ لهم محفلاً للأنس ومقراً للأمن والاستقرار ؟ .

ألا يكون عذاب جهنم لهؤلاء ذوي السلوك الرديء والسيرة السيئة هو عين العدالة والرحمة ؟

---

(١)سورة الفرقان : الآية ٦٥ .

وهل يمكن أن يتصور عاقل عبثاً وضياعاً إلى هذا الحد بحيث يأمن المفسدون والمعتدون والظالمون من أي عقوبة على أعمالهم السوداء ؟

وهل نجد في زاوية من زوايا الوجود أقل علامة على وجود شيء بصورة عابثة ؟

بينما نشاهد بوضوح علامات العذاب في ندم المذنبين والمخطئين عندما يتعرضون لضغط ضمائرهم .

إن هذا الندم لهو جهنم مصغرة تحرق قلوب الخطائين ، ودليل على وجود معيار لتمييز الحق من الباطل في نظام الوجود ، ووجود مقياس لتقييم أعمال الناس .

ولا يمكن اعتبار الله جل وعلا عادلاً ورؤوفاً إلا إذا أذاق العناصر الفاسدة نتائج أعمالها ، فهذا هو العدل المطلق الذي لا يضيع فيه مثقال ذرّة من خير ولا مثقال ذرّة من شر .

يقول ا الإمام علي (ع) :

« ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد ، على مجاز طريقه وبموضع الشجا من مساغ ريقه »[1] .

ويقول (ع) أيضاً في مكان آخر :

« والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرّ في الأغلال مصفداً ، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حلولها ؟ ! »[2] .

وكل مايؤكد عليه أولياء الله من موضوع الخوف منه تعالى فهو في

---

(١)نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ص ١٤١ .

(٢)نهج البلاغة ـ تعليق الدكتور صبحي الصالح ـ ص ٣٤٦ .

الواقع يعود إلى الخوف من فعل أنفسهم ، ومثل هذا الخوف ليس غير مضر فحسب وإنما هو نافع حيث يضبط جميع جوانب سلوك الإنسان وأعماله ويخضعها للمراقبة ، فالخوف من العاقبة السيئة يزيد من احتياط الإنسان وحزمه ، وينظم غرائزه الهائجة ، ويحوّله إلى إنسان منظم مضبوط .

فالتعلق فقط بالرحمة اللانهائية من دون خوف يؤدي إلى التفاؤل من دون حدود وينتهي بالإنسان ليضع حبله على غاربه ، فالذي يمتلىء قلبه أملاً بالله فقط من دون أن يخافه يقدم على كل فساد وانحراف ويبقى أمله متعلقاً بالفضل الإلهي ، ومع ارتكابه لجميع الفجائع والمصائب يعتبر نفسه لائقاً لرحمة الله ومغفرته ، ومثل هذا الإنسان لا يفكر في الطاعة ولا يتجه نحو الاستقامة .

فقد تغرق جميع أعماله في الفساد ولكنه مع ذلك يصور لنفسه مستقبلاً مضيئاً .

ولما كان عدم الشعور بالخوف أمام الله ينتهي بالإنسان إلى الفساد في العمل فقد وردت أوامر دينية مؤكدة تعلم الإنسان لكي يكون متقلباً بين الخوف والرجاء ، فهو في نفس الوقت الذي يأمل فيه رحمة الله وفضله الكبير فإنه لا بدّ أن يفكر بعمق في عواقب أعماله ، وأن يخاف من نتائج سلوكه .

ولو أننا افتقدنا الأمل بفضل الله ومغفرته لمات إيماننا بمستقبل أفضل وأفق أوسع نستطيع فيه أن نجبر أخطاءنا وننهض لكسب الفضائل ، وستدفن عندئذٍ وإلى الأبد استعداداتنا التي لم تتفتّح بعد ، والتي يمكن أن تتفتح وتثمر في ظل المحاولات المعنوية .

قال أمير المؤمنين (ع) :

« لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾[1] .

---

(١)سورة الأعراف : الآية ٩٩ .

ولا تيأسن لشر هذه الأمة من روح الله تعالى ، **﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾**[1] »[2] .

فالإسلام باعتماده على الخوف والرجاء يقتلع كل لون من الخوف الذي لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً وإنما هو يثقل على النفس فقط ، وبهذا فهو يحرر النفس من الخوف اتجاه الأشياء الأرضيّة ، ويجتث جذور الآمال المضللة من أعماق الإنسان حتى لا يعتمد على غير القوة الإلهية التي لا تزول .

ويؤكد الإسلام على أن العوامل العادية المرعبة لا تضر في ذاتها ولا تنفع ولا تملك من نفسها قوة للإعانة ، ولهذا فهي غير مؤهلة للخوف منها ، والقوة القاهرة الرفيعة هي اللائقة للخوف منها ، فكل موجود هو تحت سلطتها وتصرفها واقتدارها ، وهي التي تؤاخذ وتسامح وتعاقب وتثيب .

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟ ﴾[3] .

وبعد أن تبين هذه الآية النعم المادية والمواهب المعنوية التي بدونها تصبح النعم المادية فارغة من المحتوى والهدف ، فإنها تتناول ذكر ظاهرتين من الظواهر العجيبة لعالم الوجود وهما الموت والحياة ، وهو أمر مغلف بالأسرار ومعقد وظريف يعكس علم الله وقدرته اللانهائية ، ثم تتحدث بعد خلق النعم وأسرار الوجود عن مدبر العالم وتذكر الناس المنحرفين ذوي الأنظار القصيرة : بأنكم إذا كنتم تعلمون بأن تدبير جميع الأمور هو بيد الله

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : الجزء ١٩ ص ٣١٤ .

(٣) سورة يونس : الآية ٣١ .

القادر فلماذا لا تتخذون التقوى خلقاً لكم ؟ ولماذا لا تخافون من الغضب الإلهي ؟

ينقل أن أبا ذر الغفاري أحد صحابة رسول الله (ص) ومن كبار المؤمنين المخلصين عندما توفي ولده كان يعذّبه خوفه من المصير الحقيقي لولده ، فهو لا يعلم أنه قد التحق بركب السعداء أم حشر مع أصحاب الشقاء .

ويأتي الوالد المضطرب بهذه الأفكار المؤلمة إلى قبر ولده وعندما يضع يده على القبر يقول :

« رحمك الله يا ذرّ ، والله إن كنت بي باراً ولقد قبضت وإني عنك لراض ، أما والله ما بي فقدك وما علي من غضاضة وما لي إلى أحد سوى الله من حاجة ، ولولا هول المطلع لسرّني أن أكون مكانك ولقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك ، والله ما بكيت لك ولكن بكيت عليك ، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إني قد وهبت له ما افترضت عليه من حقي فهب له ما افترضت عليه من حقك فأنت أحق بالجود مني »[1] .

ومن خصائص البعث أن جميع العلاقات والتأثيرات الموجودة في عالمنا هذا سوف تذهب ، وتنقطع الأسباب والارتباطات ، وبالتالي فإن الأشياء لا تؤثر في بعضها ، ولا يتقبل موجود من موجود آخر تأثيراً ، وكل ما يتبقّى للظواهر إنما هو ارتباطها بالله فحسب،وسوف تنقطع كل الارتباطات الأخرى .

وانقطاع هذه العلاقات يعني في الحقيقة انكشاف بطلان الأسباب الظاهرية ، ففي ذلك اليوم تتجلى حقيقة الأمر فقط .

ولو كانت هذه الظروف والأسباب المادية المسيطرة على الظواهر سائدة

---

(١)الفروع من الكافي : الجزء الثالث ص ٢٥٠ .

في ا لحياة الأخرى لما تخلفت أحكام الموجودات عن وضعها الحالي ولسلكت سبيل الزوال ، إلا أن تتحول ذوا ت الأشياء وتنقلب ماهياتها .

ويصور القرآن الكريم ساحة البعث بهذا الشكل :

﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾[1] .

عندما يلتفت التابعون للمفسدين إلى خسرانهم ولا يجدون أي نافذة للأمل في نجاتهم فإنهم يلجأون ـ من شدة حيرتهم ـ إلى زعمائهم المضلين الذين تركوا زمامهم في أيديهم من دون قيد ولا شرط ، ولكن الزعماء يشيحون بوجوههم عن أتباعهم ويتبرأون منهم ، وحينئذ يشعرون بأن جميع الأسباب متقطعة وجميع الأبواب مغلقة ، فيثوبون إلى أنفسهم ويتحسرون على الفرص الثمينة والإمكانيات الواسعة التي كانت تحت تصرفهم للتكامل المعنوي والإنساني والتي ضيعوها بأنفسهم ، ولكنه لا الحسرة عندئذ بنافعة ولا يوجد أي سبيل لجبران الأخطاء ولم يتبق أي وقت للعمل ، وها هنا لا بد أن يقعوا في الفخ الذي نصبوه لأنفسهم وأن يتورطوا في خضم الآلام والمصائب التي جمعوها لأنفسهم وبصورة دائمة .

وسأل شخص الإمام الصادق (ع) :

« أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق ؟

أجاب الإمام :

بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور ، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى **فلا حس ولا** محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها »[2] .

إذن عندما تنقطع الأسباب والتأثيرات فيما بينها يتجلى حكم الباطل

---

(١)سورة البقرة : الآية ١٦٦ .

(٢)الاحتجاج للطبرسي :ج ٢ ص ٩٧ .

ويتحد الغيب والشهادة ويزول كل حجاب ومانع يخفي الأشياء عن بعضها ، ولهذا يقول القرآن الكريم في مقام بيان خصائص البعث :

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] .

أجل في يوم القيامة لا يوجد مالك حقيقي وصاحب اختيار سوى ذات الحق اللامتناهية ، ويعلن القرآن الكريم بصراحة :

﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[2] .

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾[3] .

ويطرح في المجال سؤال يقول :

هل أن الجنة والنار اللتين وعدنا بهما موجودتان الآن أم أن الله سوف يوجدهما بإرادته يوم القيامة ؟

لقد تناول العلماء المسلمون هذه المسألة منذ أزمان غابرة ، وقد انقسموا في الجواب عنها إلى فئتين : فئة تنكر الوجود الفعلي للجنة والنار وتعتقد بأنه عندما يزول نظام هذا العالم ويحل مكانه نظام جديد يقوم الله سبحانه بخلق الجنة والنار .

وترى الفئة الثانية ـ وهي تضم الأكثرية الساحقة من المتخصصين في العلوم الدينية ـ أن المقر الأبدي للصالحين والمنحرفين مخلوق من قبل وهو موجود الآن ، ويتمسكون ـ في تأييد رأيهم ـ بآيات وروايات عديدة .

---

(١) سورة ق : الآية ٢٢ .

(٢) سورة الانفطار : الآيتان ١٨ ـ ١٩ .

(٣) سورة المؤمن : الآية ١٦ .

ولكي ننفذ إلى حقيقة الأمر لا بد لنا من اللجوء إلى آيات القرآن الكريم واستلهام الروايات الواردة في هذا المضمار ، وسوف نلاحظ من خلال ذلك أنها تؤيد أكثرية العلماء المسلمين .

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾[1] .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[2] .

فمن التعبير بكلمة «أعدت» نستطيع أن نفهم بوضوح خلقهما من قبل ، وهناك شواهد وقرائن أخرى في المصادرالإسلامية تعتبر مؤيدة لهذا الرأي .

فالقرآن الكريم خلال حديثه عن معراج النبي الكريم(ص) يقول :

﴿ ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى ﴾[3] .

إذن من هذه الآيات يستفاد كون الجنة موجودة الآن ، ولكنه بالنظر إلى وجود آيات تصف عرض الجنة بأنه كعرض السموات والأرض :

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾[4] .

فنحن نستطيع أن نقول بأن وجودهما في باطن هذا العالم ، وعندما يكشف الستار عن الأسرار في ذلك اليوم ويمتد بصر الإنسان إلى كل جوانب

---

(١)سورة آل عمران : الآية ١٣١ .

(٢)سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٣)سورة النجم : الآيات ١٣، ١٤، ١٥ .

(٤)سورة الحديد : الآية ٢١ .

العالم فإنه سيراهما عن كثب بوضوح ، ولكنهما في الظروف الحالية واقعتان وراء حسّنا .

فنحن الآن نشاهد بعيوننا الأرض والأجرام السماوية ولكن أبصارنا عاجزة عن رؤية باطن هذا العالم فلا نستطيع النفوذ إلى أعماقه ، أما إذا ظفرنا بلون آخر من الإدراك لاستطعنا رؤيته ، ويشبه هذا موضوع الأمواج الصوتية المختلفة التي تكتنفنا ولكن لأننا لا نملك جهاز استقبالها لذا يكون حس السمع عندنا عاجزاً عن إدراكها في الحالات الاعتيادية ، وإذا ظفرنا بالجهاز الذي يستقبلها فإننا سنحيط بوجود هذه الأمواج المبعثرة . ويؤيد هذا أن بعض أولياء الله يشاهدون الجنة والنار في هذه الدنيا بأعينهم النافذة إلى أعماق الحقيقة .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان بكل ما يملك من معلومات متقدمة لا يستطيع أن يحيط علماً بنظام الوجود بجميع أبعاده لعظمته وسعته ، وعليه فهو لا يستطيع أن ينكر كل ما يجهل لأنه لحد الآن لم يحقق نجاحاً ملحوظاً في معرفة مثل هذه العوالم التي بقيت بعيدة عن متناول يده ، وحتى إذا أقدم على إنكارها فإنه لا يستطيع أن يبرر هذا الإنكار ، فالنفي والإنكار أمر يسير ، وكثير من الناس يلجأ إليه ولكنه لا يستطيع أن يقدم دليلاً مقنعاً ينفي وجود عوالم أخرى غير عالمنا ضمن أبعاد الوجود .

فأي عالم كبير قام ـ لحد الآن ـ بدراسة جميع أبعاد نظام العالم وتعمق في جميع جوانبه ثم أعلن نتائج تجاربه الدقيقة ومعلوماته المدروسة بحيث تنفي بشكل قطعي وجود الجنة والنار ؟

وهل يتمتع الإنسان بمثل هذه الإمكانيات ، وهل لمثل هذا الادعاء رصيد في العلوم كافة ؟

ومع أن الإنسان اليوم لم يتوقف لحظة واحدة عن تسخير آفاق جديدة فإن سعة الوجود كبيرة إلى حد أننا لو أردنا استخدام الأمواج القادرة على

الدوران حول الأرض في مدة سبع ثوان فقط ـ لو أردنا استخدام هذه الأمواج السريعة للمرور بالكائنات كلها لاحتجنا مثلاً إلى ما يناهز مائة مليون عام .

فهذه المعارف قد ظفر بها الإنسان نتيجة لاستغلال الوسائل وتنامي علمه الذي ساهمت فيه الأجيال المتعاقبة ، ومع هذا فهناك احتمال في وجود عوالم عظيمة في الفضاء لم تصل أيدينا إلى معرفة نظامها ، ولا يوجد أي دليل على نفي إمكان وجودها .

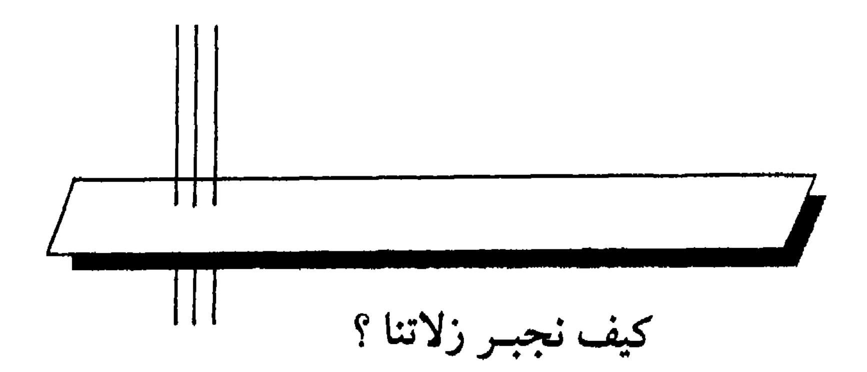
يقول العلامة انشتين :

« لا تزال أسطورة السر الكبير (لغز الوجود) غير قابلة للحل ، ولا يمكن أن نطمئن حتى إلى أن هذا السر سوف يحل في النهاية ، وكل ما قرأناه لحد الآن من كتاب الطبيعة قد علّمنا أشياء كثيرة ، ومع أننا قد قرأنا وفهمنا الكثير ولكننا بعيدون جداً عن اكتشاف وحل الكثير أيضاً . وفي النهاية نتساءل : هل يوجد مثل هذا الحل أم لا ؟ »[1] .

وبالالتفات إلى كل ما مر يصبح النفي الصريح القاطع لوجود الجنة والنار حالياً أمراً خالياً من أي تبرير منطقي .

وبقطع النظر عن هذه فإنه عندما تطوى صفحة «الزمان» وتزول«الحركة» في الفاصلة بين النشأتين ـ عندئذ لا توجد نسبة زمانية يقاس إليها القبل والبعد .

(١) عصارة فلسفية لنظرية انشتين ص ١٩ ـ ٢٠ . بالفارسية .



كيف نجبر زلاتنا ؟

كما أن كثيراً من الأمراض الجسمية تقبل العلاج فإن الروح أيضاً قابلة للعلاج عندما تصاب بالأمراض النفسية .

وقد دل الإسلام على طريق معالجة هذا اللون من الأمراض بفتحه باب التوبة والعودة إلى التقوى والسعادة ، وبهذا فهو يجعل باب الأمل مفتوحاً بفضل الله ورحمته .

فأنبياء الله الذين لا تقتحم القبائح أبداً مجال حياتهم الرفيعة قد دعوا دائماً المنحرفين إلى الاستغفار ليظفروا بالنجاة ويصلحوا أفكارهم وأعمالهم ، وقد أحيوا الأمل في قلوبهم بغفران الله ، وذلك لأن فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين لأوسع بكثير من أن تتركهم لمجرد زلاتهم أو انحرافاتهم ، فهم يرغبون الجميع في العودة إلى ذواتهم ، ويبقى علينا نحن أن نستجيب لدعوة الله وننهض لخلاص أنفسنا .

وقبول التوبة من ناحية الله يدل على أن للإنسان أهلية خاصة لجلب رحمة الحق وهي تؤدي إلى فتح أبواب المغفرة أمام المذنبين ، فما دامت الفرصة باقية فهم يستطيعون إظهار الندم والخجل على ماضيهم الأسود أمام الله سبحانه وتعالى والكف عن الرذائل ومحاولة جبران الزلل السابق ، فإذا فعلوا ذلك بدّلوا سيئاتهم إلى حسنات ، وظلماتهم إلى نور .

في مثل هـذه الظـروف تعد التوبة الإنسان لطاعة الأوامر الإلهية فيتفرّغ لتطهير آفاق روحه فتحـذف من ملفه أوراق الـذنوب السـوداء وتبقى الأوراق المزينة بالصالحات فقط ، وهذا هو معنى الكلام الإلهي :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنـات وكان اللهغفوراً رحيماً ﴾[1] .

واليـأس من الغفران والإحسـاس الدائم بـالذنب والتلوث يـرافقه ألم ممض وله آثار سيئة على الشخص المذنب وعلى المجتمع الذي يعيش فيه .

أما الأمل في التوبة فإنه من النـاحية النفسيـة يعتبر من العوامـل المهمة لتطهير الروح من كل تلوث في الأيام المتبقية من العمر، ولو أن المذنبين لم يعطوا هذا الأمل ولم يفتح لهم أي باب للنجاة لمـا اكتفوا بعـدم التفكير في إصلاح بقية أعمارهم وكسب الفضائل بل لازدادت ملفاتهم سواداً يوماً بعـد يوم ولتضخمت مفاسدهم ساعة بعد ساعة أخرى ولاندفعـوا نحو الانحـراف والفساد حتى آخر لحظة من حياتهم وبأشد ما يستطيعون من قوّة .

فعندما يصدر الذنب من الإنسان الموحد فإنه يترك أثراً مظلماً على قلبه فهـو ينسى أثناء ارتكـاب الذنب رقـابـة الله العلي الكبيـر وعـظمتـه الـذاتيـة اللانهائية ، ولكنه عندما يتذكّر الذات المقدّسة فإنه يثوب مرة أخرى ويتّجـه نحو مغفرة الله مؤمناً أنه من ناحية ذلك الوجـود اللانهـائي لا يوجـد أي منع للفيض وأن أبواب رحمته ليست مغلقة في وجوه عباده .

وإذا تورط في الذنب من يؤمن بالسعادة الأبدية ويحرص على الظفر بها بسبب جهله وتأثير العوامل النفسية عليه، لا بسبب العناد وإنكار أحكام الله ، فقد عصى أوامر الله وهو يشعر حينئذ بحمل الذنب الثقيل على عاتقه فيطلب العفو والغفران من الله العفو الغفور .

---

(١)سورة الفرقان : الآية ٧٠ .

ويناجي الإمام علي بن الحسين السجاد(ع) ربه في فقرات من دعاء أبي حمزة الثمالي قائلاً :

« إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرّض ولا لوعيدك متهاون ، ولكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي وغرني سترك المرخى علي ، فقد عصيتك وخالفتك بجهدي فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ » .

أما الذي يغرق في ألوان الذنوب ولا يعذبه الإحساس بارتكاب المعاصي المتتالية ، وهو مندفع في طريق الفساد حتى آخر لحظات حياته وغافل عن عواقب عمله واليوم الأسود الذي ينتظره فإن توبته لا تقبل منه ، لأنه من الواضح أن كل مذنب في حالة الاحتضار عندما ينكشف الستار أمام عينيه ويرى الواقع فإنه يندم على أعماله السيئة ، وتشبه حالته حالة المجرم المحكوم عليه بالإعدام فهو يندم عندما يرى أعواد المشنقة ، ولا ينفع مثل هذا الندم ، وهو ليس فخراً ولا فضيلة ولا دافعاً للتكامل ، ولهذا فإن هذه التوبة لا تقبل منه .

ويصرح القرآن الكريم قائلاً :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾[1] .

وقال شخص بحضور الإمام علي (ع) : « أستغفر الله » عن غفلة وعدم التفات ، فخاطبه الإمام قائلاً :

« ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود إليه ابداً ، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله

(١)سورة النساء : الآية ١٨ .

أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها ، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان ، حتى تلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله »[1] .

فالاعتراف بالذنب والتوبة لله وطلب العفو من ذاته المقدسة ليس فقط لا ينقص من قيمة الإنسان عند الله بل يمنحه ارتفاعاً ويزيل البقع السود المنطبعة في الروح الإنسانية ، فينهض الإنسان ـ في ظل العون الإلهي ـ ليجبر الأخطاء الماضية ويكسب الشخصية المعنوية ويقوم بدوره في أداء واجباته .

إن الإنسان الواعي والموحد عندما يلمس في باطنه ظلمة الذنب فإنه يبحث عن وسيلة لجبرانه ، ولن تكون شيئاً سوى الاتجاه إلى مبدأ الخير والرحمة والتوسل به .

يقول الله تعالى في محكم كتابه :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾[2] .

ويوضح القرآن الكريم التوبة الصادقة التي يشملها عفو الله ولطفه بقوله :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾[3] .

---

(١)نهج البلاغة : تعليق الدكتور صبحي الصالح ص ٥٤٩ .

(٢)سورة آل عمران : الآية ١٣٥ .

(٣)سورة النساء : الآية ١٧ .

وهو يؤكد للذين يطلبون فلاح أنفسهم أن يثوبوا إلى ذواتهم ويتوبوا لله ويصلحوا أعمالهم :

﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾[1] .

فما دام قلب الإنسان لم تشمله الظلمة بسبب كثرة الذنوب والعادة عليها وما دام لم ينطبع بطابع المعصية المستمرة فإنه بمجرد أن يسقط في وحل الذنب يشعر مباشرة أنه قد تلوث نتيجة لمخالفته أوامر الله سبحانه ، وإذا أدرك قبح المعصية لجأ إلى الله متضرعاً متذلّلاً طالباً من الله العفو والغفران نادماً أمامه عز وجل على ما صدر منه ، وليست التوبة سوى العودة إلى الحق والحركة المنظمة في سبيل نمو المعرفة والإيمان وجبران الأخطاء في الأعمال .

ويلفت الله الإنسان إلى أن السبيل لمحو آثار الذنب هو اللجوء إلى التوبة الخالصة الصافية التي تحفظه من العودة إلى الذنب مرة أخرى ، وبهذه الطريقة يطهر نفسه مما علق بها من الأعمال الماضية ، ومثل هذه التوبة والندم الذي يملأ قلب الإنسان هو العلاج للذنب ، وفي غير هذه الصورة لا يكون الاستغفار سوى كلمات تجري على طرف اللسان .

وهذا هو الأمر الإلهي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ﴾[2] .

واختلف المفسرون في معنى التوبة النصوح فقال بعضهم إنها التوبة التي : «تنصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثم لا يعود إليها أبداً»[3] .

ويعد الإمام علي (ع) الابتعاد عن التلوث بالذنب من عوامل الظفر بعزة

---

(١)سورة النور : الآية ٣١ .

(٢)سورة التحريم : الآية ٨ .

(٣)سفينة البحار : الجزء الأول ص ١٢٦ .

النفس وشرفها فيقول :

« ما كرمت على عبد نفسه إلا هانت الدنيا في عينه »[1] .

إذن على هذا الإنسان المعرّض في هذه الحياة لأخطار الزلل أن يكون واعياً ملتفتاً حتى لا يقترب إلى المنطقة المحرّمة ، ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن الإنسان كلما ازداد إيمانه الصادق ازدادت انتصاراته في مجال الفكر والعمل .

وعليه فقد آن الآوان لنبحث عن ملجأ من ذنوبنا ونجبر أخطاءنا ولا ندع الفرصة تضيع أكثر من هذا ، يقول الإمام علي (ع) :

« اعملوا رحمكم الله على أعلام بينة ، فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام ،وأنتم في دار مستعتب على مهل وفراغ ، والصحف منشورة ، والأقلام جارية ، والأبدان صحيحة ، والألسن مطلقة ، والتوبة مسموعة والأعمال مقبولة »[2] .



---

(١)غرر الحكم : ٧٥٧ .

(٢)نهج البلاغة : شرح فيض الإسلام ص ٢٨١ .

الإنسان في عالم البرزخ

إن من الأفكار الدينية المسلّمة فكرة وجود البرزخ ، فلا شك أن أرواح الناس ـ أي تلك الأشياء الأصيلة في وجودهم ـ تنتقل بعد الموت إلى أفق واسع وعالم غير مادي .

والحد الفاصل بين شيئين يسمى في اللغة العربية بـ « البرزخ » ، ولما كان عالم ما بعد الموت حداً فاصل بين الحياة المؤقتة الزائلة في الدنيا والحياة الخالدة في الآخرة لذا فقد سمي بعالم البرزخ ، وتجري الحياة هناك بشكل قد تحررت فيه الروح من القيود الجسمانية ، وفي هذا العالم ـ الذي لا زمان فيه ولا مكان ولا تضايق فيه الشهوات النفسانية الروح الإنسانية ـ تتسع رؤية الإنسان إلى الحدّ الذي يستطيع فيه الحضور في أي مجال ، كما يجد الإنسان نفسه متحرراً من الزمان والمكان في عالم الرؤيا فهو يستطيع السفر في أية لحظة إلى أي مكان يحب الانتقال إليه .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[1] .

ويصوّر القرآن الكريم حالة الشهداء بعد الموت بهذه الصورة :

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .

﴿ ولا تحسبّن الـذين قتلوا في سبيل الله أمـواتاً بـل أحياء عنـد ربّهم يرزقون ﴾[1] .

ويشير القرآن أيضاً إلى عقاب أهل جهنم قبل يوم القيامة فيقول :

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[2] .

وبعد الموت تكون أرواح الصالحين غارقة في السرور والفرح لأنها قد تحررت من قفص الدنيا الضيّق المحدود ، فهي في الحياة الأرضية متعلقـة فقط بجزء ضئيل من المادة الواقعة في سطحهـا الخارجي ، أمّـا في البرزخ فأرواح الصالحين لا يكون لها حدّ ولا زمان ولا مكان في سيرها الصعودي ، ولكل منها درجـة معينة حسب رتبتهـا ، وهي سعيدة من وصـولها إلى ذلـك المقام الرفيع ، وتستطيع أن تدرك كل مكان بسهولة ، وتقف أمامها مشـاهد رائعة تسلب اللب وتسحر القلب ، وتشاهد العيون هناك منـابع خـالدة غيـر ملوثة إذا قيست إليها كل روائع الدنيا بدت شيئاً حقيراً وضئيلاً .

وهي لا ترافق هناك ذلك الجسم المادي الثقيـل الزائـل فتسري إليهـا محدوديته ، ولا توجد صورة الشيخوخة المتداعية فتؤرقها وتعذبها .

وكل ما هناك بالنسبة لعباد الله الصالحين فهو جمال ونور وحب وألفـة وحنان وصداقة خالصة لا يشوبها رياء مع أولياء الله وعباده المقربين .

ويبشّـر القرآن الكـريم الذين جعلوا طـاعة الله أسلوب حيـاتهم بأنهم سوف يجالسون ويعاشرون أولياءه المخلصين .

أجل إن معاشرة الذين أتم الله عليهم نعمته تعتبر من مفاخر المتقين ، وهذه هي البشارة الإلهية :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٤٩ .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾[1] .

ولا بدّ من الالتفات إلى أن معاشرة المطيعين لأولياء الله المقربين لا تعني أنهم متساوون معهم في درجاتهم ومقاماتهم من جميع الجهات ، وإنما كل منهم يستفيد من بركات الله وألطافه حسب ماله من مقام ومنزلة ، وفي نفس الوقت يتصلون ببعضهم عن قرب ، إذن استفادة هؤلاء ليست متساوية ، تماماً مثل درجاتهم ورتبهم المعنوية .

ينقل أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) أنه سأله يوماً هذا السؤال :

« يابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت : يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينك فانظر ، قال ويمثل له رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة (عليهم السلام) من ذرّيتهم ، فيقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة (عليهم السلام) رفقاؤك ، قال فيفتح عينه فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : « يا أيتها النفس المطمئنة (إلى محمد وأهل بيته) ارجعي إلى ربّك راضية (بالولاية) مرضية (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمداً وأهل بيته) وادخلي جنتي » فما شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي »[2] .

ومن جهة أخرى فإن أرواح المنحرفين الضالين تكون غارقة في الظلمة الموحشة وهي تعيش في جو مضطرب محزن يقطر ندماً على الماضي

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٩ .

(٢) الفروع من الكافي ـ الجزء الثالث ـ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

الملوث بالمعاصي ، وهي تتعذب من الأهل والأقارب والأمور المادية التي لم تدخر وسعاً في جمعها لأنها لا تستطيع أن تقوم بأي دور في نجاتها .

وأسوأ حالاً من هؤلاء حال أولئك الظالمين الجبارين المتجاوزين الذين تنغرس في قلوبهم خناجر آهات المظلومين وتهاجمهم أشباح المظلومين بصورة رهيبة وتوبخهم وتقرعهم فيزداد غمّهم ويطفح ألمهم .

ويعذب تجسم هذه المناظر الموحشة أرواح المجرمين ويقذف بها في لهيب النار المحرقة .

ويصوّر القرآن الكريم المصير التعس للمفسدين بهذه الصورة :

﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[1] .

وفي هذه الظروف يلمس هؤلاء عياناً إنذار الأنبياء وعلماء الدين حيث كانوا يخبرونهم بمصيرهم المشؤوم ، ويكيلون لأنفسهم اللوم بشكل مؤسف ويتحسرون لماذا تمردوا على أوامر الأنبياء ولم ينصتوا لنصائحهم المشفقة ولم يفكروا في مصيرهم المؤلم حتى تورطوا في هذه الورطة ودفعوا أنفسهم إلى هذا الخسران المبين .

بعد انتصار الجيش الإسلامي في غزوة بدر حيث قتل جمع من زعماء قريش وألقيت أجسادهم في بئر فجاء النبي (صلى الله عليه وآله) وألقى بنظرة إلى داخل هذه البئر وخاطبهم رجلاً رجلاً :

« هل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً ، بئس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله): أتنادي قوماً قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربّهم

---

(١) سورة المؤمن : الآية ٤٦ .

حق . وفي رواية أخرى فقال (صلى الله عليه وآله) : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني »[1] .

يقول أحد أصحاب الإمام علي (عليه السلام) :

« خرجت مع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الظهر (أي ظهر الكوفة) فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت بقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي فقلت : يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة ، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال لي : يا حبة إن هو إلّا محادثة مؤمن أو مؤانسته ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين وإنهم لكذلك ، قال : نعم ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً مخبتين يتحادثون ، فقلت : أجسام أم أرواح ، فقال : أرواح »[2] .

فمن الرواية السابقة يفهم أنه في نفس الوقت الذي يقع فيه الانفصال بين الروح والجسم بحلول الموت ، ولكن الروح لا تقطع علاقتها بشكل كامل بالبدن الذي قضت فترة متحدة به وقد عاشت مدة معه ، وأن العذاب الذي ينزل في البرزخ على الأرواح الشريرة الفاسدة لا ينقطع ولا يتركها لحظة تستقر .

ويتحدث القرآن الكريم عن العذاب الدائم في البرزخ فيقول :

﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[3] .

ومن الواضح أن القيامة مقر الخلود وليس فيها صباح ولا ليل ، إذن الحديث يدور حول الدنيا .

---

(١) البحار ـ الجزء ١٩ ، ص ٣٤٦ . ويوجد ما يشبهه في كتاب المغازي للواقدي ج ١ ـ ص ١١٢ .

(٢) الفروع من الكافي ـ الجزء الثالث ـ ص ٢٤٣ .

(٣) سورة المؤمن : الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

ويقول تعالى أيضاً بالنسبة للسعداء :

﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلاّ سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾[1] .

فالحديث هنا عن البكرة والعشي وواضح أنهما يتحققان تبعاً لنهار الدنيا وليلها في البرزخ وقبل القيامة ، لأن القرآن الكريم يصف الجنة بهذه الخصائص :

﴿ متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ﴾[2] .

﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾[3] .

والذي يجلب الانتباه في الآية كلمة « مقيلا » التي تطلق على النوم في الفترة التي تسبق وقت الظهر ، ولا معنى للنوم في الجنة يوم القيامة ، وصحيح أنه لا وجود للنوم الدنيوي في البرزخ ولكن نسبة البرزخ إلى القيامة كنسبة النوم إلى اليقظة ، ولهذا فقد وصف الناس بالقيام في البعث فقط .

حتى أن درجة الحياة البرزخية أكمل من درجة الحياة الدنيوية وقد جاء في رواية أن :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

وفيها إشارة إلى هذه الملاحظة وهي كما أن الإنسان عندما يغط في النوم يضعف إحساسه وإدراكه ويصبح في حالة نصف حية أما إذا استيقظ فهو يستعيد حياته كاملة فكذا نسبة حياة الإنسان في الدنيا إلى حياته البرزخية فهي أضعف منها ، أما إذا انتقل إلى عالم البرزخ فإنه سيصبح أكثر تكاملاً .

يقول الغزالي :

---

(١) سورة مريم : الآية ٦٢ .

(٢) سورة الدهر : الآية ١٣ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٢٤ .

« نحن نرى في حالة النوم عالماً ولا نتصوّر في تلك الحال أننا نغط في النوم ، وهذه الحالة جزء من نظام حياتنا ، بينما الأصل هي اليقظة ، وبمجرد أن نستيقظ نلتفت إلى أن تلك الحالة كانت جزءاً فقط لا أكثر . فلماذا لا تكون حياتنا في الدنيا بالنسبة إلى حياة أخرى مثل حالة النوم ؟ وأن إيماننا بأصالة الحياة الدنيا مثل إيمان الشخص النائم بحلمه ليس أكثر ؟ .

وإذا قلنا إننا عندما نستيقظ نفهم أنه لم يكن سوى حلم وخيال لا حقيقة له فإن ذلك يعني أنه لا حقيقة له بالنسبة إلى حياة أكمل حيث يشكّل النوم جزءاً صغيراً منها ، والجزء الأكبر إنما هو اليقظة ، وإلاّ فإنه بالنسبة إلى نفسه يكون حقيقة لا خيالاً ، والحياة الدنيا أيضاً بالنسبة إلى نفسها تعدّ حقيقة ، ولكنها بالنسبة إلى حياة أوسع وأرفع تعدّ نوماً وحلماً »[1] .

والواقع أن عالم البرزخ جانب من الثواب والعقاب الذي يناله الإنسان في البعث ، ويعتبر عالم البرزخ نافذة يستطيع الإنسان أن يعرف عن طريقها مصيره النهائي وماهية عاقبته .

وهناك روايات متضافرة تتحدث عن وضع المتقين في البرزخ ، وتذكر بأنهم لا يردون الجنة عند ذاك وإنما يفتح أمامهم باب من أبواب الجنة فيرون مكانهم هناك وينعش أرواحهم نسيم يهب من جانبها .

وأول حقيقة تتضح للإنسان بعد موته وبدء حياته الأخرى هي اندثار الآداب والرسوم وبطلان ما كان يجري في الحياة الدنيا ، وعندما تنقطع الأسباب الظاهرية ويقتحم الإنسان أفقاً عارياً من كل ظواهر الدنيا وأشيائها فمن الطبيعي أن تتبدل جميع الأهداف التي كان مشغولاً بها طيلة حياته إلى سراب لا يغني شيئاً .

يقول الله تعالى في محكم كتابه :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم

---

(١) نقلاً عن كتاب « عشرون قولاً » بالفارسية للشهيد المطهري ، ص ٣٢٣ .

أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[1] .

ويواجه الإنسان في الحياة الدنيا مسألتين : الأولى هي أنه يظن كونه مالكاً لمتاع هذا العالم ويتصوّر أن هذه الأشياء توصله إلى آماله وأهدافه .

الثانية أنه يتصوّر كونه غير قادر على تأمين احتياجاته بدون الاستعانة بتلك الأشياء ، ويظن أنه عاجز عن الوصول إليها بدون مساعدة الأهل والأصدقاء والمعارف ذوي القوة والنفوذ ، ولهذا فإن القرآن الكريم يؤكّد على زوال وبطلان هاتين المسألتين ، فالإنسان عند الموت يقطع علاقته بكل المتعلقات المادية والمعبودات الخيالية ، وفي هذه اللحظات تنفتح عيناه لرؤية الواقع فيدرك تفاهة ما كان يظنه شيئاً ثميناً يمكن التعويل عليه .

وهو في مثل هذا الموقف يحب أن يحذر أهله والمتعلقين به أن لا يعملوا شيئاً ـ مادام الوقت باقياً ـ يشبه ما عمله حتى لا يقعوا في لجة الشقاء والبؤس الأبدي .

وفي رواية أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال :

« إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش وهو ينادي يا أهلي ويا ولدي : لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي فجمعت المال من حلّه وغير حلّه ثم خلفته لغيري ، فالمهنأ له والتبعة علي فاحذروا مثل ما حلّ بي »[2] .

ويشبّه الإمام الهادي (عليه السلام) الدنيا بسوق المعاملة فيقول :

---

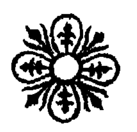
(١) سورة الأنعام : الآيتان ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) البحار ـ الجزء الثالث ـ الطبعة القديمة ص ١٣٦ .

« الدنيا سوق ربح فيه قوم وخسر آخرون »[1] .

ويدعو القرآن الكريم الناس إلى القيام بالتجارة المربحة في سوق الدنيا فيقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[2] .



(١) تحف العقول ـ ص ٥١٢ .

(٢) سورة الصف : الآيتان ١٠ ، ١١ .



بأي مقياس تقاس أعمالنا ؟

إذا قامت القيامة فكيف نحاسب على أعمالنا وسوابقنا ؟

كما أشرنا من قبل فإن التصوير الذهني للمجالات التي لم نجرّب مثلها في حياتنا إنما هو تصوير خيالي ، وسوف يتوقف الفكر ولا يحقق أي تقدم في نيل حقيقة الأمر .

فمن العبث أن ننتظر من أذهاننا رسم صورة لشكل الحياة الأخرى وتجسيم خصائصها ، فنحن الآن نعيش في سجن الدنيا ويقوم بيننا وبين الآخرة جدار فاصل ، فكيف نستطيع استيعاب عظمة وعمق تكامل تلك الحياة والنفوذ إلى كنهها ، ومن الخطأ الفاضح أن نتوقع من موجود متغير غير مستقر أن يصف لنا حياة أبدية وصفاً حقيقياً .

إذن إذا جرى الحديث عن حساب الناس ومحاكمتهم يوم القيامة فلا ينبغي أن يستدعى للذهن أن الحساب هناك يشبه تشكيل الأضبارات والتحقيق والمحاكمة في النظام الدنيوي ، وحقيقة الأمر هناك محاطة بالأسرار ومكتنفة بالإبهام ، وكل تصوير في هذا المجال لا تفوح منه رائحة الحقيقة .

والباحثون عن الحقيقة يعلمون أنه عندما يجري الحديث عن عالم آخر مغاير لدنيانا من جميع الجهات فإذا أردنا معرفة كيفية الحساب فيه ، وكيفية تمييز الطيب من الخبيث فلا ينبغي تصوّر أن الناس يقفون هناك أمام محققين

منْ هذه المحكمة، ثم توزن أعمالهم بميزان ضخم فيعرف وزنها ، ثم بعد الاستنطاق ودفاع المتهمين يصدر الحكم النهائي للمحكمة ويبلغ للمأمورين لتنفيذه ، كلا ، ليس الأمر بهذه الصورة لأن القرآن يعطى للميزان مفهوماً جامعاً فيقول :

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾[1] .

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[2] .

﴿ والوزن يومئذٍ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[3] .

ففي هذه الآية إشارة إلى أن الذين فقدوا أصالة وجودهم فقد حل بهم خسران لا يجبر ، وذلك لأن الضرر الذي يفسد أصل وجود الإنسان خسارة عظيمة لا يستطيع أي شيء أن يملأ الفراغ الناشىء منها .

ولا بد من الالتفات إلى أننا لا نستطيع دائماً أن نستلهم المصاديق الموجودة في فهم معاني الألفاظ بل لا بد من دراسة المفاهيم من حيث النتيجة . والمفاهيم التي نستعملها بالنسبة للعالم الآخر لا تخضع لنظام ألفاظنا وبياننا ، ولهذا يصبح كلامنا حولها عاجزاً تماماً عن توضيح هذه الحقائق .

فقد استطاع الإنسان اليوم ـ بفضلْ التقدّم العلمي ـ أن يظفر بمقاييس لمعرفة الضغط الجوي وكمية حرارة الجسم وضغط الدم ومقدار التيار الكهربائي ، ولكنه لم يظفر لحدّ الآن بمقياس يقيس به دوافع العمل وكيفية

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٨ ، ٩ .

النيات ومقدار الحسن أو القبح في العمل ، بينما توجد في العالم الآخر مقاييس متناسبة مع كل شيء لتقييمه .

فهناك مقاييس دقيقة ووسائل قياس خاصة للقيم الروحية والمعنوية بإمكانها أن تضبط وتشخّص أعمال الإنسان من حيث الحسن والقبح ، وإن كنا نحن الآن في ظروفنا الحالية لا نعرفها بالدقة ، ولا نستطيع أن ندرك حقيقتها في الحياة الدنيا ، وذلك لأن معرفتنا بهذه الدنيا المتنوعة المتغيرة التي لا يتوقف فيها شيء عن الصيرورة تتم عن طريق تجاربنا الحاصلة من اتصالنا بها ، بينما للعالم الآخر محتوى وميزات خاصة لا يتصل بها إدراكنا مباشرة ولا يرتفع إليها حدسنا الصائب ولهذا تصبح تجربتها بالنسبة إلينا الآن أمراً مستحيلاً .

يقول هشام : سألت الإمام الصادق (عليه السلام) عن معنى الآية :

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً** ﴾[1] ؟ .

فأجاب الإمام (عليه السلام) :

« الموازين الأنبياء والأوصياء »[2] .

وبالتعمّق في مضمون الرواية يفهم أن الأفراد الكاملين في الإنسانية هم مقاييس دقيقة وموازين مضبوطة لتقييم عمل الناس ، وكل أحد يستطيع أن يقيس مدى قيمة إيمانه وعمله وذلك بمقدار ما يشبه إيمان أولئك وأعمالهم .

وحتى في عالمنا المعاصر أيضاً يكون المتقون والصالحون معايير للقياس ، ولكن لما كانت كثير من الحقائق مكتنفة بالإبهام في هذا العالم فإنها سوف تتضح يوم القيامة لأنه يوم تجلّي الحقائق ، ويبدو أن السبب في مجيء كلمة « الموازين » بصيغة الجمع في القرآن هو تعدد أولياء الله وقدوات الإنسانية وهم موازين للقياس .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) البحار ـ الجزء السابع ،ص ٢٥١ .

ويتصوّر كثير من الناس أن قيمة العمل تتوقف على مقدار مافيه مر منافع ، ولهذا فإنهم يعتبرون العمل مهماً بمقدار ماله من أرقام مرتفعة في الربح .

وواضح أن مثل هذا الحكم يعتمد على القيمة الاجتماعية والخارجية للعمل ولا يأخذ بعين الاعتبار نية الفاعل ، ولا يختلف بالنسبة لهذا الحكم أن يكون هدف الفاعل للخير هو الرياء وجذب أنظار المجتمع نحوه أم هي الدوافع الرفيعة التي حملته على الإقدام وسكبت في أعماق عمله نية نظيفة خالصة .

إذن مفهوم عمل الخير في النظام الاجتماعي هو نفع ذلك العمل للمجتمع ، ولا يهتم بأن هذا الإنسان قد أقدم على هذا العمل متأثراً بأيّ شيء ومتّجهاً إلى أي هدف وسائراً على أي نظام فكري .

أما في الآفاق الإلهية فإن كمية العمل ليست مورداً للاهتمام ، بل الاهتمام ينصب على الدوافع الداخلية المحرّكة للإنسان ، فالذي هو ملاك القياس الواقعي وتقبله الذات المقدسة إنما هو كيفية العمل ونوعية الدوافع الداخلية للإنسان .

وبناء على هذا فإذا أنجز شخص عملاً خالياً من روح الحقيقة منقطع الصلة بمبدأ الوجود بدافع الرياء وكسب الشهرة الزائلة ، وجلب احترام الناس فإنه ليس فقط لم يرتفع وإنما هو قد انحطت قيمته الواقعية .

فمثل هذه الأهداف تعري العمل من الإخلاص ، فيتحوّل العمل إلى جسد لا روح فيه ولا قيمة له .

والمتاع الملوّث لمثل هذا الفرد لا قيمة له عند الله سبحانه وتعالى ، وذلك لأنه عندئذٍ قد باع دينه بدنياه ، فلا يعود مستحقاً لأن ينظر الله إليه نظرة عطف ورحمة .

فليس من الصحيح إذن في مورد الحكم على قيمة عمل ما أن نقتصر

على ملاحظة مـدى ما يحقق للمجتمـع من نفع ، ولا ينبغي الاعتمـاد على المعادلات الرياضية في تقييم الأعمال .

فإذا اكتسب العمل ميـزة خاصـة وحقق تكامـلاً معنويـاً واتّخذ صـورة ملكـوتيـة ، وحـطمت الـروح القفص الضيق للهـوى النفسي ووصلت إلى مستوى الإخلاص والصفاء ، وتعلّق الإنسان بأوامر الله بحيث ينفذها من دون قيد ولا شرط فإن أعمال مثل هذا الإنسان تكون خالصة لله ، وكل ما يتجشمه من عناء وإرهاق في سبيل أداء واجبه فهو من أجل الله ، ولهذا فإن ثوابه أيضاً يكون عند الله .

إن العامل الأساسي في قبول الأعمال ورفع درجات الإنسان هو الهدف الخالص والنية النظيفة التي تتجه إلى جلب رضى الله سبحانه . إذن العمل لا يتمتع بقيمة مطلقة حتى يمكن قياسه بكميته ، فقيمة كل إنسان تتوقف على ما يتمتع به من إخلاص ، ولا يعني تقييمه شيئاً سوى تعيين مدى إخلاصه .

قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) :

« إنما الأعمال بالنيّات »[1] .

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) في توضيح هذه الآية :

﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[2] .

أنه قـال (عليه السلام) :

« ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة . ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص : الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحـد إلاّ الله عز وجلّ ، والنيّة أفضل من العمل ، ألا وإن النية هي العمل ، ثم تلا قولـه عز وجل :

---

(١) نهج الفصاحة ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢ .

﴿ قل كلّ يعمل على شاكلته ﴾[1] .

يعني على نيّته »[2] .

فهذه الروايات تشعر أن ملاك قبول الأعمال وردها من ناحية الله سبحانه هو روح الإنسان العامل فقط ، ذلك الروح الذي يحس به الإنسان أثناء العمل ، والله أيضاً عالم به ، وهذا هو ميزان قيمة الأعمال عند الله ، ذلك الميزان الذي عرّفه أولياء الله الناس ، حتى لا يفعلوا الخير لأي شيء سوى لله عز وجل .

يقول الجليل في كتابه المجيد :

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ والله بماتعملون بصير ﴾[3] .

وكلما ازداد إيمان الإنسان واعتقاده بالذات المقدّسة فإنه تظهر في أعماله آثار وعلامات أوضح على الإخلاص ، وبنفس تلك النسبة يسيطر رضى الله على جميع آماله ورغباته .

وينقل القرآن الكريم قول النبي سليمان (عليه السلام) عندما دعا ربّه قائلاً :

﴿ ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾[4] .

وقد رجح يوسف الصدّيق (عليه السلام) أيضاً في تلك اللحظات الحساسة طاعة الأمر الإلهي وحفظ طهارته ، وفضّل السجن الموحش على

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٤ .

(٢) أصول الكافي ـ ج ٣ ص ٢٩ ، باب الإخلاص .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٥ .

(٤) سورة النمل : الآية ١٩ .

عصيان أوامر الله والاستجابة للشهوات مناجياً ربّه :

﴿ قال ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه ﴾[1] .

فهو قد أعرض بقوة عن الحرية الظاهرية التي كانت تحبب إليه عصيان أوامر الله ، واختار السجن مطمئناً إلى تحرّر روحه وطهارة ذاته .

ويعتبر هذا الأمل رفيعاً وثميناً إلى حدّ أنه لا يساويه أي شيء آخر .

وتعدّ بعض الروايات طاعة الأوامر الإلهية من دون التفات إلى الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب من الصفات المقصورة على الناس الصادقين الذين ربتهم اليد الإلهية وتعهدتهم التربية السماوية ، فهؤلاء يصلون إلى أرفع مراتب الإخلاص والمعرفة للذات الإلهيـة اللامتنـاهية ، ولا يهتمـون بشيء خلال سيرهم الفكري سوى الفوز برضى الله جل وعلا ، وعندئذٍ لا يعمل هذا الإنسان إلا ما أراد الله وأمر به .

ويسمي الإمام علي (عليه السلام) ضمن خطبة رائعة هـذه الفئة من الناس بـ « الأحرار » فيقول :

« إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار »[2] .

إن عبادة الله ـ من ناحية ـ شيء عام شامل للعالم كله ، فلكل موجود في عالم الوجود وسيلة يظهر بها مقصوده خلال حدود وجوده ، وهو يسبّح الله ويشكره بطريقته الخاصة ، ويتحرك في مداره التكاملي الخاص .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان أيضاً جزء لا يتجزأ من العالم وهو أكمل أجـزائه ، ولهـذا فـإن انقـطاعـه عن جسم الـوجـود ينتهي بـه إلى السقـوط والتحطّم ، إذن لا مفر له من اتباع هذا القانون العام وأدائـه عبادتـه خالصـة

---

(١) سورة يوسف : الآية ٣٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة ـ للدكتور صبحي الصالح ، ص ٥١٠ .

حتى تصطبغ جميع علاقاته بالصبغة الإلهية . .

وهو بهذا الارتباط العميق يتّخذ لنفسه مسيراً ذا هوية توحيدية متحركة ويتجه اتّجاهاً مستقيماً هادفاً ، ويضفي على جميع أبعاد وجوده الانسجام والتلاؤم ويفتح لنفسه أبواب الفلاح والنجاح في هذا العالم وفي العالم الآخر .

إذن لا يصبح العمل خيراً في الواقع ولا يستحق الثواب الأخروي إلاّ إذا كان نابعاً من دافع باطني وباعث مقدّس ، وإلا إذا كان الإنسان متمتعاً برؤية عميقة وتصوّر رفيع يتناسب مع عمق وسعة العالم التي لا يمكن حصرها في قوالب محدّدة جامدة .

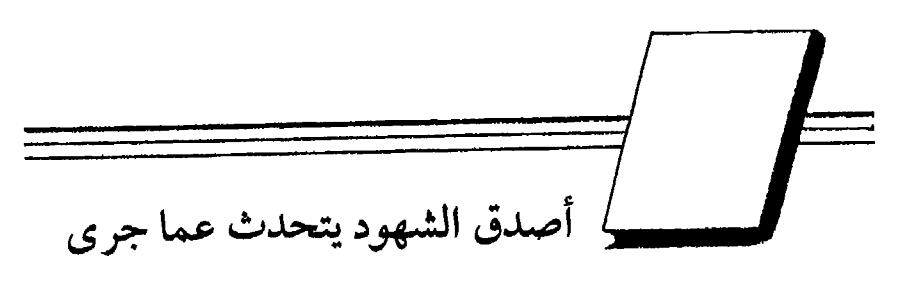
ولا يتيسر هذا الإدراك الرفيع إلا في ظل الارتباط الدائم بالله سبحانه ، فعبادة الله المتواصلة والحرص على جلب رضاه باستمرار والعيش في ظلال لطفه ورعايته يؤهّل الإنسان لإحراز منصب الخلافة الإلهية في الأرض .

ونلاحظ في هذا المجال كيف يتضرّع الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لله بخشوع قائلاً :

« يا ربّ أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة وأعمالي عندك مقبولة حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً وحالي في خدمتك سرمداً ، يا سيدي يا من عليه معولي يا من إليه شكوت أحوالي ، يا رب يا رب يا رب قوّ على خدمتك جوارحي واشدد على العزيمة جوانحي ، وهب لي الجد في خشيتك والدوام في الاتصال بخدمتك حتى أسرح إليك في ميادين السابقين وأسرع إليك في البارزين وأشتاق إلى قربك في المشتاقين وأدنو منك دنوّ المخلصين وأخافك مخافة الموقنين وأجتمع في جوارك مع المؤمنين »[1] .

---

(١) دعاء كميل .



أصدق الشهود يتحدث عما جرى

يصرّح القرآن الكريم بأن الشهود على المجرمين في محكمة العدل الإلهية شهود استثنائيون تماماً ، وكل ما يجري في مراحل التحقيق الذي تقوم به محاكم هذا العالم الدنيوي لا يمكن تشبيهه بنظام التحقيق في العالم الآخر .

والآيات التي تتحدث عن الشهود في البعث تذكر الأيدي والأرجل وجلود أبدان المجرمين ، فهذه كلها تكشف الستار عن أسرارهم المكنونة ، وكل المفاسد التي ارتكبها المجرمون خلال أعمارهم ولا يعلم بها أحد سوى الله ينفضح أمرها في أوج اضطراب المجرمين وارتباكهم .

إن عودة الحياة إلى هذه المجموعة من الشهود في البعث وإخبارها بالحوادث التي وقعت في الحياة الدنيا تبين لنا أن كل واحد من أعمالنا يضبط ويسجل في العالم الخارجي ، وفي أعضاء أبداننا المختلفة ، وفي نظام آخر حيث تمّحي ظروف هذا العالم وتحل مكانها ظروف أخرى ، أي في يوم يصفه القرآن بأنه :

﴿ يوم تبلى السرائر *فما له من قوة ولا ناصر ﴾[1] .

---

(١) سورة الطارق : الآيتان ٩، ١٠ .

يعاد كل ما سجل وتبدأ الشهادة ، ونحن نشاهد في الدنيا نموذجاً باهتاً من شهادة الأشياء ، فالطبيب مثلاً يفهم لسان الجسم ، يجس النبض فيعلم من سرعته أن صاحبه محموم ، ويشاهد اللون الأصفر الخاص في عينيه فيعرف أنه مصاب بداء الصفراء . ونحن قادرون أيضاً على تعيين عمر الشجرة من عدد طبقات لحاء ساقها .

وصحيح أننا لا نعلم كيفية ولون الشهادات في القيامة ، ولكننا نعلم أنه يوم تزال فيه الأستار من أمام عيون الناس فيشاهدون أشياء كثيرة كانت موجودة حولهم في الدنيا ولكنهم كانوا عنها غافلين ، كما يخبر القرآن الكريم :

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] .

ولننصت الآن إلى بعض الآيات التي تذكر بعض الشهود :

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾[2] .

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾[3] .

فهذه الآيات تشير إلى أن المذنبين لم يتمكنوا من إخفاء الذنوب عن أعضائهم التي يرتكبونها بواسطتها ، وليس هذا ناشئاً من عدم التفاتهم إلى

---

(١) سورة ق : الآية ٢٢ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٣) سورة فصلت : الآيات من ١٩ إلى ٢٣ .

أجسامهم المادية التي هي تحت تصرفهم وإنما هو نـاشيء من تصورهم أن الأشياء مستقلة في ذاتها ، وأن علم الله لا يحيط بكثير من الأعمال التي تصدر منهم ، والغفلة عن هذه الحقيقة ـ القائلة إن كل شيء في عـالم الوجـود لا يخفى على الله العليم ـ هي التي قادتهم إلى هذا المهوى السحيق وورطتهم في الشقاء الأبدي .

ويخبر القرآن الكريم :

﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في توضيح هذا الموضوع :

« إذا جمع الله الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه ، فينظرون فيه فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئاً ، فتشهد عليهم الملائكة ، فيقولون : يا رب ملائكتـك يشهدون لك؛ثم يحلفون أنهم لم يعملوا من ذلـك شيئاً ، والآية التي تكشف الستار عن هذا الأمر هي قوله تعالى :

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾[٢] .

فـإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم وتنـطق جوارحهم بمـا كـانـوا يكسبون »[٣] .

والأهم من هذا أن العمل بنفسه يتجسّم أمام عين الإنسان وهو حائر ، وهذا هو أصدق ألوان الشهادة التي لا تترك مجالاً لأي دفاع وخداع وفرار من العقوبة ، وتسلب من المجرم قدرة الإنكار والكذب والتلاعب بالكلمـات ، ولهذا فإنه لا توجد في ذلك العالم جريمة معلقة غير قابلة للإثبات ، وهنـاك

(١) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ١٨ .

(٣) تفسير علي بن إبراهيم (القمي) ـ الطبعة القديمة ص ٥٥٢ .

تكون آلام الخجل التي تأخذ المجرمين من كل جانب قاسية ومريرة .

يقول الله تعالى :

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾[١] .

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾[٢] .

لأنه في ذلك العالم لا يمكن أن يفنى العمل بأي شكل من الأشكال، فتكون أمنية المجرمين فقط أن ينفصلوا عن أعمالهم ، ويدل هذا على نهاية تنفر الإنسان من أعماله ، وذلك لأن البعد الزماني أوضح في الدلالة على النفور من الفاصلة المكانية .

والأرفع من هذا كله أن الله سبحانه يعتبر نفسه شاهداً على أعمال الناس فيقول عز وجل :

﴿ لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾[٣] .

ويذكر القرآن الكريم الأنبياء والمقربين بعنوان أنهم شهداء على أعمال الناس :

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾[٤] .

ولا بد أن نلتفت إلى أن الشهادة على الأعمال لا تقتصر على شكلها الظاهري ، بل تمتد الشهادة إلى كيفية العمل من حيث الحسن والقبح ، الطاعة والعصيان ، وبالتالي فإنها شهادة على باطن الأعمال .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٨ .

(٤) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

فالشهادة في يوم البعث في نفس الوقت الذي تكون فيه احتراماً وتكريماً للشاهد فإنها لا تصدر إلا ممن كان مطلعاً على الضمائر في الحياة الدنيا ، ونافذاً إلى أعماق الإنسان كما يلمس ظاهره ، ومسجلاً لأعمال الناس بعيداً عن أي لون من ألوان الخطأ والاشتباه ، ومن الواضح أن هذا اللون من الشهادة لا يمكن أن يتم عن طريق المعرفة العادية والحواس الظاهرية ، بل لا بد له من معرفة أرفع ورؤية أعمق تنفذ إلى ضمائر الناس وبواطنهم ، ولا بد أن تكون هذه نابعة من قوة وراء القوى العادية بحيث يمكن بوساطتها التغلغل إلى أعماق العمل لتمييز الصالح من غير الصالح .

ولا شك أن مثل هذه الشهادة هي رؤية لعين الواقع مصونة من كل خطأ .

يقول الله تعالى :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1] .

والمقصود من المؤمنين في الآية ـ حسب ما ورد في التفسير ـ هم الأئمة المعصومون الذين يتميزون من سائر المتقين ، وهؤلاء هم مورد لطف الله وعنايته الخاصة ويتمتّعون بطهارة الذات وتزكيتها معاً ، ولهذا لم يسند منصب الشهادة لجميع المتقين .

وفي المناقب في هذا المعنى عن الباقر (عليه السلام) :

«ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمة والرسل،وأما الأمة فغير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته على حزمة بقل»[2] .

وكل عمل من أعمال الإنسان له تأثير عميق في وجوده ، فالذي يعلم أن الظلم والجريمة فساد ولكن هوى نفسه يحمله على ارتكابهما يصاب

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

(٢) تفسير الميزان : ج ١ ، ص ٣٣٢ .

بالصراع في عالمه الباطني فتلتهب به أعماقه ، فمن الذي أوجد هذا الصراع غيره هو ؟

إن الحسد يأكل قلب الإنسان حتى أعماقه ، فهل يوجد عامل لهذا الألم الممض غيره ؟

قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« إن عمل الشر أسرع في صاحبه من السكين في اللحم »[1] .

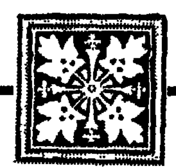
إذن كل أعمالنا وأقوالنا تسجل وتحفظ بشكل منظم وسري في أجسامنا وأرواحنا ، ثم تتجسم في يوم البعث ، فكل آثارنا الحسنة والسيئة تتراكم في وجودنا ثم تظهر أمامنا هناك .

فالمحاكم في العالم الآخر تسلك سبيلاً جديدة في كيفية التحقيق في الملفات والمحاسبة على الأعمال ، بحيث لا يبقى أي مجال لتغطية الحقيقة وإنكار محتويات الملفات المنظمة من قبل لأي فرد من الأفراد ، ولهذا فإنه يضطّر للاعتراف بالواقع والاستسلام لنتائجه .

فإذا أصبحت ـ في المحشر ـ الأيدي والأرجل والجلود هي ملف الإنسان ، وكان الله ـ الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض والعالم حتى بسقوط أوراق الأشجار ـ والأنبياء والأولياء هم الشهود على أعمالنا فمن الواضح والبديهي أن يصعب علينا الآن تصوّر مثل هذه المراحل لمحكمة العدل الإلهية التي سوف تعقد في المستقبل المحتوم في يوم البعث الرهيب !

---

(١) البحار ـ الجزء ٧٣ ، ص ٣٥٨ .



وتعود الحياة إلى أعمالنا
في يوم القيامة

في الماضي كان المتخصصون في العلوم التجريبية يؤمنون ـ بناء على استنتاجاتهم ـ بأن هناك جداراً لا يمكن اختراقه قائماً بين المادة والطاقة ، ولكن استمرار النشاط العلمي قد أدّى إلى بطلان هذه الفكرة وعدول العلماء عنها ، فنشأت نظرية جديدة مبنية على كون المادة مؤهّلة للتبدّل إلى طاقة ، ويعتبر اليوم موضوع تبدّل المادة أمراً مسلّماً ويقينياً .

ومن ناحية أخرى فإن العلوم التجريبية لا ترد إمكانية عكس هذه القضية وهو تبدّل الطاقة إلى مادة .

فإذا كان تبدّل المادة إلى طاقة قد تحقق بفضل الانتصارات العلمية بينما لم يكن أحد في الماضي يتصوّره ، فإنه من المؤمل في المستقبل عندما يتسع العلم البشري ويتعمّق أكثر ممّا هو عليه الآن أن يتمكن من تحويل الطاقة إلى مادة أيضاً فيحقق في هذا المجال انتصارات تشبه ما حققه في المجال الأول ، وذلك لأنه لا يوجد أي دليل ينفي إمكانية تراكم القوى والطاقات المنتشرة وظهورها في حالة جسمية .

فكل حركة ومحاولة يقوم بها الإنسان تعتبر من أعماله الحسنة أو السيئة ، وكل هذه الجهود إنما هي ذخائر جسمية تنفق بصورة طاقة ، إذن كل ما يصدر من وجود الإنسان ـ سواء أكان عملاً أم قولاً ـ فهو أشكال مختلفة

وتجليـات متنوعـة للطاقـة ، طـاقـة صـوتيـة أو ميكـانيكيـة ، أو خليـطة من الميكانيكية والصوتية .

فجسمنا مثلاً تكون المواد الغذائية مصادر طاقته ، وتنبعث طاقة حرارية من احتراق الغذاء فيه ، وتتحوّل هذه الطاقة المتغير شكلها إلى ألوان النشاط والمحاولات ، الشاملة للأحاديث الهادئة والحركات الثقيلة .

ويكون ثبات الخواطر الذهنية وصـور القضايـا التي يصل إليهـا علمنا علامة ـ على الأقل ـ تشير إلى خلود أعمالنا ، فهذه الصور التي تبقى أحياناً كامنة في سراديب الذهن فترة طويلة من الزمن يمكن استخراجها من مكمنها في أية لحظة ، وهي تستطيع أن تترك آثاراً مختلفة على أجسامنا وأرواحنا .

فالفرح والسرور ، والغضب والحزن ، وتسارع دقات القلب وتغيّر لون الـوجه ، واضـطراب ترشّـح الغدد الـداخلية ـ كـل هذه تعتبـر آثاراً طبيعيـة للخواطر التي تخرج من مكمنها إلى سطح الذهن .

وبناء على هذا فإن أحاديثنا وأعمالنا ـ المبعثرة في الفضاء بصورة طاقة ـ لا تقطع طريق الفناء ، وإنما كل ما حققناه طيلة حياتنا فهو يحفظ في حافظة الطبيعة ، وهي حافظة أبدعتها اليـد الإلهية القـوية وأسنـدت إليها مسؤوليـة الحفاظ على محتويـاتها بشكـل دقيق ، وسوف يصـل اليوم الـذي تعيد فيـه الطبيعة أماناتها لأصحابها ، وعندئذٍ تبدو الـطاقات المـدّخرة بشكـل جديـد وتقوم بدورها المطلوب .

فما المانع من تحوّل القوى المصروفة في طريق الخير والفلاح أو في طريق الظلم والفساد إلى شيء مضغوط ثم تتحوّل في يوم القيامة إلى صورتها الجسمـانية الخـاصة ، أي تـظهر في صـورة النعم والخيرات أو في صـورة العذاب والألم والبؤس ؟

إذن نحن الذين نأخذ على عاتقنا حمل المسؤولية لا بد أن نلقى النتائج الخاصة لأعمالنا وأفكارنا المؤثّرة في حركتنا الخالدة ، وبالتالي فإن أي عمل

من أي شخص سوف يعود للجزاء في يوم ما .

وحتى أن عالم الوجود يقوم بأفعال وانفعالات على أعمالنا من دون استئذاننا بل ومن دون علمنا، فهو يقوم بها في حالة غفلتنا وينميها بشكل يتعذّر علينا تصوّره في الظروف الراهنة .

فبمرور الزمان تتحوّل البذرة الصغيرة إلى شجرة ضخمة قوية ، وتصوغ العوامل المختلفة ـ المؤثّرة على النباتات ـ من البذور أنواع النباتات من صغيرة وكبيرة بأشكال مختلفة .

فإذا كنا نلاحظ في هذه الدنيا أن شخصاً مدمناً على المخدرات يقع تحت تأثير ذلك المخدّر حتى آخر لحظات حياته ، بل ويترك أثراً مباشراً سيئاً على نسله والأجيال القادمة منه إلى مدى بعيد فلماذا لا نصدق مواجهة الإنسان الدائمة لنتائج أعماله في الآخرة ثواباً كانت أم عقاباً ؟ ولماذا لا يستطيع العمل المتصرم أن يجعل الإنسان سعيداً للأبد أو شقياً بشكل خالد ؟

ومهما كان تصوّر هذه الحقيقة أمراً عسيراً بالنسبة إلينا الآن ولكن الموضوع سيتضح إلى حدّ ما إذا أخذنا بعين الاعتبار المعرفة البشرية المتّجهة نحو الاتساع ، وشاهد ذلك ما نالته اليد الإنسانية من اكتشافات رائعة .

فإذا كان متخصصونا وعلماؤنا قد وفقوا لحد اليوم في تسجيل أصوات السابقين ، وبسبب أن جميع الموجودات الحية تصدر منها بعض الارتعاشات وتؤدي إلى حركة الأمواج فإن دراساتهم في مجال استعادة تلك الأمواج الموجودة منذ قرون على أجسام جرار الطين الفخارية قد انتهت إلى نتائج إيجابية بحيث أمكن الاستماع إلى أصوات صانعيها بعد مرور قرون متطاولة وتعرفوا بهذا الشكل على أحاديث السابقين ، أو أنهم استطاعوا أن يصوروا موضع أصابع السارقين الباقي في مكان السرقة بصورة حرارة كانت قد انبعثت من أجسامهم ـ فإذا كان علماؤنا قد نجحوا في تحقيق مثل هذه الأمور في

الحياة الدنيا فلماذا لا يمكن حدوث مثل هذا في يوم القيامة بالنسبة لجميع أعمالنا ؟ .

لقد أقام الإنسان اليوم مراصد كبيرة في نقاط مختلفة من العالم وهي تستقبل الأمواج الصادرة من المجرّات بواسطة أجهزة استقبال معقدة وتفسر بعضها ، وعن هذا الطريق يظفر المشرفون عليها بمعلومات دقيقة ويحلون أسراراً عديدة .

وتصدر من أعمال الإنسان أيضاً أمواج لا تؤول إلى الفناء وإنما هي تستمر في بقائها ويمكن جمعها بأجهزة دقيقة لها القابلية على استقبال هذه الأمواج ، ولهذا فإنه من وجهة النظر العلمية يمكن قبول تبديل الطاقة إلى مادة وتجسيم أعمالنا وأقوالنا بصورة موجودات مادية ، ولا ينبغي عدّ هذه المواضيع من الأمور المستحيلة .

ومن ناحية أخرى فـ « الزمان » لما كان نسبياً وهو نتيجة لحركة الأرض حول الشمس ، فإذا استطعنا السفر إلى كرة أخرى من الكرات السماوية فإننا نستطيع مشاهدة الحوادث التي تجري على الكرة الأرضية بجميع خصائصها بعد مرور أعوام على حدوثها بنسبة المسافة الفاصلة بين الكرتين ، فنشاهد مثلاً هناك أعمالنا التي حدثت على الأرض قبل سنين طويلة لأنها لم تصل إلى هذه الكرة إلا بعد هذه الفترة الطويلة .

كما أننا نشاهد اليوم بعض النجوم في السماء وهي تضيء ولكنها منذ قرون عديدة قد تلاشت وتفتّتت ولم يبق منها أي أثر مهم ، ولكن ضوءها في نفس الوقت يصل إلينا الآن بسبب بعد المسافة الفاصلة بينها وبين الأرض فنراها مضيئة متلألئة .

إذن بسبب نسبية الزمان استطاع الإنسان أن يشاهد الأعمال الواقعة في الماضي والتي علاها غبار النسيان .

ولما كانت حواس الإنسان تتصل بسطوح الأشياء ولا تستطيع النفوذ

إلى باطنها ، فلهذا لا يستطيع الإنسان في هذا العالم أن يدرك كيفية تسجيل أعماله التي تنتهي إلى نفعه أو إلى ضرره ، أما في الآخرة حيث ينكشف كل كامن ويتضح كل خفي فإن كل إنسان يستلم كتاب أعماله فيجد فيه كل أعماله واضحة مكشوفة .

والقرآن الذي هو كاشف للحقيقة ومبين للواقع يتناول في آياته بيان حوادث ذلك اليوم فيقول :

﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾(1) .

فالمجرمون المقيدون بقيود شهواتهم وأهوائهم النفسية يحاولون ـ لخداع ضمائرهم وللظفر باستقرار كاذب ـ إخفاء تلك الأمور التي يرونها مضرّة لهم عن أنفسهم ، فيدفنون وعيهم في أعماقهم ، ولكن هذه الحقائق المخفية تتضح يوم القيامة :

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾(2) .

﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر ﴾(3) .

وسأل شخص الإمام الصادق (عليه السلام) عن قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم . . . ﴾ .

فأجاب الإمام (عليه السلام) :

« يذكر بالعبد جميع ما عمل ، وما كتب عليه ، حتى كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا :

---

(1) سورة الأنعام : الآية ٢٨ .
(2) سورة الإسراء : الآيتان ١٣ ، ١٤ .
(3) سورة القيامة : الآية ١٣ .

﴿ يـا ويلتنـا مـا لهـذا الكتـاب لا يغـادر صغيـرة ولا كبيـرة إلاّ أحصاها ﴾[1] .

يستفاد من هذه الرواية أن حقيقـة الكتاب وكيفيـة قراءتـه تختلف عن خصائصه في الدنيا ، وهو هناك لون من التذكير .

ولا بد من الالتفات إلى أن تسجيل الأعمال يشمل تلك الأعمال التي أقدم عليها الإنسان بشكل مباشر ، ويشمل أيضاً النتائج والآثار المترتبة على أفعاله ، فجميع هذه سوف تقيّم ويحاسب عليها ، ولهذا يقول الله تعالى في كتابه الحكيم :

﴿ إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ﴾[2] .

ففي تلك اللحظات الحساسة وعندمـا يلقي المجرمـون نظراتهم على جرائمهم التي لوثوا بها أنفسهم خلال الزمان الماضي فـإنهم يقولـون بحيرة واستغراب :

﴿ يـا ويلتنا مـا لهذا الكتـاب لا يغادر صغيـرة ولا كبيرة إلاّ أحصـاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾[3] .

أو يقول كل واحد منهم :

﴿ يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً ﴾[4] .

ولكن كل هذه الألوان من طلب البراءة لا يعفي هؤلاء ممّـا يستحقون من عقاب على مفاسدهم التي قاموا بها عن وعي طيلة حياتهم .

ويجسّم القرآن حالة الظالم الذي يعضّ يديه من فرط الندم على ما قدّم فيقول :

(١) تفسير العياشي ج ٢ ، ص ٢٨٤ ، نقلاً عن البحار ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) سورة يس : الآية ١٢ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٢٨ .

﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا ﴾[1] .

﴿ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[2] .

فهؤلاء يقومون بملامة الشيطان ليبرئوا أنفسهم ، ولكنه يرد أصحاب اللوم :

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾[3] .

ولما كانت القيمة الواقعية لأي شيء لا تعرف إلاّ بمقارنته ومواجهته بالحالة المخالفة له فإن القرآن يجعل سعادة أصحاب الجنة ورضاهم المقرون بشكرهم في مقابل ندم أصحاب النار المقرون بطلبهم المرفوض للعودة إلى الدنيا ليجبروا انحرافاتهم ، فيصوّر لنا ما يجري في المستقبل البعيد ويجسّم لنا منظرين متباعدين تماماً عن بعضهما ، وهما يتناولان حالة الفرح وحالة الألم لهاتين الفئتين : السعيدة والشقية بقوله تعالى :

﴿ جنّات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربّنا لغفور شكور * الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب * والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربّنا أخرجنا

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٢٩ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[1] .

فالآيات الأولى تتحدث عن وضع الجنة المستقر الدائم حيث يتمتع المتقون السعداء بالنعم المادية والمعنوية من دون حساب ، فتلبى هناك طلباتهم المادية ، وإلى جانب ذلك توجد السعادة والاطمئنان النفسي واللذات المعنوية والروحية ، ولهذا فإن ألسنة أصحاب الجنة تنطلق بالشكر لله على ما أدخلهم مقر الاطمئنان والسعادة الأبدية ، وعلى ما أولاهم من جزاء أعمالهم الصالحة ، ويعتبرون عالم الجنان المليء بالرضوان والفرح ، والذي لا يرتفع إليه أدنى ألم أو عدم استقرار ، جزءاً من منحه وعناياته ، وإلا فإنهم لا يرون أنفسهم أهلا لكل هذه النعم المنحدرة نحوهم كالسيول .

وإذا صرفنا نظرنا نحو الجانب الآخر وجدنا الغم والاضطراب يسيطران على المفسدين المنحرفين لما ينتظرهم من مصير أسود وعقاب شديد، فأصحاب النار من شدة الخجل وسوء المصير قد انعكفوا على أنفسهم مرددين نغمات الندم والذل بأصوات فاجعة ، ويتمنون الخروج من هذه الورطة المخيفة حتى يتفرغوا لجبران ما مرّ من أعمالهم القبيحة الفاسدة .

ولكن ما الفائدة بعد أن تصرمت الحياة الدنيا وانقضت أيامها السريعة ، فلا ثمرة لهذه الأمنية ، فهم لا يخفف عنهم حتى لحظة واحدة من عذاب جهنم المهول ، ولا يقضي عليهم بالموت ليستريحوا .

فها هنا نشاهد عرضاً لحالة هاتين الفئتين ، فنلاحظ السعادة والراحة في جانب ، وفي جانب آخر العذاب والألم والشقاء وسوء الحظ وأصوات الندم والتذلّل التي لا تنقطع .

يقول قيس بن عاصم :

جئت إلى المدينة مع جمع من الناس من مكان بعيد ولما ظفرنا بلقاء

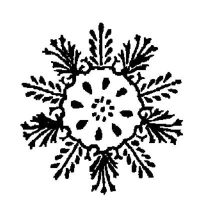
---

(١) سورة فاطر : من الآية ٣٣ وحتى الآية ٣٧ .

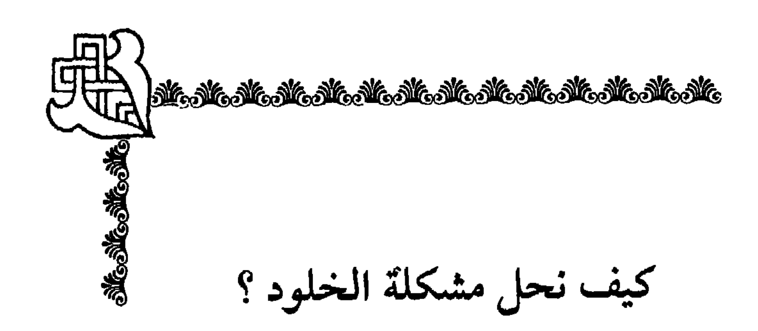
الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) طلبت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يعظنا وقلت : إننا أهل بادية وقليلاً ما نلم بالحضر لذلك فنحن نحرص على استغلال هذه الفرصة ونريد التمتع ببيانك الحلو العذب .

فقال الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) :

« إن مع العز ذلاً ، وإن مع الحياة موتاً ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حسيباً وعلى كل شيء رقيباً ، وإن لكل حسنة ثواباً ولكل سيئة عقاباً ولكل أجل كتاباً ، وإنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، ثم لا يحشر إلا معك ، ولا تبعث إلا معه ، ولا تُسأل إلّا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً ، فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه ، وهو فعلك »[1] .



(١) أمالي الصدوق ص ٣ .



كيف نحل مشكلة الخلود ؟

إن من أخطر الإشكالات التي تدور في أذهان الكثير من الناس هو إشكال خلود العقاب للمفسدين واستمرار العذاب لغير المؤمنين في جهنم ، فلا بد أن يتحمّل هؤلاء العذاب المؤلم على امتداد الزمان بلا نهاية .

وينشأ هذا الإشكال الحاد من تصوّر أن أعمال الدنيا تتحقق خلال مرحلة عابرة فكيف تصطبغ ثمارها بصبغة الخلود والدوام ؟

أو بعبارة أخرى ما هي العلاقة الموجودة بين عمل الدنيا المحدود وجزائه اللامحدود في الآخرة ؟

حقاً إذا كان عقاب العمل في مستقبل غير متناه فإنه ألم وعذاب مخيف ، وإذا لم تكن للزمان نهاية يتوقف عندها العذاب فإن نفس تصوّر هذا الموضوع يدخل الرعب على القلوب ويصيب جسم الإنسان بالرعشة والاهتزاز .

والقدر المسلّم في أنظمة المحاكمة البشرية والمقررات الجزائية هو أن جزاء المتخلّفين والمتجاوزين لحدود القانون يكون بنسبة جرائمهم ، ويشمل الجزاء عقوبات قصيرة الأمد وطويلة الأمد ، وذلك لأن مخالفات الإنسان ليست متساوية من حيث الكمية والكيفية ، وعليه فإنه لا يجوز أن يكون العقاب متساوياً متشابهاً في جميع الحالات .

وإذا قمنا بتحليل الموضوع عرفنا أن الجو السائد في المحاكم الإلهية هو جو العدالة المحضة ، ولا يمكن أن يترك هناك أي عمل وإن كان تافهاً دون أن يحاسب عليه ، فلا تبقى ذرّة من عمل صالح من دون ثواب ولا ينجو أي مجرم من العقاب إلّا إذا شملته الرحمة اللانهائية والعفو الإلهي .

إذن في مثل هذا النظام العادل كيف يمكن تصوّر عدم رعاية التناسب الدقيق بين عمل الإنسان وعقابه ؟

وأما أنه لماذا لم يورد الإشكال على خلود أصحاب الجنة فذلك لأن هذين لا يشتركان في أساس واحد ، ولا بدّ من القول بالتفاوت الأساسي والفرق الواضح بين العقاب والثواب الأبديين ، فالثواب والمنح يتعلق بأفق آخر ، وكلما اتسع وامتد فإنه يعتمد على فضل ورحمة المثيب ، ولهذا فإنه لا يرد عليه أي اشكال .

ويبقى فقط ما يثير الإشكال وهو خلود المسيئين من غير المؤمنين في جهنم وسقوطهم في أعماق النار إلى الأبد من دون أن ينقطع عنهم العذاب لحظة واحدة .

ولا يتناسب هذا العقاب أبداً مع الفساد والانحراف المحدود الذي ارتكبه هؤلاء في حياتهم الدنيا ، حتى وإن كانت حياتهم بأجمعها قد امتلأت بالأخطاء والذنوب ، فمهما يغرق الإنسان طيلة عمره في الكفر والإلحاد والفساد فإنه لا يتجاوز مدة قرن واحد ، بينما هذه المدة التي تبدو طويلة ليست إلّا لحظة عابرة في إزاء الخلود والأبدية .

وقد لجأ بعض العلماء إلى تأويل الآيات المتعلّقة بخلود المجرمين في العذاب ، وذلك لحل التناقض المتصور بين العدالة الإلهية والخلود في العذاب فقالوا إن الخلود هنا قد استعمل مجازاً والمقصود منه هو المدة الطويلة ، وتخيلوا أنهم قد تخففوا من هذا الإشكال ودفعوه .

ولكنه لا مبرر للجوء إلى هذا المعنى وهو بعيد عن حقيقة الأمر ،

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الفرض لم يرافقه دليل يمكن الاعتماد عليه ، ومن الواضح أنه لا يجوز لنا التأويل إلا إذا لم يتعارض مع الآيات الصريحة ، بينما يصرّح القرآن بخلود الذين بنوا لأنفسهم مصيراً بائساً بإرادتهم في العقاب ، إذن هذه التأويلات مردودة من القرآن بشدة وهو يعلن :

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنّم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم ﴾[1] .

﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾[2] .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[3] .

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[4] .

ولا يمكن إنكار هذه الصراحة وتأويل الخلود فيها بطول الزمان ، كلا ، فالآيات تعلن أن الكفار مخلدون في النار وكل طرق النجاة مسدودة في وجوههم .

أما بالنسبة لسائر الذنوب أي بالنسبة للعاصين في بقية الموارد فإن عقابهم لا بدّ أن يكون متناسباً مع الذنب أو أن العفو الإلهيّ يشمل حالهم .

ويعتبر الخوف من عقاب الله العادل من أهم العوامل الدافعة لكثير من الناس إلى تنفيذ الأوامر الإلهية ، والدور الذي يقوم به العامل الديني في كف الإنسان وضبطه أهم وأعظم تأثيراً في نفوس الناس من استعمال القوة والإرغام ، وكل إنسان ألف الخوف من القدرة الإلهية فإن مجتمعه يأمن جانبه

---

(١) سورة التوبة : الآية ٦٣ .

(٢) سورة هود : الآية ١٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣٩ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

ولا يخاف من صدور الجرائم منه ، فالتسلّح بالدين حارس قوي ، وكلما ضعفت التربية الدينية فإن الجرائم تعظم وتزداد .

وعلى العكس من هذا الخوف المؤذي والمضرّ فإنه ينبع من الضعف والخنوع ، وهو ليس فقط لا يكون دافعاً لأعمال مثمرة بل ويعتبر سداً في طريق تقدّم الإنسان وسعادته . أما الخوف الناشىء من البعد في التفكير فهو إضاءة للضوء الأحمر الذي يحمل الإنسان على الحيلولة دون التلوّث بالذنوب ويهديه إلى سبيل أداء الواجبات والقيام بالمسؤوليات في ظل مختلف الظروف ، وهو يحرص في جميع ذلك على سعادته الواقعية ونجاحه الحقيقي .

والخوف من العواقب السيئة للعمل المضرّ يحوّل الإنسان إلى شخص منظم منضبطِ يتميّز بالتفكير في العواقب وبالحزم والاحتياط ، ومثل هذا الإنسان يراقب أعماله الصغيرة والكبيرة بدقة وأمانة ، ويطيل التفكير دائماً بعظمة الله وسطوته ، ولهذا فقد أكدت التعاليم الدينية على أن يكون الإنسان متقلباً بين حالتي الخوف والرجاء ، فهو في نفس الوقت الذي يأمل فيه فضل الله اللانهائي فإنه يفكر في نتائج أعماله لئلا يقع في أحضان الغرور والطيش والرغبات المنحطة .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« الخوف رقيب القلب والرجاء شفيع النفس ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً وإليه راجياً ، وهما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقق إلى رضوان الله ، وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس ، قال النبي (صلى الله عليه وآله) : (المؤمن بين خوفين خوف ما مضى وخوف ما بقي) ، وبموت النفس تكون حياة القلب وبحياة القلب يكون البلوغ إلى الاستقامة ، ومن عبد الله على ميزان الخوف

والرجاء لا يضل ويصل إلى مأموله »[1] .

ويتحدث الإمام الصادق (عليه السلام) عن التأثير الإيجابي لذكر الموت فيقول :

« ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقلع منابت الغفلة ويقوي القلب بمواعد الله ويرق الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطفىء نار الحرص ويحقر الدنيا ، وهو معنى ما قال النبي (صلى الله عليه وآله) :

« فكر ساعة خير من عبادة سنة »[2] .

أجل إن الاستغراق في أمور الدنيا يسحب ستاراً غليظاً من الغفلة وعدم الوعي أمام بصيرة الإنسان ، وينتهي به إلى الانفصال عن قيمه المعنوية الرفيعة ، وبالتالي فإنه يعانق الموت صفر اليدين .

وقد روي أن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) دخل يوماً سوق البصرة فرأى الناس قد غفلوا عن أنفسهم تماماً وانشغلوا بالبيع والشراء كأنه لا موت ينتظرهم ولا بعث ، وأثر في الإمام (عليه السلام) هذا الجو المسيطر من الجهل تأثيراً عميقاً بحيث حمله على البكاء بكاء شديداً ثم قال :

« يا عبيد الدنيا وعمّال أهلها إذا كنتم بالنهار تحلفون وبالليل في فراشكم تنامون ، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون ، فمتى تجهزون الزاد وتفكرون في المعاد ؟ »[3] .

ويتضرّع الإمام السجّاد (عليه السلام) في مقام دعائه لربّه قائلاً :

« وعمرني ما كان عمري بذلة في طاعتك إذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ »[4] .

---

(١) المحجة البيضاء ، ج ٧ ص ٢٨٣ -٢٨٤ .

(٢) البحار - الجزء الثالث - الطبعة القديمة - ص ١٢٨ .

(٣) سفينة البحار ، ج ١ - ص ٦٧٤ .

(٤) دعاء مكارم الأخلاق من الصحيفة السجادية .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان لما كان متعلقاً في هذه الدنيا بكثير من اللذائذ والسعادات ، وتوجد في نفوس عامة الناس رغبات تدفعهم إلى الظفر بهذه الأمور ، ولا تقتصر هذه الرغبات على أفراد معدودين بل تمتد لتشمل كل إنسان ولا تهدأ هذه الرغبات ولا تستقر إلّا بالموت ، لذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يحرم الإنسان من التمتع باللذائذ الطاهرة النظيفة ولم يشجعه على الانصراف بشكل مطلق عن أمور الدنيا ولذائذها .

ولكنه سبحانه وتعالى يعيد القيم الكاذبة غير الدائمة إلى القيم الواقعية والآمال الحقيقية ، ويحذّر الناس أن لا تخدعهم اللذائذ العابرة ولا يتعلقوا بالرغبات والآمال النفسية فيتخلفوا عن المتع الخالدة ، ويلفت انتباه الناس دائماً ليطلبوا رضى الله ويحرصوا على طاعته .

والآن لننظر كيف يمكن نسبة اللامساواة إلى فعل الله بإلقائه المجرمين والطاغين والملحدين في العذاب الأبدي ؟ وكيف يمكن نسبة هذا العمل البعيد عن العدالة إلى الذات الأزلية ؟

أما إذا تعمّقنا في الموضوع فسنلاحظ أن تلك النتيجة التي أخذت على عجل ليست صحيحة بتمام معنى الكلمة ، وذلك لأن هذا الاستنتاج ناقص من جهة كونه مبنياً على تصوّر أن العقاب في العالم الآخر ، هو من ألوان الجزاء الاعتباري الذي يتفق عليه المقننون ويضعون العقاب آخذين بعين الاعتبار مقدار الجريمة وشدتها . وبهذه الصورة يبدو عدم التناسب بين الجرائم المرتكبة في الدنيا والعقاب الدائم في الآخرة ، ولا يوجد عندئذٍ ما يرفع الإشكال .

ولكن هذا الإشكال يمكن حله بسهولة ويسر إذا عرفنا أن العلاقة بين هذين هي علاقة طبيعية وتكوينية ، وأن العقاب ثمرة العمل ونتيجته ، وليس أمراً اعتبارياً يتفق عليه .

إن الألم والعذاب في يوم القيامة من خواص العمل ، فللأعمال نتائج

طبيعية تنزل بساحة الكفار والمجرمين في العالم الآخر ، ويكشف القرآن الكريم الستار عن وجه الأسرار فيقول :

﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[1] .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[2] .

فالقرآن الكريم في هذه الآيات يقول إن الناس يرون أعمالهم حاضرة في يوم القيامة ، أي أن صورة العمل الإنساني تحضر أمامه هناك بشكلها الأخروي .

وعلى العكس مما نتصوّره نحن من أن عملنا أمر آني وعابر فإن بعض أعمالنا ثقيلة الوزن إلى حدّ أنها تمتد إلى أبعاد متعددة ، ونذكر بعض الأمثلة لكي نعد الذهن لإدراك هذه الحقيقة :

افرضوا أن هناك إنساناً تسيطر عليه الروح السلبية وهو ينظر إلى العالم بتشاؤم ، فمثل هذا يرى العالم مليئاً بالاضطراب والنقاط السود ، وبدل أن تغرق عظمة الطبيعة روحه في السعادة واللذة والاطمئنان فإن خواطره مشتتة والحزن والغم يخيمان على جميع أرجاء وجوده .

ولكن هذا الإنسان بهذه الرؤية لا يستطيع أن يرفع الإشكال الذي يضفي الصبغة السوداء على كل ظواهر العالم المخلوقة بكل هذا اللطف والبداعة ولكل منها روعة تنفذ إلى أعماق القلب ، وليست هذه إلّا مأساة مروعة تعذّب النفس البشرية ، وهي المنشأ لكثير من ألوان اليأس والإخفاق ، وتفوق آلامها آلام العمى ، وذلك لأن الأعمى محروم من رؤية أوجه الجمال في العالم ، أما المبصر فإنه يلمس القبح والسوء والاضطراب والألم بمقدار سعة وامتداد الوجود وبعدد الحوادث والظواهر .

وعلى هذا فإن روح الإنسان المتشائم مع أنها شيء واحد ولكن لما

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

كانت تضرب في جميع ظواهر العالم وحوادثه فإنها تصل إلى اللانهاية ، وتتجسّم أمامها وحدات لا عدّ لها من القبح والسواد والسوء .

ومثله ما لو أقدم شخص على جر إنسان نحو الانحراف فإن جميع الذين يضلّون على يديه ، وآلاف الذنوب التي يرتكبها كل واحد منهم تعتبر في الواقع امتداداً لذلك العمل الأول ، فهو إذن قد ترك من نفسه أثراً لا ينقطع ويستمر إلى أمد بعيد ، وتتصل آخر حلقات هذه السلسلة من الضلال والفساد بشخص واحد ، وسوف تعود في يوم ما بعد دورانها إلى نقطة بدئها .

قال الإمام الباقر (عليه السلام) :

« أيما عبد من عباد الله سنّ سنة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[1] .

ومن هنا فإن أي عمل يصدر من الإنسان يمكن أن يكون مساوياً لأعمال عديدة .

وعمل أي فرد بالإضافة إلى أن له تأثيراً على العالم الإنساني فإن له تأثيراً خاصاً وعميقاً على عالم الغيب ، وهو يحدث عالماً من الأمواج الجاذبة أو الطاردة ، فإذا كان عملاً سلبيّاً ورديئاً فإن جميع أرجاء عالم الغيب يطرده ويدفعه ، ويصدق عكس ذلك على العمل الإيجابي المحبوب .

ومن ناحية أخرى فإنه من الخطأ هذا الطراز من التفكير الذي يربط بين العمل الفاسد والجزاء عليه برابطة زمانية ، وذلك لأن زمان الجزاء متناسب مع كيفية العصيان والذنب ، إذن بين عملنا الصالح والقبيح والثواب والعقاب الأخروي يوجد لون من الارتباط الواقعي ، بينما كمية الزمان ههنا ليست منظورة على الإطلاق ، وإذا كان الجزاء والعقاب نتيجة مباشرة لنفس العمل فإنه لا يبدو عندئذٍ من المنطقي طرح أصل المساواة من حيث الكيفية أو الكمية .

---

(١) سفينة البحار ، ج ١ ص ٦٦٥ .

ونضرب مثالاً لكي يستعد الذهن لإدراك النتيجة النهائية ، فالعالم الخارجي يبدي رد فعل في مقابل أعمالنا ، والذين يحترقون بنيران أعمالهم إنما هم مصاديق لهذا القانون :

لو فرضنا أن شاباً خطر في ذهنه القفز في الهواء ، وتحقيقاً لهذه الرغبة فإنه صعد إلى سطح العمارة التي يسكنها ثم ألقى بنفسه من ذلك العلو الشاهق إلى الأرض فأدّى ذلك إلى قطع نخاعه فأصيب بالشلل .

فهذا الشاب البائس سوف يحرم من الاستفادة من رجليه طيلة عمره ، وتغوص أيام حياته في لجج من الألم والحرمان والعذاب .

فهنا نلاحظ أن زمان الرغبة لم يتجاوز لحظة قصيرة ، بينما زمان آثار ذلك امتد إلى خمسين سنة مثلاً من الشلل وملازمة البيت ، وهو مرغم حتى آخر عمره على تحمّل هذه المصيبة وهذا البؤس .

أجل أن قصة سقوط إنسان من على سطح مرتفع ومواجهته لتلك الآثار المحزنة تبيّن لنا كيفية عوائد أعمالنا علينا ، وهي نموذج للسجون التي تبنيها لنا أعمالنا وتورطنا في ظلماتها وهي بمثابة خطوط ترسمها أعمال الإنسان على جبهته .

فهل هذه اللحظة من الرغبة التي أعقبها عمر من الندم وهل هذه اللامساواة بين العمل المرغوب والنتيجة المحرقة للأخضر واليابس طيلة العمر والتي جعلت سفينة وجوده تواجه الأمواج المتلاطمة من الألم والبلاء ـ هل هي مخالفة لأصل العدالة ؟ .

إن خمسين عاماً لأمر يسير فلو أنه استطاع أن يعمر آلاف السنين فإنه من أجل تلك اللحظة القصيرة التي أدّى فيها ذلك العمل المجنون لا بد أن يتحمّل الألم والعذاب طيلة عمره ، ولا يعد ذلك شيئاً مخالفاً للعدالة في حقه .

إذن علاقة العقاب بالذنب والعصيان ليست علاقة زمانية ، لا في هذا

العالم ولا في العالم الآخر .

ونستنتج من كل ما مرّ أن خطأ كبيراً واحداً مثل القتل قد يحمل في أعماقه من المواد المتفجرة مالا حدّ له ولا حصر بحيث يستطيع أن يحرق الإنسان بشكل مستمر بنيران انفجاراتها .

فالإنسان وحده الذي يستطيع الإعراض ـ بوعي وعلم ـ عن الأوامر الإلهية والإشاحة عنها بوجهه ، ويلوّث نفسه بالكفر والإلحاد والذنوب ، وبالتالي يصوغ مصيره المشؤوم ، ويصل في النتيجة إلى نتائج أعماله شاء ذلك أم أبى .

ولمثل هذه المسائل العينية التي تحدثنا عنها عيب واحد ، وهو أن جميع الأسباب والعلل وكيفية تورط الإنسان المغامر يستطيع أي إنسان إدراكها ، ولما كانت من الحوادث العادية لذا فهي لا تثير استغراباً .

أما العقاب والثواب الأخروي فإنه خارج عن إطار الحس والتجربة ، ولهذا فإنه يقع مورد الشك والترديد أحياناً أو الإنكار في أحيان أخرى ، بينما نتائج أعمالنا في العالم الآخر تشبه ما يجري في عالمنا هذا ، ولكنه في مستوى أوسع وأدّق وأرفع .

وبناء على هذا فإن مجموعة أعمالنا وسلوكنا في هذا العالم تكون بشكل بحيث تستتبع جزاءها وعقابها وتبقى معلقة على رؤوسنا تدق جرس الخطر حتى يوم البعث ، وتتميّز أعمالنا بهذه الخاصة وهي أن أي أحد سوانا لا يكون مسؤولاً عمّا نستحق من عقاب ، وذلك لأن الإنسان يتمتّع بالحرية خلال حياته ، ولا يكون أبداً ترساً في جهاز المجتمع أو التاريخ .

فإذا عمّ الكفر والطغيان والفساد جميع أرجاء وجود ذلك الإنسان ، واستفرغ كل إمكانيّاته في طريق الظلم والعبودية لأهوائه المسيطرة على نفسه فإنه لا بدّ أن يدفع كفارة ذلك ، ولن تكون سوى الحرمان الدائم من النعم الإلهية ، ولا تتناقض هذه الظاهرة الحتمية والطبيعية مع العدل الإلهي ،

وذلـك لأن الظلم لا سبيـل لـه إلى ذات الله تعـالى . إذن نـزول مثـل هـذه العقوبات على العباد العاصين المذنبين مبنيّ على أساس آثار العمل الوضعية ونتائجه الطبيعية ، كما أن الصالحين والمتقين يتمتعون بآثار أعمالهم بشكل خالد ، وهؤلاء بجهودهم الذاتية وحسن سيرتهم قد حققوا لأنفسهم السعـادة النفسية في هذه الدنيا ، والسعادة الأبدية في الآخرة .

وهناك رواية مشهورة عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) تبيّن لنا هذه الحقيقة بشكل واضح حيث يقول (صلى الله عليه وآله) :

« الدنيا مزرعة الآخرة » .

وأي عاقل في مقابل هذا الوضع إذا خيّر بين هذين المصيرين يتردد في ترجيح الثاني على الأول ؟ .

إذن لا ينبغي للإنسان الذي يقف على رأس المخلوقات أن يعمل شيئاً يطفىء تلألؤه ، أي لا ينبغي له أن يسند زمام وجوده في يد رغباته النفسية ، وذلك لأن الرغبات الملتهبة تسيـطر على قلب وإرادة من يستسلم لها ، إذن ينبغي أن لا تـدع دخـان الإغـواء المنـطلق من حـريق النفس الأمّـارة يعمي أبصارنا ويسقطنا في مهاوي الشقاء والعذاب الأبدي .

وقد ورد عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) قوله :

« إن الله عز وجل يقـول : ابن آدم ! مرضت فلم تعـدنيّ ، قال : يـا رب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : مرض فلان عبدي ولو عدته لـوجـدتني عنــده ، واستسقيتــك فلم تسقني ، فقــال : كيف وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فـلان ولو سقيتـه لوجـدت ذلك عنـدي ، واستـطعمتُـك فلم تــطعمني ، قـال : كيف وأنت ربّ العــالمين ؟ قـال : استطعمك عبدي فلم تطعمه ولو أطعمته لوجدت ذلك عندي »[1] .

وبـالالتفات إلى هـذه الحقيقـة وهي أن الـوضـع الجسمي والـروحي

---

(١) الوسائل ـ ج ٢ ، ص ٦٣٦ .

للإنسان هو الذي يعده للحب والعمل المبدع ، وأمّا إذا كانت دوافعه متّجهة نحو الأمور السلبية كالقسوة والظلم والتعدي فذلك بسبب كونه مصاباً بحالة مرضية ، وقد لوّث نفسه بالذنوب باختياره ـ إذا التفتنا إلى هذه الحقيقة أدركنا أن طريق الخروج من هذا الوضع مفتوح أيضاً أمام الإنسان .

ويعتبر القرآن الكريم النفور من الذنوب والعصيان والتمرّد من الأمور الفطرية للإنسان فيقول تعالى :

﴿ ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾[1] .

إذن اختيار طريق العدل والسعادة للوصول إلى النجاة والفلاح والتحليق نحو اللانهاية إنما هو في الواقع سلوك لطريق الفطرة .

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في توضيح موضوع « الخلود » :

إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً ، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيّات خلد هؤلاء وهؤلاء ثم تلا قوله تعالى :

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ .

قال : على نيته »[2] .

وصحيح أن النية وحدها غير كافية للعقاب فلا يعاقب الإنسان على شيء نواه فقط ، ولكن النية في الواقع بمثابة مفتاح يستطاع به فتح نافذة الروح والاطلاع على محتواه ومكنوناته .

فإذا وصل الطغيان والتمرّد والفساد بإنسان إلى درجة أنه مصمّم على

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٧ .

(٢) الوسائل ـ ج ١ ، ص ٣٦ .

الذنب ، والعصيان بشكل دائم فإن الكفر والفسوق عندئذٍ يحيط بوجوده من كل جانب ويجفف منبع الخير والفضيلة في أعماقه ، ويغلق في وجهه جميع الطرق المؤدّية إلى نجاته أو التي تؤهله للعودة إلى الطهارة وعبادة الحق .

ولا بد أن نضع نصب أعيننا أن العلاقة بين التمتّع بنعم الدنيا والتمتع بالسعادة الأخروية ليست من ألوان التضادّ ، أي أن الاستفادة من النعم الدنيوية المباحة لا تستلزم الحرمان في الآخرة ، والذي يتضاد مع السعادة الأخروية إنما هو عبادة الدنيا واتّخاذها هدفاً ، فذلك هو المؤدي إلى حرمان الإنسان من الوصول إلى الدرجات الرفيعة في الآخرة .

وذلك لأن عشق الإنسان وتهالكه على هذه الدنيا غير المستقرة وعلى هذا العالم المادي السريع المرور والاستغراق في متعها يؤدي بالإنسان إلى الغربة عن ذاته ومصيره ، فيتحوّل هذا الموجود العاقل إلى موجود فاقد للوعي ، ونتيجة لهذا التعلّق المنحط يتوقف عن حركته وتحليقه ويصاب بالركود والجمود في مجال لا يتناسب مع شأنه الرفيع .

ويحذر القرآن الكريم الناس حتى لا يجعلوا الدنيا المتغيّرة معبودهم وكمالهم المطلوب ويخاطب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بقوله :

﴿ فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم ﴾[1] .

﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع ﴾[2] .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[3] .

وبهذه الرؤية لا يواجه الإسلام قيم العالم بلا مبالاة بل يحيي القيم

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢٦ .

(٣) سورة يونس : الآيتان ٧ ، ٨ .

الإنسانية ، ويضفي على الإنسان ما يليق به من كرامة واعتبار .

وصحيح أنه ينظر إلى العالم الأخروي بصفته هدفاً ومقصوداً نهائيـاً ، ولكنه لا يترك الدنيا ومتعها من دون نصيب من الاهتمام ، كما يجري ذلـك في جميع الموارد التي يوجد فيها تابع ومتبوع .

ويتناول الإمام علي (عليه السلام) هذه الحقيقة بالشرح فيقول :

« الناس في الدنيا عاملان :

عامل عمل في الدنيا للدنيا ، قد شغلته دنياه عن آخرته ، يخشى على من يخلفه الفقر ، ويأمنه على نفسه ، فيفني عمره في منفعة غيره ، وعـامل عمل في الدنيا لما بعدها ، فجاءه الذي لـه من الدنيـا بغير عمـل ، فأحـرز الحظين معاً ، وملك الدارين جميعاً ، فأصبح وجيهاً عند الله ، لا يسأل الله حاجة فيمنعه »[1] .

وفي خاتمة المطاف ندعو الله العلي القديـر أن يوفقنـا للإخـلاص في البحث عن الحق وللصدق في اعتناقه وللجد في العمل به ، وأن يجعل كل هـذا خالصـاً لوجهـه الكـريم. إنـه هـو السميـع المجيب ، والحمـد لله ربّ العالمين .

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ للدكتور صبحي الصالح ـ الحكمة ٢٦٩ ، ص ٥٢٢ .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة